د. منقذ بن محمود السقار

تنزيه القرآن الكريم

عن دعاوى المبطلين

د. منقذ بن محمود السقار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله أرسل الرسل لتقوم بهم حجته على خلقه، وأنزل عليهم كتبه ؛ ملؤها الهدى والنور، ليقيموا بها شرعة الله ويهدوا بها إلى منهجه القويم ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (الحديد: ٢٥).

ثم ختم الله رسالاته بمحمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن مصدقًا لما أنزله - من قبلُ - على إخوانه الأنبياء ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالله عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾ (آل عمران: ٣-٤).

فالقرآن كتاب الله الأخير، وهو مصدق ومكمل لما أوحاه الله في كتب الأنبياء السابقين، وهو أيضًا مهيمن عليها ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ (المائدة: ٤٨)، لكون هذه الكتب نزلت إلى أقوام مخصوصين في أزمنة معينة لإصلاح ذنوب وعيوب تلك الأمم، في حين أن القرآن مشتمل على كل ما تحتاجه الإنسانية إلى قيام الساعة، لأنه رسالة الله الخاتمة إلى الناس أجمعين على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وحتى تبقى كلمة الله شاهدة على خلقه إلى يوم القيامة، فقد تكفل بحفظ كتابه الأخير ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩)، وهكذا أضحى القرآن

الكتاب الوحيد المحفوظ بحفظ الله له ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢)، في حين أن الله وكل حفظ الكتب السابقة إلى أصحابها ﴿ **بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء** ﴾ (المائدة: ٤٤)، فحرفوها وأضاعوا منها ما أضاعوا ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ** ﴾ (المائدة: ١٣)، بل وزادوا عليها ما لم يوح به الله ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ (البقرة: ٧٩).

لقد أقبل المسلمون في كل عصر وحين على مائدة القرآن ينهلون منها بحفظه وتدبره وتعلمه، فخصوه بعناية ومدارسة لم تكن لكتاب قبله ، حفظه الملايين من أطفالهم في كل عصر ؛ على اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، يبتغون فيه موعود الله ورسوله ﷺ لأهل القرآن: «**يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»(١).

وعمد علماء الإسلام إلى ترسيخ علومه وفنونه وتفسيره وبيان أحكامه وهديه، فألفت في خدمة القرآن آلاف الكتب التي تزخر بها المكتبة الإسلامية.

وأدرك أعداء الإسلام أهمية القرآن في نفوس المسلمين ، ومدى تعلقهم به، وأنه مستمسك عقيدتهم، ومصدر شريعتهم، وأنه باعث نهضتهم ، وضمان مستقبلهم، وأن تمسكهم به يجعلهم أمة عصية على الهوان والذل والاستعباد، فأضمروا له العداء، ونصبوا بينه وبين المسلمين السدود ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ (فصلت: ٢٦).

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٩١٤)، وأحمد ح (٦٧٦٠).

وما أدركه أعداء القرآن في القديم أدركه الأعداء الجدد، يقول حاخام إسرائيل الأكبر مردخاي الياهو: «هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتاباً يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟!»[١].

ويقول الحاكم الفرنسي للجزائر إبان الاستعمار الفرنسي: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية»[٢].

ويقول وليم جيفور بالكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه»[٣] ومقصود بالكراف بالحضارة الغربية ما نشاهده في الغرب اليوم من تحلل أخلاقي وتفكك اجتماعي ومظاهر سلبية استعصت على الإحصاء والإحاطة، ألا تباً لها من حضارة؛ إن صحت تسميتها (حضارة)، وما أعظمه من كتاب ذاك الذي يتصدى لهكذا حضارة!.

ويقول اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر: «جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن والكعبة والأزهر»[٤].

وأما المبشر جون تاكلي فيقول: «يجب أن نستخدم القرآن – وهو أمضى سلاح – ضد الإسلام نفسه، بأن نعلِّم هؤلاء الناس [يعني المسلمين] أن الصحيح في القرآن

(١) انظر: مجلة البيان، العدد (١٥٩).
(٢) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، ص (٣١).
(٣) رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، محمد جمعة عبد الله، ص (٢٧٨).
(٤) الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون، أنور الجندي، ص (٢٩).

ليس جديداً ، وأن الجديد ليس صحيحاً»[١].

وهكذا توجهت هِمَم القوم الشريرة إلى إبعاد الأمة المسلمة عن القرآن عبر صنوف من الافتراءات والأكاذيب التي بلغت من كثرتها الألوف من الكتب كما نقل ادوارد سعيد في مقال له في مجلة " التايم " في إبريل ١٩٧٩م بقوله: « إن أكثر من ستين ألفاً من الكتب ألفت ضد الإسلام بواسطة المسيحيين الغربيين»[٢]، فكم تراه ألف بواسطة الشرقيين!!

إذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

هذه الكثرة الكاثرة من كتب الأباطيل لم تفلح ـ بفضل الله ـ في إبعاد المسلمين عن القرآن، ولم تشغلهم عن حفظه ومدارسته، فطاشت جهود أهل الباطل أدراج الرياح، بل كشفت أباطيلُهم – لمتأملها والناظر في ضحالتها – المزيدَ من صور عظمة القرآن وعوار الباطل وأهله الذين ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَـأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (التوبة: ٣٢).

ويلحظ المتتبع لهذه الشبهات تكراراً ممجوجاً - في الغالب - لأباطيل قديمة أجاب عن معظمها الإمام الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، بل أجاب عن بعضها النبي ﷺ بنفسه قبل أن تلوكها الألسنة بأزيد من ألف سنة، وأما الجديد في هذه الشبهات فإنما أورده القوم بقدر ما استجد عندهم من جهل سبقوا في ظلماته أسلافهم ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ** ﴾ (ق: ٥).

وقد أعرضت عن التصريح بأسماء أصحاب هذه الأباطيل لتعدد جهاتهم، فلم تعد هذه الأباطيل حبيسة كتب المستشرقين وأزلامهم، بل أضحت بضاعة تلوكها

---

(١) رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم ، محمد جمعة ، ص (٢٦٣).
(٢) خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس ، أحمد ديدات ، ص (٢٠).

الألسنة في القنوات الفضائية ويتناقلها رواد مواقع الإنترنت، وكثيراً ما استقبلت بعضها على بريدي الإلكتروني، فلشيوعها وتعدد مصادرها أجملت نسبتها إلى قائليها، بقولي: (قالوا).

وما كان لهذه الأباطيل أن تؤثر في المسلمين أو تهز ثقتهم بقرآنهم إبان نهضتهم الحضارية وتمام معرفتهم بدينهم وإلمامهم بلغة العرب وضروب البيان فيها، لكن الشكوك في القرآن تقذف ـ اليوم ـ في أفئدة خاوية من أبناء المسلمين؛ تستغل جهلاً مطبقاً عندهم بلغة العرب[1]؛ جهلٌ انضاف إليه سوء فهم لموارد الكلام وقلة علم ودراية بفنون التفسير والبيان.

وقد انبرى علماء الإسلام قديماً في التصدي لهذه الأباطيل، وبرعوا في تفنيدها في كتبهم التي خصوها لبيان غريب القرآن وكشف مشكله، كما تعرض المفسرون لكثير من موارد سوء الفهم لآيات القرآن الكريم.

وأجاد طلاب العلم من بعدهم تبسيط علوم السابقين وتقريبها لعوام المسلمين اليوم، لتتكامل الجهود بما لم يبق مطمعاً لصاحب دلو راغب في إضافة جديد إلى بحر علومهم الرقراق.

وقد أقبلتُ على كتبهم وبحوثهم ومقالاتهم ومواقعهم الإلكترونية متعلماً، ثم رأيتُ أن أبدأ من حيث انتهوا، فأكمل جهودهم بمزيد عناية واستدلال لهذه الأطياب الفواحة، لتكون قريبة إلى عوام المسلمين اليوم؛ مجردة عن الأقوال المطولة والوجوه الكثيرة المتشعبة في الأجوبة، فتشعبها قد يطرب له العلماء، لكن يتيه في غوره ولجته المبتدئون، وما أكثرهم في هذا الزمان.

(١) صدق الإمام الشافعي بقوله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لجهلهم لسان العرب» سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٤).

ولست أزعم أني قد تتبعت كل الشبهات والأباطيل المتعلقة بالقرآن، لكني جهدت في استقصاء أهمها بما قدرت عليه، وقد أعرضت عن شبهات وأباطيل يطرحها بعض المشككين لضعفها وتهافتها، ومن ذلك استنكار البعض مسألة نجاة فرعون ببدنه التي ذكرها القرآن (انظر يونس: ٩٢)، بينما هو يذكر في موضع آخر غرقه، فنجاة البدن – كما لا يخفى – إنما كانت بعد موته وغرقه.

ومثله – كذلك – استنكار البعض ذكر القرآن صوم مريم، مع قوله: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي**﴾ (مريم: ٢٥-٢٦)، إذ صيامها مختص بالكلام، لا بالطعام والشراب ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ (مريم: ٢٦).

ويسرني أن أتقدم بهذا الجهد ذَبًّا عن القرآن الكريم وقيامًا ببعض الواجب تجاه كتاب ربنا العزيز، وأسأل الله أن يبارك في هذا الجهد، وأن يثيبني عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

***

منهج المبطلين في إثارة الأباطيل عن القرآن

لعل من المناسب قبل الشروع بذكر تفاصيل الأباطيل المثارة عن القرآن أن نتوقف مع بعض معالم المنهج الذي درج عليه مثيروها، حين افتقدوا كل صور الموضوعية العلمية، ولم يتركوا لمتابع منصف باباً للاعتذار لهم بعذر الجهل أو سوء الفهم، كيف يعذرهم وهو يلمح في هذه الشبهات والأباطيل معالم رئيسة مخزية لا تخطئها عين متأمل حصيف:

أ. الكذب في اختراع الأُبطولة :

الكذب حيلة من لا حيلة عنده ولا دليل، وهو مسلك درج في ظلماته مثيرو الشبهات والأباطيل حول القرآن الكريم حين أعيتهم الحيل أن يجدوا في القرآن مطعناً وملمزاً، فلما علموا أن الكذب بضاعة ينطلي باطلها على الكثيرين من الدهماء والعامة الذين لن يتيسر لهم اكتشاف هذه الأكاذيب؛ أشرعوا فيه سفنهم، فما زالوا يكذبون، حتى إخالهم لكثرته صدقوا أنفسهم فيما يدَّعون.

وصور كذبهم كثيرة، أكتفي بالتمثيل لها مبتدئاً بما قاله وهيب خليل في سياق حديثه عن معجزات المسيح المذكورة في القرآن: «وإن كان بعض المفسرين يحاولون أن يقللوا من شأن السيد المسيح في المقدرة قائلين: إنه يصنع هذا بأمر الله، فنجد أن الإسلام يشهد أن هذه المقدرة هي لله فقط»[1].

ومن المعلوم عند كل مسلم أو غيره مطلع على القرآن الكريم أن الذي أحال معجزات المسيح إلى قدرة الله وإذنه هو القرآن الكريم، وليس مفسروه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾

(١) استحالة تحريف الكتاب المقدس، وهيب خليل، ص (١٣٣)، والقس وهيب خليل هو الاسم الحقيقي للقمص مرقس عزيز الذي يجدُّ حالياً في الطعن بالإسلام والكذب عليه في قناته الفضائية.

(المائدة: ١١٠).

ومن الكذب زعم مؤلفي كتاب شهير ؛ اختص بإثارة الأكاذيب على القرآن "التعليقات على القرآن" أن حفاظ القرآن الأربعة ماتوا قبل جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد .. فإن هؤلاء الأربعة ماتوا قبل جمع القرآن .. ولما رأى أبو بكر هذا الحال جزع من ضياع القرآن»(١).

وقولهم هذا كذب صراح ولا ريب ، لأن هؤلاء الأربعة أدركوا جميعـًا عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أي أدركوا جمع أبي بكر رضي الله عنه، فأبو الدرداء رضي الله عنه ولي قضاء دمشق في عهد عمر رضي الله عنه، ومات قبل موت عثمان رضي الله عنه بسنتين.

ومعاذ بن جبل رضي الله عنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه في طاعون عمواس سنة ١٧هـ.

وأما ثالثهم زيد بن ثابت فهو من جمع القرآن في عهد الصديق ثم عثمان ، ومات سنة ٤٥ هـ، أي في زمن معاوية رضي الله عن الجميع.

ورابعهم أبو زيد سعد بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ، وقد قتل يوم القادسية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢).

ومن صور الكذب أيضـًا طعن القس العربي الفلسطيني أنيس شروش في عربية القرآن أمام جمهور من الأعاجم الذين لا يعرفون العربية، بقوله: «لكن محمداً استعمل كثيراً من الكلمات والجمل الأجنبية في القرآن ... في كتاب

(١) تعليقات على القرآن ، ص (٢٩).

(٢) انظر تراجم الأربعة في الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر (٤/ ٧٤٧، ٦/ ١٣٦، ٢/ ٥٩٢، ٣/ ٦٨).

ادعى أن الله أوحاه بالعربية»[1]، ومن المؤكد أن القارئ العربي يعرف أنه لا يوجد في القرآن جملة واحدة غير عربية ، فقد نزل بلسان عربي مبين، لكن الدكتور شروش يهذي بهذا أمام أعاجم، ولا يستحي من الكذب عليهم.

ولما أراد القبطي الأرثوذكسي ثروت سعيد تزكية المسيحيين واعتبارهم مؤمنين بشهادة القرآن الكريم قال في كتابه "حقيقة التجسد"، الذي قدمه وراجعه له كل من الأنبا الكاثوليكي يؤانس زكريا والقس البرتستنتي الدكتور منيس عبد النور: «إذا كان اعتقاد القرآن بشرك النصارى؛ فلماذا يصرح في آياته بحلال الزواج من أهل الكتاب .. كما أن نبي الإسلام تزوج من اليهوديات والمسيحيات، وهن: مريم القبطية، وأنجب منها إبراهيم (المسيحية)، وريحانة بنت شمعون النضيرية (اليهودية)، وصفية بنت حيي بن أخطب القريظية (اليهودية)، وجويرية بنت الحارث المصطلقية (اليهودية)»[2].

وقوله بزواج النبي ﷺ من يهوديات ومسيحية كذب صراح، فإنما تزوجهن رسول الله ﷺ بعد دخولهن في الإسلام.

ويكفي في بيانه أن ننقل بعضاً من الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وصفية حين أراد الزواج بها، فقد قال لها: «**اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك**». فقالت صفية: يا رسول الله، لقد هويتُ الإسلام ، وصدقتُ بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى

(١) مناظرة: القرآن الكريم والكتاب المقدس. أيهما كلام الله؟ أحمد ديدات وأنيس شروش ، ص (١١٥-١١٦).

(٢) حقيقة التجسد، ثروت سعيد رزق الله، ص (١٩٢-١٩٣).

قومي[1]. فتزوجها رسول الله ﷺ وهي مسلمة.

وأما ريحانة فتكذب دعوى المبطلين، وتذكر أن رسول الله تزوجها بعد أن أسلمت، وتقول: إني أختار الله ورسوله، فلما أسلمت أعتقني رسول الله وتزوجني، وأصدقني اثنتي عشرة أوقية[2].

ويواصل ثروت سعيد الكذب فيزعم أن قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا**﴾ (مريم: ٧١) ينبئ بدخول النار والإحراق فيها لكل بني آدم ، وينقل عن "جلال الدين يفسر كلمة ﴿**وَارِدُهَا**﴾ بالدخول والاحتراق"[3]، وقد كذب في نِسبة الإحراق إلى السيوطي، فهو غير موجود في شيء من كتبه.

ثم يمضي المبطِل فيستشهد لكذبه وباطله بقول النبي ﷺ: «**الورود الدخول، ولا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها**»، والحديث الذي يستشهد به ضعيف لا يصح نسبته إلى النبي ﷺ، وهو أمر قد يجهله فيعفى عنه في ذلك، لكن شيئًا لن يبرر نقله من الحديث ما يروق له، وإعراضه عن تمامه، لمناقضته قوله ودحضه كذبه، فالحديث بتمامه: «**الورود الدخول، ولا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلامًا كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار - أو قال: لجهنم - ضجيجًا من بردهم ﴿ثُمَّ يُنَجِّيْ اللهُ الَّذِيْنَ اتَّقَوا وَيَذَرُ**

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٢٣)، وأخرج نحوه، وهو من مرويات الواقدي الكذاب التي يستأنس بها في السير والمغازي، ليس إلا، وتشهد له أخبار أخرى منها أنه لما أولم بزواجه منها قال: «قوموا عن أمكم .. كلوا من وليمة أمكم»، فسماها أمًّا للمؤمنين لإسلامها بلا ريب، وهذا الخبر حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه لمسند الإمام أحمد ح (١٤٥٧٦)، وفي إسناده زياد بن إسماعيل صدوق يهم، وهو من رجال مسلم.

ومما يدل على إسلامها أيضًا أن النبي ﷺ حجبها كما في صحيح مسلم: « إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد .. فقام فسترها » (صحيح مسلم ح ١٣٦٥).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٣٠).

(٣) حقيقة التجسد، ثروت سعيد رزق الله، ص (٣٥).

﴿الظَّالِمِيْنَ فِيْهَا جِثِيًّا﴾ (مريم: ٧٢)»[١]، فخاتمة الحديث تثبت نجاة المؤمنين من الإحراق، لكن الكذب والتدليس حيلة من لا حيلة عنده.

ب. تحريف معاني النصوص وتفسيرها بمعان مشكلة:

يلجأ الطاعنون في القرآن إلى تحريف ألفاظ النصوص الإسلامية وتفسيرها بمعان مشكلة لا يوافق عليها عالم من علماء المسلمين، ومن ذلك قول البابا شنودة: «ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب، بل أكثر من هذا، وضع القرآن النصارى في مركز الإفتاء في الدين، فقال: ﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ**﴾ (يونس: ٩٤)، وقال أيضاً: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣)»[٢].

ومثله في تحريف معاني النص القرآني قول مؤلفي كتاب "تعليقات على القرآن" في تعليقهم على قوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ٣٨): «ولا شك أن القرآن لا يشتمل على أكثر العلوم من المسائل الأصولية والطبيعية والرياضية والطبية، ولا على الحوادث اليومية، بل ولا على ذات قصص الأنبياء؛ فإذن لا يكون كلامه هذا مطابقاً للواقع»[٣]، فقد جهلوا أو تجاهلوا أن آية سورة الأنعام لا تتعلق بالقرآن، بل باللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال الطبري: «فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها

(١) أخرجه أحمد في المسند ح (١٤٥٦٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣٠)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (٤٧٦١).

(٢) بين القرآن والمسيحية ، البابا شنودة، ص (٤)، وسيأتي دفع هذه الأبطولة.

(٣) تعليقات على القرآن، ص (٢٠).

في دار البلاء؛ أحرى أن لا يضيع أعمالكم، ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها»[١].

والآية بمنطوقها واضحة في الدلالة على هذا المعنى الذي ذكره الطبري: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ (الأنعام: ٣٨)، ومثلها قول الله: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ (هود: ٦)، فالكتاب الذي حوى مقادير الخلائق وأرزاقها هو اللوح المحفوظ؛ لا القرآن الكريم.

ثم لو فرضنا أن القرآن هو مقصود قوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ فإن هذا العموم يفهم منه العقلاء معنى مخصوصاً يفهم من السياق، إذ من السخف بل والخبل أن يظن ظان أن النبي ﷺ حين قرأ هذه الآية قصد أن القرآن يحوي أسماء رجال قريش أو أطعمة فارس أو أسماء البهائم التي خلقها الله، فهذا لا يخطر ببال عاقل ولو كفر بالقرآن وجحده، لأنه سيحمل العموم في قوله ﴿ **مِن شَيْءٍ**﴾ على المعنى المخصوص اللائق به ككتاب ديني، أي ما فرطنا في الكتاب من شيء يصلح حياة الإنسان في دنياه وأخراه، فالقرآن حوى كل ما تحتاجه البشرية مما تختص بذكره النبوات[٢].

---

(١) جامع البيان (١١/ ٣٤٥).

(٢) وأمثال هذا العموم – الذي يراد به خصوص يفهمه العقلاء – كثير في القرآن وفي كلام العرب وحديث العقلاء، كقوله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (النمل: ٢٣)، فلم يفهم منه سليمان عليه السلام – ولا العقلاء من بعده – أن ملكة سبأ أوتيت الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية، بل معناه عند جميع العقلاء أنها أوتيت من كل شيء يؤتاه الملوك عادة، ومثله أيضاً في كلام الناس – اليوم – كثير، كقول الأستاذ: لم ينجح أحد من الطلاب، ومقصوده – ولا

ومن صور التحريف للمعاني ما صنعه القس أنيس شروش مع مستمعيه الإنجليز بقوله: «أنتم معشر المسلمين تعتقدون أن المسيح ما زال على قيد الحياة .. لكننا إذا قارنا هذا بما جاء في القرآن ؛ فإننا سنجد تناقضاً ، فإن القرآن يقول: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً**﴾ (مريم: ٣٣)» قرأها بالعربية صحيحة ، ثم ترجمها لمستمعيه: «وسلام علي يوم ولدت، ويوم مت، ويوم أبعث حياً»(١)، فحوَّل الأفعال المضارعة - التي يراد منها المستقبل - إلى أفعال ماضية ؛ مستغلاً جهل مستمعيه بلغة العرب.

ومن تحريف المعاني زعم القمّص زكريا بطرس في برنامجه في قناة الحياة أن في القرآن كلمة يستحي القمص من قولها أمام المشاهدين، وهي كلمة (النكاح) التي يفهمها – عقله الكليل- بمعنى الجماع(٢).

ج. بتر النصوص وإخراجها عن مساقها :

ويعمد مثيرو الأباطيل - وهم يستشهدون بالمصادر الإسلامية - إلى بتر النصوص واجتزائها، فيختارون من النص ما يعجبهم، ويدَعون ما لا يوافق هواهم وباطلهم، ومن ذلك ما صنعه القمُّص زكريا بطرس وهو يستدل لعقيدة التثليث بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ (النساء: ١٧١)، فقد تعامى عن أول الآية وتمامها؛ لما فيهما من تنديد بالتثليث ووعيد لأهله ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا**

ريب – الحديث عن طلاب مادته أو فصله أو مدرسته فحسب، فهو عموم يراد به معنى مخصوص.

(١) القرآن والكريم والكتاب المقدس. أيهما كلام الله؟ أحمد ديدات ، ص (٤٥).

(٢) انظر الحلقة التاسعة والثلاثون من برنامجه "أسئلة عن الإيمان"، ويأتي جواب هذه الأبطولة.

إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧١-١٧٢).

وهذا البتر للنصوص عادة للقمُّص زكريا بطرس لا يمل من معاودتها في برامجه الفضائية، فحين أراد الاستدلال على صحة كتابه المقدس زعم أن القرآن لا يقول بالتحريف اللفظي للتوراة والإنجيل، بل يقول بوقوع التحريف المعنوي فقط، واستدل لذلك بما جاء في تفسير البيضاوي بعد اجتزاء كلام البيضاوي وبتره، فيقول القمص : (يقول البيضاوي: «﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ** ﴾ يعني اليهود ، ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ**﴾ طائفة من أسلافهم ﴿**يَسْمَعُونَ كلام الله**﴾ يعني التوراة ، ﴿**ثُمَّ يُحَرِّفُونَه**﴾ أي تأويله فيفسرونه بما يشتهون»)، ثم عقب على كلام البيضاوي بالقول: (مش [لم] يغيروا الألفاظ والكلام).

وقد تعمد القمص بتر كلام البيضاوي الذي تحدث عن نوعين من التحريف: أولهما تحريف الألفاظ، والآخر تحريف المعاني الذي ذكره القمُّص، وعبارة البيضاوي بتمامها: " ﴿**ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**﴾ كنعت محمد ﷺ، وآية الرجم . أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون"[١]، فحذف من عبارة البيضاوي قوله: «كنعت محمد ﷺ وآية الرجم» لما فيها من إشارة إلى تحريف الألفاظ.

وأعاد القمص هذا الصنيع ثانية، وهو ينقل قول البيضاوي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ **مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾، فنقل عن البيضاوي أنه قال بالتحريف المعنوي دون اللفظي، فقال : (قال البيضاوي: «﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ** ﴾ أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها؛ أي يؤولونه

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي (١/ ٧٠).

على ما يشتهون، فيميلونه عما أنزل الله فيه»).

وقد بتر منه ما يخالف مقصده ويفند استدلاله، فعبارة البيضاوي بتمامها: «﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾ أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها؛ بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه»(١).

ومن صور البتر والتحريف ما رأيته عند عدد من كُتَّاب النصارى وقسسهم(٢)، فقد زعموا أن الرازي كان يستشكل القول بنجاة المسيح من الصلب ووقوع الشبه على غيره، ونقلوا عنه قوله: «بالجملة فكيفما كان ، ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات: الإشكال الأول : إنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة..»، ثم يسوقون كلاماً طويلاً للرازي ملخصه أن القول بصلب غير المسيح بدلاً عنه فيه ست إشكالات، نقل هذه الإشكالات عنه ثروت سعيد، وعقَّب عليها بالقول: «انتهى للإمام فخر الدين الرازي، ولا تعليق»، وهو يوهم قراءه أن هذه الإشكالات يستشكلها الرازي، فيقول: «ولهذا لم يكن بُدٌّ لعالم نزيه كالإمام العلامة فخر الدين الرازي أن يفند قصة الشبه تفنيداً محكماً»(٣).

والحق أن الرازي رحمه الله ذكر الإشكالات الستة التي يستشكلها النصارى وغيرهم على قول القرآن بنجاة المسيح ، ثم لما انتهى من سردها شرع في الرد عليها جميعاً، فقال : « فهذا جملة ما في الموضع من السؤالات :

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢١٧).

(٢) انظر : حقيقة التجسد، ثروت سعيد ، ص (٣٢٥)، وقد صنعه القس أسعد وهبة في مناظرته لي حول مسألة "صلب المسيح في العهد الجديد"، وكذلك القس رأفت مشرقي في مناظرات فيينا، وهي منشورة على الشبكة العنكبوتية.

(٣) انظر : حقيقة التجسد، ثروت سعيد ، ص (٣٢٤-٣٢٦).

والجواب عن الأول ... والجواب عن الثاني ...».

وبعد أن رد عليها واحداً واحداً ؛ ختم بنتيجة شافية كافية فقال : «وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه ، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه ؛ امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع»(١)، فتعامى ثروت سعيد وغيره من المبطلين عن إتمام قول الرازي، ووقعوا في التدليس المشين حين نسبوا إليه القول الذي يرد عليه.

د. محاكمة القرآن إلى مصادر ومعلومات غير موثوقة :

ويلجأ الطاعنون في القرآن من النصارى في إلقاء شبهاتهم إلى محاكمة القرآن إلى مصادر مرفوضة ومطعون في موثوقيتها كالكتاب المقدس الذي يرى المسلمون والمحققون من أهل الكتاب أنه أسفار تاريخية كتبها مجهولون، ونُسبت إلى الأنبياء بلا سند يوثقها، وعليه فهذه الكتب مجروح في شهادتها، ولا اعتداد ولا موثوقية في أخبارها ، التي يحاكم الطاعنون القرآن بموجبها، فيعرضونها وكأنها مستندات ووثائق تاريخية متفق على صحتها، ثم يخطِّئون القرآن حين يخالفها ويناقضها، أما إذا رأوه موافقًا لها فإنهم لا يخجلون من الزعم بأنه نقل منها، فلا يسلم منهم القرآن حال الموافقة ولا المخالفة.

ومن ذلك تكذيبهم القرآن حين خالفهم في تسمية والد إبراهيم عليه السلام بـ "آزر" (انظر الأنعام: ٧٤)، وحجتهم أن التوراة سمته "تارح" (انظر التكوين ١١/ ٢٧).

وكذلك كذبوا القرآن الكريم حين تحدث عن كفالة زوجة فرعون لموسى

(١) التفسير الكبير ، الرازي (٨/ ٢٢٥).

(انظر القصص: ٩)، لأن التوراة تقول: إن الذي كفله ابنة فرعون (انظر الخروج ٢/ ٥-٧).

وكذلك كذبوا أن يكون لون بقرة بني إسرائيل الصفار الفاقع (انظر البقرة: ٦٩)، لأن التوراة تقول تجعلها حمراء اللون (انظر العدد ١٩/ ١-٤)، وكل هذه الأخبار التوراتية خاطئة، لا اعتداد بها، وهي أضعف من أن تكون حجة على إخباري أو مؤرخ؛ فضلاً عن القرآن العظيم.

كما يولع الطاعنون في القرآن بالغرائب الموجودة في كتب بعض المفسرين، وهي في جملتها منقولة من مرويات وأخبار أهل الكتاب، فيخلطون بينها وبين القرآن، ويجعلون معانيها المنكرة حجة عليه، وفي هذا مجافاة للموضوعية؛ فإن كتب الرجال يحتج لها بالقرآن ، ولا يحتج بها عليه.

ولعل من أهم صور ذلك قصة الغرانيق التي أطبق على ذكرها الطاعنون في القرآن ، وقد بين علماء الإسلام بطلانها؛ وإن أوردها مفسرون ومؤرخون وصفهم القاضي عياض بأنهم «المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم»[1]، فلولعهم بذكر الغرائب أُثقلت مؤلفاتهم العظيمة بالإسرائيليات وسخيف مقولات الأمم التي تروي ما ترويه بلا زمام ولا قيد؛ فنقل الطاعنون هذه المرويات، ولبّسوا على عوام المسلمين حين أوهموهم بصحة هذه الأقوال المنقولة في بعض كتب التفسير، ولا ينسى الخبثاء - في مثل هذه الحال - ذكر أرقام الصفحات التي نقلوا عنها؛ يرومون بذكر هذه التفاصيل مزيداً من الخداع لعوام المسلمين لإيهامهم بصحة ووثاقة المعاني المستقبحة الموجودة في تلك الروايات التي نقلها المسلمون الأقدمون في كتبهم عملاً بالقاعدة المشهورة عندهم «من أسند لك فقد أحالك».

---

(١) الشفا، القاضي عياض (٢/ ١٢٥)، وسيأتي بيان هذه الأبطولة.

ومن ذلك ما نقله الطاعنون عن بعض كتب التفسير لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١)، فقد أوردوا قصة مزعومة باطلة، وملخصها أن داود عليه السلام رأى امرأة جاره تستحم، فأولع بها، فأرسل زوجها للقتل في الحرب، ثم تزوجها، وأن الله عاتبه على فعله، فبكى أربعين يوماً حتى نبت العشب من دموع عينيه[١]، فهذه القصة الخرافية المستنكرة في معانيها منحولة في أصلها من أسفار التوراة (انظر: صموئيل (٢) ١١/ ١-٢٦)، ولم ترد في كتب المسلمين مرفوعة إلى النبي ﷺ بإسناد صحيح أو ضعيف.

ومثله استشهاد الطاعنين في القرآن بما رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ق ۞ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١-٢): «ق، جبل مُحيطٌ بجميع الأرض، يقال له جبل قاف»، وعقب ابن كثير على هذا القول الغريب: «وكأنّ هذا - والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يُكَذَّب. وعندي أن هذا وأمثالَه وأشباهَه من اختلاقِ بعض زنادقتهم، يَلْبِسُون به على الناس أمرَ دينهم»[٢].

ومثله الاستشهاد بما ذكره المفسرون في تفسير قول الله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤)، فذكروا قصة عجيبة، ملخصها أن شيطاناً ألقي عليه شبه سليمان، فكان يأتي نساءه[٣].

قال أبو حيان الأندلسي: «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري (٢١/ ١٨٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٢٨٢).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٢٠٠).

وإنما هي من أوضاع اليهود والزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هي ، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وأقرب ما قيل فيه : إن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: «لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل: إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، وجاءته بشق رجل» (١).

فهذه المنقولات وأمثالها في كتب التفسير، والكثير منها لا ينسب إلى النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف، ولا يحل أن تعتبر تفسيراً لآيات القرآن، فإن فيها ما يصد عن القرآن ، ويفسح المجال لأصحاب الأباطيل للطعن في القرآن الكريم والتلبيس على الناس بهذه المرويات الفاسدة.

***

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٧/ ٣٨١)، والحديث مروي في الصحيحين، أخرجه البخاري ح (٣٤٢٤)، ومسلم ح (١٦٥٤).

القرآن كتاب الله المحفوظ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

عهد الله بالكتب السابقة إلى أصحابها فأضاعوها وبدلوها، فصان الله كتابه الأخير عن عبث البشر وتحريفهم، وتعهد بحفظه ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

وإنفاذاً لوعد الله بحفظ كتابه الأخير قيض عز وجل أسباباً كثيرة؛ حفظه من خلالها، وجعلته مخصوصاً بين سائر الكتب الدينية والدنيوية بحفظ ملايين المسلمين له عبر القرون.

نزل القرآن الكريم في أُمة أُمِّية تعتمد الحفظ القلبي طريقاً لحفظ تراثها وأشعارها وأنسابها، لا تجد عنه بديلاً ، فراعى الله حالهم وأنزله عليهم منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، فسهل عليهم حفظه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان: ٣٢)، ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وكان أول حفظ الله للقرآن أن مكنه في قلب النبي ﷺ الذي حرص على تلقي القرآن بعناية وحفظ، وكان يردده حال سماعه له من جبريل عليه السلام، خشية أن يفوته منه شيء، فطمأن الله قلبه وهدأ روعه، وأعلمه أن القرآن محفوظ في قلبه بحفظ الله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه: ١١٤).

وهو محفوظ من بعد ذلك: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: ١٦-١٧).

قال ابن كثير: «هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ـ عز وجل ـ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى: جمعه في صدره، والثانية: تلاوته، والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه»(١).

ولمزيد من الحفظ للقرآن ولتوثيق حفظ النبي ﷺ كان جبريل عليه السلام ينزل عليه كل عام في شهر رمضان يدارسه القرآن، فلا يتفلت منه شيء، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان؛ حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة)(٢).

وخلال ثلاث وعشرين سنة بقي القرآن الكريم موضع اهتمام النبي ﷺ، يتولى بنفسه إقراء أصحابه وتعليمهم القرآن؛ بل وتحفيظهم سوره، يقول ابن مسعود: (أخذت من فيِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة)(٣).

وكان هذا ديدنه ﷺ حتى مع المسلمين الجدد، فكان يتعاهدهم بما قد فاتهم من القرآن، فإذا ما شُغِل أَمَرَ أصحابه بتعليمهم بدلاً عنه، يقول عبادة بن الصامت: (كان رسول الله يشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع رسول الله ﷺ إليّ رجلاً، فكان معي أُعشيه عشاء أهل البيت، وأُقرئه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٥٧٧).
(٢) أخرجه البخاري ح (٦)، ومسلم ح (٢٣٠٨).
(٣) أخرجه البخاري ح (٥٠٠٠)، ومسلم ح (٢٤٦٢).

القرآن)(١).

وبمثل هذا الحرص البالغ من النبي ﷺ كان الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يتتبعون ما ينزل من القرآن في كل يوم، ولا يشغلهم عنه شيء من أمور الدنيا ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (**كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار من عوالي المدينة: وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ ينزل يومـًا، وأنزل يومـًا ، فإذا نزلتُ جئتهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعلَ مثل ذلك**)(٢).

وأما عبد الله بن عمرو بن العاص فقد شكته زوجته إلى رسول الله لاستغراقه في العبادة وفي قراءة القرآن عن واجبات الزوجية، فسأله النبي ﷺ : «وكيف تختم» فقال: كل ليلة . فقال ﷺ: «**صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر**».

لكن عبد الله كان ذا همة عالية ، فقال: أطيق أكثر من ذلك . فقال ﷺ: «**صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ [أي القرآن] في كل سبع ليال مرة**»، فأقام دهراً يقرأ القرآن كل سبع ليال ، حتى كبرت سنه، وشق عليه ذلك، فكان يقول: ليتني قبلتُ رخصة رسول الله ﷺ ، وذاك أني كبرت وضعفت. فكان يقرأ على بعض أهله السُّبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار؛ ليكون أخف عليه بالليل .. كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه (٣).

وأما ذو النورين عثمان بن عفان صهر النبي ﷺ وجامع القرآن، فتذكر زوجته نائلة بنت الفرافصة الكلبية أنه «كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها

(١) أخرجه أحمد ح (٢٢٢٦٠).
(٢) أخرجه البخاري ح (٨٩)، ومسلم ح (١٤٧٩).
(٣) أخرجه البخاري ح (٥٠٥٢).

القرآن»[١].

وأما أُبي بن كعب فينقل أبو المهلب أنه كان يختم القرآن في ثمان ليال، بينما كان تميم الداري يختمه في كل سبع[٢]، وأحياناً كل ليلة[٣].

ويحدثنا النبي ﷺ عن ظاهرة عرفها تاريخ الإسلام منذ عهد الصحابة الكرام، وهي قيام الليل بآيات وسور القرآن الكريم، فيقول: «**إني لأعرف أصوات رفقةَ الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار**»[٤].

وحتى يثبت القرآن في صدور الصحابة نهج النبي ﷺ نهجاً قويماً رسَّخ حفظهم وجوّد تعلمهم للقرآن، يقول التابعي أبو عبد الرحمن السلمي: (**حدثني الذين كانوا يقرئوننا: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب – رضي الله عنهم – أن رسول الله كان يقرئهم عشر آيات ، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل معاً**)[٥].

وتعاهد النبي ﷺ أصحابه ، فكان يقرئهم ، ويسمَعهم، فهذا أُبى بن كعب يأتيه رسول الله ، ويقول له: «**إني أمرتُ أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا**»، وفي لفظ: «**إني أقرئك القرآن، قال: الله سماني لك؟ قال : «نعم»، فبكى أُبي**»[٦] .

وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه كان من نجباء الصحابة، وكان من أحسن

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (١٣٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه ح (٣٧١٠).

(٢) انظر: فضائل القرآن، ابن كثير (١/ ١٦٥).

(٣) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ح (٣٧١١).

(٤) أخرجه البخاري ح (٤٣٣٢)، ومسلم ح (٢٤٩٩).

(٥) أخرجه ابن مجاهد في كتابه "السبعة في القراءات" ، ص (٦٩).

(٦) أخرجه البخاري ح (٤٩٦١)، ومسلم ح (٧٩٩).

الناس صوتـاً، سمع النبي ﷺ قراءته، فقال مشجعـاً له : «**لقـد أوتيـتَ مزمـاراً مـن مزامير آل داود**»(١).

وأما عبد الله بن مسعود فجلس إلى النبي ﷺ فقال له: «**اِقـرأ علـي**». فقـال: يـا رسـول الله، أقـرأُ عليـك، وعليـك أُنـزل؟ قـال : «**نعـم، أحـب أن أسـمعه مـن غيري**».

يقول ابن مسعود: فقرأتُ سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً**﴾ (النساء:٤١)، فقـال : «**حسبك**»، فإذا عيناه تذرفان(٢).

وحين ولـي أبـو الـدرداء رضي الله عنه قضـاء دمشـق، كـان يجمـع النـاس علـى مائـدة القرآن، يقول سويد بن عبد العزيـز: (كـان أبـو الـدرداء إذا صلـى الغـداة في جـامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشـرة عريفـاً، ويقـف هـو في المحـراب يـرمقهم ببصـره، فـإذا غلـط أحـدهم يرجـع إلـى عريفه، وإذا غلط عريفهم يرجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك، وكان ابـن عـامر عريفـاً على عشرةٍ، فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر)(٣).

وعن مسلم بن مشكم أن أبا الدرداء قال له: اعدد مـن يقـرأ عنـدي القـرآن؟ فعـددتهم ألفـاً وسـت مائـة ونيفـاً، وكـان لكـل عشـرة مـنهم مقـرىء، وكـان أبـو الدرداء يكـون علـيهم قائمـاً، وإذا أحكـم الرجـل مـنهم تحـول إلـى أبـي الـدرداء رضي الله عنه(٤).

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠٤٨)، ومسلم ح (٧٩٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤٥٨٢)، ومسلم ح (٨٠٠).
(٣) معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ٤١).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٢).

إن هذا الاهتمام من أصحاب النبي ﷺ أثر أكيد لما رأوا من حث النبي ﷺ لهم على تعلم القرآن، فقد استحث هممهم بقوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[١]، وأخبرهم أنه «**يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ، ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه**»[٢]، فقراءة القرآن من أفضل العبادات، و«**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق؛ له أجران**»[٣].

وقد سارع الصحابة إلى حفظ سور القرآن ومدارستها، فكان منهم المئات من القراء، وقد أتم بعضهم حفظ كامل القرآن في عهد النبي ﷺ، فقد سأل قتادة خادمَ النبي ﷺ أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ فقال أنس: (أربعة، كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد)[٤].

ولم يقتصر حفظه على الرجال، بل حفظته المؤمنات في خدورهن، وممن حفظه أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري، فأمرها النبي ﷺ أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن، فكانت تؤم أهل دارها[٥].

وحتى نقف على كثرة هؤلاء القراء في أول عصور الإسلام وقبل انتشاره في الدنيا؛ يكفينا أن نذكر بأنه قد قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون.

وبعد وفاة النبي ﷺ قتل في وقعة اليمامة الكثير من القراء أيضاً مما استدعى الجمع الكتابي، فقد قال عمر بن الخطاب لخليفة المسلمين أبي بكر: (إن القتل قد

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠٢٧).
(٢) أخرجه ابن ماجه ح (٣٧٨٠)، وأحمد ح (١٠٩٦٧).
(٣) أخرجه البخاري ح (٤٩٣٧)، ومسلم ح (٧٩٨)، واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري ح (٥٠٠٣)، ومسلم ح (٢٤٦٥).
(٥) أخرجه أبو داود ح (٥٩١)، وأحمد ح (٢٦٧٣٩).

استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن)[١]، فكان هذا سبباً في مبادرة الصحابة إلى جمع القرآن في مصحف واحد مكتوب في عهد الصديق.

إن الاهتمام البالغ في حفظ القرآن وتعلمه ليس خاصاً بالصحابة رضوان الله عليهم، بل هو دأب توارثته الأمة جيلاً بعد جيل، ويكفي في هذا الصدد أن ننقل بعضاً من أخبار التابعين.

ونبدأ بخبر التابعي أبي عبد الرحمن السلمي، فقد تعلم القرآن من عثمان وعلي رضي الله عنهما، ثم كان يُقرىء الناس في المسجد أربعين سنة، وكان يعلمهم القرآن خمس آيات خمس آيات.

وأما مجاهد المكي فيقول: «ختمت القرآن على ابن عباس تسعاً وعشرين مرة».

ولما حضرت الوفاة أبا بكر بن عياش بكتْ أخته، فقال لها: «ما يبكيك، انظري إلى تلك الزاوية، قد ختمت فيها ثماني عشرة ألف ختمة»[٢].

ولقد ورد عن عدد من التابعين أنهم كانوا يختمون القرآن خلال أيام معدودات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، أي كان القرآن نهمتهم في النهار وأنيسهم في الليل، ومنهم سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود النخعيين، فقد روى البيهقي عن إبراهيم النخعي أنه قال: «كان الأسود يقرأ القرآن كل ست ليال، وكان علقمة يقرؤه في كل خمس ليال»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٦).

(٢) انظر هذه النماذج من العناية بالقرآن وغيرها في كتاب معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ٣٠، ٥٣، ٦٧، ١٣٨).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٩٩).

وقال المروذي: «كان سعيد بن المسيب يختم القرآن في ليلتين، وكان ثابت البناني يقرأ القرآن في يوم وليلة .. وكان أبو حرة يختم القرآن كل يوم وليلة، وكان عطاء بن السائب يختم القرآن في كل ليلتين ..»(١).

وقد نقل القرآن الكريم إلينا بحفظ الجموع عن الجموع في كل عصر، ويحفظه اليوم الملايين من المسلمين في أصقاع الأرض، ليحقق القرآن وصف الله له بقوله في الحديث القدسي: «ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء؛ تقرؤه نائماً ويقظان»(٢).

يقول ابن الجزري: «الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة .. فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته: (أناجيلهم في صدورهم)»(٣)، ولذلك قال التابعي شداد بن معقل: « وقد أثبتناه في صدورنا، وأثبتناه في مصاحفنا »(٤).

وهكذا كان الإقبال على القرآن دأب الأمة المسلمة منذ الرعيل الأول وإلى يومنا هذا ؛ حيث نشهد ملايين الحفاظ في أقطار الدنيا، يقرؤونه غضاً كما أنزل على محمد ﷺ؛ على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم؛ ليحققوا موعود الله عز وجل بحفظ كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

لقد حفظ القرآن كما نزل بلسان العرب، ولم يكن ذلك الحفظ مخصوصاً بالعرب

---

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري (٨/ ٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٨٦٥).

(٣) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ٦)، والحديث أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٩٩٠٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ح (٣٤٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ح (٥٩٨٠).

دون غيرهم من المسلمين، فمئات الألوف ممن يحفظونه اليوم ليسوا من أهل العربية، بل لربما حفظه من لا يكاد يعرف شيئاً عن لغة العرب ومعاني ألفاظها، فيقرؤه بلسان عربي مبين، كما يقرؤه العربي سواء بسواء.

إن هذه الأعجوبة القرآنية لا مثيل لها عند أمة من الأمم، ومن أراد أن يقف على عظمتها فليجرب حفظ قصيدة كتبت بلغة يجهلها، ولسوف يشهد معنا أن حفظ الجموع الكاثرة من الأعاجم للقرآن برهان ساطع على أنه من عند الله، فقد يسر الله تلاوة كتابه على الناس، بحيث يقرؤه الصغير والكبير، والعالم والجاهل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧)، فهذا التيسير لا يكون إلا لعظمة تعجز عن بلوغها قوى البشر ، وتكل دونها قدراتهم.

***

الجمع الكتابي للقرآن الكريم

إن تعاهد النبي ﷺ أصحابه في حفظ القرآن لا يوازيه شيء إلا عنايته بالتوثيق الكتابي للنص القرآني ، فقد كان النبي ﷺ يتعاهد ذلك بنفسه، والصحابة يكتبون بين يديه ما ينزل من الوحي، يقول عثمان رضي الله عنه: كان ﷺ إذا نزلت عليه الآيات يدعو بعض من كان يكتب له، ويقول له: «ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»(١).

ولا يبطئهم عن ذلك ولا يثقلهم كثرة آيات المقدار المنزل، فقد سارعوا إلى كتابة سورة الأنعام حين نزولها، مع أنها من أطول سور القرآن ، وأنها مكية نزلت زمن الاضطهاد، يقول ابن عباس: (نزلت جملة واحدة، نزلت ليلاً، وكتبوها من ليلتهم)(٢).

وفي قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من السابقين إلى الإسلام ما يشير إلى وجود كتابة للمصحف بين يدي الصحابة الذين كانوا يقرؤون في بيت فاطمة بنت الخطاب، وكان خباب بن الأرت يقرئهم القرآن في صحيفة (٣).

وقد أولى النبي ﷺ المكتوب بين يديه اهتماماً بالغاً، إذ كان يستوثق من دقة المكتوب بين يديه، يقول زيد بن ثابت: كنتُ أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي عليَّ، فإذا فرغت، قال: «**اقرأه**»، فأقرأُه، فإن كان فيه سقط أقامه(٤).

وخوفاً من تداخل المكتوب من القرآن مع غيره من كلام النبي ﷺ أمر ﷺ أن: «لا

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٧٨٦)، والترمذي ح (٣٠٨٦)، واللفظ لأبي داود.
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١)، والقاسمي في محاسن التأويل (٦/ ٤٤٦).
(٣) أخرجه البزار ح (٢٧٩).
(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ح (١٩٨٥)، قال الهيثمي: «أخرجه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات». مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٧).

تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»[١].

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر :

ولحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى قبل أن يجمع هذا المكتوب بين يديه في مصحف واحد، كما نقل إلينا كاتب الوحي زيد بن ثابت بقوله: (قبض النبي ﷺ، ولم يكن القرآن جمع في شيء)[٢].

وبعد وفاة النبي ﷺ بدأت حروب المرتدين، وكان أشدها معركة اليمامة التي قتل فيها قرابة الألف من أصحاب النبي ﷺ، وكثير منهم من القراء وحفظة القرآن، فاقترح عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه جمع القرآن في مصحف واحد، خشية ضياعه بوفاة المزيد من القراء، ووافق الخليفة على المقترح بعد طول تردد، وانتدب لجنة للقيام بذلك العمل العظيم برئاسة كاتب الوحي وحافظه الشاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وإشراف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يقول زيد: فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم**﴾ (التوبة: ١٢٨) إلى آخرهما.

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[٣].

---

(١) أخرجه مسلم ح (٣٠٠٤).

(٢) أخرجه الدير عاقولي بإسناده إلى زيد بن حارثة في فوائده، كما نقل ذلك السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٩).

وتبين لنا رواية ابن أبي داود المنهج الذي اتبعه زيد في الجمع، إذ لم يعتمد محفوظاته ومحفوظات الصحابة، بل بحث عن المكتوب بين يدي النبي ﷺ، واشترط لقبوله أن يوثق بشهادة شاهدين يشهدان بكتابته من إملاء النبي ﷺ، يقول يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قام عمر بن الخطاب في الناس فقال: (من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان)(١).

قال أبو شامة المقدسي: (وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي، لا من مجرد الحفظ)(٢).

وهكذا أكملت اللجنة عملها بجمع ما كتب بين يدي النبي ﷺ موثقاً بشهادة شاهدين على الأقل، يشهدان أنه كتب بين يدي النبي ﷺ.

هل نقل شيء من القرآن بطريق الآحاد؟

ويرِد على هذا الجمع شبهة، وهي قول بعضهم: القرآن لم ينقل كله بالتواتر، بدليل أن زيد بن ثابت لم يجد خاتمة سورة براءة إلا مع خزيمة الأنصاري، وهو صحابي واحد، إذ يقول زيد: (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ﴾ إلى آخرهما)(٣).

والجواب: سبق الحديث عن حفظ الصحابة على عهد رسول الله ﷺ

(١) أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٣٣).
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (١/ ١٦٧)، وفتح الباري، ابن حجر (٩/ ١٥).
(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٩).

لسور القرآن كلها، ومنها آيات سورة براءة، التي سأل زيد الصحابة عنها، فلم يعرفها أحد ممن سألهم إلا خزيمة الأنصاري[(١)]، أي لم يجدها مكتوبة إلا عنده، فأثبتها في مصحف أبي بكر، ويدل عليه قول زيد: (نسخت الصحف في المصاحف، ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها؛ فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري)[(٢)].

قال الزرقاني في بيان معنى قول زيد: «لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة [أو خزيمة] هو كتابتهما، لا حفظهما، وليس الكتابة شرطاً في المتواتر، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يُؤمَن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر»[(٣)].

واستدل لذلك بما روي عن الصحابة من حفظهم لهاتين الآيتين، أولهم زيد نفسه، فهو يعرف الآية، لكنه يبحث عمن يعرفها من أصحاب النبي ﷺ، كما فعل في سائر آيات القرآن، لذلك يقول زيد- كما في رواية البخاري -: (فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري)، فزيد يعرف الآية، ويبحث عمن يعرفها من الصحابة[(٤)].

وكذلك فإن أُبي بن كعب يحفظ هاتين الآيتين، ففي تفسير ابن أبي حاتم أن

(١) وسمته بعض الروايات (أبو خزيمة).

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٨٠٧).

(٣) مناهل العرفان، الزرقاني (١/ ٩٨).

(٤) أخرجه البخاري ح (٤٠٤٩).

أُبيـًا قال للصحابة لما ظنوا أن آخر ما نزل قوله: ﴿ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾، فقال: (إن النبي ﷺ أقرأني بعد هذا آيتين : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾)(١).

وكذلك يحفظهما عمر رضي الله عنه، ففي مسند أحمد أنه رضي الله عنه قال: (وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله)(٢).

وكذلك يحفظهما عثمان ، ففي كتاب المصاحف أن عثمان رضي الله عنه قال: (وأنا أشهد أنهما من عند الله) (٣).

وكذلك سمع ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية وتفسيرها من رسول الله ﷺ ، فيقول: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني من أعظمكم قدراً(٤).

وقد جاء في روايات لا تخلو من ضعف عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن قلة من شهد لهاتين الآيتين سببه أنهما آخر ما نزل من القرآن(٥).

وهكذا فهاتان الآيتان محفوظتان بحفظ الصحابة لهما، وإن لم توجدا مكتوبتين إلا عند خزيمة، لكن يحفظهما الصحابة حفظة القرآن، كما يحفظها زيد وعمر وعثمان وأبي، وغيرهم ممن لا يعرف عددهم إلا الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩١٩)، وابن أبي داود في المصاحف ح (٩٧)، وابن ضريس في فضائل القرآن ح (٢٦).

(٢) أخرجه أحمد ح (١٧١٧)، وفي إسناده محمد بن إسحاق، وهو مدلس.

(٣) أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٣٣).

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٦٢).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٦٨).

الجمع العثماني

وفي عهد عثمان الخليفة الثالث للنبي ﷺ قدم حذيفة بن اليمان إلى الخليفة يشكو اختلاف المسلمين في القراءة بسبب جهل الكثيرين بالحكمة من الأحرف السبعة والإذن بالقراءة بها، لأن الله نزل القرآن بها جميعاً، فجعل بعضهم يقول: إن حرفه أصح من حرف غيره، وحصل بينهم مراء في الأحرف ، وهي كلها قرآن منزل من الله ، سهَّل الله بها القراءة على الناس الذين لم يعتادوا على لغة قريش، يقول حذيفة: (يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)(١).

فاستشار عثمان أصحاب النبي ﷺ في إعادة نسخ القرآن وفق لغة قريش التي نزل بها القرآن أول مرة، فوافقوه في ذلك، يقول علي بن أبي طالب: إن عثمان قال: (فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً. قلنا: فماذا ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت)(٢).

وكوَّن عثمان رضي الله عنه لجنة عمادها أربعة من حفاظ القرآن، ثم أضاف إليها ما جعل أعضائها اثني عشر من أصحاب النبي ﷺ، يقول كثير بن أفلح : (لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أُبي بن كعب وزيد بن ثابت)(٣).

وبدأت اللجنة بنسخ مصحف أبي بكر وكتابته وفق لسان قريش، يقول

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ح (٧٧)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٩/ ١٨).

(٣) أخرجه أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف ح (٨٨).

حذيفة: (فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف؛ ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم)(١).

وفي رواية الترمذي أن الكتبة اختلفوا في كيفية كتابة كلمة واحدة فقط، يقول حذيفة: (فاختلفوا في "التابوت" و" التابوه " ، فقال القرشيون بالأول، وقال زيد بالثاني ، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتابوت، فإنه نزل بلسان قريش)(٢).

وتكامل الجمع العثماني بإجماع من أصحاب النبي ﷺ، وأمر عثمان بإرسال نسخ من المصحف المجموع إلى الأمصار، كما أمر من كان عنده شيء من صحف القرآن أن يحرقها، يقول حذيفة: (حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف؛ رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)(٣).

ففعل الصحابة وامتثلوا ذلك، واتفقوا على صحة صنيع عثمان، يقول الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (يا أيها الناس، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في

(١) أخرجه البخاري ح (٣٥٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٣١٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).

المصاحف إلا عن ملأ منا جميعـًا، والله لو وليتُ لفعلتُ مثل الذي فعل)(١).

وامتثال الصحابة وفعلهم إقرارٌ لعثمان على صحة جمعه وإعادته نسخ مصحف أبي بكر، ولو كان في فعله شائبة لثاروا عليه، ومن المعلوم أن عثمان لم يأمر عماله بمتابعة الناس في بيوتهم ومعرفة من أحرق ومن لم يحرق، فقد فعل المسلمون ذلك بمحض إرادتهم واختيارهم .. فعلوا الأصلح لما يكتنف مصاحفهم من تقديم وتأخير في السور، وما يخالطها من تفسيرهم للآيات، وما يقع بها من سهو الكاتب أو خطئه، وما فيها من وجوه القراءة الصحيحة والتي سيترك الصحابة القراءة بها لما ستسبب اختلاف الناس في مصاحفهم، ومراءهم في ذلك.

فابتداءً من تلكم اللحظة ستتلاشى بالتدريج وجوه من القراءة كان رسول الله ﷺ قد أقرأ بها بعض أصحابه غير القرشيين تخفيفًا عليهم وتسهيلاً من الله في قراءة كتابه، وستعتبر عند المسلمين قراءات شاذة؛ لفقدها التواتر بعد أن ترك الناس القراءة بها لمخالفتها للرسم العثماني الذي أجمع عليه الصحابة.

وما فعله الصحابة ليس تركًا لشيء من القرآن الكريم، بل هو ترك لوجوه من القراءة التي أُذن بها الله تعالى لنبيه رخصة وتيسيرًا لما قال: «**يا جبريل إني بعثتُ إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط. قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف**»(٢)، فقد استمسك عثمان رضي الله عنه والصحابة بالحرف الأول الذي نزل به القرآن وما يحتمله الرسم العثماني من الحروف الأخرى، مما ثبت عندهم في العرضة الأخيرة التي سمعوها من النبي ﷺ قبيل وفاته، أي عاد الصحابة إلى الأصل الذي نزل به القرآن بادئ ذي بدء، وهو ما

---

(١) أخرجه أبو بكر ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٧٧)، وابن شبة في تاريخ المدينة المنورة (٣/ ٩٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٩٤٤).

أقرأ به النبي ﷺ عموم أصحابه، وتخلَّوا فقط عن حروف الرخصة لفوات محلها، ولما ترتب عليها لاحقًا من اختلاف المسلمين وتنازعهم وتماريهم في هذه الوجوه.

وفي الوجه الذي أثبتوه كفاية، فليس مطلوبـًا أن يقرأ المسلم بكل هذه الوجوه، وقد أخبر جبريل النبيَّ ﷺ «إن الله يأمرك أن تَقرأ أمتُك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه؛ فقد أصابوا»(١)، وفي حديث هشام بن حكيم: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»(٢)، وفي الحديث الآخر: «ليس منها إلا شافٍ كافٍ»(٣).

وهكذا تخلت اللجنة العثمانية عن مثل ما كان يقرأ به الصحابي الجليل ابن مسعود الهذلي رضي الله عنه، فقد أقرأه النبي ﷺ: (إذا بحثر ما في القبور) و(عتى حين) بدلاً من (بعثر) و(حتى)، لأن هذيلاً وثقيفًا كانتا تبدلان بين العين والحاء، فيقولون (نحم) بدل (نعم)، و(محهم) بدل (معهم).

ومن قبلِ عثمان رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه قد سمع رجلاً يقرأ: «عَتَّى حِينٍ»، فقال: مَن أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: «إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربيًّا، وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام»(٤).

قال ابن جني: «العرب تبدل أحد هذين الحرفين من صاحبه لتقاربهما في المخرج، كقولهم: (بحثر ما في القبور) (العاديات: ٩)، أي: بعثر؛ و(ضبعت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ح (١٨٥٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٩٢)، ومسلم في صحيحه ح (١٨٥١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ح (٢١١٤٩)، وفيه انقطاع فقد جزم أحمد أن قتادة لم يسمع شيئًا من يحيى بن يعمر.

(٤) أخرجه عمر بن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ١٠١٠).

الخيل)، أي: ضبحت ..»(١).

وكذلك لن يقرأ الناس في المصاحف العثمانية: (ولا تقربا هذه الشيَرة)، وستعتبر من القراءات الشاذة ،وإنْ قُرئ بها من قبل تخفيفًا على العرب الذين ينطقون بعض مواضع الجيم ياء، ومنه قول شاعرهم:

إن لم يكن فيكنَّ ظل ولا جنى فأبعدكنَّ الله من شيراتِ

أي شجرات، وهذه (اليجيجة) - كما أسمتها لجنة اللهجات في مجمع اللغة العربية في القاهرة – ما تزال مستعملة في بعض دول الخليج العربي اليوم، فيقولون: (يا ريال)، ويقصدون: (يا رجل)(٢).

بقي أن نشير إلى أمور مهمة، سينشأ من خلالها علم القراءات في القرن الهجري الثاني:

أ- الرسم المستخدم في المصاحف العثمانية جرد كلمات القرآن عن النقط ، واتبع كُتَّابه قواعد في الكتابة أتاحت الإبقاء ما أمكن على وجوه القراءة المختلفة المنقولة عن النبي ﷺ كحذف الألف، فكتبوا : (قل)، فاحتملت وجهين من وجوه القراءة: (قل، قال)، وكذلك كتبوا: (ملك)، لتحتمل وجهين مرويين عن النبي ﷺ : (ملك، مالك).

ب- المصاحف العثمانية لم تكن واحدة، فقد تعمدت اللجنة العثمانية إثبات أكثر من وجه في كلمات يسيرة عددها (٤٤) كلمة(٣) ، نذكر بعضها على سبيل

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (١/ ٣٤٣).

(٢) بحوث ودراسات في اللهجات العربية (٥/ ٥٢) من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٣) انظر: المقنع في رسم مصاحف الأمصار، أبو عمر الداني (١٠٦-١١٧)، والفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم القرآني، الدكتور محمد محمد سالم محيسن ، ص (٧٧-١٢٤).

التمثيل دون التفصيل بذكر أسماء المصاحف ، فقد كتبوا: ﴿**وأوصى بها إبراهيم**﴾، و ﴿**ووصى بها إبراهيم**﴾ مرة بالألف، ومرة بالواو.

وكتبوا: ﴿**فتوكل على العزيز**﴾، و﴿**وتوكل على العزيز**﴾ بالواو والفاء.

وكتبوا: ﴿**من يرتد منكم**﴾، و﴿**من يرتدد منكم**﴾ بدال ودالين.

وكتبوا: ﴿**فإن الله هو الغني الحميد**﴾، و﴿**فإن الله الغني الحميد**﴾ بإثبات (هو)، وحذفها.

وكتبوا: ﴿**ما تشتهي الأنفس**﴾، و﴿**ما تشتهيه الأنفس**﴾ بحذف هاء الضمير وإثباتها.

وكتبوا: ﴿**الذين اتخذوا مسجدًا**﴾، و﴿**والذين اتخذوا مسجدًا**﴾ بإثبات الواو وحذفها.

فكل هذه الوجوه قرآن نزل على رسول الله ﷺ، وأثبته الصحابة في مصاحف الأمصار العثمانية مفرقًا بينها.

ج- لا علاقة بين القراءات والأحرف السبعة، فالقراءات هي اختيارات القراء مما روي عن النبي ﷺ من وجوه صحيحة يحتملها الرسم العثماني الموزع في المصاحف العثمانية، وقد روي مثلها عن غير هؤلاء القراء ، لكن لم يتوافر لها من النقل والتوثيق ما حازته قراءات المشهورين، فإنهم كانوا عيون هذا الفن ورواده، قال القرطبي: «القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة، ورواه، وأقرأ به، واشتهر عنه، وعرف به ونسب إليه، فقيل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر، ولا أنكره، بل سوغه وجوزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر، وكل

صحيح»[١].

د- وجوه القراءات مما لا يسع فيه الاجتهاد والإبداع، لذلك لا يجوز القراءة بوجوه لم تنقل عن النبي ﷺ، ولو وافقت الرسم العثماني وقواعد اللغة العربية، فلا قيمة لكل ذاك؛ إذا لم تكن مسندة صحيحة، فقد قال علي: «إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما عُلِّمتم»[٢].

لذا قال الإمام أبو عمر الداني: «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبتت لم يردها قياس عربية، ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة، يلزم قبولها، والمصير إليها»[٣].

ولأجل ذلك استتيب أبو بكر بن مقسم (ت ٢٦٥هـ)، وكان من أئمة القراءات، فكان يقرأ بما وافق الرسم العثماني، ولو لم يرد فيه سند صحيح، فاجتمع له الفقهاء والقراء، يتقدمهم إمام الإقراء ابن مجاهد، فناظروه، فلم يكن عنده حجة، فاستتابه السلطان، فأعلن توبته.

وفيه نقل الذهبي عن أبي طاهر بن أبي هاشم في كتاب "البيان" قوله: «وقد نبغ نابغ في عصرنا هذا، فزعم أن كل من صح عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف؛ فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بقيله ذلك بدعة، ضل بها عن قصد السبيل، وأورط نفسه في منزلة عظمت بها جنايته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل ما لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ح (٨٣٢).

(٣) جامع البيان في القراءات السبع، أبو عمرو الداني (٢/ ٨٦٠).

(٤) معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ٣٠٨).

هـ - إضافة القراءة إلى واحد من الصحابة أو الأئمة القراء لا تعني أنها من اختراعه وتفرداته، بل هي متعلقة بشهرته بين القراء ومداومته على الإقراء بهذا الوجه، قال الإمام أبو عمرو الداني: «معنى إضافة كل حرف مما أنزل الله تعالى إلى من أضيف من الصحابة كأُبي وعبد الله وزيد وغيرهم؛ من قِبَل أنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له وميلا إليه، لا غير ذلك، وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة بالأمصار؛ المراد بها أن ذلك القارئ - وذلك الإمام - اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، وآثره على غيره، وداوم عليه، ولزمه حتى اشتهر وعرف به، وقصد فيه، وأخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم؛ لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد»[1].

و- القراءات المعتبرة عند المسلمين نقلت إليهم بالتواتر كما هو مذهب جمهور العلماء، ومن قال منهم بنقلها الآحادي فقد ربطه بنقلها المستفيض بين المسلمين وقبولهم لها، وهذا القول سببه اللبس في عدم رؤيتهم الفرق بين تواتر القرآن وتواتر الحديث ، فالحديث يرويه رواته فحسب، بينما القراءات يقرأ بها القراء وغيرهم، ونسبة القراءة إليهم لا تعني تفردهم بالقراءة بها، كما سبق بيانه، لذا لما قال ابن الجزري بين يدي شيخه ابن الخطيب برأي الإمام أبي شامة في آحادية القراءات أجابه : «معذور أبو شامة؛ حيث [يظن] إن القراءات كالحديث، مخرجها كمخرجه، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية، وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً، وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرؤونها، أخذوها أمماً عن أمم، ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده لم يوافقه على ذلك أحد، بل كانوا يجتنبونها، ويأمرون باجتنابها»[2].

---

(١) الأحرف السبعة للقرآن، أبو عمرو الداني ، ص (٦١).

(٢) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، ص (٧٩).

وهكذا، فقد وثق النص القرآني كتابة، فاجتمع ذلك إلى توثيقه بحفظ الحفاظ من أصحاب النبي ﷺ، وتناقلت الأمة في أجيالها نص القرآن الكريم، يحفظه الألوف منهم في كل عصر، ويولونه من العناية ما لا مثيل له في أمة من الأمم.

* * *

شهادة المخطوطات بموثوقية النص القرآني

أولا: المخطوطات القرآنية

لما انتهت اللجنة العثمانية من كتابة المصاحف أرسل عثمان ﷺ ثلاثًا من النسخ إلى الكوفة والبصرة والشام، واستبقى واحدًا عنده[١]، وقد كتبت جميعًا على الورق (الكاغد) إلا المصحف الذي خص به نفسه، فقد قيل : إنه مكتوب على رق الغزال، وسميت هذه المصاحف بالمصحف (الكوفي، البصري، الشامي، الإمام أو المدني).

وبعث عثمان مع كل واحد منها مقرئًا يقرئ الناس كما في المصحف، فكان زيد بن ثابت يقرئ المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب يقرئ المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي يقرئان الكوفي ، وعامر بن عبد القيس يقرئ أهل البصرة ما في المصحف العثماني البصري[٢].

وشرع المسلمون في تلقي المصاحف العثمانية ونساختها، فالقرآن أنيس كل واحد منهم، وليس يغنيه حفظه عن القراءة في المصحف تثبيتًا، وسرعان ما تكاثر عدد المصاحف، ونشأت حرفة كتابة المصاحف، ثم تزيينها وتجليدها وتذهيبها.

واليوم تتناثر في متاحف العالم ومكاتبه ألوف لا تحصى من المصاحف القرآنية التي كتبها المسلمون في عصور مختلفة، ليقرؤوا في سطورها كلام ربهم تبارك وتعالى، ويقدر عددها العلامة الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في كتابه:
"The History of the Quranic Text, from Revelation to Compilation"

---

(١) انظر : المقنع في رسم مصاحف الأمصار، لأبي عمرو الداني ، ص (١٩)، وقيل أيضًا أنها كانت سبعًا، إذ زادت بعض الروايات المصحف المكي واليمني والبحريني.
(٢) انظر : مناهل العرفان، للزرقاني (١/ ٣٩٦-٣٩٧).

بما يربو على مائتين وخمسين ألف مخطوط ، تنتمي إلى مختلف العصور الإسلامية قبل ظهور الطباعة.

وأود في هذه العجالة إعطاء نبذة مختصرة عن أهم المخطوطات القرآنية المتوافرة لدينا اليوم:

أولاً : مخطوطات صنعاء

في سقف الجامع الكبير في صنعاء ، وأثناء ترميمه في عام ١٩٦٥م عثر على ما يقارب الـ ٤٥٠٠ مخطوط، إضافة إلى ١٢٠٠٠ رق تحوي ٨٠٠ مصحفًا، من بينها مائة مصحف مزخرف، وترجع جميعًا إلى القرون الهجرية الخمسة الأولى، وقد أعيدت إلى خزائنها، قبل أن يعاد استخراجها عام ١٩٧٢م.

وقد طلبت الحكومة اليمنية من الحكومة الألمانية مساعدتها بالعناية بالمخطوطات وترميمها، فأوفدت ألمانيا اثنين من أساتذة جامعة سارلاند الألمانية، وهما جيرد يوسف بوئن المتخصص بالخط والرسم العربي، وزميله غراف فون بوتمر المتخصص في تاريخ الفن الإسلامي، وبدأا بالعمل عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٩٧م، وقاما بترميم مايقارب ١٥٠٠٠ صفحة قرآنية، وأنهيا عملهما بتصوير ٣٥٠٠٠ صورة من الوثائق التي اصطحباها معهما إلى ألمانيا لدراستها(١).

وفي يناير عام ١٩٩٩م كتب موظف أمريكي يعمل في مجال الإغاثة يدعى توبي لستر مقالاً بعنوان "ما القرآن" في مجلة "أتلانتيك مونثلي" المرموقة، وزعم فيه هذا الكاتب الهاوي (غير المتخصص) وجود اختلاف بين المخطوطات الصنعانية والنص القرآني المتداول، وأن الباحثين الألمانيين لديهما ما يخفيانه، فتصدى له أولهما ؛ جيرد بوئن في رسالة بعث بها إلى القاضي الأكوع، أكد فيها تطابق المخطوطات الصنعانية مع النص القرآني المتداول عند المسلمين، وكتب:

(١) انظر : الله في إعجازه يتجلى، د غسان حمدون ، ص (٥٢، ١١٢-١١٣، ومواضع أخرى).

«وأما الحقيقة فتفتخر اليمن بكنز فريد في العالم، وهو بقايا أقدم المصاحف في العالم .. هذه البقايا ترجع إلى القرن الأول للهجرة .. لا تختلف المصاحف الصنعانية عن غيرها في متاحف العالم ودور كتبه إلا في تفاصيل لا تمس القرآن كنص مقروء، وإنما في الاختلاف في الكتابة فقط، هذه الظاهرة معروفة حتى في القرآن المطبوع في القاهرة، حيث ورد كتابة (ابرهيم) على جانب [أي بدلاً من] (ابرهم)، (قران) على جانب (قرن)»(١).

وأما زميله في العمل الدكتور غراف بوتر، فقد أرسل إلى القاضي الأكوع يستنكر ما كتبه لستر، ويقول: «وإنني أعلن بكل وضوح أن دراستي للمخطوطات القرآنية البدائية في صنعاء لم تؤثر بأي حال من الأحول، أو تدع مجالاً للشك في محتوى الوحي المدون في تلك المخطوطات .. وإنه لمن السخف بمكان أن يُفترض أنه قد خالجني شعور بأن أخفي محتويات أبحاثي أو اتجاهاتي عن السلطات اليمنية المعنية»(٢).

وأما الدكتور غريغور شولر مدير معهد الأبحاث الشرقية في جامعة بازل السويسرية، فكتب إلى القاضي الأكوع ما نصه: «وقد أتيحت لي في حينه فرصة الاطلاع على المخطوطات النادرة الموجودة في المتحف .. في تلك الزيارة قارنت بالصدفة قطعة من مخطوطة القرآن الكريم الأقدم بطبعة حديثة للقرآن الكريم ، ولم أجد فيه أي فارق في النص، وأُقر أن لجوئي إلى نسخة حديثة كان فقط بهدف الاستعانة على قراءة الخط الصعب للمخطوطة .. ولقد صعقتُ عندما قرأتُ ادعاءات كاذبة لباحث أمريكي بأن نص مخطوطة القرآن الكريم الأقدم يختلف عن

(١) الرسالة نشر صورتها الدكتور غسان حمدون في كتابه : الله في إعجازه يتجلى، ص (١٠١-١٠٤).
(٢) المصدر السابق ، ص (١٠٦).

نص القرآن الكريم كما هو معروف اليوم، ولذا قررتُ أن أكتب إليكم مفندًا ذلك الرأي الخاطئ .. قرأتُ ما يدعيه الباحث الأمريكي أثناء رحلة إلى لبنان، ولم أشأ أن أنتظر في الرد على ذلك إلى حين أعود إلى بازل في سويسرا، لأن الادعاء أغضبني»[١].

وفي وقت لاحق تقدمت الطالبة رزان غسان حمدون لنيل درجة الماجستير من جامعة صنعاء، فكان موضوع دراستها ١٥٠ صفحة من هذه المخطوطات، وتغطي ما يقرب من خُمُس القرآن الكريم، ونشرتها مقارنة بالنص القرآني المطبوع، فلم يكن ثمة خلاف بينها وبين الرسم العثماني إلا ما يتعلق بقواعد الإملاء التي تطورت عبر العصور، ورسالتها وما تضمنته من لوحات صنعانية منشورة على الشبكة العنكبوتية.

ثانيًا: مخطوطة صنعاء للمصحف المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وهي واحدة من أهم مخطوطات صنعاء، ونشرها الدكتور طيار آلتي قولاج عام ٢٠١١م عبر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) بعنوان: (المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نسخة صنعاء)[٢]، ويحتوي هذا المخطوط على ٨٤٪ من آيات القرآن، وقد كتب بالخط الكوفي على ٢٧٥ ورقة، ويراه الدكتور طيار من منسوخات القرن الهجري الأول، بينما رجح القاضي إسماعيل الأكوع والأستاذ محيي الدين سرين أنه كُتب في القرن الهجري الثاني[٣].

---

(١) الرسالة نشر صورتها الدكتور غسان حمدون في كتابه: الله في إعجازه يتجلى، ص (١٠٨-١٠٩).

(٢) ومن منشورات الدكتور طيار الأخيرة المصحف الشريف «نسخة المكتبة الوطنية الفرنسية»، إرسيكا ٢٠١٥م.

(٣) ويمكن للقارئ الاطلاع عليه أو تحميله من هذه الصفحة:

وعن هذا المصحف يقول الدكتور طيار: « اطلعت على ٨٤٪ من أوراق المصحف الموجودة وبتمعن ودقة من بدايتها إلى نهايتها ؛ حرفًا حرفًا ، وكلمة كلمة، وآية آية، وقايست هذا المصحف مع مصاحف أخرى قديمة ومتداولة في أيامنا هذه، ولم أجد أي فرق بينه وبين تلك المصاحف التي قد يعتريها وجود سهو الكتاب، مثل: مصاحف طوب قابي ومصحف طشقند ومتحف الآثار التركية الإسلامية باسطنبول ومصحف القاهرة، والتي وجدتُ فيها سهو الكاتب يصل إلى ١٥ سهواً .

[إضافة إلى سقوط كلمة من (آتنا) من قوله: ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾ فإن] مصحف صنعاء وُجِد فيه سهوان فقط: الأول: في كلمة ﴿**واصبر**﴾ في سورة الطور آية (٤٨) ، تَبدَل فيها حرف الواو بحرف الفاء، فجاءت على شكل (فاصبر)، والثاني: قوله تعالى: ﴿**فمالؤن منها**﴾ في سورة الواقعة ، على شكل (فمالؤن منه) ، فتبدل الضمير فقط، وهذه ليست أخطاءً ، لكنها سهو بسيط.

ووجدتُ أن كاتب المصحف يتميز بالدقة الشديدة والانضباط والممارسة .. وفي اعتقادي أن هذا المصحف من أقدم المصاحف الموجودة في العالم كله، وأظنه كُتب في العصر الأول للإسلام .. فهذا المصحف منسوب إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجميع آياته وكلماته توافق المصاحف المنسوبة إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ١٠٠٪ بغض النظر عن الاختلافات الإملائية البسيطة كحرف الجر (على) [المكتوب] بهذا الشكل في مصاحف سيدنا عثمان، بينما جاء في هذا المصحف بحرف الألف (علا)»[1].

(http://ia600209.us.archive.org/30/items/muthman/ms.pdf)

(١) انظر المقابلة الصحفية التي أجرتها معه صحيفة ٢٦ سبتمبر اليمنية إبان زيارته إلى صنعاء، والاستدراك المدرج من محاضرته التي سيشار إليها لاحقًا.

ثانيـًا: مصحف المشهد الحسيني

وهـو المصـحف المحفـوظ في القـاهرة في ١٨٠٧ ورقـة مـن جلـد الغـزال، وتنقصـه أربعـة أوراق فقـط، ويـرى الأسـتاذ صـلاح الـدين المنجـد المتخصـص في مخطوطـات المصـاحف القديمـة في كتابـه "دراسـات في تـاريخ الخـط العربـي" أنـه مكتوب في النصف الثاني من القرن الأول، ويوافقه الدكتور طيار قـولاج، ويـراه أقـدم من مصحفي طوب قابي وتيام.

ولا يخلو المصحف من أخطاء إملائية، منها أن ناسخه كتب: (صـطفاك) بـدلاً مـن ﴿**اصـطفاك**﴾، وكتـب: (ولـم يمسـني)، بـدلاً مـن ﴿**ولـم يمسسـني**﴾، وكتـب: (اعبدووا)، بدلاً من ﴿**اعبدوا**﴾ في آخر سورة الحجر[1].

وقد نشره طيار قولاج مطبوعًا في عـام ٢٠٠٩م بعنـوان: «المصـحف الشـريف المنسوب إلى عثمان بن عفان ﵁: نسخة المشهد الحسيني بالقاهرة».

ثالثًا : مصحف طوب قابي

وهو المصحف المنسوب إلى الصـحابي عثمـان بـن عفـان ﵁، المحفـوظ في متحف طوب قابي سراي في اسطنبول، وهـو مصـحف شبه كامـل يتكـون مـن ٤٠٨ لوحة، ضاعت منه ورقتان فقط (٦و ١١)، وتظهران في المخطوط بخط مغاير.

وقد كتب على غلافه : (هـذا المصـحف كتـب بيـد عثمـان الشـريفة)، وهـو مـا يتشكك فيه الـدكتور طيار بقولـه: «وليتـه كـان كـذلك»، وينقـل عـن الأسـاتذة :فهمـي أدهـم قرطـاي ومحيـي الـدين سـرين وأكمـل الـدين إحسـان أوغلـو أنهـم يـرون أنـه مكتوب في أواخر القرن الأول أو النصف الأول من القرن الثاني.

---

(١) انظر محاضرة الدكتور طيار قولاج في أكاديمية برلين براندنبرغ للعلوم الإنسانية في ١٣/ ١٢/ ٢٠١٣م، وقد ألقاها باللغة التركية، وترجم نصها إلى العربية معتز حسن، ونشرته مدونة الدراسات القرآنية، والمحاضرة الأصلية منشورة في موقع يوتيوب.

ولا يخلو هذا المصحف من الأخطاء الإملائية القليلة جدًا ، والتي سببها سهو الكاتب: كتكرر كلمة (كلوا كلوا) مرتين في قوله: ﴿**وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا**﴾، وكذلك كتب الناسخ: (إذ) بدلاً من قوله : ﴿**إذا**﴾، في قول الله تعالى: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾، وكتب: (وولا) بدلاً من ﴿**ولا**﴾ في قوله: ﴿**ولا يستطيعون لهم نصرًا**﴾، وكتب: (إني أأخاف)، بدلاً من: ﴿**إني أخاف**﴾، وأسقط اللام حين كتب: (أولوا الأبب)، بدلاً من: ﴿**أولوا الألبب**﴾[١].

وقد نشر الدكتور طيار قولاج هذا المصحف مطبوعًا عام ٢٠٠٧م.

رابعًا: مصحف تيام (متحف الآثار التركية والإسلامية) في اسطنبول

وهو أحد المصاحف التي تنسب إلى عثمان ﷺ ، ويتكون هذا المصحف من ٤٣٩ لوحة مكتوبة على جلد الغزال، وهو شبه كامل، فقد سقطت منه ثلاثة أوراق فقط، خلا ١٤ ورقة أخرى نقصت، فأعاد كتابتها شخص يدعى داود بن علي الكيلاني في عام ٨٤١هـ، ويرى الأستاذ صلاح الدين المنجد أنه مكتوب في أحد القرنين الهجريين الأولين، وتخلو مخطوطة هذا المصحف من الأخطاء الإملائية، ويرجح الدكتور طيار قولاج أنه مكتوب في النصف الثاني من القرن الهجري الأول أو النصف الأول من القرن الثاني[٢].

وقد نشره الدكتور طيار مطبوعًا عام ٢٠٠٧م.

خامسًا : مخطوطة توبنجين

ويبلغ عدد لوحاتها ٧٨ لوحة، وحصلت عليها جامعة توبنجين الألمانية (niversität Tübingen) في عام ١٨٦٠م من مكتبة القنصل البروسي يوهان

(١) انظر المحاضرة السابقة للدكتور طيار قولاج.

(٢) انظر محاضرة الدكتور طيار قولاج في أكاديمية برلين براندنبرغ للعلوم الإنسانية.

شتاين، ونشرتها في عام ٢٠١٤م[١] بعد أن أجرت عليها دراسات، وأخضعتها للتحليل الكربوني، تبين أنها تعود إلى ما بين عامي ٦٤٩ و٦٧٥م، أي بعد وفاة النبي ﷺ عام (٦٣٢) بسبع وعشرين سنة وفق التقدير الأقدم، أي في أول سنة من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأما التقدير الأبعد، فيجعلها في زمن معاوية رضي الله عنه، خامس خلفاء النبي ﷺ[٢].

وتتطابق مخطوطات توبنجين مع القراءات القرآنية العشرة المشهورة إلا في مواضع ثمانية فقط، أخطأ فيها الناسخ، فقد كتب: (ذا الرحمة)، بدلاً من: ﴿**ذو الرحمة**﴾، و (المرجومين) بدلاً من: ﴿**المخرجين**﴾، و (مما يقولون) بدلاً من: ﴿**مما يعملون**﴾، و (المسخرين) بدلاً من: ﴿**المسحرين**﴾، وكتب: (فهم مفلحون) بدلاً من: ﴿**فهم مسلمون**﴾، و (يؤفكون) بدلاً من ﴿**تؤفكون**﴾، و (تروا .. لتسكنوا) بدلاً من: ﴿**يروا .. ليسكنوا**﴾، و (نقول للملائكة) بدلاً من: ﴿**يقول للملائكة**﴾.

سادسًا: مخطوطة سمرقند

ليس لهذا المخطوط مزية تفضله على عشرات المصاحف التي سبقته، وتعود إلى القرن الهجري الأول (الصنعانية وغيرها)؛ إلا أنه حاز اهتمام المستشرقين لما توهموه من أقدميته المطلقة، بسبب ظهوره المبكر في مطلع القرن العشرين، وفي وقت لم تكن قد ظهرت فيه بعض تلك المصاحف، فادعي حينذاك أنه المصحف الذي مات عثمان رضي الله عنه وهو يقرأ فيه.

---

(١) وقد نشرتها الجامعة في موقعها، انظر:

(http://idb.ub.uni-tuebingen.de/diglit/MaVI165/0001/thumbs?sid=54f9b0db2c67c7810daf63ce59b2fa53#current_page).

(٢) انظر التقرير الذي نشرته الجامعة عن المخطوطة في موقعها:

(https://www.uni-tuebingen.de/aktuelles/pressemitteilungen/newsfullview-pressemitteilungen/article/raritaet-entdeckt-koranhandschrift-stammt-aus-der-fruehzeit-des-islam.html).

ففي عام ١٩٠٥م نشر المستشرق الروسي بيساريف صورة لمصحف سمرقند، ويقدر الدكتور طيار قولاج العدد الأصلي لأوراق هذا المصحف بـ ٩٥٠ ورقة، وقد ضاع معظمها، فلم يتبق منه إلا ٣٥٣ ورقة فقط[1]، وهي محفوظة اليوم في طشقند.

ويشير التحليل الكربوني للمخطوط إلى أنه مكتوب في القرن الثاني للهجرة، ولا صحة للادعاء بأنه مصحف عثمان ﷺ، فقد ادعي مثله في عدد من المصاحف التي لُطخت صفحاتها بالدماء طمعًا في استجلاب التقدير لها، من غير أن يقوم على عثمانيتها دليل مما يعرف به أهلُ الفن تاريخَ المخطوطات القرآنية (الخط ، الإعجام ، الزخرفة ، التخميس، التعشير، الفواصل).

وهذه المخطوطة كثيرة الأخطاء والسهو، لذلك فقد عمد ناسخها إلى تصحيحها في الهامش أو بوضع علامات استدراك في وسطها، وجميع هذه الأخطاء نساخية، لا تتعلق بإرادة الناسخ إحداث معنى معين، بل وقعت سهوًا منه ونسيانًا، ومن ذلك كتْبه: (تقولون على الله لغير الحق)، بدلاً من قوله: ﴿**تقولون على الله غير الحق**﴾، و: (كوها)، بدلاً من ﴿**كرها**﴾، و(ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى ترجع) بدلاً من قوله: ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع**﴾، وقوله: (هذا ناقة الله) بدلاً من قوله: ﴿**هذه ناقة الله**﴾.

ومما يجدر بالذكر أن للمستشرق بيسارف دور كبير في ظهور هذه الأخطاء، فقد حاول تحبير الحروف المطموسة في المخطوطة، فتسبب تحبيره في كثير من الأخطاء، وقد قام من بعده المستشرقان ماندلسون وجيفري بدراسة هذه المخطوطة، وأصدرا في عام ١٩٤٢م مقالهما (The Orthography of the

---

(١) يمكن تحميل صور هذه المخطوطة من منتدى أهل التفسير، في الرابط التالي:
(http://www.tafsir.net/Bookstorge/OldHolyQuran.part1.rar)

Samarqand Quran Codex)، وقررا أن أخطاء التحبير والتنقيط الذي قام به يسارف لم تكن بسوء نية، بل بجهل منه. وقد يكون قولهم صحيحًا، لكنه على كل حال أضاف إلى أخطاء ناسخ المخطوط المزيد من الأخطاء.

وقبل أن أمسك قلمي عن سرد المزيد عن المخطوطات القرآنية في القرون الأولى، أود أن أنقل لقرائي ما يأسى عليه كل طالب حق، فقد ذكر العلامة محمد حميد الله الحيدرأبادي ، وهو واحد من أكابر علماء الهند والعالم الإسلامي في القرن العشرين في مقال نشرته مجلة الأمة القطرية في رمضان ١٤٠٢هـ أن جامعة ميونيخ أسست معهدًا للبحوث القرآنية قام عليه كبار القسس، واستمروا ثلاثة أجيال في جمع مخطوطات القرآن الكريم، وقد أخبره شخصيًا الدكتور أوتو بريتزل Pretzl المدير الثالث للمعهد في عام ١٩٣٣م في لقاء جمعهما في باريس بأنهم جمعوا حتى ذلك الوقت ٤٣٠٠٠ صورة من مخطوطات القرآن ، وأن العمل جار عليها.

وقبيل الحرب العالمية الثانية نشر المعهد تقريراً مؤقتًا جاء فيه أنهم وجدوا في مخطوطات الكتاب المقدس مائتي ألف اختلاف، بينما «لم نجد إلى الآن أي اختلاف في الرواية سوى بعض أخطاء الكتابة» ، فالاختلافات في المخطوطات القرآنية لا تتكرر في عدة مخطوطات، بل تتعلق بمخطوطة واحدة، لأنها تقع بسبب سهو الكاتب.

وقد دمر المعهد ومكتبته - بحسب ادعاء المستشرق آرثر جيفري أحد الشخصيات المؤسسة للمشروع - في الحرب العالمية الثانية قبل أن ينشر تقريره النهائي[1].

---

(١) انظر : الميزان في مقارنة الأديان ، محمد عزت الطهطاوي ، ص (٤١٠ - ٤١١)، وانظر:
Bilal Philips, Usool at-Tafseer, Sharjah: Dar al-Fatah, 1997, p.157

ولكن جبريل سعيد رينولدز يؤكد على نجاة هذا الأرشيف المهم، بخلاف ما ذكره المستشرق جيفري، الذي بشَّرنا في عام ١٩٣٧م أن المشروع قريب من الاكتمال، وينقل جبريل بغمغمة استشراقية مثيرة للريبة أن المشروع انتقل بعد موت بريتزل عام ١٩٤١م إلى عهدة أنطون سبيتالير (ت ٢٠٠٣م) الذي وضع نهاية مريبة للمشروع، ليثور سؤال عن سبب توقف هذا المشروع بعد سنوات مضنية من العمل الدؤوب.

ولأن المعنيين بالإجابة لم يقدموا الجواب الصريح؛ فإنا سنكتفي بنقل همهماتهم التي تفيد أن مشروعهم - لإنتاج نسخة نقدية من القرآن الكريم على غرار ما فعلوه في الكتاب المقدس - قد اصطدم بالحائط الصلب، فألغي المشروع لتفاهة نتائجه، وكما يقول رينولدز: «الراجح بكل بساطة أن سبيتالير لم يؤمن أن مشروع (برغشترسر/ بريتزل/ جيفري) هو مشروع عملي، ويلمح سبيتالير في مكان ما أنه حتى بريتزل بدأ يشك في إمكانية إنتاج طبعة نقدية للقرآن»[1].

وبالعود إلى موضوع المخطوطات القرآنية المكتوبة في القرن الهجري الأول وما بعده فإني أنصح بهذا الرابط[2] الذي يقدم تعريفاً تاريخياً بأهم المخطوطات القرآنية المتناثرة اليوم في مكتبات العالم ومتاحفه.

ويمكننا هنا أن نسجل بعض الملاحظات المهمة:

- جميع المصاحف المكتشفة مصاحف عثمانية، وفيه دلالة على إطباق الأمة على صنيع عثمان ﷺ الذي وافق عليه الصحابة، فلم يتداولوا من بعد عثمان الوجوه التي كانوا يقرؤون بها زمن النبي لمخالفتها للرسم العثماني الذي صارت نسخه - التي بعث بها عثمان ﷺ إلى الأمصار - أصلاً يختط منه المسلمون

(١) القرآن في محيطه التاريخي، جبريل سعيد رينولدز، ص (٢٦).

(٢) (http://www.islamic-awareness.org/Quran/Text/Mss)

مصاحفهم، ويقرؤون به في صلواتهم، ويعلمون به في مساجدهم، ويحفِّظون من خلاله أبناءهم.

- أن المصاحف المتوافرة اليوم لا تنتمي إلى ظرف مكاني واحد، فمنها ما هو مكتوب بالعراق، ومنها ما هو مكتوب بالشام أو الحجاز، ولم ينقل بعضها عن بعض، بدليل اختلافها فيما اختلفت به المصاحف العثمانية.

- أن المسلمين لا يزعمون عصمة نساخ المخطوطات القرآنية، فقد عمل هؤلاء على كتابة نسخهم بقدر ما أوتوا من جهد وإتقان ودقة، ورغم ذلك لم تخلو مصاحفهم من أخطاء نادرة عارضة، وقعت بسبب السهو والقصور البشري، يقول الدكتور طيار قولاج: «إن المصاحف المكتوبة في زماننا أو قبل ذلك وفي أثناء تدقيقها قبل طبعها تكشف فيها عشرات الأخطاء .. وهذه الأخطاء في كل المتون التي تخطها يد الإنسان موجودة وطبيعية .. إن ادعاءنا أننا لا نخطئ في أثناء الكتابة غير ممكن ، فالكاتب يكتب، ثم يقوم هو أو غيره بتصحيح ما كتب، وفي كل المصاحف التي درستها توجد أخطاء إملائية قليلة، وهذا طبيعي جدًا، لذلك فإن الاعتماد على هذه الأخطاء للقدح في حفظ القرآن ليس علميًا، والاستنتاج المبني عليه خاطئ»(١).

- أن قواعد الرسم المعمول بها في المصاحف القديمة تختلف عن المعمول به في الرسم الإملائي اليوم، فعلاوة على ترك النقط في مصاحف القرن الأول فإن العرب لم تكن تكتب الهمزة، وأول من كتبها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، وسماها (رأس عين)، وكذلك فإنهم كانوا يضيفون رموزًا في الكلمات المهموزة ، فيكتبون: (بأييد، نباي، لقاي، شاي، لا اذبحنه، لا اوضعوا، لا انت)، ومرادهم: (بأيد، نبإ، لقاء، شيء، لأذبحنه، لأوضعوا، لأنت)، وبعض هذا الفعل

(١) انظر محاضرة الدكتور طيار قولاج في أكاديمية برلين براندنبرغ للعلوم الإنسانية.

مازال ساريًا في الإملاء الحديث (مائة، أولئك)، وكذلك حذف الأولون ألف التثنية، فكتبوا (هذن، رجلن، اخرن)، بدلاً من (هذان، رجلان، آخران)[١]، وكذلك قد تتغير قواعد الرسم من بلد إلى آخر، فالمخطوطات المشرقية تضع على الفاء نقطة، وعلى القاف نقطتين، بينما نجد المغاربة يضعون نقطة الفاء تحتها، ويخصون القاف بنقط واحدة فوقها، فليُتنبه إلى هذا وأمثاله أثناء قراءة المخطوطات القديمة.

وأنهي هذه الجولة بنقل بعض شهادات المستشرقين المنصفين في سلامة وموثوقية النص القرآني[٢]:

وأبدأ بقول المستشرق البريطاني وأستاذ الدراسات العربيّة في جامعة دبلن (ستانلي لين بول) **(Stanley Lane Poole)**: «إنّه لميزة عظيمة للقرآن أنّه لا شك في أصالته .. فكل كلمة نقرؤها اليوم بإمكاننا أن نقطع أنّها لم تغيّر على مدى قرابة ثلاثة عشر قرنًا»[٣].

وأثني بشهادة المؤرخ البريطاني الكاثوليكي (بوسورث سميث) **(Bosworth Smith)** : «نحن نملك كتابًا متميّزًا في أصله وحفظه وفي تفرّق مواده، غير أنّه لم يستطع أيّ أحد أن يقدّم مبررات شك جديّة في موثوقيّته»[٤].

ويقول الكولونيل البريطاني رونالد بودلي **(R. V. Bodley)**: «وليس هناك أدنى شك في أن القرآن الذي يُقرأ اليوم هو نفس المصحف الذي نسخ من مصحف حفصة»[١].

---

(١) انظر : رسم المصحف (دراسة لغوية)، غانم قدوري الحمد، في مواضع كثيرة من كتابه.

(٢) أتحفني ببعضها الصديق الدكتور سامي عامري، وأنصح بقراءة كتابيه "المرأة بين إشراقات الإسلام وافتراءات المنصرين" و"هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟".

(3) Edward William Lane and Stanley Lane Poole, Selections from the Kur-an, London: Trubner, 1879, p.c

(4) Bosworth Smirh, Mohammed and Mohammedanism, New York: Harper & Brothers, 1875, p.41

وأما المستشرق البريطاني هاملتون جب (Gibb, Sir Hamilton) فيقول: «يبدو أنه من الثابت أنه لم يتغير نص القرآن، وأن الشكل الأصلي لخطابات محمد ومحتوياته قد تم الحفاظ عليه بدقة عالية»(٢).

وحتى لا أطيل على القارئ أختم بما قاله المستشرق الفرنسي (ماوريس ديمومبين) (Demombynes) عن أصالة القرآن الكريم: «تم تثبيت القرآن بعد وقت قصير من نزول الوحي بنص أصيل ثابت، ولا يوجد أي سبب جدي للقول بتحريفه»(٣).

***

(١) الرسول (حياة محمد)، رونالد بودلي، ص (٢٨٣).

(2) Gibb, Sir Hamilton, Mohammedanism, p 50.

(3) Maurice Gaudefroy-Demombynes, Les Institutions Musulmanes, Paris: E. Flammarion, 1921, p.42

ثانياً : المخطوطات التوراتية والإنجيلية

وليتكامل الجهد وتستبين الحقيقة؛ أرى لزامًا أن أعرض إلى بعض المعلومات السريعة حول المخطوطات الموجودة اليوم للكتاب المقدس، مع التركيز حول النقاط التي تتيح للقارئ إجراء مقارنة مع ما سبق عرضه في موضوع المخطوطات القرآنية.

ويلزمنا هنا أن نتذكر أن حفظ القرآن الكريم يعتمد على حفظ الصدور ابتداء، ولو لم يكن بين أيدينا اليوم أي مخطوط للقرآن الكريم؛ فإن ذلك لن يؤثر على مصداقية النص القرآني وموثوقيته، لأنه حُفظ وفق آلية أخرى، وهي الحفظ الصدري، وكذلك فإن أيَّ مخطوطات ستظهر مستقبلاً لن تحدث فرقًا أو أي إضافة إلى النص القرآني المستقر بتناقل الأجيال في صورة لا تعرف الأديان كلُّها لها مثيلاً.

وأما الكتاب المقدس الذي يؤمن به اليهود والنصارى - ففيما عدا شذرات من أقوال الآباء قبل مجمع نيقية - لم يصل إلينا نصه إلا عن طريق مجموعات المخطوطات المختلفة، ولم يسبق لأحد من المؤمنين به أن حفظه في ذاكرته، فالمخطوطات البردية والجلدية كانت الوسيلة الوحيدة لوصولنا إلى نصه المقدس، وهو ما يجعله عرضة للمراجعة المتجددة كلما ظهر المزيد من المخطوطات التائهة عبر التاريخ.

ولو قدر للعالم أن يعثر اليوم على مخطوطات قديمة وقيمة للأسفار المقدسة للعهدين: القديم والجديد؛ فسوف يكون لزامًا على رجال العلم والكنيسة أن تراجع الأسفار المقدسة، وتعيد إنتاج كتابها وتنقيحه وفق المعطيات الجديدة، وهذا ما أقر به الآباء اليسوعيون في مقدمة نسختهم من الكتاب المقدس: «وبوسعنا اليوم أن نعد نص العهد الجديد نصًا مثبتًا إثباتًا

حسنًا، وما من داع إلى إعادة النظر فيه إلا إذا عثر على وثائق جديدة»[1]، أي أنه عهد جديد مؤقت حتى إشعار آخر.

وما يقال عن العهد الجديد يقال عن العهد القديم سواء بسواء.

وتطوير النص (الإنجيلي) ومراجعته وتقييم موثوقية فقراته في ضوء المخطوطات المكتشفة هو ما تفعله النسخ النقدية للعهد الجديد التي يصدرها علماء النقد النصي، فيصدرون بين الفينة والأخرى نسخًا محدثة للإنجيل، وفق المكتشفات المتجددة للمخطوطات الكتابية.

ومن أهم ما يمكننا التمثيل به هنا؛ النسخة النقدية (Novum Testamentum Graece) التي بدأ في إصدارها إيبرهارد نستله في عام ١٨٩٨م، وفي خمسينيات القرن الماضي أشرف عليها كورت ألاند، فصدرت تحت إشرافه النسخة الخامسة والعشرين عام ١٩٦٣م، وتوالى صدور النسخ تحت إشراف جمعية الكتاب المقدس الألمانية، ومعهد العهد الجديد للبحث النصي، وقد صدرت قبل سنوات قريبة النسخة الثامنة والعشرين، والتي يرمز لها بـ (NA28)، وهي منشورة على موقع خاص: (www.nestle-aland.com).

أولاً: العهد القديم (التوراة)

رأينا في استعراضنا للمخطوطات القرآنية عود أقدمها إلى القرن الهجري الأول، وأن فيها ما يُجزم بأنه مكتوب على يد بعض أصحابه، أو في زمانهم على أقل تقدير، لكنا لن نرى مثله حين نتحدث عن المخطوطات المحفوظة بين أيدينا اليوم للكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد.

وفيما يلي نستعرض ما سطره العلماء حول مخطوطات الكتاب المقدس

(١) مقدمة نسخة الرهبانية اليسوعية، ص (١٥).

في كتابين موسوعيين نالا احترام الأوساط العلمية والكنسية، وفيهما غنية عن كثير من المراجع ، وهما دائرة المعارف الكتابية ، وقاموس الكتاب المقدس، اللذان أعدهما نخبة من العلماء والقسس والمختصين، وسنعتمد عليهما في تتبع تاريخ النصوص الكتابية والوقوف على حالها.

العهد القديم هو الكتاب الذي يؤمن بقدسيته اليهود والنصارى رغم الاختلاف في عدد الأسفار المقدسة بين طوائف الفريقين، وهو أمر نطويه لخروجه عن موضوعنا.

تبدأ أسفار العهد القديم بالأسفار الخمسة (أسفار الشريعة) التي يعتقد اليهود والنصارى أنها تحمل توقيع نبي الله موسى عليه السلام الذي عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولكن أقدم المخطوطات التي حملت إلينا أسفار موسى الخمسة ؛ هي من نتاج قرون تالية بعيدة لا يمكن للقارئ أن يخمنها.

إذا استثنينا مخطوطات قمران التي ما يزال الغموض يلف نصوصها؛ فإن الفارق الزمني يمتد ما بين المخطوطات والكاتب الذي نسبت إليه أسفار الشريعة (موسى) إلى ١٧٠٠م سنة على أقل تقدير، وفي هذه الحال نحن نتعامل مع مخطوطات مكتوبة باللغة اليونانية، أي ليست بلغة الكاتب الأصلي للأسفار (العبرانية).

وأما أول مخطوط عبري أي مكتوب بلغة الكاتب، فإنه يعود إلى القرن الميلادي التاسع، أي بفارق زمني يمتد إلى ٢٢٠٠ سنة على أقل تقدير، وهي فجوة لن يقدر على ردم بعضها إلا مخطوطات قمران التي يعود معظمها إلى القرن الأول قبل الميلاد والقرن الميلادي الأول، فلو أعدنا إليها الاعتبار، لقلصت الفارق بين عمر أقدم المخطوطات والكاتب الأصلي إلى ١٢٠٠ سنة،

وهي أيضًا هوة عميقة تخلو من أي مخطوط كامل أو جزئي للنص المقدس.

في عرضنا لأقدم المخطوطات التوراتية لن نرتب المخطوطات العبرية بتاريخ كتابتها، بل بتأثيرها على نص العهد القديم، فمخطوطات قمران اكتشفت عام ١٩٤٧م، ولم يكشف عن مضمونها إلا في السنوات القليلة الماضية، وكانت معظم مكتشفاتها غير متعلقة بالنص المقدس.

أ. ما قبل اكتشاف مخطوطات قمران

تتحدث دائرة المعارف الكتابية عن تاريخ أقدم المخطوطات التوراتية العبرية قبل اكتشاف مخطوطات قمران: « قبل مخطوطات البحر الميت ، لم تكن بين أيدينا مخطوطة عبرية للعهد القديم يرجع تاريخها إلى ما قبل ٨٩٥م»[١]، وتقدم تعليلين لذلك: « فقد تعرض اليهود في العصور الوسطى كثيراً لاضطهادات عنيفة .. ذلك نتيجة للعادة اليهودية المتأصلة من حماية آية كتابات يذكر فيها اسم (الله) ، من التدنيس ، فإذا بليت أو وجد فيها خطأ، كانت تستبعد فوراً من التداول»[٢]، ثم تحرق ويتخلص منها.

وبسبب ذلك «ترجع في غالبيتها إلى ما بعد عام ١١٠٠م، وكان القليل منها يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ، ولكن لم تكن هناك مخطوطة ترجع إلى ما قبل عام ٩٠٠م»[٣]، أي أن أقدم المخطوطات التوراتية العبرية كُتب بعد موسى عليه السلام بـ ٢٢٠٠ سنة!!!

وهذه المخطوطات تسمى بالنص المسوري الذي أنتجته عائلتان يهوديتان في فلسطين خلال ١٣٠ سنة: «ما قامت به جماعة الماسوريين في

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٠٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٠٦).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٩٧)، وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٨٤).

طبرية، حاز القبول عند كل اليهود، وأصبح معتمدًا لدى الجميع .. وكان أبرزهم أفراد عائلتي ابن أشير وابن نفتالي، ولقد استمر نشاط أسرة "ابن أشير" على مدى خمسة أجيال من ٧٨٠م الى نحو ٩٢٠م... ولكن للأسف ضاعت كل هذه المخطوطات التي سبقت المخطوطات الماسورية»[1].

ويرتب العلماء المحررون المخطوطات المسورية الموجودة اليوم اعتمادًا على تاريخها:

«١. مخطوطة القاهرة لأسفار الأنبياء ... ويرجع تاريخها إلى ٨٩٥م، وتحتوي على كل القسم الثاني من العهد القديم، وكاتبها هو موسى بن أشير، وهو آخر المشهورين من عائلة ابن أشير ...

٢. مخطوطة لينجراد العبرية ... ولا تضم هذه المخطوطة التي يرجع تاريخها إلى ٩١٦م إلا أسفار الأنبياء المتأخرين...

٣. مخطوطة حلب .. ويذكر في الملحوظة الختامية فيها أن هارون بن أشير (ابن موسى بن أشير) المتوفى في نحو ٩٤٠م هو الذي أضاف إليها الحروف المتحركة والحواشي .. ذكر موسى بن ميمون أنها أصح النسخ، وكانت أصلاً تضم كل العهد القديم، ولكن التلف أصاب ما يقرب من ربعها.

٤. مخطوطة المتحف البريطاني .. والأرجح أنها كتبت في منتصف القرن العاشر الميلادي، ولا تحتوي إلا على جزء من التوراة (من تك ٣٩: ٢٠ تث ١: ٣٣)...

٥. مخطوطة لينينجراد [مختلفة عن المذكورة في رقم ٢]، وهي تشمل على كل العهد القديم ... ومسجل بها أنها نسخت بعناية فائقة في عام ١٠٠٨

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٠١).

عن مخطوطة أعدها هارون بن موسى بن أشير»[١].

ومن بعد هذا التاريخ تكثر المخطوطات، لكنه تاريخ بعيد، فموسى عليه السلام مات قبل كتابة المخطوطين الأولين اللذين لا يوجد بهما شيء من أسفاره (القاهرة، لينينجراد) بـ ٢٢٠٠ سنة على أقل تقدير!!.

فما هو حال هذه المخطوطات؟ هل كانت متطابقة وسليمة من الأخطاء؟

يجيبنا محررو الدائرة: «أما أخطاء البصر فمردها تشابه أشكال الحروف، فقد يخطئ الكاتب في قراءة حرف غير واضح في النسخة التي ينقل عنها، فيكتبه على غير حقيقته.

وكثيراً ما نجد مثل هذه الأخطاء في المخطوطات الكتابية، وأكثر الأخطاء شيوعاً هو اللبس بين حرفي "الدال والراء"، فهما قريبان جداً في رسمهما، حتى ليصعب التمييز بينهما في كل حالة.. كتابة حرف أو مجموعة حروف مرة واحدة بدلاً من وجوب كتابتها مرتين .. تكرار الحرف أو مجموعة حروف عن غير قصد، وأيضاً الحذف بسبب تشابه النهايات .. حيث تقفز العين من كلمة إلى أخرى تماثلها مسقطة بذلك جملة أو أكثر، ويعلم كل كاتب كم يتكرر مثل هذا الخطأ عند النسخ»[٢].

حتى لا يظن ظان أن هذه الأخطاء قد تم التنبه لها وتداركها، فلم تتسلل إلى الكتاب المقدس .. حتى لا يُظن ذلك سأضرب مثلين لأوهام النساخ التي ما تزال شامخة في التوراة الحالية:

أولهما: نقرأه في سفر صموئيل الثاني في نسخة الملك جيمس وما يوافقها من التراجم كنسخة الفانديك العربية الأشهر: «وكان داود يتوق إلى الخروج

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٠٣)، وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٤٥).
(٢) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٠٧).

إلى أبشالوم، لأنه تعزّى عن أمنون» (صموئيل (٢) ١٣/ ٣٩)، وليس في الأصل كلمة (داود) (דוד)، بل كلمة (روح) (רוח) التي تشبهها في صورة الكتابة، وقد نبهت نسخة الرهبانية اليسوعية على هذا الخطأ، وصححته، وغيرت السياق بموجبه، فأضحى النص فيها: «**وكفَّ روح الملك عن الغضب على أبشالوم، لأنه تعزى عن موت أمنون**».

الثاني: نقرأه في سفر القضاة حسب نسخة الملك جيمس والفانديك ما يوافقهما من التراجم العالمية حيث يقول: «**كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين**» (القضاة ٣/ ٨)، وهذا غير صحيح ، فالملك كوشان لم يكن ملكاً على أرام النهرين (ארם) الواقعة في سوريا والعراق، بل كان ملكاً على مملكة أدوم (אֱדוֹם) الواقعة في الأردن جنوب البحر الميت، فاختلطت الكلمتان (ארם) (אֱדוֹם) على النساخ لتشابهما، وقد تنبه محققو الرهبانية اليسوعية للخطأ، فصححوه: «**كوشان رشعتايم ملك أدوم**»، وكتبوا في الحاشية: «في النص العبري: "ملك أرام النهرين"، والراجح أنه قد وقع التباس بين أرام وأدوم».

هذان مثالان من أمثلة كثيرة ليس هذا محل تتبعها، وكلها تثبت أن أخطاء النساخ ما تزال تُقرأ في النسخ الأشهر في عالم المسيحية.

ب. ما بعد اكتشاف مخطوطات قمران

في عام ١٩٤٨م اكتشفت مخطوطات قمران في خرائب بجوار البحر الميت ، ولم يفسح عن مضامينها إلا منذ سنوات معدودات، وتحوي هذه اللفائف كتابات مختلفة ، يهمنا منها ما يتعلق بالمخطوطات الكتابية « وكان أهم ما في هذه اللفائف بالنسبة لعلماء الكتاب .. نسخة من سفر إشعياء (Q ISa١) مكتوبة بخط جميل ... وهناك درج آخر لسفر إشعياء فقدت منه أجزاء كثيرة... .. لم تظهر حتى الآن أي مخطوطة لها أهمية المخطوطة (Q ISa١) سواء في

الحجم أو اكتمال النص . .. كما وجدت في الكهف الرابع آلاف القصاصات من مئات المخطوطات. .. وقد تم التعرف [من القصاصات] على ما يقرب من مائة مخطوطة من العهد القديم تمثل كل الأسفار ماعدا سفر أستير .. ضمت إحدى المخطوطات من الكهف الرابع نصًا لسفر صموئيل قريبًا جدًا من الترجمة السبعينية، كما وجدت مخطوطة أخرى لعلها تفوق الماسورية والسبعينية أيضًا»[١].

وفي عام ١٩٥٢م اكتشف عدد آخر من المخطوطات جنوب قمران، وفيها كتابات متأخرة تعود للقرن الميلادي الثاني، «وجدت أيضًا عدة نسخ لكثير من الأجزاء من العهد القديم تتفق تماماً مع النصوص الماسورية»[٢].

وهكذا فكل ماكشفته لنا مغاور قمران هو نسخ من سفر إشعيا وصموئيل وقصاصات صغيرة ، وهي بقايا مخطوطات كانت تحمل أسفار الكتاب المقدس.

ولن نتحدث هنا عن الفروق بين المكتشف والنص المسوري، فما زال الغموض يحيط بهذه الدائرة، لكنا سنركز على الفارق الزمني بين هذه المخطوطات والكاتب التوراتي الأول (موسى)، فمخطوطات قمران التي يعود معظمها إلى القرن الأول قبل الميلاد يفصلها عن موسى عليه السلام قريبًا من ١٢٠٠ سنة!!!.

ج. المخطوطات اليونانية (الترجمة السبعينة)

في القرن الثالث قبل الميلاد ترجم سبعون من أحبار اليهود التوراةَ إلى اللغة اليونانية، ولهذه الترجمة أهمية كبيرة، فقد اعتمدتها الكنائس الكاثوليكية،

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٠٤)، وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٤٥).
(٢) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٠٥).

بل اعتمدها كُتاب العهد الجديد (متى، مرقس، لوقا، يوحنا، بولس، بطرس)، وهم ينقلون عن العهد القديم في أسفارهم التي يقدسها المسيحيون.

وقد وصل إلينا باليونانية جملة من المخطوطات المهمة (السينائية والفاتيكانية والسكندرية)، وتحمل إلى جانب العهد القديم أسفار العهد الجديد، لذا نرجئ التعريف بها إلى حديثنا عن مخطوطات العهد الجديد.

لكنا نسجل ملاحظة مهمة، وهي أن المخطوطات التوراتية اليونانية قد حوت أيضًا أسفارًا سيعتبرها اليهود والكنيسة أسفارًا مزورة، أو وفق التعبير الدارج في الأوساط العلمية (أبو كريفا)، أي غير قانونية، ومثل هذا لا تجده في أي مخطوطة قرآنية، فليس في واحد منها زيادة سورة أو صفحة أو آية، وغاية ما نجده في مخطوطات القرآن سهو الناسخ عن كتابة كلمة أو تكرارها، أو تبدل أحد حروفها.

ثانيًا: العهد الجديد (الإنجيل)

العهد الجديد هو مجموعة الأناجيل والرسائل التي تنسب إلى ثمانية أشخاص عاشوا في القرن الميلادي الأول، خمسة منهم يقال أنهم من تلاميذ المسيح (متى، يوحنا، بطرس، يهوذا، يعقوب)، وثلاثة من معاصريهم (بولس، مرقس، لوقا)، ولا يعنينا هنا تحقيق نسبة هذه الأناجيل والرسائل إلى أصحابها، وإنما يهمنا الربط بين المخطوطات والكتاب الأصليين المزعومين لها.

كيف وصلت إلينا النصوص التي كتبها هؤلاء المؤلفون الثمانية؟

جميع هؤلاء الكتبة يتوقع أنهم ماتوا قبل سنة ٧٠ م باستثناء يوحنا الذي يقال بأنه عاش إلى نهاية القرن الأول.

ونستطيع القول بملء الفم أنه لا يوجد مخطوط أو قصاصة إنجيلية قبل عام ١٦٠م، فأقدم بردية على الإطلاق هي البردية (P52)، وهي « قصاصة

صغيرة .. تضم سطوراً قليلة من الأصحاح الثامن عشر من إنجيل يوحنا، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، كما سجل ذلك محررها، وكذلك حسب تقدير علماء الكتابات القديمة»[1]، وهذه القصاصة لا يظهر فيها إلا ١١ كلمة فقط.

لكنها على أي حال تفتح لنا تاريخ مخطوطات العهد الجديد، فقد نقل إلينا عن طريق:

١ . البرديات، وهي لفائف أو قصاصات من ورق البردي، ويبلغ عددها بحسب مايكل فيلت في معهد دراسات العهد الجديد في مونستر بألمانيا ١٠٩ بردية[2]، تقول دائرة المعارف الكتابية: «جميع ما وصلنا من أقدم المخطوطات اليونانية للعهد الجديد، مسجل على ورق البردي، ويرجع تاريخها إلى الفترة من منتصف القرن الثاني الميلادي حتى القرن الرابع ... وهناك مجموعتان هامتان من المخطوطات البردية، هما:

١ .مجموعة تشستر بيتي ... وتضم البرديات الآتية:

أ. بردية (P45)، وتحوي $\frac{1}{7}$ الأناجيل الأربعة تقريباً مع سفر الأعمال، وترجع إلى أوائل القرن الثالث الميلادي.

ب. بردية (P46)، وتحوي جزءًا كبيرًا من رسائل الرسول بولس (ما عدا الرسائل الرعوية) بالإضافة إلى الرسالة إلى العبرانيين، وترجع أيضاً إلى أوائل القرن الثالث الميلادي.

ج. بردية (P47)، وتحتوي على ثُلُث سفر الرؤيا تقريباً، وترجع إلى القرن

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٨٤)، ولا توافق الدراسات الحديثة على هذا التاريخ، وترجح تأخر كتابتها إلى نهاية القرن الميلادي الثاني.

(٢) انظر : برهان جديد ينتظر قرارًا، جوش ماكدويل، ص (٨٠).

الثالث أيضـًا.

٢. المجموعة الثانية من المخطوطات البردية للعهد الجديد - ولعلها الأهم - هي مجموعة مكتبة بودمر (Bodmer) في جنيف بسويسرا. .. ، وهي تضم:

أ- البردية (P66)، وتشمل على قسم كبير من إنجيل يوحنا، ويرجع بعض العلماء بتاريخها إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، وهي بذلك تعتبر أقدم مخطوطة لأي جزء من العهد الجديد.

ب- البردية (P72)، وتشتمل على رسالة يهوذا ورسالتي بطرس الرسول، بالإضافة إلى العديد من كتابات أخرى، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي..»[1].

وهكذا فإن أقدم البرديات يعود إلى أزيد من مائة سنة على وفاة المؤلفين، وهي كما رأينا ليست مخطوطات كاملة، بل شذرات من بعض أسفار النص المقدس.

٢. المخطوطات المكتوبة على جلود الحيوانات (الرقوق)، وهي نوعان:

الأول: المكتوب بالخط الكبير، ويبلغ عددها «نحو مائتين وخمسين مخطوطة تتفاوت أحجامها من قصاصة تضم بضع آيات؛ إلى مخطوطة تضم العهد الجديد كله، وقد كتبت في فترات بين القرن الرابع حتى القرن العاشر الميلادي،... [وأهمها] المخطوطة السينائية، وترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وتضم العهدين القديم والجديد كاملين ... المخطوطة الإسكندرية، وهي مخطوطة من القرن الخامس، وتشمل معظم العهدين ، ولكن ينقصها من العهد الجديد: إنجيل متى كله تقريبـًا، وجزء من إنجيل

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٨٣-٢٨٤)، وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٤٦)، وبرهان جديد ينتظر قرارًا، جوش ما كدويل، ص (٨٢).

يوحنا، ومعظم الرسالة الثانية إلى كورنثوس ... المخطوطة الفاتيكانية، وقد كتبت في منتصف القرن الرابع الميلادي تقريبـًا، .. ولعلها أهم مخطوطة باقية للعهد الجديد، وكانت أصلاً تضم العهدين كليهما وجزءاً من أسفار الأبو كريفا، أما الآن فينقصها جزء من الرسالة إلى العبرانيين وكل رسائل تيموثاوس الأولى والثانية وتيطس وفليمون وسفر الرؤيا»[1].

وأما النوع الثاني ، فهي المخطوطات المكتوبة بحروف صغيرة، وتمثل العدد الأكبر من المخطوطات الإنجيلية، وتبلغ بحسب إحصاء مايكل فيلت ٢٨٦٠ مخطوطة ، أي ما نسبته ٨٧٪ من العدد الإجمالي للمخطوطات والبردي (٣٢٧٦)[2]، ولكن قيمتها ضعيفة جدًا، لأنها جميعًا كتبت في القرن الميلادي العاشر وما بعده، لذلك سنعرض عن تفاصيلها، لنتساءل عن حال هذه المخطوطات ومدى توافقها مع بعضها بعد أن عرفنا الفارق الزمني الذي يفصل بين تاريخ كتابته والكاتب الأصلي .

تعترف الأوساط العلمية بالعدد الكبير من الأخطاء التي تحملها هذه المخطوطات، فمنذ القديم اتهم علامة المسيحية أوريجانوس (ت ٢٥٤م) نُسَّاخ المخطوطات بالتحريف: «إن الاختلافات بين المخطوطات قد أصبحت كبيرة، إما بسبب إهمال بعض النسّاخ، أو بسبب التهور الجامح لآخرين، فإما أن يهملوا تدقيق ما نقلوه، أو في أثناء عملية التدقيق يقومون بإضافات أو حذف كما يرغبون»[3].

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٨٠-٢٨٠)، وانظر: برهان جديد ينتظر قرارًا، جوش ما كدويل، ص (٨٠)، وهو ينقل ارتفاع عدد هذه الرقوق المكتشفة حتى عام ١٩٩٨م إلى (٣٠٧).

(٢) انظر : برهان جديد ينتظر قرارًا، جوش ماكدويل، ص (٨٠).

(٣) الاقتباس الخاطئ عن المسيح ، بارت إيرمان، ص (٧١)، وانظر:
New Testament tools and studies -Bruce Metzger - pg 11

وفي الحديث وضعت المخطوطات بين أيدي العلماء، وقارنوا بينها فوجدوا أن الخلافات بينها كبيرة وعميقة، وأن ما قاله أوريجانوس قديمًا عن معاصريه من النساخ هو حقيقة واقعة، يقول الآباء اليسوعيون في مقدمة نسختهم للإنجيل: «يمكن للمرء أن يرى فيها فوارق مختلفة الأهمية، ولكن عددها كثير جدًا .. بعض النساخ حاولوا أحيانًا عن حسن نية أن يصوبوا ما جاء في مثالهم [مخطوطتهم]، وبدا لهم أنه يحتوي أخطاء واضحة ، أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، وهكذا أدخلوا إلى النص قراءات جديدة تكاد أن تكون كلها خطأ»(١).

وهذا الاتهام للنساخ بتعمد التحريف يوافق عليه محررو دائرة المعارف الكتابية: « عند نسخ أي كتاب بخط اليد، لابد أن تحدث أخطاء عند النقل، سواء سهوًا أو عمدًا في بعض الأحيان .. وقعت هذه الاختلافات المقصودة نتيجة لمحاولة النسَّاخ تصويب ما حسبوه خطأ، أو لزيادة إيضاح النص، أو لتدعيم رأي لاهوتي ... كما حدث في إضافة عبارة: «**والذين يشهدون في السماء هم ثلاثة**» (١يو٥: ٧) حيث إن هذه العبارة لا توجد في أي مخطوطة يونانية ترجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر، ولعل هذه العبارة جاءت أصلاً في تعليق هامشي في مخطوطة لاتينية، وليس كإضافة مقصودة إلى نص الكتاب المقدس، ثم أدخلها أحد النسَّاخ في صلب النص»(٢).

وحتى يقف القارئ على أهمية هذا النص المقحم في الكتاب المقدس من قبل أحد نساخ مخطوطات القرن الميلادي الخامس عشر؛ فإنا نؤكد له أنه الدليل الوحيد في الكتاب المقدس الذي يدعم فكرة الثالوث الموحد الذي

---

(١) مقدمة الآباء اليسوعيين في نسخة الرهبانية اليسوعية، ص (١٢-١٣).

(٢) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٩٥)، وانظر: تعليق الآباء اليسوعيين في الرهبانية اليسوعية، ص (٧٦٤).

تتغنى به الكنيسة، كأحد أهم عقائدها، وقد أضيف إلى المخطوطة بعد موت المؤلف الأصلي (يوحنا) بأزيد من ١٣٠٠ سنة!!.

ورغم ذلك كله، تحاول دائرة المعارف طمأنة المؤمنين إلى موثوقية كتابهم والتقليل من التأثير السلبي لهذه الزيادات والاختلافات ذات «العدد الضخم» بين المخطوطات والأخطاء التي افتعلها النساخ ، فتقول: « ويجب ألا يخطر على بالنا أن نصوص العهد الجديد مبنية على أسس مشكوك في صحتها بسبب العدد الكبير من أجيال المخطوطات، أو بسبب العدد الضخم من الاختلافات الموجودة في المخطوطات، ففي الواقع لا يحوم أدنى شك حول الجزء الأكبر من كلمات العهد الجديد، ولم يسترعِ انتباه ناقدي النصوص سوى جزء صغير جدًا نسبيًا من كلمات العهد الجديد، فكل مخطوطات العهد الجديد في واقع الأمر متطابقة، ولا يوجد أدنى شك في سبعة أثمان كلمات العهد الجديد.

ولو غضضنا الطرف عن الاختلافات عديمة القيمة، فإن ١ / ٦٠ (نحو ٦٧ , ١٪) فقط من كلمات العهد الجديد يمكن أن تكون موضع تساؤل»[1]، فالعلماء المحررون يطلبون منا ألا نجزع لكثرة الأخطاء، فالشك في كلمات الإنجيل ذات القيمة لا يتجاوز الـ٢٪ من كلماته، وهي بحسب رأيهم نسبة قليلة وغير مهمة، لذلك لا ينبغي الفزع منها، وأما الـ٩٨٪ وهي الغالبية، فهي مما يستحق أن يفرح به المؤمنون لأنها كلمات موثوقة أصيلة.

لقد أدى هذا العدد الكبير من الاختلافات إلى صعوبة استخراج نص موحد منها، فلجأت طبعات الإنجيل المختلفة إلى تخير ما يناسب طابعيها من المخطوطات الإنجيلية إلى تم تقسيمها إلى أربعة عوائل رئيسة، هي:

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٣٧٩).

(١) النص السرياني، ويسمى أيضاً البيزنطي والأنطاكي والمستلم، ويظهر في المخطوطات المتأخرة، وبحسب رأي الآباء اليسوعيين «قيمته ضعيفة من جهة النقد، ومع ذلك فإن الطبعات الأولى للعهد الجديد اعتمدت نسخًا متأخرة من هذا النص، فشاع مدة تزيد على ثلاثة قرون»، وقد أُهمل لاحقًابعد ملاحظة خلو كتابات الآباء الأوائل من الاقتباس منه.

(٢) النص الغربي: ويرجع إلى القرن الثاني ، وهو «الصيغة الأقدم والأعم للعهد الجديد».

(٣) النص السكندري .. «وجد نحو السنة ٣٠٠ على أقل تقدير.. وتعتمد عليه طبعات العهد الجديد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، وتمثله المخطوطات السكندرية التي لا تتواءم مع المخطوطة الفاتيكانية.

(٤) النص المحايد: .. ويعتمد على المخطوطات الفاتيكانية والسينائية وعدد من المخطوطات ذات الحرف الكبير والصغير ، ويرى [العالمان في جامعة كمبريدج] وستكوت وهورت «أنه يمثل النص الأصلي بأقل التغييرات»[١].

ونخلص من هذا كله إلى مقارنة سريعة بين المخطوطات القرآنية والكتابية:

١ . المخطوطات القرآنية تعود إلى زمن جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من عشرين سنة، بينما الفاصل الزمني في مخطوطات العهد القديم بين النبي وكاتب أول مخطوط يمتد إلى قرابة الألف سنة، وفي مخطوطات العهد الجديد يمتد إلى ما يقارب المائتي سنة.

٢ . لدينا مخطوطات كاملة ترجع إلى القرن الهجري الأول، بينما نجد أن

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٩٦)، وانظر: مقدمة نسخة الرهبانية اليسوعية، ص (١٤).

أول مخطوطة كاملة للعهد القديم قد كتبت بعد النبي موسى بألف وسبعمائة سنة.

٣. الأخطاء في المخطوطات القرآنية نادرة ومعدودة، وهي أخطاء نساخية متوقعة، وبسيطة، ولا تتكرر في أي مخطوط آخر، لا تنتج معنى جديدًا، بينما هي في المخطوطات التوراتية والإنجيلية كبيرة إلى حد؛ أن صار لدينا قراءات نصية مختلفة، يستحيل الجمع بينها.

٤. الأخطاء النسخية في المخطوطات القرآنية سببها السهو والضعف البشري، لا التعمد، وتخلو من الإضافات ، سواء للكلمات أو الآيات، بينما تحتوي المخطوطات الكتابية على كلمات وفقرات كاملة أضافها النساخ متعمدين لخدمة عقائد ومعاني مهمة ، بل تشتمل مخطوطاتهم على أسفار كاملة، كانوا يعتبرونها من كلام الله ووحيه، ثم تبين للكنيسة أنها مزورة ومدسوسة.

٥. جميع أخطاء النساخ في المخطوطات القرآنية معروفة، ويمكن لأي حافظ للقرآن أن يصححها من ذاكرته، لذلك لم يتسلل منها خطأ واحد في نص القرآن الكريم، بينما تسللت الكثير من إضافات وأخطاء النساخ إلى النصوص الكتابية، وما زال الناس يقرؤونها على أنها من كلمة الله ووحيه.

٦. أن المسلمين يمكنهم الاستغناء عن كل المخطوطات القرآنية، لتوفر آلية أخرى لحفظ النص القرآني، وهي الحفظ، بينما لا يملك اليهود والنصارى أي وسيلة غير المخطوطات للوصول إلى النص الكتابي.

***

هل القرآن الكريم من إنشاء محمد ﷺ؟

قالـوا : القرآن ليس وحي الله، بل هو من إنشاء محمد وإبداعه!.

والجواب : أن هذه دعوى تحتاج إلى دليل، كما أن القول بنزول القرآن من الله على النبي ﷺ دعوى تحتاج أيضاً إلى دليل، فنحن أمام خيارين: أولهما أن القرآن من كلام الله. والآخر أنه من إنشاء النبي ﷺ.

ولو فرضنا ـ جدلاً ـ صحة الخيار الثاني ، فإنا نتساءل: لماذا يؤلف مدعي النبوة هذا السِفر العظيم وتلك اللوحة البيانية المذهلة ثم ينسبه إلى غيره.

ولماذا يتحدى العالمين أن يأتوا بمثله؟ وكيف له أن يحيط بأخبار الأولين وأن يتوصل إلى علوم الآخرين؟ وكيف تنبأ بالغيوب الكثيرة التي ملأت صفحات كتابه، ومنها ما تحقق في حياته، ومنها ما يشهد وقوعه بصدقه إلى قيام الساعة.

ثم لو كتب مدعٍ ما كتاباً، فماذا ترانا نتوقع أن نجد فيه؟

لو أطلق الواحد منا خياله محاولاً تصور كتاب يكتبه مدع كاذب؛ فإنه سيجد الكثير مما ينبه العقلاء – ولو بعد حين – إلى بشريته، وأنه من صناعة إنسان، وهذا ليس بالعسير، فالبشر يكتبون بمعايير البشر وقدراتهم، ووفق أحاسيسهم ورغباتهم وعلومهم وموضوعاتهم.

إن نظرة فاحصة لآي القرآن ستنبئ عن إلهية منزل القرآن؛ إذ هو في موضوعاته يتسامى بعيداً عن اهتمامات البشر وما يجول في أذهانهم، فحديثه يدور حول موضوعات لا يطرقها البشر عادة ولا يقدرون على الإنشاء فيها، كالحديث عن صفات الله وأسمائه وأفعاله، وعن اليوم الآخر وأهواله وجنته وناره، والحديث عن التاريخ القديم والمستقبل البعيد.

وفي مقابل ذلك لا نجد أي مشاعر إنسانية يحملها القرآن في صفحاته، فلا يظهر فيه حزن الاستضعاف المكي، ولا نشوة النصر المدني، لا نجد فيه أي حديث يتعلق بآلام النبي ﷺ وأفراحه وآماله وتطلعاته، فكما لا يتحدث القرآن عن موت زوجه خديجة وعمه أبي طالب في عام الحزن؛ فإنه لا يذكر شيئاً عن زواجه أو ميلاد أولاده أو وفاتهم أو غير ذلك من الأمور الشخصية المتعلقة بزوجاته أو أصحابه، فالقرآن غير معني بتسجيل السير والحكايات ، لذلك لم يرد فيه ذكر اسم زوجة من زوجاته أو ابن من أبنائه وبناته، بل ولا اسم عدو من أعدائه ، ولا صاحب من أصحابه ، خلا أبا لهب وزيداً رضي الله عنه.

بل إن القرآن لم يذكر اسم النبي ﷺ في صفحاته إلا خمس مرات، بينما ذكر عيسى عليه السلام باسمه خمساً وعشرين مرة، وذكر موسى بما يربو على المائة مرة؛ ليبرهن لكل قارئ أنه كتاب الله ، وليس كتاب محمد ﷺ[١].

وإذا شئنا مزيداً من البيان فلننظر إلى الكتب التي يؤمن بها اليهود والنصارى اليوم؛ فإنا نجدها مليئة بما يدل على بشريتها، بما تحكيه من هموم البشر وآلامهم وآمالهم ورغباتهم، وذلك باب يطول تتبعه ، وحسبك من القلادة ما أحاط العنق.

أرسل يوحنا في رسالته المقدسة عند النصارى كلمات تبين عواطفه ومشاعره الإنسانية، فيقول: « **غايس الحبيب الذي أحبه بالحق، أيها الحبيب في كل شيء أروم أن تكون ناجحاً وصحيحاً... سلام لك، يسلم عليك الأحباء، سلم على الأحباء بأسمائهم**» (يوحنا (٣) ١-١٤).

وأما بولس فكتب إلى صديقه تيموثاوس رسالته التي أضحت عند

(١) هذه الملاحظة دفعت أستاذ الرياضيات في جامعة الظهران الدكتور الكندي غاري مِلر لاعتناق الإسلام في عام ١٩٧٧م.

النصارى جزءاً من كتابهم المقدس، فيقول فيها: «الرداء الذي تركته في تراوس عند كابرس أحضره متى جئت، والكتب أيضـًا لاسيما الرقوق .... سلم على ريسكا وأكيلا وبيت أنيسي فورس، اراستس بقي في كورنثوس، وأما تروفيمس فتركته في ميليتس مريضـًا، بادر أن تجيء قبل الشتاء...» (تيموثاوس (٢) ٤/ ١٣ - ٢١)، فمثل هذا الإنشاء والمعاني الإنسانية لا تجده في القرآن العظيم.

وفي مقابله يمكننا من خلال تفحص النص القرآني الوقوف على عشرات الشواهد التي تثبت أن هذا القرآن ليس من إنشاء محمد ﷺ ولا تأليفه، بل هو كلام الله تبارك وتعالى المنزل عليه ﷺ.

وفي هذا الصدد نقف مع أربعة أنواع من الآيات الدالة على ذلك، وهي:

- آيات عتاب النبي ﷺ.
- آيات تتعلق بأحداث تشهد بوحي القرآن عليه.
- إعجاز القرآن الكريم.
- إخبار القرآن بالغيوب.

وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولاً: دلالة آيات العتاب :

البشر حين يكتبون فإنهم يمجدون أنفسهم ويعظمون عند الناس ذواتهم، فالبشر يكتبون ليخلدوا ذكرهم ومفاخرهم، وهم بالطبع يتعامون عن ذكر معايبهم وأخطائهم، فما لتخليد هذا يكتبون.

ولم يسجل التاريخ البشري عن كاتب ما سجله القرآن من عتاب الله نبيه ﷺ على بعض ما فعله ، ولو كان القرآن من إنشائه لبرر له فِعاله، وصوّب خطأه، فآي القرآن على خلاف ما نعتاده من البشر ونسقهم وطرائقهم في التأليف.

والمواضع التي عاتب الله فيها نبيه ﷺ عديدة ، منها أنه لما جاءه المنافقون بعد غزوة تبوك يعتذرون عن تخلفهم بأعذار كاذبة؛ قبِل منهم أعذارهم، وعفا عنهم، فعاتبه ربه عز وجل: ﴿ **عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ **(التوبة: ٤٣)**(١).

ومنها أنه لما جاء إليه زيد بن حارثة يستشيره في طلاق امرأته زينب؛ أمره النبي ﷺ بإمساكها، مع أن الله أعلمه أن زيداً سيطلقها، وأنها ستكون زوجة له ﷺ وأُمّـًا للمؤمنين، فكشف القرآن سر نفسِه: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ **(الأحزاب: ٣٧)**، تقول عائشة رضي الله عنها: (ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه؛ لكتم هذه)(٢).

ومنها أنه لما دخل على النبي ﷺ نفر من سادات قريش، فجعل يعرض عليهم الإسلام وهو يطمع في إسلامهم، وفيما هم كذلك دخل عليه عبد الله بن أم مكتوم وهو أعمى يسأله، فأعرض عنه النبي ﷺ وأقبل على السادة طمعاً في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري (١٤/ ٢٧٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٧٤٢٠)، ومسلم ح (١٧٧).

إسلامهم، فعاتبه ربه: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۞ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى** ﴾ (**عبس: ١-١٠**)[1]، ولو كان القرآن من كلام محمد، لما سطر فيه مثل هذا، بل كتمه.

وقد لفت هذا الموقف نظر المستشرق الإنجليزي الدكتور (ويلهام لايتنر)، فقال في كتابه "دين الإسلام": "مرة أوحى الله إلى النبي وحياً شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهَه عن رجل فقير أعمى، ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذباً لما كان لذلك الوحي من وجود"[2].

وكذلك عاتب الله نبيه ﷺ لما حرم على نفسه العسل، حين أكله عند إحدى أزواجه، فأخبرته زوجتان أخريان أنهما تجدان منه ريح المغافير، وهو طعام حلو الطعم، سيء الرائحة، فحرَّمه ﷺ على نفسه، فقال له الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ** ﴾ (التحريم: ١).

ولو كان محمد ﷺ مؤلف القرآن لما قال فيما هو في ظاهره خطاب له ﷺ: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ (الإسراء: ٧٤-٧٥).

ولو كان من تأليفه لما قال عن نفسه: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ (**الحاقة: ٤٤-٤٧**)، فما هكذا يكتب البشر عن أنفسهم.

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٣٣١).

(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (١٣٤).

ثانياً : أحداث تشهد بوحي القرآن :

إن آيات القرآن لم تعاتب النبي ﷺ فحسب، بل جاءت أحياناً على خلاف ما يحبه ﷺ ويهواه، ومن ذلك أنه لما توفي عبد الله بن أُبي كبير المنافقين، كفنه النبي ﷺ في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه ، فقال له عمر رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: «**إنما خيرني ربي فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٨٠)، وسأزيده على السبعين**».

لقد كان ﷺ حريصاً على أن تدرك رحمته كل أحد ، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ** ﴾ (التوبة: ٨٤)، فترك الصلاة عليهم[١].

ولما حضرت الوفاة عمه أبا طالب؛ دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله ؛ كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب.

فقال النبي ﷺ متحسراً على وفاة عمه على غير الإسلام: «**لأستغفرن لك؛ ما لم أُنه عنه**» قال ذلك وفاء منه ﷺ لعمه الذي كثيراً ما دافع عنه وآزره، فنزل قول الله على غير مراده: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ (التوبة: ١١٣)، ونزل: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ (القصص: ٥٦)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٠)، ومسلم ح (٢٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٣٦٠)، ومسلم ح (٢٤).

وصلى ﷺ الفجر يومـًا، فرفع رأسه من الركوع، وقال والأسى يعتصر قلبه مما يصنعه كفار قريش بأصحابه: «**اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم العن فلانـًا وفلانـًا وفلانـًا**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٢٨)(١).

كيف يصح فرض أن القرآن من إنشاء النبي ﷺ، وفيه قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ۝ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً** ﴾ (**الإسراء: ٨٦-٨٧**).

وإن مما يدفع هذا الفرض ويدحضه تأخره عليه الصلاة والسلام في جواب أسئلة ملحة استلبث الوحي في جوابها، مع مسيس حاجته ﷺ إلى هذا الجواب.

ومن ذلك أن قريشـًا بعثت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وطلبوا منهم العون في اختبار النبي ﷺ للوقوف على صدق نبوته، فأرشدهم اليهود إلى سؤاله عن أمور ثلاثة: عن فتية كانوا في الدهر الأول، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح ما هو؟

وقالوا: فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأتت قريش النبيَّ ﷺ وسألته، فقال لهم: «أخبركم غدا عما سألتم عنه»، ولم يستثن [أي لم يقل: إن شاء الله].

فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِثُ الله له في ذلك وحيـًا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه.

وأحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة.

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٠٧٠).

ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وفيها أيضًا خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وفيها قول الله عز وجل: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ **(الإسراء: ٨٥)**[(١)]، فلو كان القرآن من عند نفسه ﷺ لأجابهم من لحظته أو بعد ساعة، ولما أرهق نفسه خمس عشرة ليلة في انتظار جواب هو سيقوله وينشئه من عند نفسه.

وحين أرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه - عائشة رضي الله عنها أبطأ الوحي في بيان براءتها، وطال الأمر عليه وعلى المسلمين، والناس يخوضون في الإفك، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يملك إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «**إني لا أعلم عنها إلا خيراً**».

وبقي ﷺ شهراً في غم واستشارة للأصحاب، والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله**»[(٢)].

ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ (النور: ٢٦)، فأعلم الناس ببراءتها.

فماذا كان يمنعه — لو أن أمر القرآن إليه — أن يسارع إلى تقول هذه الكلمات الحاسمة؛ ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ﷺ الصادق الأمين الذي ما كان ليذر الكذب

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٧/ ٥٩٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٢٦٦١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

على الناس ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٧)[١].

ثالثاً: الكتاب المعجز:

ولو عدنا ثانية إلى الفرض بأن القرآن من تأليف النبي ﷺ وإنشائه؛ لتبين لنا استحالة هذا الفرض بمجرد النظر في نظم القرآن وأسلوبه ومقارنته مع أسلوب النبي ﷺ في حديثه المدون في كتب السنة والحديث، ليقيننا أنه لا يمكن لأديب أن يغير أسلوبه أو طريقته في الكتابة بمثل تلك المغايرة التي نجدها بين القرآن والسنة.

ولو شئنا أن نضرب لذلك مثلاً، فنقارن بين بيان القرآن وأسلوبه وبين كلام النبي ﷺ، فكلاهما كلام بليغ، لكن شتان بين كلام الباري وكلام عبده.

فقوله: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...**»[٢] كلام عربي فصيح، لكن شتان بينه وبين قول الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ۞ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۞ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۞ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۞ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۞ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (مريم: ٧٧-٨٤)، فبين القولين من تباين الأسلوب وجزالته ما لا يخفى على

---

(١) انظر: النبأ العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز، ص (٢٢-٢٨) والطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين، عبد المحسن زبن المطيري، ص (٣١١).

(٢) أخرجه البخاري ح (١)، ومسلم ح (١٩٠٧).

العوام؛ فضلاً عن أرباب الفصاحة والبيان.

وإذا كان القرآن من تأليف النبي ﷺ، فكيف نجح في تأليف هذا الذي ذهل لبلاغته أرباب اللغة ورواد الأدب والبيان؟ كيف جرُأ على تحديهم بالإتيان بمثله؟ ولماذا لم ينسبه إلى نفسه فيحوز شرف تأليفه وإبداعه؟ أما كان من الأوفق له أن ينسبه لنفسه ويتحدى به الآخرين، ولن يعارضه أحد في أنه صاحبه؟!

لقد جعل الله القرآنَ الكريم أعظم وأدوم معجزات النبي ﷺ، فهو معجزته في كل عصر وحين، وقد تحدى من قال بأنه من تأليف محمد ﷺ، فدعاهم إلى الإتيان بمثله، فكلام البشر يقارع ويضارع، وأما كلام الرب فلا يماثل ولا يكافأ.

لكن العرب على فصاحتهم وبيانهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله رغم التحدي القرآني المستفز لهممهم والتي تؤزه شدة الكراهية والعداوة له والحرص على الطعن فيه والتماس أي زلل فيه أو خطأ، وأعيتهم الحيل في ذلك، وهم يسمعونه يصدع بين ظهرانيهم: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾ (الطور:٣٣-٣٤).

فلما أعجز المشركين أن يأتوا بمثل جميعه، تحداهم القرآن بأقل منه؛ أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عندهم تضارع القرآن وتماثل بيانه ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (هود: ١٣).

فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثله تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة واحدة تضارعه في بيانه وإحكامه: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ٢٣).

ويبلغ التحدي القرآني غايته حين يخبر القرآن أن عجز المشركين عن محاكاته والإتيان بمثله عجز دائم لا انقطاع له، فيقول: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ** ﴾ (البقرة: ٢٤)، وأن نتيجة التحدي النهائية هي خسارة أعداء القرآن والزاعمين بشريته ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء: ٨٨).

كما قرر القرآن التحدي في صورة أخرى كان يذكرهم بها كرَّة بعد كرَّة، وهي الحروف المقطعة التي تبدأ فيها تسع وعشرون سورة من سور القرآن ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (البقرة: ١)، ﴿ **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ﴾ (ص: ١)، ﴿**حم ۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ (غافر: ١-٢)، فهذه الآيات وأمثالها تقول للعرب: القرآن مكون من هذه الحروف، وهي حروف شعركم ونثركم، فهاتوا مثله يا من تدعون أنه من كلام محمد ﷺ.

قال ابن كثير: «إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته»[١].

وهذا التحدي الإلهي قائم ما دام الليل والنهار، ولئن عجز عنه أرباب اللغة زمن جزالتها، فإنه لن يقدر عليه أولئك المتطفلون اليوم على موائد العلم والأدب والذين يحاولون محاكاة القرآن بالمضحك من القول والسخيف من المعاني، وسفاسف المعارف.

فحين أراد مسيلمة معارضة القرآن فضحه الله وأخزاه، فكان قوله محلاً لسخرية العقلاء وإعراض البلغاء، فقد قال: "يا ضفدع، نقي كما تنقين، لا الماء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٦٠).

تـدركين ، ولا الشـراب تمنعـين، لنـا نصـف الأرض، ولقـريش نصـف الأرض، ولكنّ قريشـًا قوم يعتدون"[١].

وقال أيضـًا معارضـًا القرآن: " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخـرج مـن بطنها نسـمة تسعى ، مـن بـين صـفاق وحشـى .. أوحـي إلـي أن الله خلـق النسـاء أفراجـًا، وجعل الرجال لهن أزواجـًا، فنولج فيهن قعسـًا إيلاجـًا، ثم نـخرجهـا إذا نشاء إخراجـًا، فينتجن لنا سخالاً إنتاجـًا"[٢].

وشرع الأديب ابن المقفع في معارضة القرآن ، وكان من أفصح أهل زمانه، ثم مرَّ بصبي يقرأ: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ** ﴾ (هـود: ٤٤) فرجـع فمحـى مـا عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر[٣].

ومثله صنع يحيى بن حكم الغزال بليغ الأنـدلس في زمنـه، فحُكـي أنـه رام معارضـة القـرآن، فنظـر في سـورة الإخـلاص ليحـذو عـلى مثالهـا وينسـج عـلى منوالهـا ، فعجـز وقـال: "فـاعترتني منـه خشـية ورِقَّـة حملتنـي عـلى التوبـة والإنابة"[٤].

وظهرت في العصر الحديث محاولات سخيفة لتقليد القرآن ومحاكاته، لم يـزد صـانعوها عـلى محاكـاة أسـلوب القـرآن وطريقتـه في البيـان مـع تغيـير بعـض الألفاظ بطريقة تدعو للضحك، وتستدعي الشـفقة، ومـن ذلـك أن القـس أنـيس شروش يحكي عن جهد قامت به مجموعة من المفكرين في القدس، وقد عملـوا

---

(١) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٦)، وابـن بطـة في الإبانـة الكـبرى ح (٢٤٢٣)، وابـن حبـان في الثقات (٢/ ١٧٦).

(٢) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ٤٩٩).

(٣) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (١/ ٢٧٥).

(٤) انظر المصدر السابق (١/ ٢٧٥).

خلال ست عشرة سنة على إعادة صياغة الإنجيل على نحو أسلوب القرآن ، فكان مما تحذلقوا فيه بعد هذه السنين: "بسم الله الرحمن الرحيم. قل يا أيها الذين آمنوا إن كنتم تؤمنون بالله حقاً فآمنوا بي ولا تخافوا. إن لكم عنده جنات نزلاً. فلأسبقنكم إلى الله لأعدها لكم ، ثم لآتينكم نزلة أخرى ، و إنكم لتعرفون السبيل إلى قبلة العليا.

فقال له توما الحواري: مولانا إننا لا نملك من ذلك علماً. فقال له عيسى: أنا هو الصراط إلى الله حقاً ، ومن دوني لا تستطيعون إليه سبيلاً، ومن عرفني فكأنما عرف الله ، ولأنكم منذ الآن تعرفونه وتبصرونه يقيناً ، فقال له فيليب الحواري: مولانا أرنا الله جهرة تكفينا، فقال عيسى: أو لم تؤمنوا بعد، وقد أقمت معكم دهراً ؟ فمن رآني فكأنما رأى الله جهراً ".

وقد عقب القس على هذا الكلام الركيك الذي استمروا في إعادة صياغته خمس عشرة سنة بقوله: "إنه نص جميل بلغة عربية جميلة "(١).

وقد تكامل هذا الجهد السخيف، حين أصدروا ما سمي بـ "الفرقان الحق"، وأقتبس منه بعض الفقرات لأؤنس بها القارئ الكريم: "باسم الآب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد * يا أيها الذين كفروا من عبادنا الضالين إنكم لتقولون قولاً لَغْواً ما كان شعراً ولا نثراً ولا قولاً سديداً * إنْ هو إلا لغوٌ مردَّدٌ ترديداً * يرغِّب التابعين ترغيباً ويهدد المعرضين تهديداً * حَسُنَ وقعاً في نفوس عبادنا الضالين واستمرأه الجاهلون * سمٌّ في دسمٍ ولكن أكثرهم لا يشعرون فلا يَبْغُون عنه محيداً"(٢).

(١) القرآن والكريم والكتاب المقدس، أيهما كلام الله؟ أحمد ديدات وأنيس شروش ، ص (١٠١-١٠٢).

(٢) (الفرقان الحق)، منشور على شبكة الإنترنت.

ويحكي الدكتور إبراهيم خليل قصة طبيب مصري مسيحي استفزه تحدي القرآن ، فعزم على إنشاء كتاب يجيب فيه التحدي ، ويسميه: "وانتهت تحديات القرآن".

وسعياً لتحقيق ذلك كتب الطبيب المصري رسالة أرسل صورة منها إلى ألفي عالم أو معهد أو جامعة ممن تخصصوا بالدراسات العربية والإسلامية في مختلف أنحاء العالم يدعوهم لمساعدته في إنجاز هذا الكتاب المهم، وكان مما سطره في خطابه قوله: "القرآن يتحدى البشرية في جميع أنحاء العالم في الماضي والحاضر والمستقبل بشيء غريب جداً ، و هو أنها لا تستطيع تكوين ما يسمى بالسورة باللغة العربية... السورة رقم ١١٢ ، و هي من أصغر سور القرآن ، ولا يزيد عدد كلماتها عن ١٥ كلمة ، ويتبع ذلك أن القرآن يتحدى البشرية بالإتيان بـ(١٥) كلمة لتكوين سورة واحدة كالتي توجد بالقرآن...

سيدي: أعتقد أن مهاجمة هذه النقطة الهامة والخطيرة ، وذلك بالإتيان بأكبر عدد ممكن من السور كالتي توجد، أو - آمل أن تكون - أفضل من تلك الموجودة بالقرآن سيسبب لنا نجاحاً عظيماً لإقناع المسلمين بأنا قبلنا هذه التحديات ، بل وانتصرنا عليهم... فهل تتكرم يا سيدي مشكوراً بإرسال ١٥ كلمة باللغة العربية أو أكثر من المستوى البياني الرفيع مكوناً جملة كالتي توجد في القرآن..".

وللتوثيق أورد الدكتور إبراهيم خليل صورة الخطاب وعناوين الجهات (٢٠٠٠ عنوان) التي أرسل إليها، وتكررت محاولة الطبيب المسيحي أربع مرات طوال سنة ١٩٩٠م ، فكانت محصلة ثمانية آلاف رسالة أرسلها إلى ٢٠٠٠ جهة أو شخصية علمية؛ أن وصلت إليه ردود اعتذار باهتة عرض الدكتور إبراهيم خليل صورها في كتابه، منها اعتذار كلية الدراسات الشرقية

والإفريقية في جامعة لندن، فقد كان ردها: "آمل أن نتفهم أن كُليتنا وأعضاءها يرفضون الخوض في المنازعات الدينية، و بالتالي فإنه لا يمكننا إجابة طلبك ".

و أما رد إذاعة حول العالم التنصيرية (مونت كارلو) فكان: " الموضوع الذي طرحته موضوع هام، لكننا كإذاعة لا نحب أن ندخل في حمى وطيس هذه المعركة، إذ لا نظن أنها تخدم رسالة الإنجيل، فرسالتنا هي رسالة محبة، وليست رسالة تحدي...".

وأما رد الأب ليو من الفاتيكان فكان مثيراً للشفقة: "بوصفنا مسيحيين فنحن لا نقبل بالطبع أن يكون القرآن هو كلام الله على الرغم من إعجابنا به؛ حيث يعتبر القمة في الأدب العربي.. هناك نقطة عملية تعوق مسألة الإتيان بسورة من مثل القرآن، وهي: من ذا الذي سيحكم على هذه المحاولة إن تمت بالفعل..."، ولذلك اعتذر عن إجابة طلبه.

وأعاد الطبيب القبطي مراسلة جميع معاهد ومؤسسات الفاتيكان طالباً إجابة التحدي ، وعرض أن يكون هو شخصياً الحكم بين القرآن والفاتيكان ، وطلب من الأب " ليو" في الفاتيكان أن ينقل أي جزء مكون من ١٥ كلمة من الكتاب المقدس ليعارض بها القرآن، فكانت الإجابة صمت مطبق لا يشبهه إلا صمت أصحاب القبور(١)، ليصدق فيهم جميعاً قول الله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء: ٨٨).

لقد اعترف أعداء القرآن - قديماً- بعظمة القرآن رغم عدائهم له، وذلَّت رقابهم لما سمعوه من محكم آياته، فها هو الوليد بن المغيرة سيد قريش وسابقها إلى محاربة النبي ﷺ يسمعه وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ**

(١) انظر: لماذا أسلم صديقي؟ إبراهيم خليل ، ص (٦٧-١١١).

بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠)، فيقول قولته المشهورة: "والله إنَّ لقولِه الذي يقولُ لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدِقٌ أسفلُه، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليَحطِم ما تحته"(١).

ولما جاء عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ سمعه يقرأ أوائل سورة فصلت، فرجع إلى قريش قائلاً: "إني واللهِ قد سمعت قولاً ما سمعتُ بمثلِه قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبينَ ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ"(٢).

وأما عمر بن الخطاب فقصة إسلامه مشهورة حين دخل على أخته فوجدها تقرأ في سورة طه، فلما قرأ فواتح السورة؛ رقّ قلبه ودخل في الإسلام، وأصبح عمرُ الفاروقَ الذي فرق الله به بين الحق والباطل.

وأما جبير بن مطعم رضي الله عنه فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿**أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ قال: (كاد قلبي أن يطير)، وفي رواية: (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)(٣).

وأما الطفيل الدوسي فقدم مكة، فحذرته قريش من سماع القرآن، وقالوا: وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئًا.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير (١/ ٤٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٢)، وابن إسحاق في السيرة (١/ ١٨٧).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٨٥٤) و(٤٠٢٣).

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني كرسفًا [قطنًا] ؛ فَرَقًا [خوفًا] من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه .

لكن الله أبى إلا أن يسمعه وهو في الطواف بعض القرآن فقال لنفسه: "واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلتُه، وإن كان قبيحًا تركتُه".

فجلس إلى النبي ﷺ يستمع القرآن ، ثم ما لبث أن أسلم(١).

ومثله خبر الشاعر لبيد بن ربيعة العامري ، وهو من فحول شعراء الجاهلية، وصاحب إحدى المعلقات السبعة ، سأله عمر بن الخطاب يومًا : أنشدني من شعرك ، فقرأ له سورة البقرة ، فقال : إنما سألتك عن شعرك، فقال : ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران(٢).

وفي العصر الحديث أيضًا شهد المنصفون من المستشرقين بعظمة القرآن، وسجلت كلماتُهم بحقه المزيدَ من الإعجاب والدَّهش من نظمه وبيانه ومضمونه، ومنه قول المستشرق فون هامر في مقدَّمة ترجمته للقرآن: «القرآن ليس دستورَ الإسلام فحسب، وإنما هو ذِروة البيانِ العربي، فسحر اللغة العظيم يشهد على أن القرآنَ هو وحيٌ من الله، وأن محمداً لم ينشر سلطانه على قومه بالسيف، بل نشره في المقام الأول بإعجاز الخطاب، فالكلمةُ الحية [أي القرآنُ] التي فاقت القصائد السبعة المعلقة على جدار الكعبة، لم يكن من الممكن أن تكونَ ثمرةَ قريحةٍ بشرية، بل تحتم أن تكون كلمة نطقت وكتبت منذ الأزل في

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ص (٣٨٢).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر (٣/ ١٣٣٥).

السماء، ومن هنا فإن القرآن هو وحي الله»[١].

وقال المؤرخ ول ديورانت: «ولغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى الخالصة، وهو غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لا توائم ذوق الغربيين. وهو بإجماع الآراء خير كتاب، وأول كتاب في الأدب النثري العربي»[٢].

وأما فيليب حتّي فيقول في كتابه "الإسلام منهج حياة": «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن .. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى».

وأما جورج حنا فيقول في كتابه "قصة الإنسان": «إذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا يحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة».

ويقول الفيلسوف الفرنسي هنري سيرويا في كتابه "فلسفة الفكر الإسلامي": «القرآن من الله بأسلوب سام ورفيع لا يدانيه أسلوب البشر».

ويقول المحامي الكاثوليكي آرشي أوغستاين: «أية قراءة صادقة وموضوعية [للقرآن] يجب أن تجعلك بالتأكيد تصل إلى أنه إذا كان القرآن كتابًا عاديًا، إذًا يجب أن يكون قد كتبه عالم عظيم في علم الاجتماع، وعالم نفساني، واقتصادي، ومحام، وفيلسوف أخلاقي، ومتنبئ، وعالم سياسي،وقد كتب لكل

(١) جوته والعالم العربي، كاتارينا مومزن، ص (٢٣٣).

(٢) قصة الحضارة ، وليام ديورانت (١٣/ ٥٢).

الأوقات، وفي الحقيقة لابُد أنه كذلك، فالقرآن الكريم يزودنا بأفضل حِكمة شخصية وعامة لأي زمان»(١).

وأما المستشرق بلاشير فلم يألُ جهداً في الطعن في القرآن ومعاداته ، لكن الحقيقة غلبته، فقال: «إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً يمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة ؛ تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجَّلته من التحف»(٢).

وبهرت جزالة القرآن وروعة أساليبه المستشرق الشهير، الأديب يوهان غوته (ت ١٨٣٢م)، فسجل في ديوانه "الديوان الشرقي للشاعر الغربي" هذه الشهادة للقرآن: «القرآن ليس كلام البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله، فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله».

وقال: «إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة .. فالقرآن كتاب الكتب.. وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي»(٣).

وقال: « كلما اقتربنا من القرآن تجدد امتعاضنا، ثم يجذبنا التدريج، ويثير فينا الدهشة، ثم يدفعنا إلى الإعجاب به في النهاية»(٤).

وأختم بتخوف الأديب اللبناني على إيمانه بالنصرانية إن هو استمر في قراءة «الكتاب المعجز»، فيقول: «ما قرأت في القرآن قط، وتلقتني تلك الفصاحة من كل جهة، وشهدتُ ذلك الإعجاز الذي يطبِّق العقل؛ إلا صحتُ

---

(١) دفاعـًا عن الجهاد (وجهة نظر مسيحية)، آرشي أوغستاين، ص (٧٩).

(٢) القرآن (نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره)، ريجيس بلاشير، ص (١٠٢).

(٣) انظر هذه الشهادات وغيرها: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٥٢، ٥٨-٥٩، ٧٥، ١٤٥)، وقصة الحضارة، وليام ديورانت (١٣/ ٥٢).

(٤) الرسول (حياة محمد)، رونالد بودلي، ص (٢٨٥).

بنفسي: انجي، ويحكِ، فإنني على دين النصرانية..»[١].

رابعاً: الإخبار بالغيوب

ومما يمنع نسبة القرآن إلى النبي ﷺ ما أخبر عنه من الغيوب التي لا تنكشف إلا بوحي من الله علام الغيوب، فالغيب سر الله لا يعرفه إلا هو ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾ (الجن: ٢٦-٢٨).

والنبي ﷺ كسائر البشر لا يعلم الغيب المطلق ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ (الأنعام: ٥٠)، ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء الله وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف: ١٨٨)، فإذا ما أخبر ﷺ بشيء من الغيب؛ فإنما يخبر بغيب لا يعلمه إلا الله، وتحقق هذه الأخبار شهادة صادقة على نبوته، وآية باهرة على أن ما يقوله إنما يقوله بوحي من الله.

ومن الغيوب الدالة على ربانية القرآن ما أخبر عنه من انتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى الآفاق ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (الصف: ٩)، فهذه الآية نزلت بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد، والنبي ﷺ يقرؤها في زمن الاستضعاف، وهي إخبار بأمر غيب لا مدخل فيه للتخمين ورجم الظنون، فإما أنه خبر كاذب صادر من مدع لغير ما يستحقه، أو هو خبر صادق أوحاه الله الذي

(١) الأعمال الكاملة، أمين نخلة (٢/ ٢٢٩).

يعلم ما يُستقبَل من الأحداث والأخبار.

وحين ألقى الخوف بظلاله على المسلمين، حين رمتهم العرب عن قوس واحدة، وطمع فيهم الأعراب، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

فقالوا: ترون أنَّا نعيشُ حتى نبيتَ مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ (النور: ٥٥)(١) وكان كذلك، فقد أمَّنهم الله من بعد خوفهم، وسوَّدهم الأرض، واستخلفهم فيها من بعد ذلتهم، ومكَّن لهم دينهم في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن غيوب القرآن، تنبؤه بنصر بدر العظيم، وذلك في وقت كان المسلمون يعانون في مكة صنوف الاضطهاد ويُسامون سوء النكال؛ وفي وسط هذا البلاء نزل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَـئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ (القمر: ٤٣-٤٦).

فقال عمر بن الخطاب [أي في نفسه] : أي جمع يهزم؟ أي جمع يُغلَب؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ(٢)، فالآية نزلت قبل الهجرة بسنوات؛ تتحدث عن غزوة بدر واندحار المشركين فيها، وتتنبأ بهزيمتهم وفلول جمعهم.

وقبيل معركة بدر أدرك النبي ﷺ اقتراب تحقق الوعد القديم الذي وعده

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٦-٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٦٦)، والخبر يرويه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٢١).

الله بمكة، فقام إلى العريش يدعو ربه ويناجيه: «**اللهم إني أنشدُك عهدَك ووعدَك، اللهم إن شئت [هلاك المؤمنين] لم تُعبَد بعدَ اليوم**».

ثم خرج رسول الله ﷺ من عريشه، وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ (القمر: ٤٥-٤٦)(١)، وهكذا كان، فقد هزمت جموعهم، وولوا على أدبارهم، وصدق الله نبيَه الوعدَ، وفي تحققه آية بينة على أن هذا القرآن من وحي الله علام الغيوب.

خامسًا: هل في القرآن ما يدل على أنه من كلام النبي ﷺ؟

قالوا: القرآن من كلام محمد [ﷺ]، واستدلوا لذلك بقول القرآن: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، فقوله: ﴿ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾ يدل – بحسب هؤلاء – على أن الكلام من قول النبي [ﷺ]؛ إذ لم يرد في السياق كلمة: (قل)، فدل ذلك – بزعمهم – على أن القرآن من كلام محمد ﷺ.

الجواب: أن الآية وردت على لسان النبي ﷺ بإجماع العلماء، قال الطبري: «وهذا أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبههم بهذه الآيات ... قل لهم يا محمد: قد جاءكم أيها العادلون بالله والمكذبون رسوله ﴿ **بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾»(٢)، وهو ﷺ ليس عليهم بحفيظ ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ (الأنعام: ١٠٧)، وأما الله تبارك وتعالى فهو حفيظ على خلقه ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ (هود: ٥٧).

---

(١) أخرجه البخاري ح (٢٩١٥).

(٢) جامع البيان (٩/ ٤٦٩).

وهنا يتساءل الشانئون للقرآن: أين كلمة (قل) أو ما يرادفها في السياق مما يدل على أن الكلام لنبينا ﷺ؛ فإنها لم ترد في النص القرآني، وقد جهلوا – كرة أخرى – طريقة القرآن في طوي المعلوم من الكلام بداهة، فالقرآن كلام الله للعقلاء، الذين يفهمون المضمر والمقدر من السياق.

وشواهد انتقال الخطاب في الكلام من غير ذكر صريح؛ يدل عليه كثير في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ (آل عمران: ١٩١)، والتقدير: (يقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً)، والقارئ العاقل يفهم السياق؛ من غير حاجة إلى ذكر (ويقولون).

ومثله في قول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (الأنعام: ٩٣)، والتقدير: (والملائكة باسطو أيديهم يقولون: أخرجوا أنفسكم).

ومثله في قول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٦)، والتقدير: (فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم).

ومثله أيضاً في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۞ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾، فقوله: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ** ﴾ كلام مستأنف يفهم سامعه وقارئه من سياقه أنه غير داخل فيما أمر الله رسوله أن يقوله للمشركين

{قل}، بل هو إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ.

***

المصادر المزعومة للقرآن الكريم

قالوا: القرآن ليس كلاماً إلهياً، بل هو من تأليف محمد [ﷺ]، وقد نقله عن مصادر مختلفة: (الكتاب المقدس – الراهب بَحيرا – ورقة بن نوفل – شعر أمية بن أبي الصلت – شعر امرئ القيس)، وهذا يدل على أنه لم يوحَ إليه، لأن النبي الموحى إليه لا ينقل عن المصادر البشرية أو المصادر القديمة (أي الكتاب المقدس).

والجواب: أن دعوى اقتباس القرآن عن السابقين دعوى قديمة جديدة، قديمة في مضمونها، جديدة في مدعيها، فالمشركون أعياهم زمن النبي ﷺ أن يأتوا بمثل علوم القرآن وأخباره، فاتهموا النبي ﷺ باقتباسها من أساطير الأولين **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** (النحل: ٢٤)، **﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾** (الفرقان: ٥)، وقالوا: تعلم القرآنَ من غلام نصراني رومي اسمه جبرا، وكان غلاماً لعامر بن الحضرمي، وكان يعمل حداداً بمكة: **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾** (الفرقان: ٤)، وردَّ عليهم القرآن فريتهم بما أسكتهم ودحض باطلهم: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾** (النحل: ١٠٣).

وهذه الدعوى القديمة جديدة في تحديد أسماء المصادر المزعومة للنبي ﷺ، فقريش اتهمته ﷺ بالتعلم من حداد رومي ، بينما الطاعنون اليوم زعموا أن النبي ﷺ تعلم القرآن من الراهب النسطوري النصراني بَحيرا حين لقيه في بصرى الشام عندما زارها غلاماً مع عمه أبي طالب، كما زعموا تعلمه ﷺ من ورقة بن نوفل الأسدي القرشي، ابن عم أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها،

وهو راهب متنصر، وهذان [بَحيرا وورقة] لم يخطر في بال قريش ولا يهود المدينة اسم واحد منهم في طعنهم في نبوة النبي ﷺ وإلهية كتابه.

أُمِّية النبي ﷺ

وقبل أن نشرع في بيان الحق في هذه المسألة نود أن نقرر أن النبي ﷺ أُمِّي لا يعرف القراءة والكتابة ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، ونشأ في أمة أمية، ندر أن تجد فيها من يقرأ ويكتب ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ (الجمعة: ٢).

لقد كانت أُمِّية النبي ﷺ حجر العثرة الذي أعثر أصحاب الأباطيل الزاعمين أن النبي ﷺ نقل من كتب السابقين وعلومهم، وقد رد عليهم القرآن بقول الله: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، قال هذا والنبيُّ بين ظهراني قريش، فلم يستنكره أحد من المشركين ، ليقينهم بأمِّيته ﷺ ، كيف يجهلون ذلك وقد مكث ﷺ بينهم قبل بعثته أربعين سنة ﴿ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ (يونس: ١٦).

وقد سجَّل القرآن الكريم إقرار المشركين بأمِّية النبي ﷺ حين نقل قولهم: ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ (الفرقان: ٥)، وذلك في قولهم : ﴿ **اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ** ﴾، فهو لم يكتبها، بل اكتتبها لأنه لا يجيد الكتابة، ثم هي تُملى عليه لأنه لا يستطيع قراءتها بنفسه.

وشغب أصحاب الأباطيل على أمِّية الرسول ﷺ بذكر نصين من كلام النبي ﷺ، زعموا أن فيهما شهادة على معرفة النبي ﷺ بالقراءة والكتابة،

أولهما: حين شارك في كتابة صلح الحديبية، فكتب فيه ما يقارب السطر[١]، والآخر حين قال للصحابة قبيل وفاته: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**»[٢]، فرأوا في هذين النصين الصحيحين ما يدل على معرفته ﷺ بالقراءة والكتابة.

فأما كتابة النبي ﷺ يوم الحديبية فكان معجزة له ﷺ، إذ كتب ما كتب، ولم يكن كاتباً من قبل، بدليل رواية البخاري التي أخبرت أنه ﷺ كتب وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ففيها أن قريشاً اعترضت على الكتاب الذي يكتبه علي رضي الله عنه فقالت: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال ﷺ: «**أنا واللهِ محمد بن عبد الله، وأنا واللهِ رسول الله**».

قال: وكان لا يكتب، فقالَ لعلي: «امح: رسول الله». فقال علي: والله لا أمحاه أبداً. قال: «**فأرنيه**»، فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيده[٣].

وفي رواية مسلم أنه ﷺ قال: « **أرني مكانها** » فأراه مكانها، فمحاها[٤]، فرسول الله ﷺ لم يعرف قراءة المكتوب، ولم يستدل على مكانه في الصحيفة إلا حين دلَّه علي رضي الله عنه.

ثم تمضي الروايات الصحيحة فتبين أن النبي ﷺ كتب بدل ما مُحي، مع تأكيدها على أنه ﷺ لم يكن قبلها كاتباً، فكانت كتابته ﷺ أعجوبة لمن رآها، ففي رواية البخاري أن رسول الله ﷺ (أخذ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح إلا السيف

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣١٨٤)، ويأتي نصه.

(٢) أخرجه البخاري ح (١١٤)، ومسلم ح (١٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣١٨٤).

(٤) أخرجه مسلم ح (١٧٨٣).

في القراب..)[١]، فقصة كتابته كانت على غير المعهود منه ﷺ.

وأما قول النبي ﷺ في آخر حياته: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده**»، فلا يفيد معرفته ﷺ بالقراءة والكتابة، وأنه سيكتب بنفسه هذا الكتاب، فإن الناس لم تزل تقول: قَتَلَ الأمير، وكتب الأمير وجلد وضرب، وإنما تقصد أنه وجه بذلك وأمر به، من غير أن يفهم السامع أنه فعله بنفسه.

ولتأكيد صحة هذا الفهم نذكر روايتين يرويهما الإمام أحمد في مسنده من حديث البراء بن عازب تتحدثان عن نزول قوله تعالى: ﴿ **لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ** ﴾ (النساء: ٩٥).

ففي الأُولى يقول البراء بن عازب: لما نزلت هذه الآية أتاه ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، ما تأمرني؟ إني ضرير البصر، فنزل قوله: ﴿ **غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ** ﴾ فقال النبي ﷺ: «**ائتوني بالكتف والدواة، أو اللوح والدواة**»[٢]، فهذه الرواية تفيد أن النبي ﷺ طلب أدوات الكتابة، ولربما فُهم منها أنه يريد كتابة الآيات بنفسه، كما فُهم من قصة الكتاب الذي أراد ﷺ كتابته في آخر حياته.

لكن ذلك غير مقصود، إذ تفسره الرواية الأخرى للحديث، حيث يقول فيها البراء: كنت عند رسول الله ﷺ فقال: «**ادعوا لي زيداً يجيء أو يأتي بالكتف والدواة أو اللوح والدواة، كتب: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**..»[٣]، فالمقصود من قوله: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا**» طلبُ أدوات الكتابة مع من يكتب بها، لا أنه سيكتب بها ﷺ بنفسه.

وهكذا يتبين أنه ﷺ كان أُمِّيًا، وأن النصين يكملان ما جاء في القرآن

(١) أخرجه البخاري ح (٤٢٥١).
(٢) أخرجه أحمد ح (١٨١٧٤).
(٣) أخرجه أحمد ح (١٨٢٠٤).

الكريم من التصريح بأميته ﷺ ﴿ **فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وقد صدق توماس كارليل بقوله: « إن محمدًا لم يتلقَ دروسًا على أستاذ أبدًا، وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد آنذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي: أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ... لم يعرف علوم العالم؛ لا قديمها ولا حديثها، لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك، ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكُ في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء – أولئك الذين أشبِّههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور – مَن كان بينه وبين محمد أدنى صلة»(١).

وكذلك صدقت المستشرقة كارن أرمسترنج بقولها: «إنه من الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ «أمِّي»، كما أنه لا يوجد في المصادر الأولى أي ذكر عن قدرة محمد على القراءة والكتابة .. ولو كان صحيحًا أن محمدًا قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خدعة كبرى، وخلافًا لكون ذلك مناف لطبيعته، فإنه من الصعب جدًا الإبقاء على مثل تلك الخدعة إذا نحن أخذنا في الاعتبار حميمية الصلة بين محمد وقومه»(٢).

ويقول المستشرق الفرنسي الكونت هنري كاستري (ت ١٩٢٧م): «يستحيل على رجل في الشرق أن يتعلم العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان»(٣).

(١) الأبطال، توماس كارليل، ص (٦٧).
(٢) سيرة النبي محمد، كارين أرمسترنج، ص (١٣٦).
(٣) الإسلام، خواطر وسوانح، هنري كاستري، ص (٣٩).

ولعل من المفيد التنبيه إلى أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس ظهرت بعد وفاة النبي ﷺ بقرن من الزمان، وهي ترجمة أسقف أشبيليا يوحنا عام ٧٢٤م[١]، فالكتاب لم يكن متداولاً بين الناس زمن النبي ﷺ، فقد كان حكراً على بعض القسس، ولم يطلع عليه عوام المسيحيين إلا في عصر الطباعة في القرن الميلادي السادس عشر رغم محاولات الكنيسة منع انتشاره بقرارات الحرمان التي أصدرها مجمع تريدنت نوتردام في ١٥٤٢ – ١٥٦٣م[٢].

***

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٧٧١).

(٢) انظر: مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٦٠٨).

أولاً: هل القرآن منقول من الكتاب المقدس؟

قالوا: القرآن منحول عن الكتاب المقدس في كثير من معارفه ونصوصه التي شابهت ما في الكتاب المقدس من أخبار السابقين.

والجواب: إن القرآن يصرح بوجود التشابه بين ما أنزله الله على الأنبياء وبين ما أنزله على خاتمهم ﷺ ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، ومثله في قوله: ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى** ﴾ (الأعلى: ١٦-١٩)[١]، فوحدة المصدر تستلزم وجود التشابه، والتشابه بينهما يكون بقدر ما يشتمل عليه الكتاب المقدس من حق وما بقي فيه من هدي الأنبياء ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً** ﴾ (النساء: ١٦٣).

لكن التشابه بين الكتابين ليس مطرداً، فثمة فروق كبيرة بينهما سنعرض لبعضها بعد أن نبين أن الكثير مما يظنه البعض تشابهاً هو في حقيقته مشتمل على مفارقة كبرى تبطل زعم الزاعمين بالتشابه بين الكتابين.

فمثلاً لا تشابه ولا توافق بين ما جاء في الإنجيل وما جاء في القرآن عن المحرومين من دخول الجنة رغم ما قد يظن من تشابه السياقين، ففي الإنجيل أن المسيح قال لتلاميذه: «**الحق أقول لكم: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله**» (متى ١٩/ ٢٣ - ٢٥)، فهذا النص في تجريم الأغنياء وحرمانهم من الجنة؛ بينما القرآن ضرب هذا المثل في حديثه عن الكفار

(١) للأسف هذه الإحالة القرآنية إلى أسفار موسى نفتقدها في الأسفار المنسوبة إلى موسى في الكتاب المقدس بسبب ما تعرضت له الكتب السابقة من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

المكذبين المجرمين، لا الأغنياء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٤٠)، فالتشابه بين النصين ينطبق عليه تشبيه العلامة ديدات بالشبه بين الجُبن والطباشير، وإن كنت لا أشك بتشابه القرآن مع ما أنزله الله على المسيح عليه الصلاة والسلام، مما أضاعوه وحرفوه.

ونود أن ننبه هنا إلى أن آيات القرآن بلغت ٦٢٣٦ آية، وأن التشابه بينها وبين النصوص الكتابية لا يزيد - بحال من الأحوال – عن مائة آية، ونعتقد جازمين أن هذه الكتب قبل تحريفها كان فيها من صور التشابه مع القرآن ما هو أكثر من ذلك بكثير.

كما يلزم العلم بالاختلاف والبون الكبير بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس، فالعهد القديم (التوراة) في حقيقته هو تاريخ بني إسرائيل وأنسابهم وأعدادهم وسير ملوكهم وأنبيائهم وقصص حروبهم، فهو في الجملة كسائر كتب التاريخ المعروفة، كالبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، ولا يستثنى من ذلك إلا سفران فقط (اللاويون والتثنية)، فهما معنيان بالأحكام التشريعية.

وأما العهد الجديد (الإنجيل) فيتكون من أناجيل أربعة، تضمنت سيرة المسيح من الولادة إلى الصلب المزعوم، فهي أشبه ما تكون بسيرة النبي ﷺ التي يرويها ابن إسحاق أو تهذيبها لابن هشام، كما يتضمن العهد الجديد أيضاً رسائل التلاميذ، وهي تحكي عن قصصهم ورحلاتهم وأُعجوباتهم ووصاياهم الموجهة إلى أصدقائهم ومعارفهم لتوضيح بعض المفاهيم اللاهوتية أو لطلب بعض القضايا الشخصية.

أما القرآن الكريم فهو مختلف في تكوينه وموضوعه ، فهو يحوي (شرح

حقائق الإيمان - قصص السابقين - أحكام تشريعية - توجيهات للمجتمع المسلم - معالجة قضايا في العصر النبوي - وصف اليوم الآخر وما يتعلق به).

وينحصر المشترك بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس في ثلاثة محاور (حقائق الإيمان - قصص السابقين - الأحكام التشريعية).

لكن نظرة فاحصة ستكشف التباين الكبير بين حديث القرآن وحديث الكتاب المقدس في هذه الموضوعات الثلاثة، وهو ما نفصله بإذن الله.

أ. حقائق الإيمان بين القرآن والكتاب المقدس

الكتب التي ينزلها الله يتوقع قارئها جميعاً أن تركز على حقائق الإيمان الرئيسة كالتعريف بالله وأنبيائه وملائكته وكيفية عبادته، ومن البدهي أن تتطابق هذه الكتب ، لوحدة مصدرها، فالنبي ﷺ لم يكن بدعاً عن إخوانه الأنبياء، بل جاء لبيان المعاني ذاتها التي بعثهم الله للدعوة إليها ، وفي مقدمة ذلك توحيد الله والتعريف به وبصفاته ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، والتحذير من الشرك ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (الزمر: ٦٥-٦٦)، فهذه حقائق أطبق الأنبياء على ذكرها، ولا يتصور خلو دعوة نبي منها، فالتشابه بينها لازم لها، وهو دليل وحدة أصلها، وأما الاختلاف بينها في التعريف بهذه الحقائق فذاك دليل تحريف بعضها، وأنه ليس من عند الله تعالى.

والسؤال: هل يتشابه القرآن مع الكتاب المقدس فيما يتعلق بحقائق الإيمان؟

للإجابة عن هذا السؤال نكتفي بعرض مسألة واحدة من مسائل الإيمان وهي أهمها، مسألة التعريف بالله وصفاته، ليقيس القارئ الشاهد على الغائب.

وفي التعريف بالله وصفاته يتشابه الكتابان (القرآن والكتاب المقدس) بقدر ما يحويه الكتاب المقدس من الحق ، ويفترقان بقدر ما تحويه هذه الكتب من الشوائب والتحريف بسبب التدخل البشري فيها.

ولا ريب أن في الكتاب المقدس اليوم مجموعة من النصوص التي تعظم الله وتتحدث عن وحدانيته، فأصول هذه الكتب من عند الله، وهذه الحقائق الإيمانية الصحيحة بقايا آثار الأنبياء في هذا الكتاب، فتطابق القرآن معها دليل على وحدة المصدر ، وهو الله عز وجل، ولا يعني بالضرورة أن القرآن نقل منها؛ إذ التشابه لا يدل بالضرورة على النقل، فقد تطابق الإنجيليون الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) في الكثير من نصوصهم مع أسفار العهد القديم، ولم يزعم أحد من مثيري الأباطيل عن القرآن أنهم كانوا ينقلون من العهد القديم أو من بعضهم البعض.

وإزاء التطابق بين القرآن والكتاب المقدس في بعض المعاني فإنه يمكن للمتابع رصد الكثير من التفاصيل المختلفة بين الكتابين، وهو ما يُحيل أن يكون أحدُهما مصدراً للآخر، فالله - بحسب القرآن الكريم - إله عظيم بائن من خلقه، مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ، لا ندرك كُنه ذاته ولا كيفية صفاته ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (الشورى: ١١)، بينما هو بحسب الكتاب المقدس إله يخالط مخلوقاته، فيتجسد في صور بشرية، وينزل إلى الأرض، ويمشي فيها « **هو ذا الرب يخرج من مكانه، وينزل ويمشي على شوامخ الأرض** » (ميخا ١/ ٣)، ويركب على الملائكة الكروبيم في تنقلاته « **طأطأ السماوات ونزل، وضباب تحت رجليه، ركب على كروب، وطار، ورئي على أجنحة الريح...** » (صموئيل (٢) ٢٢/ ١٠ - ١١)، وقد نزل مرة إلى باب خيمة الاجتماع ، فكلم موسى وجهًا لوجه « **ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه،**

كما يكلم الرجل صاحبه» (الخروج ٣٣/ ١١).

وإذا كان الله عز وجل منزهـًا - بحسب القرآن - عن الطعام والشراب والنقائص فإن الكتاب المقدس يزعم أن الرب زار إبراهيم وأكل عنده بعض اللحم مع اللبن (انظر التكوين ١٨/ ٨).

وإذا كان القرآن ينزه الله سبحانه وتعالى عن الشبيه والمثيل ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾ (الشورى: ١١)، ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص: ٣)، فإنه في الكتاب المقدس أشبه ما يكون بالإنسان الذي خلقه مشابهـًا له «**وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا**» (التكوين ١/ ٢٦).

ووصفه سفر دانيال بصفات الإنسان الجسدية ، فشعر رأسه أبيض وملابسه كذلك بيضاء «**وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج، شعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار**» (دانيال ٧/ ٩)، وله عينان وأجفان (انظر المزمور ١١/ ٤)، وله شفتان ولسان (انظر إشعيا ٣٠/ ٢٧-٢٨)، وله رجلان رآهما بنو إسرائيل (انظر الخروج ٢٤/ ٩)، وأيضـًا له فم وأنف يخرج منهما دخان ونار «**صعد دخان من أنفه، ونار من فمه**» (المزمور ١٨/ ٩).

وقد مشى في الجنة، حتى سمع آدمُ وحواءُ وقعَ خطواته: «**وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار**» (التكوين ٣/ ٨).

والله - بحسب القرآن - لا يُرى في الدنيا ﴿ **لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وهذا خلاف المفهوم التوراتي الذي يزعم أن موسى رآه وجهـًا لوجه (انظر الخروج ٣٣/ ١١)، كما رآه يعقوب حين صارعه بعد أن عبر وادي يبوق، فسمى المكان "فينئيل"، وهي كلمة عبرانية معناها (وجه الله) «**قائلاً: لأني نظرت الله وجهـًا لوجه، ونجيت نفسي**» (التكوين ٣٢/ ٣٠).

وإذا كان الله تعالى يصف نفسه في القرآن بأنه على كل شيء قدير؛ فإن سفر التكوين وهو أحد أسفار الكتاب المقدس الذي زعموا أن القرآن منحول منه يزعم في قصة يعقوب السابقة أن الله هُزم في مصارعته ليعقوب، وكذلك فإن سفر القضاة يذكر أن الرب عجز عن نصر بني إسرائيل على بعض أعدائهم، لأن لهم مركبات من حديد (انظر القضاة ١/ ١٩).

وهكذا، فإن هذا وغيره يثبت التباين الكبير في أهم مسألة كان يفترض أن ينقلها النبي ﷺ من الكتاب المقدس لو كان هو مصدره في التعرف على الله تبارك وتعالى، لكن القرآن الموحى به إلى النبي ﷺ خالف الكتاب في هذه المسائل وغيرها، لأنه وحي الله تبارك وتعالى.

ب. قصص الأنبياء والأمم السابقة بين القرآن والكتاب المقدس

الموضوع الثاني الذي يشترك القرآن والكتاب المقدس في الحديث عنه، هو قصص الأنبياء والسابقين، والمفروض أننا نتحدث عن حقائق تاريخية لن تختلف بين القرآن والكتاب المقدس بل والمؤرخين.

لكن قراءة سريعة في هذا الموضوع في الكتابين تثبت فروقاً هائلة بين معطيات الأحداث التاريخية هنا وهناك، علاوة على كيفية العرض وغايته، فقصص الكتاب المقدس وردت في سياق تاريخي بحت، بينما وردت قصص القرآن في سياق الاعتبار والتدبر، مع الإعراض عن كافة التفاصيل التاريخية التي لم يحفل بها القرآن الكريم لعدم فائدتها ، فالكتب الإلهية ينزلها الله للعظة، وليس للتأريخ للأمم والأشخاص.

وننبه في هذا الصدد إلى أن في القرآن قصصاً عن أنبياء وأمم لا وجود لذكرهم في كتب اليهود والنصارى ، مثل: قصة هود وصالح وشعيب وذي القرنين وأصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر، وغيرها كثير.

وأما القدر الذي اشتركا فيه، فبينهما من التخالف فيه ما لا يحصيه إلا الله، ففي حين يعظم القرآن الأنبياء ويعتبرهم أعظم البشر وأفضلهم ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (الأنعام: ٨٤-٨٧) ، نجد في مقابله في الكتاب المقدس حديثاً عن الأنبياء على خلاف ذلك، فما من رذيلة ولا بلية إلا ونسبها الكتاب إلى أنبياء الله تبارك وتعالى.

فهارون عليه السلام النبي العظيم منزه عن الشرك وعن بناء العجل الذي بناه السامري وعبده بنو إسرائيل من دون الله (انظر طه: ٨٥-٨٧)، لكن التوراة تجعله بانياً للعجل الذهبي المعبود من دون الله (انظر الخروج ٣٢/ ٢-٤).

وإذا كان داود في القرآن نبياً عظيماً ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (ص: ١٧)، فإنه في الكتاب المقدس كان زانياً (انظر صموئيل (٢) ١١/ ١-٢٦)، وقاتلاً، فقد قتل مائتين من الفلسطينيين، وقطع غلفهم، ليقدمها مهراً لزوجته ميكال (صموئيل (١) ١٨/ ٢٧).

وأما سليمان فيصفه القرآن بالنبي الأواب: ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (ص: ٣٠)، في حين تزعم التوراة بأنه ترك وصايا الله، وبنى معابد للأصنام إرضاء لزوجاته الوثنيات (الملوك (١) ١١/ ٣-١١)، فهذه المفارقات العظيمة في الصورة الإجمالية، وأكثر منها في تفاصيل الأخبار ، وهي جميعاً تثبت التمايز بين الكتابين بما يحيل أن يكون القرآن منحولاً من الكتاب المقدس.

ج. الأحكام التشريعية بين القرآن والكتاب المقدس

يشترك أيضاً القرآن مع الكتاب المقدس في الحديث في موضوع الأحكام التشريعية التي يشرعها الله لعباده، والمسلمون يؤمنون بوحدة أصول الشرائع الإلهية التي أنزلها الله على نبيه ﷺ وإخوانه الأنبياء ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: ١٣)، والقرآن نزل مصدقاً لما جاء به الأنبياء ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (يونس: ٣٧).

لقد كان من البدهي أن تتشابه الشرائع المنزلة على الأنبياء لوحدة المشرّع جل وعلا، ومرة أخرى نذكر أن بين الكتابين من التشابه على قدر ما في كتب القوم من الحق، فقد ذكر القرآن شريعة القصاص، وأنها شِرعة شرعها الله لليهود من قبل ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ (المائدة: ٤٥)، فهذه الشريعة عدل من الله، ولذا قررها على أنبيائه وفي شرائعه، ومنها شريعة محمد ﷺ التي قررها القرآن: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ (البقرة: ١٧٩)، ولا يعني هذا التشابه - الذي يتناسب وعدل الله - أن النبي كان ينقلها من كتبهم.

لكن التطابق ممتنع بين الشرائع القرآنية والكتابية في كثير من الصور ، ففي هذه الكتب الكثير من الشرائع التي لم يذكرها القرآن، لا بل تتعارض مع قواعد التشريع القرآني الذي يرى فيها ظلماً محرماً، كشريعة كسر عنق الحمار «وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه، كل بكر من بنيك تفديه» (الخروج ٣٤/ ١٩-٢٠).

وكذلك قتل صاحب الثور قصاصاً من الثور الذي نطح رجلا فقتله.

(انظر الخروج ٢١/ ١٨-٣٢)، وشريعة الإكراه على الزواج بزوجة الأخ المتوفى من غير أن يكون له ولد (انظر التثنية ٢٥/ ٥-١٠)، وأيضاً شرائع الكهنوت وإناطة إقامة العبادات والشعائر بهم (انظر سفر اللاويين في مواضع كثيرة منه) والتي لا نجد لها أثراً في القرآن الذي لا يوجد فيه أي مسألة أو حكم يقر النظام الكهنوتي فضلاً عن الدخول في تفاصيله.

ومن أمثلة التباين بين الكتابين أن القرآن يحرم الكثير والقليل من الخمر **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾** (المائدة: ٩٠)؛ فإن الكتاب المقدس يرى شربها وسيلة لعلاج مشكلات الفقراء، بنسيان أتعابهم وآلامهم: «**أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمرّي النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعبه بعد**» (الأمثال ٣١/ ٧).

وفي العهد الجديد دعا بولس لشرب الخمر من غير إسراف في تعاطيه: «**لا تكن فيما بعد شراب ماء، بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة**» (تيموثاوس (١) ٢٣/ ٥)، والفروق كثيرة يطول المقام بتتبعها.

ونختم بذكر شهادات ثلاثة من المستشرقين المنصفين:

أولها: ما شهد به المستشرق الإنجليزي ويلهام لايتنر الذي يقول في كتابه "دين الإسلام": «بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباساً، بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب في ذلك»(١).

وأما الشهادة الثانية فهي للكونت الفرنسي هنري دو كاستري، وفيها يقول: «ثبت أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه»(٢).

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (١٠٨، ١٣٣).

(٢) الإسلام خواطر وسوانح، هنري كاستري ص (٣٩).

والشهادة الثالثة هي من توقيع توماس كارليل الذي لحظ ما بين القرآن والكتب السابقة من مباينة تتجاوز ما يتراءى للعَجول من تشابهات عابرة تقتضيها وحدة بعض الموضوعات التاريخية التي تعالجها الأناجيل والقرآن، وكذلك بعض الصياغات الدينية من دعاء وتسبيح، فقال: «لا أحفل كثيرًا بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد ، لأني أرى لها في الإنجيل شبيهًا، ولكني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور، فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني، وهو ما أجده في القرآن، وذلك - كما قلتُ - فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

(١) الأبطال، توماس كارليل، ص (٥٤-٥٥).

ثانياً: هل تعلم النبي ﷺ القرآن من بَحيرا وورقة بن نوفل؟

قالـوا: تعلم محمد [ﷺ] من راهب نسطوري كان يقيم في مدينة بصرى في الشام، كما تعلم من ورقة بن نوفل وهو من علماء أهل الكتاب في مكة، وتربطه صلة قرابة بخديجة زوج النبي ﷺ.

والجـواب: تثور في وجه هذه الفرية وأمثالها أسئلة منطقية كثيرة: إذا كان القرآن منقولاً عن ورقة وبَحيرا فلم لم ينسباه إلى أنفسهما؟ ولم أمكنوا محمداً ﷺ من ذلك؟ وكيف اطلع هؤلاء على علوم القرآن التي سجلت قصص الأولين والآخرين وحوت المبهر من أخبار الغيوب التي كشف عنها العلم الحديث اليوم؟

لو فرضنا أنه ﷺ تعلم من بَحيرا وورقة أخبار السابقين، فماذا عن مئات الآيات التي نزلت بخصوص أحداث حصلت بعد وفاة بَحيرا وورقة بزمن طويل، فعالجها القرآن في حينها، كسورة آل عمران التي تتعلق ثمانون آية منها بقدوم نصارى نجران، وستون آية أخرى بأحداث غزوة أُحد، وسورة التوبة التي تحدثت عن أحداث تتعلق بغزوة تبوك، وسورة الأحزاب التي تناولت أيضاً أحداث تلك الغزوة، ومثل هذا كثير لا يخفى.

ويلزم هنا التنبيه إلى أن لقيا النبي ﷺ الراهب بَحيرا إبَّان شبيبته ليس محل اتفاق المسلمين، فقد حسَّن رواية هذا الخبر بعض أهل العلم، وضعفها آخرون منهم[1].

(١) قصة لقيا النبي ﷺ بحيرا أخرجها الحاكم في مستدركه (٢/ ٦٧٢)، قال: صحيح على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: " أظنه موضوعاً، فبعضه باطل"، وأخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب"، وأبو نعيم الأصفهاني في معرفة الصحابة ح (١٢٠٢)، والطبري في تاريخه (٢/ ٢٨٧)، ونقلها ابن هشام في تهذيبه للسيرة (١/ ١٨٠).

وعلى فرض صحة الرواية فماذا عساه يتعلم غلام يبلغ من العمر التاسعة أو الثانية عشرة [١] في لقاء واحد من هذا الراهب النسطوري! لقد صدق توماس كارلايل: "لا أعرف ماذا أقول بشأن الراهب النسطوري (سرجيوس) الذي قيل إنه تحادث مع أبي طالب، كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبياً في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عمر محمد ﷺ أربعة عشر عاماً، ولم يعرف لغةً غير لغته "[٢].

وفرض صحة رواية لقيا الراهب للنبي ﷺ يوصلنا إلى نتيجة أعرض عنها الطاعنون في القرآن، فقد قال الراهب الذي زعموا أن النبي ﷺ تعلم منه: (هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة) [٣].

هذا ولم تنقل الروايات أن النبي ﷺ جلس إلى بحيرا يتعلم منه أخبار السابقين أو غيرهم، بل ذكرت أن بحيرا كان يسأل النبي عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره[٤]، يستثبت فيها من كونه نبي آخر الزمان بما يعرفه من بشارات أهل الكتاب عنه، وقد قال أبو طالب:

ما رجعوا حتى رأوا من محمد ... أحاديث تجلو غم كل فؤاد
وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجوداً له من عصبة وفراد

(١) فقد اختلفت الروايات في ذلك على الرأيين.
(٢) الأبطال، توماس كارلايل، ص (٦١).
(٣) أخرجه الترمذي ح (٣٦٢٠)، وقال: "حسن غريب".
(٤) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠).

فقال لهم قولاً بحيرا وأيقنوا   له بعد تكذيب وطول بعاد
فإني أخاف الحاسدين وإنه   لفي الكتب مكتوب بكل مداد [١]

وأما ورقة بن نوفل الأسدي فلم تذكر كتب السيرة والسنة أن النبي ﷺ لقيه إلا يوم نزل عليه الوحي في غار حراء، وكان شيخًا كبيراً قد عمي، وتوفي بعدها، أي لم يدرك من القرآن إلا تنزل خمس آيات فقط، وقد قالت عائشة رضي الله عنها وهي تحكي قصة لقيا النبي ﷺ له بعد نزوله من غار حراء: (ثم لم ينشب [يلبث] ورقة أن توفي)[٢].

ولو تأمل المنصف بقية القصة لرأى فيها دلائل نبوته ﷺ، فقد شهد له بالنبوة هذا العالم من علماء أهل الكتاب، فقال: (**هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً**).

لقد عرف ورقة نبوة النبي ﷺ مما سمعه منه عن ظهور جبريل له في غار حراء، حين قال له: اقرأ. فأجاب النبي ﷺ: «**ما أنا بقارئ**»[٣]، فهو مصداق ما يجده في صحف أهل الكتاب في سفر النبي إشعيا: «**أو يُدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف القراءة**» (إشعيا ٢٩/ ١٢).

فورقة العالم بالكتب السابقة يشهد للنبي ﷺ بالرسالة، ويتحسر على أيام فتوته، ويود لو قدر على نصرة هذا الحق الفتي، ولو كان هذا القرآن من تعليمه لكان له موقف آخر، وصدق الله: ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣).

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (٦٦/ ٣١١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤)، ومسلم ح (١٦٠).
(٣) انظر الحديث السابق.

ثالثاً : هل القرآن منحول من شعر امرئ القيس؟

قالوا: القرآن من تأليف محمد [ﷺ]، وقد نقل في سورة القمر من أربعة أبيات من شعر الشاعر الجاهلي امرئ القيس الذي يقول:

دَنَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرْ   عَنْ غَزَالٍ صَادَ قَلْبِي ونَفَرْ
أَحْوَرُ قَدْ حِرْتُ فِي أَوْصَافِهِ   نَاعِسُ الطَّرفِ بعَيْنَيهِ حَوَرْ
بِسهَامٍ مِنْ لحاظٍ فَاتِكٍ   تَرَكَتْنِي كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ
وإذا ما غاب عني ساعة   كانت الساعة أدهى وأمر

والجواب: لو فرضنا أن القرآن وافق في أربع آيات معاني مذكورة في شعر امرئ القيس، فماذا عن بقية آيات القرآن التي جاوزت الستة آلاف ، هل يعجز من أَلَّف هذه الآلاف - من غير أن يكون لها مثيل في شعر العرب - عن مثل هذه الفقرات الأربعة؟

إن التماثل في بعض الألفاظ أو الأساليب التعبيرية لا يعني النقل على كل حال ، بل نقول: إن وقوع التماثل في أساليب البيان أمر بدهي، إذ جاء القرآن على نسق تعهده العرب في كلامها ، فلن يكون مستغرباً أن يشابه ما عهدوه من أمثلة واستعارات وسوى ذلك من ضروب البلاغة، لأنه نزل ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء: ١٩٥).

ولو كان النبي ﷺ يقتبس من أشعار امرئ القيس فلماذا سكتت عنه قريش، وهو الذي يتحداها أن تأتي بمثل القرآن أو بعضه، إنهم لم يخجلوا من القول ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا** ﴾ (الفرقان: ٥)، لكنهم لم يتهموه أبداً بالنقل عن شعرائهم وأُدبائهم.

على أي حال، فالمحققون يقولون: إن هذه الأبيات مقتبسة من القرآن، وليس العكس، فقد كتبت زمن العباسيين، ونسبت إلى امرئ القيس ضمن ما

يسمى بظاهرة النَحْل في الشعر العربي، حيث عمد بعض الرواة كـ (حماد بن هرمز الراوية تـ ١٥٥هـ، وتلميذه خلف الأحمر تـ١٨٠هـ) زمن العباسيين إلى وضع أشعار من إنشائهم ونسبوها إلى الجاهليين.

ولإلقاء نظرة على طريقة وصول شعر امرئ القيس إلينا ننقل قول الأصمعي: «كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس، فهو عن حماد الراوية إلا شيئًا سمعناه من أبي عمرو بن العلاء»(١)، فمن هو حماد هذا؟ وما موثوقيته؟

يقول محمد بن سلام الجمحي: «أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار»(٢).

ويقول أبو حاتم: «كان بالكوفة جماعة من رُوَاة الشعر مثل حمّاد الراوية وغيره، وكانوا يصنعون الشعر، ويقتنون المصنوع منه، وينسُبونه إلى غير أهله.

وقد حدثني سعيد بن هريم البرجمي قال: حدثني من أثق به أنه كان عند حماد حتى جاء أعرابي، فأنشده قصيدة لم تعرف، ولم يدرِ لمن هي، فقال حماد: اكتبوها، فلما كتبوها وقام الأعرابي، قال حماد: لمن ترون أن نجعلها؟ فقالوا أقوالاً، فقال حماد: اجعلوها لطَرَفَة.

وقال الجاحظ: ذكر الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد عن يونس أنه قال: إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلحن ويكسر الشعر ويصحّف ويكذب، وهو حماد بن هرمز الديلمي.

قال أبو حاتم: قال الأصمعي: جالستُ حماداً فلم أجد عنده ثلاث مائة

(١) المزهر في علوم اللغة، السيوطي (٢/ ٣٤٨)، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (١٤/ ٦٦).
(٢) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام (١/ ٤٨).

حرف، ولم أرضَ روايته»[١].

وزاد الطين بِلة تلميذُه خلف، حيث يقول: «كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب، وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني، ويدخله في أشعارها، وكان فيه حمق»[٢].

ولو تأمل الأريب في معلقة امرئ القيس وجزالة ألفاظها وغريب سبكها لأيقن كذب نسبة تلك الأبيات الممتلئة رقة وعذوبة إليه، فبينهما من التباين في الأسلوب والألفاظ ما لا يخفى على أديب ناقد، أو عارف بطبقات شعراء العرب وأساليبهم، ولذلك لم يوردها مصطفى عبد الشافي في ديوان امرئ القيس الذي جمعه وحققه[٣].

ولكم أثار شفقتي الدكتور سنكلر تسديل مثير هذه الشبهة في كتابه "مصادر الإسلام"، فعنه نقلها الطاعنون في القرآن؛ أثار شفقتي لكثرة ما وصفه أديب العربية عباس العقاد بالجهل الذي أوقعه ومن تابعه في هذا الغلط الفاحش، فهو ؛ أي سنكلر تسديل من «طائفة تقتحم هذه المباحث، وهي أجهل بآلاتها من عامة الأميين .. من جهل هؤلاء الخابطين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام .. ربما كان سنكلر تسديل الذي مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبي وشواهد التضمين والاقتباس .. موازين النقد الأدبي الذي اشتغل به هذا النفر من المستشرقين لا تسلم على هينة من جراء أخطائهم، لأنهم ضللوا أناساً من تلاميذهم [وبخاصة نصارى العرب الذين رددوا ترديد الببغاء

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٦/ ١٠٢).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٠٢).

(٣) انظر: ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١ ، بيروت، ١٤٠٣هـ .

هذه الشبهة من بعد تسديل الأعجمي] فاتبعوهم في أكثر الأخطاء التي كانوا يقعون فيها من جراء عجزهم عن النفاذ إلى حقائق التاريخ وأسرار البلاغة العربية»(١).

ولم ينس العقاد أن يعلم تسديل ومن ضل وراءه من تلاميذه أن الفوارق بين الشعر الجاهلي وشعر غير ه من العصور أكبر من أن تخفى على ناقد، فلكل عصر، بل لكل شاعر خصائصه الشعرية التي لا تخفى إلا على من «لا سند له ولا سابقة من مثله في آداب الأمم، ولا نصيب له من الذوق الأدبي غير النبو والاستغراب»(٢).

بقي أن أهمس في آذان أتباع تسديل فأخبرهم بأن تسديل تخلص من جهله، وتراجع عن شبهته التي طرحها، وقال: «هذا رأي السيد (س. ج. لايل) الذي أرى أنه من العسير أن نجد ناقدًا أقدر منه للحديث في موضوع الشعر العربي القديم. لقد تفضل بإخباري في رسالة أرسلها إلي حول مؤلف الأبيات محلّ السؤال والمنسوبة إلى امرئ القيس، أنّه يعتقد أنّها ليست له، وقد ضمّنت بعض ملاحظاته في هذا الملحق ... لقد غيّرتُ رأيي في الموضوع في النسخة الفارسيّة بسبب ما قدمه من حجج»(٣).

---

(١) اللغة الشاعرة، عباس العقاد، ص (١٠١-١٠٦).

(٢) المصدر السابق، ص (١٠٥).

(٣) W. St. Clair Tisdall, The Original Sources Of The Qur'an, 1905, Society For The Promotion Of Christian Knowledge: London, p. 50

رابعاً: هل القرآن منحول من شعر أمية ابن أبي الصلت؟

قالوا: القرآن من تأليف محمد [ﷺ]، وقد نقل فيه من شعر أمية بن أبي الصلت الذي يقول في قصيدته:

وَيَوْم مَوْعِدِهِمْ أنْ يُحْشَرُوا زُمَراً ... يَوْم التَّغَابُنِ إذ لا يَنفَعُ الحَذَرُ
مُسْتَوسِقِينَ مَعَ الدَّاعِي كَأَنَّهُمُ ... رِجْلُ الجَرادِ زَفتْهُ الرِّيحُ مُنْتشرُ
وأُبرزووا بصعيد مستوٍ جُرُزٍ ... وأُنْزِلَ العَرْشُ والميزانُ والزُبُرُ
تَقُولُ خُزَّانُها مَا كَانَ عِنْدَكُمُ ... أَلَمْ يَكُنْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ نُذُرُ

وفيها كبير شبه مع ما نجده في سور القرآن من معان، فدل ذلك – بحسب فهمهم – على أن القرآن منحول من شعر هذا الشاعر العربي.

والجواب: أن أمية بن أبي الصلت شاعر عربي مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من الحنفاء الرافضين لعبادة الأصنام والأوثان، ورأى الرسول ﷺ، وسمع منه سورة (يس) في مكة، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه، فقال: أشهد أنه حق، قالوا: هل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره. وخرج إلى الشام.

وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، فعاد أمية من الشام يريد الإسلام، فقال له قائل: يا أبا الصلت ما تريد؟ قال: أريد محمداً قال: وما تصنع؟ قال: أومن به، وألقي إليه مقاليد هذا الأمر. قال: أتدري من في القليب [قليب بدر حيث أُلقي قتلى المشركين]؟ قال: لا. قال: فيه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما ابنا خالك [أمه ربيعة بنت عبد شمس]، فامتنع من الإسلام، وأقام في الطائف حتى مات في السنة التاسعة من الهجرة(١).

فأمية معاصر للنبي ﷺ، سمع منه القرآن فتأثر به، وكاد أن يسلم لولا

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٢/ ٢٨٥).

عصبيته لأبناء خاله، فهو الذي تأثر بالقرآن، ولم يتأثر القرآن به، وقد سمع النبي ﷺ شعر أمية من الشريد بن سويد فأعجبه، وقال: «**فلقد كاد يُسلم في شعره**»[١].

لكن العجب من زعم المبطلين أن القرآن نقل عن أمية، بينما يشهد أمية على صحة القرآن فيقول لكفار قريش: "أشهد أنه حق"[٢]، فلم لا يقبل القوم شهادته التي تكذب وتنقض دعواهم بنحل القرآن من شعره؟!

كما تذكر الأخبار أن أمية كان يتوق للنبوة قبل مبعث النبي ﷺ، فلو كان النبي ينقل من شعره "هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيداً يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه، أو من المورد الذي أخذ أمية نفسه منه؟ لو كان شعر بذلك، لنادى به حتمـًا، ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد، وأن محمداً أخذ منه، فليس له من الدعوة شيء، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به"[٣].

بل لو كان صحيحـًا ما يقال عن النقل من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي لما أسلم أهل بيته، فقد أتت أخته فارعة النبيَّ ﷺ مسلمة بعد فتح الطائف، وأنشدت بين يديه شيئـًا من شعر أخيها[٤]، كما ذكر أهل الأخبار والسير إسلام أولاده حين أسلمت ثقيف كلها، فابنه القاسم ذكره ابن حجر في الصحابة، وكان شاعراً، وهو الذي رثى عثمان بن عفان رضي الله عنه بقوله:

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به   خلاف رسول الله يوم الأضاحي

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢٢٥٥).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (٢/ ٢٨٥).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (١٢/ ٦٨).

(٤) أخرجه أبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني ح (٣٤٧٩).

فطيبوا نفوسًا بالقصاص فإنه سيسعى به الرحمن سعى نجاح[1]

وكذلك أسلم ابنه ربيعة بن أمية، وهو كذلك مذكور في الصحابة[2] وابنه القاسم بن ربيعة ولاه عثمان بن عفان الطائف[3]، وكذلك أسلم وهب بن أمية [4]، وفي إسلام هؤلاء ما يكفي لرد هذه الأبطولة، فلو رأوا القرآن أو بعضه منحولاً من شعر أبيهم لفضحوا ذلك، ولما كانوا في عداد المؤمنين.

ويشكك جواد علي بكثير مما ينسب إلى أمية ويرده إلى ظاهرة النحل التي ذكرناها آنفًا، فبعض ما ينسب إليه لا يعقل أن يكون من شعره، وهو لا ريب منحول ومتقول عليه، ومنه قولهم:

لك الحمد والمنُّ رب العبا د أنت المليك وأنت الحكم
محمداً أرسله بالهدى فعاش غنيًا ولم يهتضم
عطاء من الله أعطيته وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم
أطيعوا الرسول عباد الإله تنجون من شر يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب ومن حر نار على من ظلم
دعانا النبي به خاتم فمن لم يجبه أسر الندم
نبي هُدى صادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله ومن بعده من نبي ختم

(١) انظر: أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٣/ ٥٩٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (٥/ ٤٠٥)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (١٢/ ٦٨).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (٢/ ٤٦١).

(٣) انظر: الإكمال، ابن ماكولا (٦/ ٣٠٢).

(٤) انظر: أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٥/ ٤٥٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (٦/ ٦٢٢).

يموت كما مات من قد مضى يـرد إلى الله بـاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود هـم أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة جميعًا وعلم خط القلم
كتابًا من الله نقرأ به فمن يعتريه فقد ما أتم

فهذه الأبيات منسوبة إلى أمية بن أبي الصلت، وهي قطعًا من منحول الشعر المنسوب إليه، إذ هي ولا ريب لمؤمن بالنبي ﷺ مصدق بالقرآن، وهذا لم يتحقق في أمية الذي مات على الكفر[١].

ثم لو فرضنا جدلاً أن أمية كان قبل الإسلام، فهل مجرد التشابه في كلمات معدودات كاف للحكم أن القرآن - بطوله - منقول عن هذا أو ذاك، ﴿ **فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ (النساء: ٧٨).

وهكذا تبين سخف وضعف الافتراءات والأباطيل التي تنسب إلى القرآن النقل من هذه المصادر البشرية، وأنه كلام الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

***

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (١٢/ ٦٨)، وانظر: خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي (١/ ٢٤٩).

الناسخ والمنسوخ في القرآن

قالوا: في القرآن ناسخ ومنسوخ، ومثل هذا لا يعقل أن يكون في كلام الله العليم المحيط بكل شيء، لأن النسخ يدل على نقص العلم، وتبدل الرأي، والله منزه عن مثل هذه الآفات.

والجواب: العجب كل العجب أن يستنكر وقوع النسخ في القرآن ويستقبحه من تطفح أسفاره المقدسة وتشريعاته بمثله، من غير أن يرى في ذلك قدحاً في كتبه ، فكم من حكم في التوراة نسخه العهد الجديد ﴿ **وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** ﴾ (آل عمران: ٥٠).

وشواهد هذا النسخ في كتابهم المقدس كثيرة ، ومن ذلك أن الله حرم عليهم في التوراة الكثير من الحيوانات واعتبرها نجسة، كالخنازير والإبل والأرانب «**إلا هذه فلا تأكلوها، مما يجترّ، ومما يشق الظلف المنقسم: الجمل والأرنب والوبر، لأنها تجترّ ، لكنها لا تشق ظلفاً، فهي نجسة لكم، والخنزير لأنه يشق الظلف، لكنه لا يجترّ، فهو نجس لكم، فمن لحمها لا تأكلوا**» (التثنية: ١٤/ ٧-٨)، فهذه الحيوانات - وغيرها مما ذكر بعده - نجسة بشهادة التوراة (انظر التثنية ١٤/ ١-٢٤).

ومع ذلك لا يمتنع المسيحيون اليوم عن واحد منها ، لأن مقدسهم بولس أخبرهم بنسخ نجاستها ونسخ تحريمها أيضاً بقوله: «**أنا عالم ومتيقن في الرب يسوع أن لا شيء نجس في حد ذاته، ولكنه يكون نجساً لمن يعتبره نجساً** » (رومية ١٤/ ١٤)، فهذا نسخ لحكم النجاسة التوراتي، وأما نسخ التحريم ففي زعم بولس أن المسيح بدمه المسفوح «**محا الصك الذي علينا في الفرائض .. فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت**» (كولوسي ٢/ ١٤-١٦)، فقد نسخ دمه كل المحرمات من طعام وشراب

وسبت، ولأجل ذلك يأكلها المسيحيون بلا أي حرج؛ مع إيمانهم بصحة النصوص التوراتية المحرِّمة لها، لكنهم يعتبرونها نصوصاً منسوخة من جهة العمل بها.

بل إن الكتاب المقدس يحكي لنا في مسألة حكم الطلاق عن تبدل ونسخ الحكم الإلهي مرة بعد مرة، فالطلاق حسب إنجيل متّى كان حراماً في زمن آدم، ثم أحله الله لبني إسرائيل في أيام موسى، فجاءت شرائع التوراة ببيان أحكامه (انظر التثنية ٢٤)، ثم حرمه المسيح عليه السلام إلا لعلة الزنا.

وبيان هذا وتفصيله أن المسيح قال للفريسيين محرماً الطلاق: «**الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلّق؟ قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا، وأقول لكم: إن من طلّق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلّقة يزني**» (متى ١٩/ ٦-٩).

ويبطل النصارى اليوم كل الشرائع التوراتية الموجودة في العهد القديم، والتي يؤمنون بقدسيتها، وأنها من الله تعالى، لكنهم يرونها منسوخة من جهة العمل بها، ويقولون: أبطلها جميعاً جسدُ المسيح المعلق على الصليب ، كما يقول بولس عن المسيح : «**مبطلاً بجسده ناموس الوصايا**» (أفسس ٢/ ١٥)، وقوله: «**المسيح افتدانا من لعنة الناموس**» (غلاطية ٣/ ١٣)، فالمسيح وفق هذه الفقرات خلصهم من اللعنة المذكورة في سفر التثنية، والتي تحيق بكل من لا يعمل بأحكام الشريعة: «**ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس، ليعمل بها**» (التثنية ٢٧/ ٢٦)، فبطل فيما بطل مئات الأحكام التوراتية الواردة في سفري التثنية واللاويين، كقتل القاتل ورجم الزاني والختان والسبت وتحريم الخنزير.

ويلزمنا هنا التنبيه إلى أن قول أهل الكتاب بالنسخ مختلف تماماً عن قول

المسلمين الذين يعظمون المنسوخ من القرآن، ويرونه حكماً إلهياً صالحاً ونافعاً رفعه الله بحكم آخر أنفع للعباد منه مراعاة لتغير أحوالهم، بينما تنتقص كتب أهل الكتاب المنسوخ منها، وتجعل علة نسخه ضعفَه وعدمَ نفعه، لا مراعاة المستجدات في أحوال الناس، يقول الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين: «**فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ الناموس لم يكمل شيئاً، ولكن يصير إدخال رجاء أفضل، به نقترب إلى الله**» (عبرانيين ٧/ ١٨ - ١٩).

ويواصل كاتب رسالة العبرانيين ، فيصف ناموس الكهنوت التوراتي بالعتق والشيخوخة والتهافت، فيقول: «**وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال**» (عبرانيين ٨/ ١٣)، ويزدريه متهماً إياه بالعيب: « **فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب، لما طُلب موضعٌ لثانٍ** » (عبرانيين ٨/ ٧)، ولتدارك هذا العيب والضعف في العهد القديم؛ فقد أنشأ عهداً جديداً يجعل الإيمان بالمسيح المصلوب طريقاً للنجاة، وهكذا فالنسخ عند أهل الكتاب سببه طروء العلم على الله بعد الجهل – وحاشا لله العظيم العليم – ، وهو ما يسميه علماء الفلسفة بـ (البداء).

أما نحن المسلمين، فنؤمن أن الله على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، لا يعزب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ونسخُ بعض آياته إنما هو من تمام علمه بما يصلح أحوال خلقه.

وقد حكى الله لنا في القرآن استنكار المشركين للنسخ، وتولى الرد عليهم ببيان سعة علمه، وأنه عز وجل يبدل وفق علمه العظيم رغم معارضة الذين لا يعلمون بما يفعله الله وما يقدر عليه: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل: ١٠١)، وقد بينت الآية

التي بعدها علة التبديل، وأنه مراعاة لتبدل أحوال الناس: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (النحل: ١٠٢) فتبين الآية أن النسخ يكون بعلم الله المطلع على ما يقوله الجاهلون.

ولتقريب فهم النسخ إلى الأذهان مثَّل العلماء له بفعل الطبيب الحاذق الذي يصف للمريض دواء، وهو يعلم أنه بعد تحسن حاله سيصف له دواء بديلاً يناسب حاله الجديد، فتبديله للدواء عن علم وحذق، وإن استنكر صنيعه بعض الذين لا يعلمون.

هذا ويجدر التنبيه إلى أن النسخ خاص بالأحكام التي تتبدل مراعاة لأحوال العباد، ولم يقع شيء من نسخ القرآن في الأخبار، لأن النسخ فيها ضعفُ علمٍ وقلةُ معرفة وتكذيبٌ لخبر سابق، وإنما وقع نسخ القرآن في الأحكام التي تدرج الله فيها مراعاة لأحوال الناس، وليعطيهم فرصة لتغيير إلفِهم وما اعتادوه زمنًا طويلاً.

ومثال ذلك في تحريم الله الخمر بالتدريج مراعاة لأحوال العرب الذين كانوا يعاقرون الخمر، ، فأراد الله أن ييسر عليهم ترك هذه العادة فحرمها بالتدريج، فأول ما نزل فيها قوله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ (البقرة: ٢١٩)، فالخمر فيها منافع محدودة (كالتجارة)، لكن ما فيها من الإثم والضرر أعظم، وهذا كاف عند الكثيرين للتنبه إلى خطرها والامتناع عنها درءاً لضررها، واستغناء عن منفعتها المالية.

ثم بعد أن تشبع المسلمون بهذا المعنى وامتنع الكثير منهم عن معاقرة الخمر نزل قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ** ﴾ (النساء: ٤٣)، فامتنع جميع المسلمين عن تناولها

سائر النهار، لأنها تشغل عن الصلاة وتفسدها، فتضايق عليهم وقت شربها، فلم يجدوا لها وقتاً إلا ما بين صلاة العشاء إلى الفجر، وهو وقت نومهم وراحتهم، وما بين الفجر والظهر، وهو وقت أعمالهم.

وقد أحس الصحابة لما نزلت هذه الآية أن الله يشدد عليهم في الخمر، فدعا عمر ﵁ الله فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء. فنزل قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١)، فدُعي عمر، فقُرئت عليه، فقال: (انتهينا انتهينا)(١).

فتغير حكم الخمر، ونسخه في آيات القرآن مرتبط بأحوال الناس ومراعاة مصلحتهم بالتدريج في التخلص من عادة شرب الخمر، كحال الطبيب الذي يعطي مريضه دواء ثم يستبدله بدواء آخر في أجل كان يرقبه، لتحسن حال المريض، فهذا من حذقه، ولو عدَّه بعض السفهاء قلة علم وضعف معرفة.

كما قد يقع النسخ لحكم أخرى، منها ابتلاء الله واختباره امتثال العباد لأوامره ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ** ﴾ (البقرة: ١٤٣)، ومن هذا النوع أيضاً ابتلاء الله لإبراهيم حين أمره الله بذبح ابنه ابتلاء واختباراً، فلما امتثل إبراهيم وإسماعيل أمر ربِّهما، ورأى الله صدق استسلامهما وانقيادهما؛ افتداه الله بكبش أُمِر إبراهيم بذبحه، وبذلك نسخ الله الأمر بذبح الابن بأمر جديد وهو ذبح الكبش، لا لعلم جديد علمه الله، بل هو العليم الذي

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٠٤٩)، والنسائي ح (٥٥٤٠)، وأبو داود ح (٣٦٧٠).

علم كل شيء قبل أن يخلقه، وكما قال ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١).

ويقع النسخ أيضاً - بتشديد الأحكام - عقوبة من الله لعصاة بني آدم، كما حرم الله على بني إسرائيل بعض ما كان حلالاً عليهم ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** ﴾ (النساء: ١٦٠-١٦١).

وهكذا فالنسخ بعض كمال قوة الله وقدرته وعلمه بما يصلح لعباده، فهو ينسخ ما يشاء، ويبدله بما شاء وأراد ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة: ١٠٦)، فالآية صريحة بكمال صفات الله، وأنه ينسخ ما يشاء بقدرته التي لا يحدها شيء، وأنه تعالى حين ينسخ الآية الكريمة يأتي للعباد بما هو خير لهم من المنسوخ، من جهة منفعته للعباد، وقد قال ابن عباس في معنى قوله: ﴿ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا** ﴾ : «خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم»(٢).

ويلزمنا التنبيه إلى أن النسخ في القرآن لا يقع من النبي ﷺ، بل هو فعل إلهي محض: ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ (**يونس: ١٥**).

(١) أخرجه مسلم ح (٢٦٥٣)، ويجدر هنا التنبيه إلى أن قصة إبراهيم مع ابنه الذبيح ونسخ الله أمره بالذبح مذكورة في سفر التكوين (انظر الإصحاح ٢٢).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢/ ٤٨١).

ثم لو تأملنا الآيات المنسوخة لوجدنا فيها - أحياناً - ما يشعر بكون هذا الحكم مؤقتاً ، كما في حكم حبس الزانية في قوله : ﴿**وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**﴾ (النساء: ١٥)، فقوله: ﴿ **أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**﴾ نص في ترقب حكم جديد ينزل من الله تعالى، وقد تحقق هذا السبيل المنتظر من الله في آيات سورة النور التي قضت بجلد الزانية، بدلاً من الحكم المنسوخ (حبسها).

ولم تنسخ الآية من التلاوة؛ لأن الله نسخ حكمها، وأبقاها متلوة إلى قيام الساعة؛ يؤجر المسلمون على قراءتها، ويرون فيها بعض رحمة الله وتخفيفه على عباده حين نسخها بحكم آخر أيسر منه.

أما النوع الثاني من أنواع النسخ؛ فهو نسخ التلاوة، وهو نوع مخصوص بآيات من القرآن نزلت على النبي ﷺ، وقرأها المسلمون، ثم رفعها الله من قرآنه لحكمة هو أعلم بها ﴿ **يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ (الرعد: ٣٩)، فما يمحوه الله من آياته ليس نسياناً، ولا لغيره مما يطرأ على البشر، بل هو وفق حكمته ومشيئته وعلمه الأزلي ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾ (**البروج: ٢١-٢٢**)، فهو تبارك وتعالى قادر على نسخ ما يشاء من آي القرآن ﴿**وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ (الإسراء: ٨٦).

ولو شئنا تلمس ومعرفة الحكمة الإلهية في نسخ بعض الآيات تلاوة؛ لوجدنا أن بعض هذه الآيات نزل في معالجة أحداث مخصوصة كحادثة بئر معونة التي قتل فيها ما يقارب عُشُر المسلمين حينذاك، فأنزل الله ما أنزل تثبيتاً لقلوب المؤمنين في وقت كربتهم وزلزالهم، ومثله نزلت آيات النهي عن الانتساب لغير الأب في وقت كان الناس يتعايرون بأنسابهم، فلربما نسب الرجل

نفسه إلى غير أبيه؛ فلما علم ربنا عز وجل حاجة المسلمين إلى تلكم الآيات في ذلك الزمان؛ أنزلها، وعلم ربنا أن الحاجة إليها مؤقتة، وأن البشرية لا تحتاجها في أجيالها القادمة؛ فنسخها بما هو خير منها أو مثلها، ورفع تلاوتها من المصاحف.

إن ما يعتبره المسلمون قرآناً ليس كل ما نزل على النبي ﷺ من الوحي، بل ما أثبته الله في العرضة الأخيرة لجبريل، وهو يعرضه على النبي ﷺ في آخر رمضان أدركه النبي ﷺ قبيل وفاته، وهذا المعنى يخبر عنه أنس بن مالك رضي الله عنه بقوله: (**أُنزل في الذين قتلوا ببئر معونة قرآن قرأناه، ثم نسخ بعد {بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه}**)(١).

ويوضحه قول عمر رضي الله عنه: (أقرؤنا أُبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أُبي، وذاك أن أُبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعتُه من رسول الله ﷺ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾) (البقرة: ١٠٦)(٢).

فالله عز وجل ينسخ من آياته ويُنسِي عباده ما يشاء، فهو الذي يعلم الجهر وما يخفى، وهو بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير: ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** ﴾ (الأعلى: ٦-٧).

وهكذا فالعرضة الأخيرة للقرآن هي فقط ما تعبدنا الله بتلاوته إلى يوم القيامة، وأما ما سوى ذلك مما كان يقرأ؛ فقد نسخ بقراءة العرضة الأخيرة التي شهدها جمع من الصحابة، منهم زيد بن ثابت، فأهَّله ذلك لجمع القرآن زمن الصديق، ثم زمن عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ح (٢٨١٤)، ومسلم ح (٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٤٨١).

قال أبو عبد الرحمن السلمي: "كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرؤون القراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه[١].

وقال عن زيد: «شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتبة المصاحف رضي الله عنهم أجمعين»[٢].

وعن كثير بن أفلح أن عثمان رضي الله عنه «لما أراد أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار ، فيهم أُبي بن كعب وزيد بن ثابت .. وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه .. إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الآخرة، فيكتبونها على قوله»[٣].

وعن سمُرة رضي الله عنه قال: عرض القرآن على رسول اللهِ ﷺ عرضات، فيقولون: إن قراءتنا هذه العرضة الأخيرة[٤].

قال عَبِيدة السلماني ـ وهو من كبار التابعين ـ: القراءة التي عُرِضَت على رسول الله ﷺ في العام الذي قبض فيه؛ هي القراءة التي يقرؤها الناس اليوم[٥].

وقال ابن تيمية: «العرضة الأخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف،

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/ ٢٣٧).
(٢) انظر المصدر السابق (١/ ٢٣٧).
(٣) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف، ص (٣٣).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.
(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٥٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٠٤).

ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة»[١].

وقال البغوي: «المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العرضات على رسول الله ﷺ، فأمر عثمان بنسخه في المصاحف، وجمع الناس عليه، وأذهب ما سوى ذلك؛ قطعًا لمادة الخلاف، فصار ما يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كسائر ما نسخ ورفع، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم»[٢].

وهكذا، فالآيات المنسوخ تلاوتها لم تسقط من المصحف نسيانًا أو جهلاً؛ إنما نسخها الله، فلم يقرأها جبريل على النبي ﷺ في العرضة الأخيرة، التي أقرأها النبي ﷺ زيد بن ثابت وغيره من الصحابة، وبها قرأ المسلمون في كل العصور.

ومن هذا المنسوخ تلاوة؛ آية الرجم، وهي آية حفظها الصحابة ووعوها، ومع ذلك لم تكتب في القرآن الكريم لنسخها في العرضة الأخيرة، وقد خطب عمر الصحابة زمن خلافته، وقبل جمع عثمان للمصاحف، فقال: (إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها، ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله؛ فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف.

ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله "أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣/ ٣٩٥).

(٢) شرح السنّة، البغوي (٤/ ٥٢٥-٥٢٦).

بكم أن ترغبوا عن آبائكم" أو "إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم")(١).

فذكر عمر ﷺ في هذا الأثر آيتين منسوختين تلاوة من القرآن، فهو يعرفهما، ويقول عن آية الرجم: (فقرأناها ، وعقلناها، ووعيناها)، ثم يذكر أنها نسخت من القرآن، وفي رواية أنه قال: (وايم الله، لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله عز وجل؛ لكتبتها)(٢)، فهو ﷺ يؤكد نزولها، وأنها محفوظة عنده، وأنها غير موجودة في كتاب الله، وهذا قبل الجمع العثماني للقرآن الكريم.

كما ضرب عمر ﷺ مثلاً آخر للمنسوخ تلاوة بآية التحذير من الانتساب إلى غير الآباء، وهذا كله في حضور جموع الصحابة رضوان الله عليهم؛ مما دل على معرفتهم جميعاً بوقوع النسخ تلاوة في القرآن الكريم.

وأما سبب إسقاط الصحابة لهذه الآية من المصحف فهو أمر النبي ﷺ بذلك، فقد روى البيهقي من حديث زيد بن ثابت أنه دخل على مروان بن الحكم فسأله مروان عن سبب ترك كتابة هذه الآية في المصاحف، فأخبره زيد أن عمر ﷺ أتى النبي ﷺ، فقال: أكتبني آية الرجم؟ فقال ﷺ: «**لا أستطيع ذاك**»، وفي رواية البوصيري أن النبي ﷺ أجاب عمر: «لا أستطيع الآن»، أي لنسخها من بعد تنزلها.

قال البيهقي: «في هذا وما قبله دلالة على أن آية الرجم حكمها ثابت، وتلاوتها منسوخة، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٨٣٠)، ومسلم ح (١٦٩١)، وهذه الآية المنسوخة هي قوله تعالى: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عليم حكيم) أخرجه أحمد في المسند من حديث أُبي بن كعب ح (٢٠٧٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٤١٨).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٨/ ٢١١) ، والنسائي في السنن الكبرى ح (٧١٤٨)، ورواية البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ح (٣٥٠٢).

ومن أمثلة المنسوخ تلاوة آية الرضاع، ففي صحيح مسلم، من حديث أم المؤمنين عائشة أنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ، وهن فيما يقرأ من القرآن)(١).

وقولها: (وهن فيما يقرأ من القرآن)، ليس يساوي القول: (وهن من القرآن)، بل معناه أن النسخ كان في أواخر حياة رسول الله ﷺ، فمات وبعض الصحابة لم يبلغهم النسخ، فما زالوا يقرؤونه على أنه من القرآن، وقد قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (نزلت ثم رفعت)(٢).

قال النووي: «معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً؛ حتى أنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات، ويجعلها قرآنـاً متلواً؛ لكونه لم يبلغه النسخ؛ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى»(٣).

وقد يشكل - هنا - ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها)(٤)، فهذا الخبر يفيد أن آية الرجم وآية الرضاع عشراً قد ضاعتا بسبب أكل الداجن للصحيفة التي كتبتا فيها.

لكن هذا القول يندفع إذا علمنا أن الأثر ضعيف السند، منكر المتن، رده العلماء وضعفوه لأن في إسناده محمد بن إسحاق، وهو مدلس، ويرويه بالعنعنة

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٤٥٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٣٩).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٢٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه ح (١٩٤٤).

[أي بقوله: عن فلان]، وعنعنة المدلس لا تقبل، وترد حديثه كما هو معلوم في قواعد المحدثين، قال الألباني: «ابن إسحاق مدلس، وإنه إذا قال: (عن)؛ فليس بحجة، وإذا قال: (حدثني) فهو حجة»(١).

وسئل أحمد بن حنبل عنه: ابن إسحاق إذا تفرد بحديث تقبله؟ قال: «لا، والله إني رأيته يحدث عن جماعة بالحديث الواحد، ولا يفصل كلام ذا من ذا»(٢).

وكان يقول: «ابن إسحاق ليس بحجة»(٣).

قال الذهبي: «وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب»(٤)، وهذا الحديث من عجائبه ومناكيره، ويعله أمران: أولهما: أنه ليس في المغازي، والآخر: أنه معنعن غير مسند.

وقال أيضاً في ترجمته: «الذي يظهر لي أن ابن إسحاق حسن الحديث، صالح الحال، صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة، فإن في حفظه شيئاً»(٥).

قال ابن قتيبة: «فأما رضاع الكبير عشراً فنراه غلطاً من محمد بن إسحاق»(٦)، هذا من جهة إسناده.

وأما السرخسي فأعلَّ الأثر بنكارة متنه الذي يوحي أن مصدر هذه الآية كان هذه الصحيفة فقط، وأنها لم تكن محفوظة عند جماهير الصحابة: «حديث عائشة لا يكاد يصحّ ... ومعلوم أن بهذا لا ينعدم حفظه من القلوب، ولا يتعذّر

---

(١) دفاع عن الحديث النبوي، ناصر الدين الألباني، ص (٨٢).
(٢) تهذيب الكمال، المزي (٢٤/ ٤٢٢)، وتاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١/ ٢٢٠).
(٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١/ ٢٣٠).
(٤) العلو، الذهبي، ص (٣٩).
(٥) ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ٤٧٥).
(٦) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص (٣١٤).

عليهم به إثباته في صحيفة أُخرى، فعرفنا أنّه لا أصل لهذا الحديث»[١]، وهكذا فالأثر ضعيف الإسناد ، منكر المتن، لا يصلح ولا يقوى للاحتجاج به، وبمثل هذا الأثر الضعيف يفرح وينعق المبطلون!.

ومن المنسوخ تلاوة دعاء القنوت الذي يقنت به المسلمون في صلاة الوتر إلى يومنا هذا، فقد نزل قرآنـًا ، ثم نُسخ في العرضة الأخيرة «**اللهم إنا نستعينك ونستغفرك. ونثني عليك ولا نكفرك. ونخلع ونترك من يفجرك. اللهم إياك نعبد. ولك نصلي ونسجد. وإليك نسعى ونحفِد. نرجو رحمتك ونخشى عذابك. إن عذابك الجد بالكافرين مُلحِق**».

وقد روي عن أُبي بن كعب أنه أثبته في مصحفه، ذلك أن أُبيـًا كان يقول: (لا أدع شيئـًا سمعته من رسول الله ﷺ)، وقد رد عليه الخليفة عمر، وضعّف قوله مستدلاً بقول الله عز وجل: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ (البقرة: ١٠٦)[٢].

وهذا المذهب بالقراءة بالمنسوخ كان مذهب أُبي رضي الله عنه أول الأمر، ثم رجع عنه، بدليل أنه أقرأ التابعين بما في مصحف الجماعة، كما هو مروي عنه في قراءة عاصم ونافع وابن كثير وأبي عمرو، التي اتصل إسنادها إليه من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عبد الله بن عياش المخزومي وعبد الله بن السائب وأبي العالية[٣].

وذكر أبو الحسن الأشعري أنه رأى مصحف أنس بالبصرة، عند بعض

(١) أصول السرخسي (٢/ ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٤٨١).

(٣) انظر: الإقناع في القراءات السبع، ابن الباذش الأنصاري، ، (١/ ٧٦، ٩١، ١٢٤)، والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١١٢، ١٢٠، ١٣٣، ١٥٥).

ولدِه، يقول: فوجدتُه مساوياً لمصحف الجماعة، وكان ولد أنس يروي أنه خط أنس وإملاء أُبي بن كعب[١].

وهكذا يستبين للمنصف أن قول المسلمين بالنسخ مختلف عن قول أهل الكتاب، وأنه فرع عن كمال علم الله وقدرته ولطفه بعباده، فهو تعالى ﴿ **يَمْحُو اللَّه مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٣٩)، وكل ذلك وقع في القرآن وفق حكمته ومشيئته وعلمه الأزلي المكتوب في اللوح المحفوظ ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾ (البروج:٢١-٢٢).

***

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (٨١).

هل تغير النص القرآني في عصر الصحابة الكرام وبعدهم؟

أولاً: اختلاف مصاحف الصحابة

قالوا: اختلفت مصاحف الصحابة في الصدر الأول مما استدعى من الخليفة الثالث عثمان أن يقول بإحراق هذه المصاحف وأن يجمع الصحابة على مصحفه.

الجواب: تحدثنا فيما سبق عن جمع عثمان للمصاحف، وتبين لنا في حينه أن أبا بكر الصديق جمع القرآن في دفتي كتاب بعد أن جمع كل ما عند الصحابة مما كتبوه بين يدي النبي ﷺ، وأن عثمان أراد جمع الصحابة على حرف قريش الذي نزل القرآن به، وأنه بدأ بصحف الجمع البكري، فأرسل إلى أم المؤمنين حفصة والتي كانت تحتفظ بصحف أبي بكر: (أن أرسلي إلينا بالصحف؛ ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك)، فقد أعاد عثمان نسخ صحف أبي بكر التي جمعت من المكتوب بين يدي النبي ﷺ، وقد استوثق له وانعقد له إجماع الصحابة.

فإن وجد في مصاحف بعض الصحابة خلاف المصحف المجمع عليه، فهذا يعود إلى خطأ في نسخته، ونسخته ليست أثبت من النسخة التي أجمع عليها الصحابة، إذ قد يفوت الآحاد ما لا يفوت الجمع، كما أن في نسخ آحادهم بعض ما نزل على النبي ﷺ قبل العرضة الأخيرة للوحي في أواخر حياة النبي ﷺ، ففيها ما نسخت تلاوته، كما قد يقع في نسخ آحاد الصحابة نقص بعض سوره أو زيادة الناسخ - في نسخته - شرح كلمة وسواها، فيخشى أن يظن من يأتي بعد ناسخها أنها من القرآن.

وتكامل المصحف العثماني وفق المنهجية التي ذكرنا تفاصيلها قبلُ، وأجمع أصحاب النبي ﷺ على القراءة بهذا المصحف، وأمر عثمان بإرسال نسخ منه إلى الأمصار، وأمر من كان عنده شيء من صحف القرآن أن يحرقها، يقول حذيفة: (حتى إذا نسخوا الصحف [صحف الجمع البكري] في المصاحف؛ رد عثمان الصحف إلى

حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)(١) ففعل الصحابة وامتثلوا ذلك، واتفقوا على صحة صنيع عثمان، يقول علي رضي الله عنه: (يا أيها الناس، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً، والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل)(٢)، ويقول مصعب بن سعد رضي الله عنه: (أدركت الناس حين شقق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، أو قال: لم يعب ذلك أحد)(٣).

وأما ما نقل عن اعتراض ابن مسعود رضي الله عنه وقوله: (يا معشر المسلمين، أُعزل عن نسخ كتابة المصحف ويتولاها رجل [يقصد زيد بن ثابت]، والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلب رجل كافر)(٤)، فهو اعتراض شخصي الصبغة، لا يتضمن اعتراضاً منه على وثوقية الجمع أو منهجيته، ولا على أمانة زيد بن ثابت أو قدرته، لكنه يعتب على الصحابة رضوان الله عليهم أنهم أسندوها إلى شاب صغير، ولم يسندوها إليه رضي الله عنه، وهو الذي تعلم القرآن قبل ولادة زيد رضي الله عنه، وقد لقي اعتراضه كراهية في صدور كبار الصحابة الذين رأوا في اختيار زيد الاختيار الأمثل والأفضل، يقول الزهري في تمام الرواية معلقاً على اعتراض ابن مسعود: فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجالٌ من أفاضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).
(٢) أخرجه أبو بكر ابن أبي داود في كتابه المصاحف ح (٧٧)، وابن شبة في تاريخ المدينة المنورة (٣/ ٩٩٦).
(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ح (١٦١)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن ح (٤٦٠).
(٤) أخرجه الترمذي ح (٣١٠٤) .

وهكذا اجتمعت الأمة على القراءة بالمصحف الذي كتبه عثمان ﷺ واتفق الصحابة عليه، وما زال المسلمون في كل عصر يطبعون القرآن وفق رسمه.

***

ثانياً: اختلاف الصدر الأول في قراءة بعض آيات القرآن الكريم

قالوا: اختلف الناس في قراءتهم لبعض آيات القرآن على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فجاء حذيفة بن اليمان إليه فقال: (يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)[١]، مما استدعى من الخليفة الثالث جمعهم على قراءة واحدة، فاختلافهم قبل جمع عثمان دليل على تدخل البشر في النص القرآني.

الجواب: نزل القرآن الكريم أول ما نزل في مجتمع قريش في مكة حاضرة العرب، فأقرأ النبي ﷺ أصحابه المكيين القرآن الكريم، فكان سهلاً وميسوراً عليهم قراءته، فهم أفصح العرب بياناً.

ثم بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة دخلت قبائل العرب في الإسلام فصعب عليهم قراءة القرآن وفق لهجة قريش، فبعض حروفها غير مألوف في كلامهم، كما ثمة كلمات عربية قرآنية لم تكن شائعة في لهجاتهم، ونظراً لكون عامة العرب أميين يصعب عليهم التحول عن مألوف لهجاتهم إلى لهجة قريش؛ وبخاصة كبار السن والأطفال فقد سأل النبي ﷺ الله عز وجل أن يخفف عن أمته بإقراء الناس القرآن على حروف سبعة، فعن أُبي بن كعب أن جبريل لقي رسول الله ﷺ وهو عند غدير لبني غفار، فقال: «**إن الله يأمرك أن تُقرئ أُمتك القرآن على حرف. فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.**

ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أُمتك القرآن على حرفين. فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أُمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أُمتك القرآن على ثلاثة أحرف.

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).

فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أُمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أُمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا»(١).

وفي رواية أنه قال: «يا جبريل إني بعثتُ إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»(٢)، **فهذه الأحرف السبعة رخصة وتيسير من الله، وقد نزل القرآن بها جميعاً، وليست اجتهاداً نبوياً.**

وقد فسر لنا أصحاب النبي ﷺ هذه الحروف، كما روي عن أبي بكرة أن جبريل أذن للنبي ﷺ بالقراءة على سبعة أحرف، وقال له: «**كلٌّ شاف كاف، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، نحو قولك: تعال وأقبل، وهلم واذهب، وأسرع واعجل**»(٣).

وقد قرأ أصحاب النبي ﷺ بهذه الوجوه التي يسر الله بها عليهم، وأقرؤوا الناس بها، حتى ذربت على قراءته ألسنتُهم وسهل عليهم حفظُه وقراءتُه في الصلوات والخلوات.

وقد التبس على بعض الصحابة على عهد النبي ﷺ اختلافُ بعض الكلمات أو طريقة نطقها أو وجوه الإعراب فيها بسبب تعدد الأحرف ، فتولى ﷺ رفع الخلاف بينهم، وبيَّن لهم أن جميع هذه الأحرف من وحي الله، يقول عمر بن الخطاب: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة

---

(١) أخرجه مسلم ح (٨٢١).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٩٤٤).

(٣) أخرجه أحمد ح (١٩٩٩٢).

رسول الله، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله، فقلت: كذبت، فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت.

فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله: «**أرسله. اقرأ يا هشام**». فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله: «**كذلك أنزلت**».

ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله: «**كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه**»(١)، فالقرآن نزل بتلك الحروف التي قرأ بها عمر وبتلك التي قرأ بها هشام، واختلافهما ليس مرده الخطأ والنسيان، بل تسهيل الله على هذه الأمة الأمية قراءة كتابها.

ومثل هذا الموقف وقع لأُبي بن كعب حين دخل المسجد فسمع رجلاً يصلي ويقرأ قراءة أنكرها أُبي عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فالتبس الأمر على أُبي، فدخل معهما إلى النبي ﷺ، فقرؤوا بين يديه، فحسن النبي ﷺ شأنهما.

يقول أُبي: فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً، فقال لي: «**يا أُبي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف. فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين. فرددت إليه أن هوِّن على أمتي. فرد إلي الثالثة اقرأه على سبعة أحرف**»(٢)، ففهم

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٩٢)، ومسلم ح (١٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٨٥٦).

أُبي بن كعب حينذاك أن القرآن تنزل بهذه الحروف، وأن الخلاف بين الصحابة في بعض حروفه هو رخصة من الله أعطاها الله لنبيه ﷺ تخفيفاً عليهم ورحمة بهم، ولذلك كان ﷺ يقرأ بهذه الحروف بعد اجتماع الصحابة على لغة قريش وحرف القرآن الذي تنزل به أول مرة، وكان يقول: (لا أدع شيئاً سمعتُه من رسول الله ﷺ)[١].

لقد فهم الصحابة حكمة تعدد الأحرف وما تقتضيه هذه الرخصة من تنوع؛ اقتضاه تنوع لهجات القبائل العربية واختلاف طريقة نطق كل قبيلة لبعض الحروف العربية عن غيرها من القبائل، فلم يعب بعضهم على بعض قراءته، إذ علموا أن كل ذلك من عند الله.

لكن الأمر لم يكن كذلك في عهد عثمان الخليفة الثالث للنبي ﷺ، حيث دخل في الإسلام العرب والعجم، ممن لم يفقه الأحرف السبعة، وأن الله نزل القرآن بها جميعاً تسهيلاً ورحمة بالأمة، فجعل بعضهم يخطئ الآخرين في قراءتهم، ويرى أن حرفه أصح من حرف غيره، وحصل بينهم مراء، فجاء حذيفة بن اليمان إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ يشكو تنافر المسلمين بسبب اختلافهم في الحروف التي سمعوها من النبي ﷺ، فقال: «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى»[٢].

فاستشار عثمان أصحاب النبي ﷺ في إعادة نسخ القرآن في مصحف واحد جامع: (نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون

(١) أخرجه البخاري ح (٤٤٨١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٨٨).

اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت)[(١)].

وقد أسقط الجمع العثماني من الأحرف السبعة ما تعارض مع الرسم العثماني، فقد قال عثمان للجنة الكتابة: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم)[(٢)]، وليس في ذلك إهمال لبعض نص القرآن، بل عود لأصل تنزله على حرف واحد، فقد عاد الصحابة للأصل الأول الذي نزل به القرآن، وهو لسان قريش[(٣)] بعد أن زال سبب التخفيف والرخصة التي أنزل الله من أجلها بقية الأحرف.

والذي دعا الصحابة إلى هذا الصنيع خوفُهم من تفرق الأمة واختلافها بسبب هذه الرخصة التي فات محلها، ووقوع الناس لجهلهم بحكمتها في المراء الذي حذر رسول الله ﷺ منه، قال ابن الجزري: «وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبرائيل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفاً منها .. وهذا القول هو الذي يظهر صوابه لأن

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ح (٧٧)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٩/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٥٠٦).

(٣) نزول الأحرف السبعة كان في أواخر حياة النبي ﷺ، ويقترن بدخول قبائل العرب إلى الإسلام في السنة السابعة للهجرة، وصعوبة تحول كبارهم إلى لغة قريش، ويشهد له أن روايات الأحرف السبعة تقترن بذكر صحابة تأخر إسلامهم كهشام بن حكيم الذي أسلم عام ٨ هـ بعد فتح مكة، أو بذكر أماكن معروفة في المدينة المنورة «أضاة بني غفار» و «أحجار المراء»، وهي كما قال مجاهد: قباء.

الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له»[١].

وهكذا اجتمع المسلمون منذ الصدر الأول على القراءة بالقرآن الذي بين أيدينا ، فنقل عن الصحابة بطرق لا تحصى لكثرتها، نقل منها ابن الجزري في النشر ٩٨٠ طريقاً[٢]، ثم قال: « جملة ما تحرر عنهم من الطرق بالتقريب نحو ألف طريق، وهي أصح ما يوجد اليوم في الدنيا وأعلاه، لم نذكر فيها إلا من ثبت عندنا أو عند من تقدمنا من أئمتنا عدالته، وتحقق لقيه لمن أخذ عنه وصحت معاصرته، وهذا التزام لم يقع لغيرنا ممن ألف في هذا العلم»[٣]، وهي في كل ذلك لا تختلف عن بعضها في شيء من آيات أو كلمات القرآن الكريم.

***

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٣١-٣٢)، وانظر: تفسير الطبري (١/ ٥٨-٥٩).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١٩٢).

ثالثاً: هل أسقط ابن مسعود ﷺ المعوذتين من مصحفه؟

قالوا: اختلف الصحابة في المعوذتين هل هما من القرآن أم لا؟ فكان ابن مسعود يحكُّهما من المصاحف، ويقول: (إنهما ليستا من القرآن، فلا تجعلوا فيه ما ليس منه).

والجواب: إن القرآن نقل إلينا بالتواتر، جيلاً بعد جيل، فقد حمله من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله، ونلقه عنهم أضعافهم عدداً إلى يومنا هذا، فتوافق الصحابة على النص القرآني حجة لا ينقضها ولا يقدح فيها مخالفة واحد من آحاد الصحابة أو من بعدهم، إذ مخالفة الآحاد لا تقدح في التواتر، فليس من شرطه عدم وجود المخالف، فقد تواتر عند الناس – اليوم – وجود ملك قديم، الفرعون خوفو، فلو أنكر اليوم واحد من الباحثين هذا الذي تواتر عند الناس، وقال: لم يوجد هذا الملك، فإنه لا يلتفت إليه، لمخالفته المتواتر.

ومثله تواتر القرآن برواية الجموع عن الجموع في كل جيل، فلو صح إنكار ابن مسعود سورة من سوره، بل لو أنكر القرآن كله لما قدح هذا بقرآنية القرآن ولا طعن في موثوقيته.

لكن هذه الروايات لا تصح عن ابن مسعود ﷺ، ففي أسانيدها ما يقدح في صحتها، فخبر حكِّ السورتين من المصاحف، وقول ابن مسعود ﷺ: (ليستا من كتاب الله تبارك وتعالى)، مروي في مسند أحمد والطبراني في الكبير، وتدور أسانيدهما على أبي إسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني عن عبد الرحمن بن يزيد.

وأبو إسحاق رغم توثيق العلماء له؛ فإنه قال عنه ابن حبان: «وكان مدلساً»، والمدلس لا تقبل روايته إلا إذا صرح بالتحديث [أي قال: حدثني]، وترد روايته إذا كانت بصيغة العنعنة، كما في هذه الرواية، حيث يقول فيها: (عن

عبد الرحمن بن يزيد).

ولا يتقوى هذا الإسناد بإسناد الطبراني للأثر من رواية الأزرق بن علي (أبي الجهم الحنفي)، وقد ذكره ابن حبان وقال: «يغرب»، أي له غرائب[١].

والأزرق صاحب الغرائب يرويه عن حسان بن إبراهيم الكرماني، وقد وثقه البعض، وضعفه غيرهم، كالعقيلي الذي قال عنه: «في حديثه وهم»، كما أعله غير واحد من العلماء، قال ابن حبان: «ربما أخطأ».

وقال أبو زرعة: «لا بأس به».

وقال النسائي: «ليس بالقوي».

وقال ابن عدي: «قد حدث بأفراد كثيرة، وهو عندي من أهل الصدق إلا أنه يغلط في الشيء ولا يتعمد»[٢].

وبهذا يتبين ضعف هذه الروايات المروية عن مثل هؤلاء، وقد أشار العلماء من أهل الصنعة الحديثية إلى ذلك، فقال ابن حزم: «وكل ما روى عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه؛ فكذب موضوع لا يصح، وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، وفيها أم القرآن والمعوذتان»[٣].

وكذلك فإن الباقلاني يكذب هذه الأخبار ويقول: «هذا باطل وزور، ولا ينبغي لمسلم أن يثبته على عبد الله بن مسعود بأخبار آحاد معارضة بما هو أقوى منها عن رجال عبد الله في إثباتها قرآنـًا»[٤]، ونرى في كلام ابن حزم والباقلاني

---

(١) انظر: الثقات، ابن حبان (٨/ ١٣٦)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١/ ١٧٥).

(٢) انظر: الضعفاء، العقيلي (١/ ٢٥٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٣) المحلى، ابن حزم (١/ ١٣).

(٤) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (٧٥).

إشارة إلى أمر مهم - نعود إليه - ، وهو مخالفة هذه الروايات الضعيفة للقراءات المتواترة عن ابن مسعود وغيره من الصحابة الكرام.

ويستشهد الباقلاني على ضعف هذه الروايات بعلة أخرى، وهي سكوت الصحابة على قوله وهم جميعاً يقرؤون المعوذتين، فيقول: "وأما المعوذتان، فكل من ادَّعى أن عبد الله بن مسعودٍ أنكر أن تكونا من القرآن، فقد جهل، وبعُد عن التحصيل، لأن سبيل نقلهما؛ سبيل نقل القرآن ظاهراً مشهوراً .. وكيف ينكر كونهما قرآناً منزلاً، ولا ينكر عليه الصحابة، وقد أَنكرت عليه أقل من هذا وكرهته من قوله: «معشر المسلمين، أُعزل عن كتابة المصحف؟! والله لقد أسلمت؛ وإن زيداً لفي صلب رجل كافر».

قال ابن شهاب: «كره مقالته الأماثل من أصحاب رسول الله ﷺ»[١].

والصحيح أن ابن مسعود رضي الله عنه لم ينكر سماع المعوذتين من النبي ﷺ، بل غاية ما نقل أنه كان يراهما عوذة علمها الله لنبيه، فكان يعوذ بهما نفسه والحسن والحسين، لكنه لم يسمعه ﷺ يقرأ بهما في الصلاة، وهذا الذي نُقل عن ابن مسعود: (لا تخلطوا بالقرآن ما ليس فيه، فإنما هما معوذتان تعوذ بهما النبي ﷺ: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس)[٢]، وفي رواية الطبراني من طريق أبي الجهم الأزرق بن علي أنه قال: (إنما أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، ولم يكن يقرأ بهما)[٣].

وإذا كان ابن مسعود لم يسمع النبي ﷺ يقرأ السورتين في الصلاة فإن ذلك

---

(١) المصدر السابق، ص (٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (٩١٥١) من طريق أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (٩١٥٢).

لا يعني بالضرورة عدم قراءته ﷺ لهما، فقد سمعهما غيره منه، قال سفيان: «كان يرى رسول الله ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين، ولم يسمعه يقرؤهما في شيء من صلاته، فظن أنهما عوذتان، وأصر على ظنه، وتحقق الباقون كونهما من القرآن، فأودعوهما إياه»(١).

وإذا كان ابن مسعود يظن – حسب تلك الآثار الضعيفة – عدم قرآنيتهما؛ فإن جميع الصحابة خالفوه في ذلك، فالمفروض في ميزان العقلاء أن قوله خطأ يردُّ في مقابل قولهم الصحيح، يقول ابن قتيبة : «إنا لا نقول: إن عبد الله وأُبياً أصابا(٢)، وأخطأ المهاجرون والأنصار، ولكن عبد الله ذهب فيما يرى أهل النظر إلى أن المعوذتين كانتا كالعوذة والرقية وغيرها، وكان يرى رسول الله ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين وغيرهما .. فظن أنهما ليستا من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة جميعاً»(٣)، ولن يقبل أحد ترك القراءة بآية قرآنية ، لأن ابن مسعود لم يسمعها من النبي ﷺ، فليس من شرط القرآن أن يسمعه ابن مسعود رضي الله عنه تحديداً.

قال البزار: «لم يتابع عبدَ الله أحدٌ من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأُثبتتا في المصحف" [أي العثماني](٤)، أفلا يكفي للإيمان بقرآنيتهما أن النبي ﷺ قرأهما في الصلاة»(٥).

كما جاء في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال له: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ ، و﴿**قُلْ**

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢٠٦٤٨).

(٢) اعتبر أُبي بن كعب ما كان يقرأه النبي ﷺ في قنوته في الصلاة من القرآن، ثم رجع عنه كما يأتي جوابه.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٤٣).

(٤) مسند البزار ح (١٥٨٦)، مجمع الزوائد، الهيثمي (٧/ ٦٠).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ح (١٤٦٣).

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»(١)، وفي رواية عنه ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة، فافعل**»(٢).

ونقل أبو سعيد الخدري قرآنيتهما عن النبي ﷺ بقوله: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان وعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك)(٣).

ولما قيل لأبي بن كعب ﷺ: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه قال أُبي: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ فقلتُها، فقال: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ فقلتُها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ(٤).

لكن الموضوع الأهم هو ما أشار إليه ابن حزم والباقلاني في أن الأخبار المروية عن ابن مسعود بشأن حك المعوذتين معارضة بآثار أصح منها منقولة عن ابن مسعود ﷺ ، فالمعوذتان قرأ بهما عاصم - راوي الأثر المشكِل - في قراءته الصحيحة التي يرويها عن زر بن حبيش وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي عمرو سعد بن إلياس الشيباني، «وقرأ هؤلاء الثلاثة على عبد الله بن مسعود ﷺ، وقرأ السلمي وزِر أيضاً على عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وقرأ السلمي أيضاً على أُبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما ، وقرأ ابن مسعود وعثمان وعلي وأبو زيد على رسول الله ﷺ»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم ح (٨١٤).

(٢) أخرجه ابن حبان ح (١٨٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٢٠٥٨)، والنسائي ح (٥٤٩٤)، وابن ماجه ح (٣٥١١).

(٤) أخرجه أحمد ح (٢٠٦٧٧).

(٥) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١٥٥)، وانظر: الإقناع في القراءات السبع، ابن الباذش الأنصاري (١/ ١٢٤).

وكذلك رويت قراءة المعوذتين عن ابن مسعود في قراءة حمزة وتلميذه الكسائي، فقد قرآها عنه من طريق «علقمة والأسود وابن وهب ومسروق وعاصم بن ضمرة والحارث» فقد قرؤوا جميعاً على ابن مسعود رضي الله عنه[(١)].

بل وقرأ المعوذتين جميعُ القراء العشرة، وأسانيد قراءاتهم أقوى من تلك الرواية الضعيفة المستشكلة، التي لن تقوى على معارضة (٩٨٠) طريقاً مسندة، وهي عدد الطرق التي ذكرها ابن الجزري تفصيلاً للقراء العشر[(٢)]، وتنتهي هذه الطرق - التي قاربت الألف - إلى ابن مسعود رضي الله عنه وإلى أجلّة إخوانه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كعثمان وأُبي بن كعب وأبي هريرة وابن عباس، وهذا أصح من الآثار المروية في محو السورتين ، ولا تنهض آثار الآحاد الضعيفة في نقض ألف من الأسانيد الصحاح، لذا «أجمع المسلمون على أن المعوذتين، والفاتحة من القرآن، وأن مَن جحد شيئاً منها كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح عنه»[(٣)].

ومال بعض المحققين إلى الجمع بين هذه الآثار، والقول بأن ابن مسعود كان يصنع ذلك، لأنه لم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في الصلاة، فلما رأى إجماع الصحابة قرأ بهما ، وأقرأ التابعين كما في القراءات المنقولة عنه، يقول ابن كثير: « مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولم يتواتر عنده، ثم قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة [بدليل القراءات المروية عنه]، فإن الصحابة

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١٦٥)، وانظر: الإقناع في القراءات السبع، ابن الباذش الأنصاري (١/ ١٣٥).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١٩٠).

(٣) المجموع شرح المهذب، النووي (٣/ ٣٥٠).

أثبتوهما في المصاحف الأئمة، وأنفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنَّة»(١).

***

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٧٤١).

رابعاً: هل أسقط ابن مسعود ﷺ الفاتحة من مصحفه؟

قالوا: اختلف الصحابة في قرآنية أهم سور القرآن، وهي سورة الفاتحة، فلم يكتبها ابن مسعود من مصحفه، كما نقل عنه ذلك التابعي ابن سيرين بقوله: "إن أُبَيَّ بن كعبٍ وعثمانَ كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعودٍ شيئًا منهن"(١).

والجواب: ثبوتية الفاتحة - كغيرها من سور القرآن - ثابتة بنقل جموع المسلمين وتواترهم على قراءتها جيلاً بعد جيل، بل أثبت القرآن نفسه قرآنية سورة الفاتحة، أعظم سوره، بقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ (الحجر: ٨٧)، فالسبع المثاني هي سورة الفاتحة التي تثنى وتقرأ في كل صلاة، وقد سماها النبي ﷺ أم القرآن: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»(٢)، فهي أم القرآن وأصله وفاتحته التي: «ما أنزل الله عز وجل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني»(٣).

وهذا المنسوب إلى ابن مسعود لا يفيد عدم اعتقاده بقرآنية سورة الفاتحة، فهذا يخالف الصحيح المتواتر عند المسلمين جميعاً، بل هو مخالف أيضاً لما بيناه سابقاً من صحة القراءات المسندة إلى ابن مسعود ﷺ، فقد قرأها ﷺ وأقرأها التابعين كما صح عنه في قراءة عاصم وحمزة والكسائي، ولا يظن مسلم أن ابن مسعود يجهل قرآنيتها، وهو الذي يقرأها في كل صلاة، ويقول عنها فيما

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٠) إلى عبد بن حميد، ولم أجده في مسنده، ولعله في تفسيره المفقود، كما عزاه إلى المروزي في تعظيم قدر الصلاة، ولم أجده فيه، ولكن الأثر أخرجه ابن سلام في فضائل القرآن ح (٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٧٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٣١٢٥)، والنسائي ح (٩١٤)، وأحمد ح (٢٠٥٩١).

نقله عنه ابن سيرين (راوي الأثر المشكِل عنه): (السبع المثاني فاتحة الكتاب)(١).

ولو تأملنا المنقول عنه لما وجدنا فيه إنكاراً لقرآنية الفاتحة، بل غاية ما فيه أن ابن مسعود لم يكتب الفاتحة في مصحفه ، وصدق ابن قتيبة بقوله: «وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنه أنها ليست من القرآن (معاذ الله)، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين، مخافة الشك، والنسيان، والزيادة، والنقصان، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لقصرها ، فلما أمن عليها العلة التي من أجلها كتب المصحف ؛ ترك كتابتها ، وهو يعلم أنها من القرآن»(٢)، فقد أغفل ﷺ كتابتها في مصحفه لإطباق الناس على قراءتها، لذا نقل إبراهيم النخعي أنه قيل لابن مسعودٍ: لِمَ لَمْ تكتب الفاتحة في مصحفك؟ فقال: (لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة)(٣).

قال أبو بكر الأنباري: «يعني أن كلَّ ركعةٍ سبيلُها أن تفتتح بأم القرآن، قبل السورة المتلوَّة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لَهَا، ولم أثبتها في موضعٍ، فيلزمني أن أكتبها مع كل سورةٍ، إذ كانت تتقدمها في الصلاة»(٤).

---

(١) انظر: المطالب العالية في زوائد الكتب الثمانية، ابن حجر ح (٣٦١٠).

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني (١/ ١٩٢).

(٣) عزاه السيوطي أيضاً في الدر المنثور (١/ ١٠) إلى عبد بن حميد، ولم أجده في مسنده، ولعله أيضاً في تفسيره المفقود، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١٠٣)، وكلام أبي بكر الأنباري ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/ ١١٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١١٥).

خامساً: هل خطأ ابن عباس كتبة المصاحف في كتابة بعض كلماته؟

قالوا: النص القرآني تعرض للتغيير والتحريف الذي طرأ عليه بسبب خطأ جامعي القرآن في عهد عثمان، فقد نقل في الأخبار التي صححها علماء الإسلام عن ابن عباس أنه كان يخطِّئ نساخ القرآن في مواضع، منها:

١ . الخبر الذي صححه بعض العلماء من كلام ابن عباس أنه كان يقرأ "أفلم يتبين للذين آمنوا " فقيل له: إنها ﴿ **أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (الرعد: ٣١) فقال: «إني أرى الكاتب كتبها وهو ناعس»[١].

٢ . واستدلوا كذلك بما روي عن ابن عباس أن في القرآن خطأ كاتب في قوله: ﴿**لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا**﴾ قال: «أخطأ الكاتب، حتى تستأذنوا»[٢].

٣. وكذلك نقل عنه رضي الله عنه قوله: « لا تقل: ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به** ﴾ (البقرة: ١٣٧) ، فإنه ليس لله مثل، ولكن قل: (فإن آمنوا بالذي آمنتم به فقد اهتدوا)»[٣].

٤ . واستدلوا كذلك بما نقل عنه رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك**﴾ (الإسراء: ٢٣) ، أنه قرأها: (ووصى ربك)، وقال: «ألصقوا الواو بالصاد، فصارت قافًا»، وكان يقول: «لو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد»، وفي رواية: «استمد مدادًا كثيرًا،

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٣) وعزاه لابن الأنباري في المصاحف.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤٥)، والبيهقي في الشعب ح (٨٤٢١، ٨٤٢٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٦).

(٣) أخرجه أبو بكر بن أبي داود في المصاحف ح (٢٠٩)، والطبري في جامع البيان (٣/ ١١٤).

فالتزقت الواو بالصاد»[١]، فهذه وأمثالها تقدح في وثاقة النص الأصلي للقرآن.

الجواب:

لن نعيد هنا ما سبق عرضه عن كيفية جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابة في عهد النبي ﷺ ثم أبي بكر رضي الله عنه، ثم جمعه في عهد عثمان بواسطة لجنة من أكابر الصحابة الذين كتبوا الوحي بين يدي النبي ﷺ.

لكنّا سنقرر جملة من القواعد المهمة قبل أن نشرع بالنقد التفصيلي لكل واحدة من الروايات الأربع:

١. ثبوتية القرآن أكبر بكثير من مخالفة ابن عباس أو غيره، فلو صح النقل عنه، فإن غاية ما يقتضيه أن ابن عباس يخطِّئ من كتب المصاحف العثمانية من الصحابة.

ويُجاب حينها: أن ابن عباس هو من أخطأ بتخطئة سائر الصحابة الذين أجمعوا على صحة المصاحف العثمانية خلافًا لرأيه، فالواحد أولى بالتخطئة من الجمع الكبير، وبخاصة إذا كانوا أعلم منه بالقرآن، فقد تلقوه من فيِّ النبي ﷺ، وكتبوه بين يديه قبل أن يولد ابن عباس رضي الله عنه، فقد مات رسول الله ﷺ، وعمره عشر سنين[٢]، فما كان ابن عباس – على جلالة قدره – أعلم بالقرآن من شيخه الذي قرأ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ح (١٢٦٢)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٤١٤)، وأحمد بن منيع كما نقل ذلك ابن حجر في المطالب العالية بزوائد الكتب الثمانية ح (٣٦٥٠)، وابن أشته في كتابه المفقود المصاحف، كما نقل عنه ذلك السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن (٤/ ١٢٥٣).

(٢) كما صح في الرواية عنه. انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ح (١/ ١١٦).

عليه، زيد بن ثابت[١]، وزيد هو الذي قاد اللجنة التي تولت جمع القرآن، واختاروه لشهوده العرضة الأخيرة بين يدي النبي ﷺ.

كما أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن أحفظ لآيات القرآن من أعضاء هذه اللجنة، ولا الشهود الذي أدوا شهاداتهم بين يديها بما سمعوه من النبي ﷺ، وإنما سبقهم ابن عباس رضي الله عنهما بما آتاه الله من ملكة التفسير والفهم، فقد دعا له النبي ﷺ: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[٢].

٢. أن هذه الروايات عن ابن عباس خالفت ما هو أصح منها إسنادًا، وهو المروي عنه رضي الله عنهما في مسانيد القراءات المرفوعة إليه، فقد انتهت إلى ابن عباس قراءة أربعة من القراء العشرة، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو البصري ويعقوب الحضرمي، وأسانيدهم إليه أصح وأقوى من روايات الآحاد المشكلة، وأكتفي من ذلك بنقل أربعة أسانيد صحيحة لهؤلاء القراء إلى ابن عباس.

فقد «قرأ نافع على سبعين من التابعين، منهم أبو جعفر وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ... وقرأ الأعرج على عبد الله بن عباس»[٣].

وأيضًا «قرأ ابن كثير على أبي السائب .. وعلى درباس مولى ابن عباس .. وقرأ درباس على مولاه ابن عباس»[٤].

وكذلك «قرأ أبو عمرو على أبي جعفر ... والحسن البصري وأبي العالية رفيع بن مهران الرياحي ... وقرأ الحسن على حطان بن عبد الله الرقاشي وأبي

(١) قال ابن الجزري: «وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وابن عياش على أُبي بن كعب، وقرأ ابن عباس أيضًا على زيد بن ثابت، وقرأ أُبي وزيد وعمر رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ» النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٣٩٧)، وابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٢٢٢٣).

(٣) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ١١٢).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٢٠).

العالية الرياحي ... وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس»[١].

و«قرأ يعقوب على أبي المنذر سلام بن سليمان المزني مولاهم الطويل .. وقرأ سلام أيضاً على أبي المجشر عاصم بن العجاج الجحدري البصري .. .. وقرأ الجحدري أيضاً على سليمان بن قتة التميمي مولاهم البصري، وقرأ على عبد الله بن عباس»[٢].

وهذه الأسانيد صحيحة، بل يصفها الإمام ابن الجزري بأنها «أصح ما يوجد اليوم في الدنيا وأعلاه، لم نذكر فيها إلا من ثبت عندنا - أو عند من تقدمنا من أئمتنا - عدالته، وتحقق لقيه لمن أخذ عنه وصحت معاصرته، وهذا التزام لم يقع لغيرنا ممن أَلَّف في هذا العلم، ومن نظر أسانيد كتب القراءات وأحاط بتراجم الرواة علمًا؛ عرف قدر ما سبرنا ونقحنا وصححنا»[٣]، وكذلك سيعرف من تأمل هذه الأسانيد الصحيحة - التي نقل بها القراء المعتبرون وجوه القراءة المجمع عليها عن ابن عباس - ضعف تلك الروايات المشكلة، فلن يلتفت إليها إلا من عجز عن المفاضلة والتمييز بين الصحيح والسقيم.

ويجدر هنا أن نلاحظ أن هؤلاء الرواة لم يسمعوا من شيوخهم القرآن مرة واحدة، بل مرات، وبعضهم جلس في حلقة شيخه سنين طويلة، وهو يقرأ كل يوم بين يديه، يقول مجاهد المكي: «ختمت القرآن على ابن عباس تسعاً وعشرين مرة»[٤].

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٣٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٢-١٩٣).

(٤) معرفة القراء الكبار، الذهبي، ص (٦٧).

٣. أن الروايات المشكلة المروية عن ابن عباس مخالفة أيضًا لروايات الصحابة في أسانيد القراءات المروية عنهم بالتواتر أو الاستفاضة، وهو أمر لا يمكن تتبعه في هذا المقام لكثرة أسانيده وتشعبها، لذا نكتفي عن ذلك بإيراد قول البيهقي عن رواية (تستأذنوا): «من أخبار الآحاد .. والقراءة العامة ثبت نقلها بالتواتر، فهي أولى .. ونحن لا نزعم أن شيئًا مما وقع عليه الإجماع أو نقل متواتراً أنه خطأ، وكيف يجوز أن يقال ذلك، وله وجه يصح، وإليه ذهبت العامة؟»(١)، وهذه المخالفة للمتواتر علة قادحة في كل رواية آحاد تخالفه .

قال محمود شاكر: «وأما نحن ، وإن كنا نوثق جميع من ذكرنا من السلف وأتباعهم ، فإنا لا نعتقد تصديق جميع ما يُروى عنهم ، بل نعتقد أن فيه كذبًا كثيرًا، قد قامت الدلالة على أنه موضوع عليهم ، وأن فيه ما يمكن أن يكون حقًا عنهم ، وما يمكن أن يكون باطلاً ، ولا يثبت عليهم من طريق العلم البتات بأخبار الآحاد.

وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت هذه القراءات والكلمات المروية عن جماعة منهم، المخالفة لما في مصحفنا ، مما لا نعلم صحتها وثبوتها ، وكنا مع ذلك نعلم اجتماعهم على تسليم مصحف عثمان ، وقراءتهم وإقراءهم ما فيه ، والعمل به دون غيره؛ لم يجب أن نحفل بشيء من هذه الروايات عنهم ، لأجل ما ذكرنا»(٢).

ولأجل مخالفة هذه المرويات للمتواتر؛ شهدنا من بعض العلماء كلامًا قويًا في رفض هذه الآثار وتوهينها، ومن ذلك قول أبي حيان الأندلسي عن رواية (تستأذنوا): «من روى هذا عن ابن عباس فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين ، وابن عباس بريء من هذا القول»(٣).

(١) انظر الجامع لشعب الإيمان ، البيهقي (١١/ ٢١٠).
(٢) تعليق أحمد شاكر على تفسير الطبري، جامع البيان (٦/ ٥٥٣).
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٦/ ٤١٠).

٤ . أن وصف المرويات المشكِلة من بعض العلماء بصحة الإسناد لا يعني بالضرورة الحكم على متونها بالصحة والقبول، فكم من حديث ضعفه العلماء، وإسناده صحيح .. ضعفوه حين رأوا في متنه علة أو شذوذاً يحول دون قبوله وتصحيحه، ومن ذلك ما رواه الحاكم عن ابن عباس: « في كل أرض آدم كآدم، ونوح كنوح»[1]، وفيه قال البيهقي : «وإسناده صحيح إلا أنه شاذ بمرة»[2]، ولما ذكر الخطيب البغدادي حديث: « إذا مات مبتدع فإنه قد فتح على الإسلام فتح»؛ قال: «الإسناد صحيح، والمتن منكر»[3].

لذا قال النووي: « صحة الإسناد لا تقتضي صحة المتن، وقولهم : حديث حسن الإسناد أو صحيحه دون قولهم : حديث صحيح أو حسن ؛ لأنه قد يصح أو يحسن الإسناد دون المتن لشذوذ أو علة»[4].

وقال الزيلعي: «وصحة الإسناد يتوقف على ثقة الرجال، ولو فرض ثقة الرجال لم يلزم منه صحة الحديث حتى ينتفي منه الشذوذ والعلة»[5].

وقال السخاوي: «لا تلازم بين الإسناد والمتن؛ إذ قد يصح المسند أو يحسن لاستجماع شروطه من الاتصال والعدالة والضبط؛ دون المتن لشذوذ أو علة»[6].

٥ . الروايات المنسوبة إلى ابن عباس وغيره تتلبس بعلة قادحة في متنها، فلو صح سندها لما أمكن تصحيح هذه الروايات بسبب تلك العلة، وهي مخالفتها محكم القرآن الذي أخبر أنه ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ (فصلت:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٣).

(٢) نقله عنه ابن حجر، انظر: فتح الباري (٦/ ٢٩٣).

(٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (٤/ ١٥٨).

(٤) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، النووي، ص (٢٩).

(٥) نصب الراية، الزيلعي (١/ ٢٦٣).

(٦) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، السخاوي (١/ ١١٩).

٤٢)، والزعم بتغير واحدة من كلماته ناقض لهذه الآية، وهذا يكفي للقدح في هذه الآثار وفق القواعد الإسلامية لنقد الروايات ، لاختلال شرط الصحة فيها، وهو السلامة من الشذوذ والعلة القادحة، فما من علة قادحة أعظم من مخالفة محكم القرآن المروي بالتواتر، فبذلك تصير هذه الروايات - بحسب المنهج العلمي الحديثي- من الضعيف المردود ، فلا يجوز إيرادها والاحتجاج بها على المسلمين لعدم موثوقيتها عندهم.

٦ . أننا اليوم لا نقرأ كل ما كان يتلى في الصدر الأول من قرآن، ففي القرآن منسوخ التلاوة، وما قال الله عنه : ﴿**سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله**﴾.. إن ما نؤمن بقرآنيته اليوم هو فقط ما تناقله المسلمون بالتواتر مما سطره الصحابة في المصحف الجامع الذي كتبوه وفق العرضة الأخيرة التي مات رسول الله ﷺ بعدها بشهور، فمن شهدها كزيد بن ثابت قدم الصحابة روايته على غيره في الجمع العثماني ، الذي ترك وجوهًا مما أقرأهم به رسول الله ﷺ ، وقد كان في مصاحفهم قبل أمر عثمان بحرقها.

ومن ذلك أمثلة كثيرة مذكورة في كتب علوم القرآن الكريم والتفاسير، ومنه ما نقله ابن الجزري بقوله: « قراءة عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: (والذكر والأنثى) في ﴿**وما خلق الذكر والأنثى**﴾، وقراءة ابن عباس: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا وأما الغلام فكان كافراً)، ونحو ذلك مما ثبت بروايات الثقات ..هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ، وإن ثبتت بالنقل فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة أو بإجماع الصحابة على المصحف العثماني»[1]، ففقدت هذه الوجوه من القراءة التواتر لأنها لا تخلو من حالين: النسخ في العرضة الأخيرة، أو مخالفة الرسم العثماني الذي اتفق الصحابة على ترك الوجوه المخالفة له.

(١) النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري (١/ ١٤).

والمنقول عن ابن عباس ﷺ هو في الجملة من جنس هذا، فإنه لا ينكر قرآنية القراءة العامة، بل قد أقرأ بها التابعين في القراءات الأربعة التي ذكرناها، لكنه ﷺ يخطئ الصحابة في ترجيحهم لغير الوجه الذي اختاره من القراءات التي تلقوها من النبي ﷺ، ورآه أحق من غيره للإثبات في المصاحف العثمانية لأنه القراءة الأولى، ومعظم هذه الترجيحات يختارها ابن عباس ﷺ من قراءة شيخه أُبي بن كعب ﷺ، وكان من دأب أُبي ﷺ أنه لا يترك القراءة بالوجوه التي تعلمها من النبي ﷺ، ولو خالفت ما في مصحف عثمان.

وقد أنكر عليه الفاروق عمر ﷺ قراءته بالوجوه المنسوخة في العرضة الأخيرة قبل جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ بسنين طوال، فقال: «أقرؤنا أُبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أُبي، وذاك أن أُبيًا يقول: لا أدع شيئًا سمعتُه من رسول الله ﷺ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ (البقرة: ١٠٦)»(١).

وإلى هذا التأويل والتخريج يميل واحد من المختصين بالإقراء، وهو ابن اشته، فقد رأى أن مراد ابن عباس بهذه المرويات تخطئة كتبة المصاحف باختيارهم الوجه الذي اختاروه وقدموه على الوجه الأولى بحسب ظنه، وأنه لا يريد إنكار قرآنية الوجه الذي قرأ به الصحابة، وهذا الرأي يشهد له دليل قوي، وهو أن ابن عباس ﷺ أقرأ تلاميذه من التابعين بقراءة العامة، كما هو مروي عنه في الأسانيد المثبتة لقراءة كل من أبي عمرو البصري وابن كثير ونافع ويعقوب الحضرمي.

٧. أنه لا يعقل أن يرى ابن عباس أو غيره الأمة تقرأ كلام ربها محرَّفًا لخطأ ناعس أو استطالة حِبر، ثم يسكت عن هذا مكتفيًا بكلمة يلقيها لأحد جلسائه، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٤٨١).

من البرود الذي لا نتوقع رؤيته في آحاد الناس، فضلاً عن ابن عباس وغيره من الصحابة الكرام.

وأما تطبيق هذه القواعد على مرويات ابن عباس المشكلة فكما يلي:

أولاً: القول المنسوب إليه في قول الله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (الرعد: ٣١)، قال: «إني أرى الكاتب كتبها وهو ناعس»، فهذه الرواية لا تصح نسبتها إلى ابن عباس[1]، بل هي ضعيفة منكرة المتن، ردها العلماء واستبشعوها لمخالفتها لظاهر القرآن الكريم ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩)، ثم لأبسط معارفنا عن كيفية نقل القرآن الكريم واجتهادهم البالغ في توثيقه، قال الزمخشري: «هذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام [أي المصحف الإمام، وهو مصحف عثمان]، وكان متقلباً بين أيدي أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله المهيمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه؛ خصوصاً

---

(١) رجح ابن حجر تصحيح سند الرواية المنسوبة إلى ابن عباس، وتعقبه الشيخ أحمد شاكر بقوله: «فإسناده صحيح، لا مطعن فيه، ومع صحة إسناده لم أجد أحدًا من أصحاب الدواوين الكبار، كأحمد في مسنده، أو الحاكم في المستدرك، ولا أحدًا ممن نقل عن الدواوين الكبار، كالهيثمي في مجمع الزوائد، أخرج هذا الخبر أو أشار إلى هذه القراءة عن ابن عباس، أو علي بن أبي طالب، كما جاء في الخبر الذي قبله رقم: ٢٠٤٠٨، بل أعجب من ذلك أن ابن كثير، وهو المتعقب أحاديث أبي جعفر في التفسير، لما بلغ تفسير هذه الآية، لم يفعل سوى أن أشار إلى قراءة ابن عباس، وأغفل هذا الخبر إغفالًا على غير عادته، وأكبر ظني أن ابن كثير عرف صحة إسناده، ولكنه أنكر ظاهر معناه إنكارًا حمله على السكوت عنه، وكان خليقًا أن يذكره ويصفه بالغرابة أو النكارة، ولكنه لم يفعل، لأنه فيما أظن قد تحير في صحة إسناده، مع نكارة ما يدل عليه ظاهر لفظه. وزاد هذا الظاهر نكارة عنده، ما قاله المفسرون قبله في هذا الخبر عن ابن عباس، حين رووه غير مسند بألفاظ غير هذه الألفاظ» تعليق أحمد شاكر على تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٢).

عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي أقيم عليها البناء؟ هذا والله فرية ما فيها مرية»(١).

وقال أبو حيان: «وأما قول من قال: «إنما كتبه الكاتب وهو ناعس، فسوى أسنان السين» فقول زنديق ملحد»(٢).

وقال الألوسي: «فرواية ذلك - كما في الدر المنثور - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما غير صحيحة»(٣).

وقال الزرقاني: «لم يصح ذلك عن ابن عباس»(٤).

ولنا أن نتساءل: الرواية تتهم بالنعاس أحد كتاب المصاحف العثمانية، فماذا عن بقية الكتبة الذين كتبوا النسخ الأخرى؟ هل نعسوا جميعًا عند كتابة هذه الآية، وهل كان عثمان يراجع هذه الآية وهو ناعس أيضًا؟

ويشهد لضعف هذه الرواية أمور، منها أنه ورد عن ابن عباس تفسيره للفظة ﴿ييأس﴾، مما يدل على قراءته بها، فقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّر ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾ بقوله: «يعلم»، فتفسيره إقرار منه لأصالتها، ويناقض الرواية المزعومة التي توهم تخطئته لمن قرأ: ﴿يَيْئَسِ﴾.

ويزيد الأمر وضوحًا وجلاء ما أخرجه الطستي عن نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ففسرها بقوله: «(أفلم يعلم) بلغة بني مالك».

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ٤٩٩).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٦/ ٣٩١).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٧/ ١٤٨).

(٤) مناهل العرفان، الزرقاني (١/ ٢٦٩).

فقال ابن الأزرق: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: «نعم، أما سمعت مالك بن عوف يقول:

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا»[(١)].

لكن الشاهد الأهم على ضعف هذه الرواية هو مخالفتها للقراءات الصحيحة المنقولة عن ابن عباس بروايات الجموع عن الجموع، وفي كلها قرأ الرواة عنه: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾، وهذه القراءات أوثق في أسانيدها وأصح من الرواية المشكلة.

وعلى سبيل التمثيل: قراءة أبي عمرو الدوري مسندة إلى ابن عباس، وقرأ فيها: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾، فقد قرأ أبو عمرو على مجاهد المكي وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعكرمة بن خالد القرشي وأخيه أبي وابصة الحارث بن خالد القرشي، وكل هؤلاء قرؤوا على ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾.

كما قرأها أبو عمرو بهذا اللفظ على شيوخه محمد بن محيصن وأبي صفوان حميد الأعرج، وقد قرآ على مجاهد تلميذ ابن عباس[(٢)].

قال ابن الأنباري: «روي عن عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا)، وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة، وهو باطل عن ابن عباس، لأن مجاهدا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو، وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن

(١) ويدل عليه أيضاً قول سحيم اليربوعي:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا [أي تعلموا] أني ابن فارسِ زهدمِ

(٢) انظر الإقناع في القراءات السبع، أبو جعفر أحمد الأنصاري (١/ ١٠١).

عباس»[١].

وإضافة إلى ما سبق فإنه يحتمل أن ما قاله ابن عباس أراد به الإزراء على الكتبة اختيارهم لهذا الوجه (ييأس) في المصاحف العثمانية، وتقديمه على الوجه الآخر (يتبين) الذي يراه أولى بالإثبات، لأنه الحرف الذي قرئ به أولاً، وهو منقول عن أكابر الصحابة، فهو لا ينكر قرآنية الوجه المختار (ييأس)، لكنه يرى غيره أولى، قال ابن حجر: «زعم ابن كثير وغيره أنها القراءة الأولى، وهذه القراءة جاءت عن علي، وابن عباس، وعكرمة، وابن مليكة، وعلي بن بديمة، وشهر بن حوشب بن الحسين، وابنه زيد، وحفيده جعفر بن محمد في آخر من قرؤوا كلهم "أفلم يتبين"»[٢]، لهذا كان ابن عباس يرى تقديم هذا الوجه (يتبين) على الوجه الآخر (ييأس) الذي أقرأ به أيضًا تلاميذه من التابعين.

ثانيًا: القول المنسوب إلى ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿**لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا**﴾ قال: «أخطأ الكاتب، حتى تستأذنوا».

روي هذا الأثر عنه ﷺ من طرق مدارها على أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري، الذي يرفعه إلى ابن عباس مرة من طريق مجاهد، ومرة من طريق سعيد بن جبير، وجعفر ثقة عند جمهور العلماء، إلا أنهم كانوا ينكرون سماعه من مجاهد، «قال أحمد: .. كان شعبة يضعف حديث أبي بشر عن مجاهد. قال: لم يسمع منه شيئًا، وقال: ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والعجلي والنسائي: ثقة، وقال ابن معين: طعن عليه شعبة في حديثه عن مجاهد، قال: من صحيفة. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به»[٣]، فهذه علة روايته عن مجاهد.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩/ ٣٢٠).

(٢) فتح الباري، ابن حجر (٨/ ٢٧٣).

(٣) تهذيب التهذيب، ابن حجر (٧/ ٤٧).

وأما روايته عن سعيد بن جبير، فقد وقع فيها تشكك ابن عباس في قوله: «وهو فيما أحسب: أخطأت يد الكاتب»(١)، فهذا حسبانه وظنه، وهو ظن ليس بصحيح.

لكن من مناطات العلة التي يُردُّ بها الحديث عند أهل هذا الفن، ويمتنع معها التصحيح؛ تردد الراوي في سند روايته، وهو ما نجده في رواية اليشكري، فقد رواها مرة عن ابن عباس من طريق مجاهد، ومرة من طريق سعيد، وهو عند أكثر العلماء ليس بعلة لاحتمال أنه سمعه منهما، لكن: « بعض المحدثين يعِلُّون بهذا، متمسكين بأن الاضطراب دليل على عدم الضبط في الجملة، والكل متفقون على التعليل بما إذا كان أحد المتردد فيهما ضعيفًا، بل توسع بعضهم فرد بمجرد العلة ولو لم تكن قادحة»(٢)، وفي مسألتنا هذه العلة قائمة عند الجميع، لأن أحد الطريقين متعلق بالسماع الذي لم يثبت لليشكري من مجاهد.

ولأثر ابن عباس إسناد آخر ذكره البيهقي من غير طريق أبي بشر اليشكري، فقد رواه من طريق أيوب السختياني عن سعيد عن ابن عباس، لكنه ضعيف فلا يتقوى به إسناد اليشكري(٣).

لذا قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «أما قوله : ﴿**أن تستأنسوا**﴾ بمعنى: تستأذنوا؛ فلا مانع في أن يعبر عن الاستئذان بالاستئناس، وليس فيه خطأ من كاتب، ولا يجوز أن ينسب الخطأ إلى كتاب تولى الله حفظه، وأجمعت الأمة على صحته؛ فلا يلتفت إلى راوي ذلك عن ابن عباس»(٤).

---

(١) انظر شرح مشكل الآثار، الطحاوي (٤/ ٢٥٠).

(٢) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، السخاوي (١/ ٣١).

(٣) قال مختار الندوي محقق الجامع لشعب الإيمان: «إسناده ضعيف .. يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم ... قال الدارقطني: هوضعيف». الجامع لشعب الإيمان (١١/ ٢١٠).

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي (٣/ ٣١٣).

ولو أغمضنا النظر عما في الأثر من علل في سنده ومتنه، فإن لقول ابن عباس حينذاك توجيهًا قويًا صحيحًا، فقوله: «أخطأ الكاتب» يعني تقديم الكتبة لهذا الوجه في المصاحف على الوجه الذي أقرأه به شيخه أُبي بن كعب ﷺ، فقد جاء في رواية أبي بشر اليشكري عن سعيد بن جبير: «وكان يقرؤها على قراءة أبي بن كعب»(١)، وهذه القراءة من الحروف التي تركها الصحابة، ولم ينقلوها في المصاحف العثمانية التي كتبوها وفق العرضة الأخيرة، والتي تركوا فيها بعضًا مما كان قد أقرأهم به النبي ﷺ، قال البيهقي: «ويحتمل أن تكون ذلك القراءة الأولى، ثم صارت القراءة إلى ما عليه العامة»(٢)، وقال ابن حجر: «وأجيب بأن ابن عباس بناها على قراءته التي تلقاها عن أُبيّ بن كعب، وأما اتفاق الناس على قراءتها بالسين فلموافقة خط المصحف الذي وقع الاتفاق على عدم الخروج عما يوافقه، وكان قراءة أُبي من الأحرف التي تركت القراءة بها»(٣).

ثالثًا: الأثر المنسوب إلى ابن عباس: «لا تقل: ﴿**فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به**﴾، فإنه ليس لله مثل، ولكن قل: (فإن آمنوا بالذي آمنتم به فقد اهتدوا)»، وظاهره تخطئة من كتبها (بمثل)، لأنه استشكلها لما فهم أن المراد منها: إن آمن الكفار بأصنام تماثل الله فقد اهتدوا، والمماثلة بين الله والأصنام ممتنعة، فلأجل ذلك قال ما قال على فرض صحة الرواية، فاستشكاله هذه المرة مرده العقل؛ لا النقل والرواية.

وقد تشكك الطبري مخرِّج الرواية في صحة نسبتها إلى ابن عباس بقوله: «فكأن ابن عباس في هذه الرواية إن كانت صحيحة عنه»، وأجاب على المعنى

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٩/ ١٤٦).
(٢) نقلاً عن الروايات التفسيرية في فتح الباري، عبد المجيد الشيخ عبد الباري (٢/ ٨٥٥).
(٣) فتح الباري، ابن حجر (١١/ ٩).

المستشكل فقال: « قد روي عن ابن عباس في ذلك قراءة جاءت مصاحف المسلمين بخلافها، وأجمعت قرأة القرآن على تركها .. يوجه تأويل قراءة من قرأ: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ فإن آمنوا بمثل الله وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل، وذلك إذا صرف إلى هذه الوجه شرك لا شك بالله العظيم، لأنه لا مثل لله تعالى ذكره فنؤمن أو نكفر به.

ولكن تأويل ذلك على غير المعنى الذي وجه إليه تأويله، وإنما معناه ما وصفنا، وهو: فإن صدقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا، فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين»(١).

وأما القرطبي فوجه الآية المستشكلة بجواب آخر: « (مثل) زائدة كما هي في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١) أي: ليس كهو شيء، وقال الشاعر: فصيروا مثل كعصف مأكول .. والذي روي عن ابن عباس من نهيه عن القراءة العامة شي ذهب إليه للمبالغة في نفي التشبيه عن الله عز وجل.

وقال ابن عطية: هذا من ابن عباس على جهة التفسير، أي هكذا فليتأول»(٢).

وقال أبو بكر ابن أبي داود: « هذا الحرف مكتوب في الإمام وفي مصاحف الأمصار كلها ﴿بمثل ما آمنتم به﴾، وهي كلمة عربية جائزة في لغة العرب كلها، ولا يجوز أن يجتمع أهل الأمصار كلها وأصحاب النبي معهم على الخطأ، وخاصة في كتاب الله عز وجل .. وهذا صواب: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ جائز في كلام العرب أن تقول للرجل يتلقاك بما تكره: أيستقبل مثلي بهذا، وقد قال الله عز وجل: ﴿ ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١)»(٣)، وهكذا أثبت العلماء صحة المعنى

---

(١) جامع البيان، الطبري (٣/ ١١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤٢).
(٣) المصاحف، ابن أبي داود (١/ ٣٣٦).

المستقبح في الرواية، وأن لها توجيهًا مقبولاً غير متكلف، وهو معنى لن يعزب عن مثل ابن عباس ﷺ.

رابعًا: الأثر المنسوب إلى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك**﴾ (الإسراء: ٢٣): قرأها: (ووصى ربك)، وقال: «ألصقوا الواو بالصاد، فصارت قافًا»، وكان يقول: «لو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد».

وهذا الأثر منسوب إلى ابن عباس من ثلاث طرق، بعضها أظلم من بعض، وقد درس الصديق الشيخ خالد الخالدي طرق هذا الأثر ، فثبت له ضعفه وسقوط الاحتجاج به على المسلمين، فالحديث مروي من ثلاث طرق كلها ضعيفة.

أولها : طريق سعيد بن منصور الذي وهم الإمام ابن حجر بوصفه أنه إسناد جيد، ففيه عبد الملك بن أعين، وهو ضعيف، ذكره البخاري في الضعفاء، وقال الذهبي في تعليقه على تصحيح الحاكم لروايته: «ابن أعين غير مرضي» ، وقال سفيان: «هم ثلاثة أخوة، عبدالملك، وزرارة، وحمران، روافض كلهم، أخبثهم قولاً عبد الملك»، وقال أبو حاتم: «هو من أعتى الشيعة، محله الصدق، صالح الحديث، يكتب حديثه»، وقال ابن حجر: « وثقه العجلي، وقال أبو حاتم: شيعي محله الصدق، وقال ابن معين: ليس بشيء. وكان ابن مهدي يحدث عنه ثم تركه»[1].

والطريق الثاني: طريق الطبري وابن أشته من رواية هشيم بن بشير الواسطي عن أبي إسحاق الكوفي عن الضحاك عن ابن عباس، وفيه ثلاث علل: أولاها: أن

(١) انظر أقوال العلماء فيه: الضعفاء الصغير، البخاري، ص (٦٧)، تعليق الذهبي على المستدرك (٣/ ١٥١)، والمغني في الضعفاء، للذهبي، ص (٦١)، تقريب التهذيب، ابن حجر، ص (٦١٣)، فتح الباري (١/ ٤٢١).

هشيم الواسطي مدلس، وقد عنعن[١]، والثانية: أن أبا إسحاق الكوفي ضعيف، قال ابن حبان: «كثير الوهم على قلة روايته، كثير المخالفة للثقات فيما يروى عن الأثبات .. لا يحل الاحتجاج بخبره»[٢]، والثالثة: أنه منقطع لأن الضحاك بن مزاحم لم يسمع من ابن عباس، قال ابن حجر: «عن عبدالملك بن ميسرة قال: الضحاك لم يلق ابن عباس .. كان شعبة لا يحدث عن الضحاك بن مزاحم، وكان ينكر أن يكون لقي ابن عباس قط، وقال علي عن يحيى بن سعيد: كان الضحاك عندنا ضعيفًا»[٣].

والطريق الثالث للأثر: طريق أحمد بن منيع من رواية فرات بن السائب، وهو ضعيف، قال البوصيري: « هذا إسناد ضعيف، فرات بن السائب ضعفه أحمد بن حنبل، وابن معين، وابن حبان، والدارقطني وغيرهم»، وقال البخاري: «منكر الحديث»، وقال: «تركوه»، وقال يحيى بن معين: «ليس بشيء«، وقال الدارقطني وغيره: «متروك»[٤].

وأما المعنى المستنكر الذي تزعم الرواية أنه دعا ابن عباس إلى إنكار الآية: «لو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد»، فهو دليل آخر على براءته ﵁ من هذا

---

(١) انظر أقوال العلماء فيه: تهذيب التهذيب (١١/ ٥٣-٥٦)، والكامل في الضعفاء، ابن عدي (٧/ ١٣٤-١٣٧).

(٢) واسمه عبد الله بن ميسرة الحارثي، انظر أقوال العلماء فيه: المجروحين، ابن حبان (٢/ ٣٢)، وتهذيب الكمال، المزي (١٦/ ١٩٦)، والمغني في الضعفاء، للذهبي، ص (٣٨)، تقريب التهذيب، ص (٥٣٩).

(٣) تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٣٨٩).

(٤) انظر أقوال العلماء فيه: الضعفاء الصغير، البخاري، ص (٩٨)، والمغني في الضعفاء، للذهبي، ص (١١٥)، والكامل في الضعفاء، ابن عدي (٦/ ٢٣)، وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، البوصيري (٦/ ٢٢٩).

القول، إذ لا يخفى على مثله أن قضاء الله منه ما هو على سبيل الأمر لا الحتم، قال الله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾ (الأحزاب: ٣٦)، فقضاء الرب هنا هو أمره، وليس قدره المحتوم.

بل هذا هو تفسير ابن عباس نفسه للآية، فقد نقل عنه الطبري بإسناده أنه فسر ﴿**وقضى**﴾، قال: «أمر»(١)، فتفسيره لها مكذب لهذه الروايات التي منشؤها أن ابن عباس استشكل معنى قضى، لأنه حملها على معنى: كتب وقدّر.

كما ذكر ابن عطية وجهاً آخر في توجيه معنى (قضى) بقوله: «وقضى في كلام العرب أتم المقضي محكمًا، والمقضي هنا هو الأمر»(٢)، أي تم أمره تعالى بالنهي عن الشرك، ومنه قول الله تعالى: ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ (فصلت: ١٢) أي فرغ من خلقهن.

ولنا هنا أن نتساءل: هل التصقت الواو بالصاد في واحد من المصاحف العثمانية أم بالجميع؟ وكيف لم يتنبه له ناسخه ولا مراجعه؟ وكيف خفي أمر كهذا على آلاف الحفاظ الذين كانوا يحفظون الآية قبل أن يكتب عثمان سطرًا في مصحفه؟ .. هذه تساؤلات تكفي لطرح هذه الروايات جانبًا، والاستمساك بالروايات المسندة المتواترة التي أجمع عليها المسلمون في كل عصر ومصر.

وهكذا، فمثل هذه المرويات لا تصح لمخالفتها الأصح المتواتر، ولا يلتفت إلى تجويد بعض أهل العلم لأسانيدها، فإن فيها من نكارة المتن ما يقدح في الجودة المدعاة والتي لا نسلم بها، فتتبع الروايات بتدقيق يثبت ضعفها، والتأمل في متونها ينبئ عن ركاكتها وعدم توافقها وأبسط المعطيات التي نعلمها

---

(١) جامع البيان، الطبري (١٧/ ٤١٣).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٣/ ٤٤٧).

في كيفية نقل النص القرآني عبر الأجيال التي حفظته في صدورها وسطورها.

سادساً: هل أخطأ نساخ القرآن في كتابة بعض كلماته؟

قالوا: أخطأ نساخ القرآن في قراءة بعض كلمات القرآن، وتغيرت بسبب القراءة الخاطئة، ومثلوا له بكلمة ﴿ **أُمَّةٍ** ﴾ في قوله: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ (يوسف: ٤٥)، فزعموا أنها ينبغي أن تكون (وادكر بعد أمد).

وذكروا مثالاً آخر لما أسموه أخطاء نساخ القرآن في كلمة ﴿ **حَصَبُ** ﴾ ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٩٨)، فزعم أنها في الأصل (حطب جهنم)، فتحرفت على قارئها إلى ﴿ **حَصَب** ﴾، لأن الحصب يكون من الحجر، بينما الحطب يكون من الشجر الذي هو وقود النار.

الجواب: لم يقرأ المستشرق بيلامي[1] صاحب هذه الشبهة ما يسوغ له هذا القول في مخطوطة للقرآن، ولم يجده في رواية من الروايات، لكنها خاطرة لامست خياله وهو يشرب الشاي ، ولربما القهوة، وقد أودى به جهله بألفاظ العرب إلى الظن بأن كلمة ﴿ **أُمَّةٍ** ﴾ لا تناسب هذا السياق، إذ لا يعرف أن (الأمة) لفظ مشترك، يقصد به العرب عدداً من المعاني ، ورد بعضها في القرآن .

ومنها: الجماعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ** ﴾ (القصص: ٢٣) ، أي جماعة من الناس. ومن معاني (الأمة): المقتدى به ، ومنه قوله: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾ (النحل: ١٢٠)، أي إماماً يقتدى به، وكذلك يراد من (الأمة): الطريقة أو الدين، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا**

---

(١) مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم ، د.محمد مهر علي (نسخة إلكترونية) في مقال نشره في مجلة الجمعية الاستشراقية الأمريكية سنة ١٩٩٣م.

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ (الزخرف: ٢٢)، أي على طريقة.

ومن معاني هذه الكلمة القرآنية أيضاً في لغة العرب: المدة والأمد، وورد لها شاهد آخر في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ** ﴾ (هود: ٨)، فأمَّة هنا تعني (مدة) أو (أمد)، ومثله قول الشاعر:

فيا ليت وصل العامرية دام لي   يرعيان عمري أُمَّة لم تفارقِ[1]

وقال ابن درستويه : «والأمة لا تكون [بمعنى] الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال - والله أعلم - : وادكر بعد حين أمة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك»[2].

وأما بخصوص الخطأ الآخر الذي زعمه المستشرق بيلامي ، ونسبه إلى قراءة خاطئة لأحد النساخ في قوله: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾، فزعم أن الأصل (حطب جهنم) لأن الحصب من الحجر، والحطب من الشجر الذي هو وقود النار.

وقد جهل بيلامي أن القرآن ذكر الحجارة مرتين في سياق حديثه عن وقود جهنم، فهي نار ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ (التحريم: ٦) ، فالنار وقودها الحجر والشجر والإنسان، ولذا شبه الله عذاب أهل النار بالحصب، وهو الحجر الذي تذيبه النار، وهو مشهد أعظم من إحراق الشجر.

---

(١) انظر: المثلثات اللغوية (شرح نظم مثلث قطرب)، أبو القاسم عبد الوهاب المهلبي (١/ ٣٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠١).

ولا ريب أن (الحصب) أنسب هنا من (الحطب)، لأن الحديث عن إحراقهم وآلهتهم المصنوعة من الحجارة لا الشجر ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾.

إن أمثال هذه المطاعن مما تضحك له الثكلى، ويفتقر إلى أدنى صور الموضوعية التي يفتقدها المستشرقون بقدر جهلهم بوسائط نقل القرآن عبر القرون، وأعداد حافظيه بين الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم الدين.

سابعا : هل في القرآن زيادة أو سقط أو جمل لم تكتمل؟

١. **قالوا** : في القرآن جمل لا يتضح معناها إلا بحذف واو منها، وقصدوا بذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ (يوسف: ١٥) فتساءلوا أين خبر ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا** ﴾، ورأوا أن المعنى لا يتم إلا بحذف الواو في قوله: ﴿**وَأَوْحَيْنَا**﴾ لنصل إلى الخبر، وهو بحسب زعمهم (أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا).

ومثله زعموه في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الصافات: ١٠٣-١٠٥)، فزعموا أن قوله: ﴿فلما أسلما﴾ لا يظهر خبره إلا بحذف الواو من قوله ﴿ **وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾.

الجواب:

للعلماء في جواب هذه المسألة أجوبة ، وكلها وجوه صحيحة تعرفها العرب في كلامها، وأهمها ثلاثة وجوه:

الأول: وهو مذهب علماء اللغة البصريين، ويرون أن الخبر في هذه الشواهد محذوف مضمر، وتقديره يكون بحسب السياق، وهو موضع نستوفيه ونذكر شواهده في حديث يأتي قريباً عن الجمل التي زعموا عدم اكتمالها.

الثاني: وهو مذهب علماء اللغة الكوفيين، ويرون أن الخبر في هذه الشواهد وأمثالها ظاهر بعد واو الصلة، التي تقحمها العرب في جواب

(لما) و (حتى) ، فما يأتي بعدهما يقع جواباً لما قبلهما[١].

وقد نقل ابن الأنباري الرأيين بقوله: «ذهب الكوفيون إلى الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبرد وأبو القاسم ابن برهان من البصريين . وذهب [جمهور] البصريون إلى أنه لا يجوز»[٢].

وتقدير السياق في الآيات السابقة على مذهب الكوفيين: (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم) (فلما أسلما وتله للجبين ناديناه يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا).

ويسمي بعض النحاة واو الصلة بالواو (الزائدة)، لأنها لا محل لها من الإعراب، والعرب تزيدها في كلامها لمآرب بيانية، وكذلك صنع القرآن الذي نزل موافقاً لطرائقهم في الكلام والبيان.

ومن شواهد إضافة العرب لهذه الواو قول الأسود بن يعفر النهشلي:

حتى إذا قملت بطونكم ورأيتم أبناءكم شبوا
وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم العاجز الخب

والمعنى: قلبتم ظهر المجن بعد أن كبر أبناؤكم وشبعتم.

ولن يقبل تخبط جاهل - لم يعرف طرائق العرب في الكلام - بوجوب

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي (٢٠/ ٢٢٦).

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف (٢/ ٦٥٤) ، شرح الرضي على الكافية، الأستراباذي (٤/ ٣٩٣)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ١٠٤)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١١/ ٥٧).

حذف الواو في قوله: (وقلبتم)، فما هو أدرى بلغة العرب من شاعر تميم في الجاهلية ونديم النعمان بن المنذر ملك المناذرة.

ومن صور الواو (الزائدة) قول امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

والمعنى: لما أجزنا ساحة الحي انتحى بنا.... والواو زائدة.

ومن بعدهما قال الأخطل التغلبي النصراني:

ولما رأى الرحمن أن ليس منهم رشيد ولا ناه أخاه عن الغدر

وصب عليهم تغلب ابنة وائل فكانوا عليهم مثل راغية البكر

والمعنى: صب الله عليهم العذاب بتغلب بعد أن فسدوا وغدروا.

الثالث: وهو مكمل للثاني، فقد ذهب آخرون من فقهاء اللغة إلى جواز زيادة الواو في جواب (لما) و(حتى)، وفي جواب غيرهما، ومثّلوا له بقول الشاعر:

فإن رشيداً وابن مروان لم يكن ليفعل حتى يصدر الأمر مصدرا

فإنه أراد رشيد بن مروان، فزاد الواو بين الصفة والموصوف، وليس في السياق (لما) ولا (حتى).

ومثله قول شاعر آخر:

كنا ولا تعصي الحليلة بعلها فاليوم تضربه إذا ما هو عصى

فزاد الواو في خبر كان ، والمعنى: كنا لا تعصي الحليلة زوجها[1].

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١١/ ٤٣-٤٥).

٢. قالوا: ثمة جمل في القرآن لم تكتمل[١]، ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا** ﴾ (الرعد: ٣١)، وقوله: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** ﴾.

والجواب: قبل الشروع في تبيان جواب قولهم تفصيلاً ؛ نستذكر قولاً لإمام اللغة الجرجاني، وهو يتحدث عن طرف من إعجاز القرآن، فيقول: «الحذف هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن»[٢].

ثم ذكر له عشرات الشواهد من القرآن الكريم ومن أشعار العرب وآدابها، ليدلل على فن تعرفه العرب في كلامها، ولا ينكره إلا الجاهلون من الأعاجم المستعربين اليوم.

وشواهد الحذف في القرآن الكريم كثيرة، وبين يدينا العديد منها مما جرى فيها حذف بعض الكلام من السياق، ولم يشكل على قارئيه، لأن المحذوف مما يدركه السامع من السياق، من غير حاجة لذكره، ومنه قول الله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ** ۞

(١) ذكرنا قبلُ مذهب أساطين اللغة الكوفيين في مثل هذه الشواهد، وأنهم يرون أن الخبر في هذه المواضع وأشباهها ظاهر بعد واو الصلة، ونقلنا بعض شواهده في لغة العرب والقرآن الكريم.

(٢) دلائل الإعجاز، ص (١٢١).

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (الأنبياء: ٩٦-٩٧) فقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب قالوا: يا ويلنا فقد اقترب الوعد الحق أي يوم القيامة. وذلك أن خروج يأجوج ومأجوج علامة على اقترابه.

وكذلك حذف الخبر في قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٢-٧٣)، والتقدير: سيق المتقون إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها استقبلتهم الملائكة، وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها..

والواو في قوله: ﴿ وَاقْتَرَبَ ﴾ ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ هي واو العطف، معطوفة على محذوف دل عليه السياق.

وهنا يسأل سائل: لم يحذف العرب في كلامهم ما يحذفون؟

العرب تفعل ذلك لأمرين:

الأول: الإيجاز البلاغي لما يفهمه السامع من غير حاجته إلى ذكره، فالإيجاز فيما لا يخل بالمعنى ضرب من البلاغة لا يستغني عنه أرباب البيان، لما فيه من صون الكلام عن الحشو .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ (هود: ٨٠-٨١)، فخبر ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ محذوف، والتقدير: لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ لأويت إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (التوبة: ١١٨)، وتقديره: لما ضاقت عليهم الأرض ألهمهم الله التوبة ثم تاب عليهم.

الثاني: أن الحذف يكون أحياناً أبلغ من التصريح في المعنى وأوقع.

وضربوا له بأمثلة منها: قول الكريم: إن جئتني أعطيتك...

فتركُ الكريمِ التصريحَ بالمُعطى أوقع وأرجى في نفس السامع من قوله: إن جئتني أعطيتك كذا وكذا.

ومن أمثلته أيضاً إنذار القوي المقتدر لعدوه: والله لئن قمت إليك لأفعلن بك... فسكوت القوي عن التصريح بأنواع الوعيد يذهب بفكر المُتوعَد كل مذهب، فلا يدري أي أنواع المكروه - من الضرب والقتل والكسر - يصيبه، فتتمثل في فكره صور من العقوبات لم يخطر بعضها في ذهن المتوعِد، وتتكاثر عليه وتؤرقه، وهي ولا ريب أبلغ في نفسه وأزجر من قول المتوعِد: لئن قمت إليك لأضربنك.

وقد وقع في القرآن في غير ما موضع حذفُ ما يفهم من السياق لقصد الزجر والتخويف، منه قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (النور: ٢٠)، فحذف جواب ﴿لولا﴾، والتقدير فيه : ولولا فضل الله عليكم ورحمته لفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة ولعاجلكم بالعقوبة قبل التوبة و....

يقول العلامة أبو السعود في تعليل هذا الحذف: «وجواب لولا محذوف لتهويله، والإشعار بضيق العبارة عن حصره ، كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في

جميع أفعاله ، وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان» [١].

ومثله في استدعاء المعاني الكثيرة بحذف الجواب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا** ﴾ (الرعد: ٣١)، والتقدير: لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لما آمنوا به.

ويصح أيضاً وجه آخر: لكان هذا القرآن.

فحذفُ الجوابِ فتحَ الباب أمام ذهن السامع ليجول في كلا المعنيين الصحيحين، وهو يقول: صدق الله العظيم بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ (الزخرف: ٢٧-٢٨).

وقد يغين الشيطان على أحدهم، فيتساءل : هل تعرف العرب مثل هذا الحذف في كلامها؟

ونقول: نعم ، فذلك تعرفه العرب في كلام بلغائها، والقرآن النازل بلسان العرب وافقهم في أساليبهم وطرائق بيانهم، ومنها حذفهم الخبر أو جواب القسم.

قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعَةً   ولكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فقوله: (لو أنها نفس تموت جميعة) مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره:

---

(١) تفسير أبو السعود (٦/ ١٥٩).

لفنيت أو لاستراحت بموتها. فحذفُ الخبر يعطي الفرصة لإعمال الخبرين.

وكذلك قال جرير:

كذب العواذل لو رأين مناخنا بحزيز رامة والمطي سوامي

ولم يقل: لرأين ما يشجيهن ويسخن أعينهن.

وقال الشاعر :

قالت بنات العم يا سلمى وإنْ كان فقيراً معدمًا قالت وإنْ

أي رضيت زواجه وإن كان فقيراً.

وقال حاتم طيء مقالة صارت مثلاً حين أُسر، فلطمته جارية: لو غيرُ ذات سوار لطمتني.

أي لو كان ظالمي رجلاً ذا قدر لكان سهلاً عليّ، أو لاقتصصت منه(١).

والعرب تعرف الاختصار في كلامها، لا في الجمل والكلمات فحسب، بل قد تختصر الكلمة الواحدة، وتكتفي عنها بحرف، وهو ضرب لم يرد له في القرآن مثل، لما قد يقع فيه من التوهم، قال ابن مكناس:

لم أنس بدرا زارني ليلة مستوفراً ممتطيًا للخطر

فلم يقف إلا بمقدار ما قلت له أهلاً وسهلاً ومر [أي: مرحبا].

وقال الشاعر:

ما للظليم عَالَ كَيْفَ لا يا ينقَدُّ عنه جلده إذاً يا

قال الطبري: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من

---

(١) سر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٦٤٨).

يفعل[1].

وقال آخر:

وبالخير خيرات وإن شرا فآ [أي: فشر] ولا أريد الشر إلا أن تآ [أي: تشاء]

وقال آخر:

قلنا قفي لنا فقالت قاف [أي وقفتُ] لا تَحْسَبِي أنا نَسينا الإيجاف

فمن عرف أمثال هذا في كلام العرب أدرك بلاغة القرآن وعظمة بيانه، وأدرك أيضاً جهل الطاعنين فيه على غير هدى.

٣. **قالوا:** لم يذكر القرآن جواب القسم في قوله تعالى: ﴿ **وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۞ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۞ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ (الفجر: ١-٦)، وتساءلوا ما فائدة القسم إذا لم يذكر جوابه.

والجواب:

ليس في القرآن قسم ليس له جواب، لكن جواب القسم قد يذكر صراحة، وقد يضمر، ويفهمه السامع بقرينة من السياق، يقول سيبويه: «والحذف في كلامهم كثير، إذا كان في الكلام ما يدل عليه».

وفي الآية المستشكلة جواب للقسم محذوف تقديره: والفجر وليال عشر ليعذبن الله الكفار كما فعل بعاد ذات العماد وثمود وفرعون ذي الأوتاد.

---

(١) جامع البيان (١/ ٢١٣)، وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٤٨).

وقد ورد إضمار جواب القسم في غير ما موضع من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص: ١-٢) وجواب القسم مضمر محذوف، تقديره: ص والقرآن ذي الذكر ، إنك لرسول الله، والذين كفروا في عزة وشقاق.

قال ابن عاشور: "والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر، وهو صفة الذين كفروا وكذبوا القرآن عناداً أو شقاقًا منهم"[١]

ومما حذف فيه جواب القسم أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۞ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ (النازعات: ١-٦)، أي: والنازعات والناشطات.. لتبعثُنَّ يومَ ترجف الراجفة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه ﴾ (القيامة: ١-٤)، وجواب القسم فيه محذوف ، دل عليه السياق، أي: أقسم لتبعثن ولتحاسبن وليجزين كل نفس بما كسبت.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٤).

ثامناً: هل غيَّر الحجاج النص القرآني في إحدى عشرة كلمة من كلماته؟

قالوا: النص القرآني تعرض للتغيير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق، فقد أمر بتغيير أحد عشر موضعًا في القرآن[1].

الجواب: الخبر المذكور في كتاب المصاحف لا يصح من وجوه:

أ. أنه من رواية كذاب، ففي إسناده عباد بن صهيب عن عوف بن أبي جميلة، وعباد قال عنه البخاري: «تركوه»، وقال النسائي: «متروك الحديث»، وقال الذهبي: «كذاب هالك»، وقال علي بن عبد الله: «تركت من حديثي مائة ألف، منها عن عباد بن صهيب خمسين ألف»، وقال ابن حبان: «كان قدريًا داعيًا إلى القدر، ومع ذلك يروي المناكير عن المشاهير التي إذا سمعها المبتدىء في هذه الصناعة شهد لها بالوضع»[2]، وفي هذا كفاية زيادة.

ب. لو تتبعنا المواضع التي زعمت الرواية أن الحجاج غيَّرها، لوجدنا أن منها مواضع ما زال الناس يقرؤون بها، إذ لا علم لهم بتبديل الحجاج لها، فهم يقرؤون:

- ﴿لم يتسن﴾ (البقرة: ٢٥٩)، بإسقاط الهاء، هكذا يقرؤها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف.
- ﴿ينشركم﴾ (يونس: ٢٢)، هكذا يقرؤها ابن عامر وأبو جعفر.
- ﴿لله .. لله .. لله﴾ (المؤمنون: ٨٥،٨٧، ٨٨)، هكذا يقرأها جمهور القراء فيما عدا أبو عمرو ويعقوب، فإنهما قرآها: ﴿لله .. الله .. الله﴾.

(١) أخرجه أبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف ح (٣٤٨).

(٢) انظر ترجمته في: الضعفاء الصغير، البخاري، ص (٨٩)، والضعفاء والمتروكين، النسائي، ص (٧٤)، والمجروحين، ابن حبان (٢/ ١٦٤)، والكامل في الضعفاء، ابن عدي (٤/ ٣٤٦-٣٤٧)، وديوان الضعفاء، الذهبي، ص (٢٠٧).

- ﴿بظنين﴾ (التكوير: ٢٤)، هكذا قرأها ابن كثير وأبو عمر والكسائي ويعقوب من رواية رويس عنه.

ج. لا ريب أن الحجاج كان ظلومًا غشومًا بطاشًا بكل من نازع الأمويين في إمارتهم، لكنه كان على القرآن حريصًا ، مهتمًا بموافقة مصاحف الناس للمصاحف العثمانية، ولذلك شجعهم على إتلاف كل مصحف يخالفها، يقول ابن قتيبة : «وكان الحجاج وكّل عاصمًا وناجية بن رمح وعليّ بن أصمع بتتبّع المصاحف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفًا لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهمًا»[1]، فهذا صنيع حسن منه، وفيه عناية بالغة بسلامة ما خطه الناس من مصاحف، وتطابقه مع المصحف الذي أجمع عليه الصحابة.

د. لا يقدر الحجاج ولا غيره على تغيير مصاحف المسلمين، فالحجاج كان أميرًا على العراق فحسب، ولا سلطان له على غيرها من الأمصار، وإمارته كانت في آخر القرن الهجري الأول، فقد مرَّ على المسلمين قبله أزيد من ستين سنة وهم ينسخون المصاحف العثمانية، ويقرؤون بما فيها، فأنى له أن يغير قراءتهم؟!

ولو أجبر الحجاج الناس في عهده على تغيير شيء من القرآن لنقضه من جاء بعده، وهم له كارهون، وبموته فرحون، بل لو صنع الحجاج ما زعموه لثار عليه المسلمون، فالقراء أقاموا عليه ثورة كبيرة عام ٨٢هـ، سميت باسمهم "ثورة القراء"، وانحصرت أسبابها في مظالمه للناس، ولم يُذكر فيها مثل هذا مع استحكام العداوة والكراهية.

***

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٣٧).

الأباطيل المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله

أولاً : نسبة صفات النقص إلى الله تعالى

قالـوا : القرآن نسب إلى الله صفات لا تليق به، وهي المكر والخداع والكيد والنسيان، وذلك في مثل قول الله: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقوله: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ** ﴾ (الأنفال: ٣٠)، وقوله: ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً** ﴾ (الطارق: ١٦)، وقوله: ﴿ **نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ (التوبة: ٦٧).

الجواب: يلزم التنبيه أولاً أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ينزه الله عن النقائص، فلا يوجد فيه ما في كتب الآخرين التي تتحدث عن مصارعة الله ليعقوب وتغلب يعقوب عليه، وأكله الزبدة واللبن واللحم عند إبراهيم، وغيره مما لا يليق بجناب الله العظيم.

فالقرآن يخلو عن مثل هذا، وهو لا ينسب إلى الله تعالى إلا صفات الكمال والجلال، ولا يسميه إلا بأحسن الأسماء ﴿ **وَلِله الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وكذلك: ﴿ **اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى** ﴾ (طه: ٨).

ومن أسمائه جل وعلا الحسنى ما ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿ **هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ **(الحشر: ٢٢-٢٤).**

ولئن كانت أسماء المخلوقات جامدة معطلة لا تفيد معانيها، وتنحصر دلالتها في التعريف بالذات؛ فإن أسماء الله تدل على ذاته، وهي أيضاً أوصاف

لذاته العلية تبارك وتعالى، وتدل على غاية الكمال في اتصافه بها، فهو الملك الذي لا نِد له في ملكه، وهو الحكيم الذي لا يُدانى في حكمته.

ووفقًا لما سبق فإن الله ﷻ لا يسمى بأسماء تنتقص ذاته العلية؛ كالماكر والمخادع والكائد، فهذه الأسماء لا كمال فيها، فلا يسمى بها الرب تبارك وتعالى، كما لا يوصف بالمكر والخداع والكيد، وإن فعل تبارك وتعالى هذه الأفعال، فباب الأفعال أوسع من الصفات.

والسؤال: كيف نسب القرآن إلى الله فعل الكيد والمكر والخداع؟

وفي جوابه نقول: إن آفة الجهل بلغة العرب وطرائقهم في التعبير عن المعاني من أعظم بلايا هذا الزمان، حيث اضمحلت معرفة الناس باللغة، وأصبح أهلها أعاجم فيها، فالعرب تعرف في أساليبها المشاكلة اللفظية، وهي استخدام اللفظ في غير معناه؛ لمقابلته مع فعل آخر.

يقول أبو بكر ابن حجة في تعريف المشاكلة: «المشاكلة في اللغة هي المماثلة، والذي تحرر في المصطلح عند علماء هذا الفن أن المشاكلة هي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته»(١).

وعند ابن عاشور المشاكلة هي: «استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار . فالمشاكلة ترجع إلى التلميح ، أي إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقةٌ بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلاّ محاكاة اللفظ ، سميّت مشاكلة»(٢).

---

(١) خزانة الأدب وغاية الإرب ، ابن حجة الحموي (٢/ ٢٥٢)، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ، ص (٣٢٧).

(٢) التحرير والتنوير ، ابن عاشور (٥/ ٣٢٩).

وأمثلتها في لغة العرب كثيرة[(١)]، منها قول الشاعر أبي الرقعمق الأنطاكي :

قالوا اقترحْ شيئـًا نُجِد لك طبخَه   قلتُ اطبخوا لي جبّةً وقميصـًا

فالطبخ إنما يكون في الطعام، وليس في الجبة والقميص، لكن الشاعر العربي تزيد حاجته إلى الجبة والقميص على حاجته إلى الطعام، فطلب الملابس بكلام شاكل فيه قولهم: (نُجِد لك طبخه)، فسألهم حاجته: (اطبخوا لي جبة وقميصـًا).

ومثله في المشاكلة اللفظية قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا   فنجهل فَوقَ جهل الجاهلينَا

أي نجازيه على جهله، فسمى المجازاة جهلاً للمشاكلة فحسب، وإلا فإن الجهل لا يفخر به، بل يستحى منه.

ومثله قول أبي تمام :

من مبلغٌ أفناء يعربَ كلَّها   أني بنيت الجار قبل المنزل

ومن المعلوم أن الجار يجاور ولا يبنى، لكن حقيقة (بنيتُ) اللغوية غير مرادة، فهو لم يرد حقيقة البناء في (بنيتُ) كما لم يرد حقيقة الجهل في (فنجهل) ولا حقيقة الطبخ في (اطبخوا).

ومثل هذا يفهمه الناس والعوام في كلامهم حتى في أيامنا هذه، فلو تواعد اثنان على موعد، فغاب عنه أحدهما، واعتذر لذلك بالنسيان، فقابله الآخر بالتخلف عن موعد آخر، ليقابل خلفه بخلف مثله، ثم يقول له: نسيت موعدك كما نسيت موعدي، أو نسيتك كما نسيتني، والسامع لمثل هذا يدرك أنه لا يريد

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص (٣٢٧)، وخزانة الأدب، ابن حجة الحموي (٢/ ٢٥٢)، وموجز البلاغة، محمد الطاهر بن عاشور، ص (٤١)، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص، العباسي، ص (١٨٧)، والبلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكة، ص (٧٩٧).

أنه نسيه على الحقيقة، إنما أراد مجازاته على نسيانه بالتخلف المتعمد، وأن قوله: (نسيت) من باب المشاكلة اللفظية فحسب.

وهذا الأسلوب الذي عرفه العرب في كلامهم جاء في القرآن صور كثيرة منه، لنزوله بلسان عربي مبين ، ومن صور المشاكلة اللفظية في القرآن قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ (الشورى: ٤٠)، فسمى عقوبة السيئة وقصاصها سيئة؛ مع أنها ليست سيئة على الحقيقة، بل هي عدل وحق، فالمعنى: وجزاء سيئة عقوبةٌ، واستخدمت كلمة سيئة للمشاكلة اللفظية، وليس المراد منها معنى السوء حقيقة.

ومثله قول الله تعالى: ﴿ **مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾ **(البقرة: ١٤٩)**، فرد الاعتداء ليس اعتداء، لكن جاز تسميته كذلك في باب المشاكلة اللفظية، ومثله ﴿ **رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ (البينة: ٨)، فكل منهما على معنى، وأمثاله في القرآن كثير.

وفي السنة النبوية صور استخدم فيها النبي ﷺ هذا الأسلوب العربي البديع، منها قوله: «**اتركوا الترك ما تركوكم، ودعوا الحبشة ما ودعوكم**»[١] ، والأصل أنها (ما وادعوكم)، فعدل عنها إلى (ودعوكم) للمشاكلة مع (تركوكم).

إذا تبين ذلك وجب إعادة قراءة الآيات المشكلة للوقوف على معاني هذه الألفاظ وفق سياقاتها، فالآيات حين تحدثت عن مكر الله بالكافرين أو مخادعته لهم وأمثاله لم تكن تنسب إلى الله هذه الأفعال ابتداء، إنما ذكرت هذه الألفاظ في مقابل فعل المشركين، فحين وقع منهم المكر والخداع والكيد، رد الله كيدهم وخداعهم ومكرهم ، فسمى الله فعله بألفاظ من جنس ما صنعوا ، للمشاكلة اللفظية مع ما وقع من الكفار، من غير أن تكون الحقيقة اللغوية لهذه

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٣٠٢)، والنسائي ح (٣١٧٦).

الألفاظ مُرادة.

وهذه المشاكلة في الأسلوب تتضح لمن قرأ تلك الآيات المستشكلة، كمثل قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله ﴾ (الأنفال: ٣٠)، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ۞ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ (الطارق: ١٥-١٦)، وقوله: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ (التوبة: ٧٩)، وقوله: ﴿ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧)، وقوله: ﴿ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٤)، فلم تنسب هذه الأفعال (الخداع، المكر، الكيد...) إلى الله؛ إلا في باب المقابلة لفعل الكافرين، من غير أن تكون معانيها مُرادة على الحقيقة.

والتدقيق في معاني تلك الآيات يبين أنها لا تدل على معان سيئة في حديثها عن أفعال الله، فمكر الله في قصة قوم صالح هو إهلاكهم لكفرهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۞ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل: ٤٩-٥١) فالمكر الإلهي هنا هو عذاب الله الذي أتاهم وهم لا يشعرون، وليس في هذا أي معنى يستقبح.

وأما الخداع في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾، فهو "إمْهال الله لهم في الدنيا حتى اطمأنّوا وحسبوا أن حيلتهم وكيدهم راجًا على المسلمين، وأنّ الله ليس ناصرهم .. فإطلاق الخداع على استدراج الله إيّاهم استعارة تمثيلية، وحسنَّتْها المشاكلة"(١).

ولما أراد اليهود بالمسيح السوء، وحاكوا مؤامرتهم للقبض عليه مكر الله

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٣٢٩)، وانظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (١/ ٢٨٩).

بهم فأنجى المسيح بأسلوب خفي عليهم، ولذلك قال الله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤)، فمكر الله هو إنجاء المسيح منهم، وعدم تحقيق أهدافهم، وهو غاية نبيلة ومقصد كريم.

ومثله إنجاء الله نبيه محمداً ﷺ من مؤامرة قريش حين اجتمعوا على بابه يريدون قتله يوم الهجرة، فقال الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠)، فإنجاء نبيه ﷺ ليس فيه ما يستقبح.

ونطوي التفصيل في بقية الصور فهي على مثل ما بيناه.

ولن يفوتنا التنبيه إلى أمر صحيح ذكره أهل العلم باللغة، حين قالوا: هذه الألفاظ (المكر والكيد والخداع) لا تُستقبَح معانيها في لغة العرب ابتداء، إنما تستقبح باعتبار ما أضيفت إليه، فالمكر - مثلاً - هو التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالعدو، فمكرك بأحدهم تمكنك منه من غير أن يتنبه إلى فعلك وتدبيرك، فهذا في اللغة (مكر)، ولا يوصف بمدح أو ذم إلا بمعرفة ما ينضاف إليه، فتوصل المرء إلى حقه بأسلوب خفي (مكر) ممدوح، وتوصله إلى حقوق الناس بأسلوب خفي (مكر) مذموم.

وهكذا فإن الله عز وجل يقابل مكر الكافرين السيء (أي سعيهم للإيقاع بالأنبياء على وجه خفي) بالمكر الحسن (إنجاء الأنبياء بوجه خفي)، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)، ولأجل ذلك قال الله عن فعله: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)، ولم يقل بأنه: (أمكر الماكرين)، لأنه لا يمكر إلا بخير، فهو يمكر بالماكرين، ومكره الخير فعل جميل يقابل مكرهم السيء.

وأما الخداع فهو حسب الفيروزبادي: إرادة الشر بالمخدوع وهو لا

يعلم[١]، وأما ابن دريد فعرفه بأنه الكتمان والإخفاء، وكلا المعنيين لا يستقبح؛ إلا إذا انضاف إليه مقصد السوء، وإلا فمخادعة العدو الظالم لنيل الحقوق المشروعة لا يستقبحها أحد ، فالله جازى الكافرين شراً على أفعالهم وهم لا يدرون (بخفاء)، فقابل الله خداع الكافرين المشين بخداع ممدوح.

وأما الكيد في مثل قوله : ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً** ﴾ **(الطارق: ١٥)**، فهو كما عرفه الجرجاني بأنه إرادة مضرة الغير خفية، وعرفه غيره بأنه التدبير ضد العدو[٢].

وهذه المعاني لا عيب فيها، إلا إذا كانت سبيلاً للتوصل إلى غاية مرذولة، أما مقاومة كيد الكائدين (إرادتهم الضر بالخفاء) بكيد مثله، أي (بإضرار خفي بهم)، فهذا غير مستنكر، إذ لا يلزم أن يكون الإضرار بالعدو على وجه ظاهر حتى يستساغ من الناحية الأخلاقية.

ولذلك يقول الله على لسان إبراهيم: ﴿**وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم**﴾ **(الأنبياء: ٥٧)**، ويعني أنه سيتخلص منها بوجه خفي، وهذا كيد ممدوح يتخلص به النبي إبراهيم عليه السلام من الأصنام التي تعبد من دون الله؛ من غير أن يدري به سفهاء المشركين، فيتعرضوا له بالقتل والإيذاء، وقد فعل هذا الكيد، فحطم أصنامهم من غير أن يعرفوا ذلك ﴿ **قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ **(الأنبياء: ٥٩)**.

ومثله قول الله: ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** ﴾ (يوسف: ٧٦)، أي صنع الله صنيعاً خفياً جلب فيه الخير ليعقوب وبنيه بإحضارهم من المجاعة إلى أرض مصر.

وهكذا فالكيد الحسن والخداع الحسن لا يستبشعه أحد ، ومن مثل هذا

(١) القاموس المحيط، الفيروزبادي (٣/ ١٦-١٧).

(٢) التعريفات، الجرجاني، ص (١٨٩).

المخادعة والمكر بمن أراد الاعتداء على العرض والمال والنفس، فمخادعة المعتدي والمكر به طلباً للإنجاء منه وللإيقاع به على وجه خفي من محاسن الأمور وفاضل الأفعال.

وفي خاتمة هذا المبحث أرى أن أذكِّر القارئ الكريم أن هذه الفرية يثيرها قوم ينسب كتابهم لله مثل هذه المعاني، ولكن أعياهم أن يجدوا في القرآن ملمزاً صحيحاً، وتقطعت بهم السبل ، فرموا القرآن بما نراه في كتبهم ، فاعجب لذلك، وليطل عجبك وأنت تقرأ المنسوب إلى النبي داود حيث قال: «**إلى متى يا رب تنساني كل النسيان**» (المزمور١٣/ ١)، ونسب سفر إرمياء إليه أنه خاطب الله بقوله: «**آه يا سيد الرب، حقاً إنك خداعاً خادعت هذا الشعب وأورشليم قائلاً: يكون لكم سلام. وقد بلغ السيف النفس**» (إرميا ٤/ ١٠)، فالكتاب ينسب إلى الله – وحاشاه - نسياناً وخداعاً ينطوي على الكذب؛ إذ وعد بالسلام، لكنه أعطى القتل والدمار!!

سبحانك هذا بهتان عظيم.

ثانياً : هل يضل الله عباده؟

قالوا: أتى القرآن بالمنكر من القول حين ذكرت آياته أن الله يضل من يشاء، والإضلال عمل مشين، فكيف ينسبه القرآن إلى الله عز وجل؟! وكيف يعذب الله بناره من أضلهم وحجب عنهم هدايته؟!

الجواب: من الضروري أن يتبين لكل أحد أنه لا يوجد كتاب امتدح الله وعظمه بمثل ما نجد في القرآن العظيم، ولكنا نؤمن أيضاً أنه ما من فعل حسن أو قبيح يجري في هذه الدنيا؛ إلا وهو واقع بمشيئة الله وإرادته، فالمسلمون يؤمنون أن الله هو المهيمن على هذا الكون، فلا رب فيه سواه، وكل ما يجري في الكون من خير أو شرور فإنما يقع وفق قدره الأزلي، فلن يعصى الله أو يطاع إلا بإرادته وعلمه، وهو تعالى وحده دون سواه خالق الخير والشر ، فالمسلمون لا يقولون بقول المجوس الذين زعموا أنهم ينزهون الله عن النقائص، فجعلوا للكون خالقين، خالقاً للخير ، وآخر للشر.

وعليه فإن الله هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويعطي وينفع ويهدي، وهو أيضاً من يميت ويمنع ويمرض ويضل، فنسبة مثل هذه الأفعال إليه لتعلقها بطلاقة قدرته وهيمنته جل وعز.

وأما مسألة تعذيب الله لمن أضله وقول القائلين بأنه مناف لعدل الله، فإنما يصدق لو كان إضلال الله للناس ابتداء، وهذا محال على عدل الله تبارك وتعالى ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ١١٥)، فقد خلق الناس جميعاً على الفطرة موحدين ، لذا خطب النبي ﷺ الناس فقال: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا .. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما**

لم أنزل به سلطاناً»[1]، وهكذا فالله عز وجل خلق البشر مؤمنين، وإنما ضل من ضل باتباع الشياطين بإرادتهم واختيارهم.

ولتقوم حجة الله على عباده فإنه وهبهم العقل؛ ليميزوا به بين سبيل الخير وسبيل الشر: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ (البلد: ١٠)، ولأجل ذلك أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب، ولو كانت الهداية والإضلال جبرية حتمية لما كان من ضرورة لإرسال النبيين ﴿ **رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾ (النساء: ١٦٥).

والمتأمل في آيات القرآن يرى جلياً أن إضلال الله لهؤلاء الذين أضلهم كان بمقتضى أفعالهم السيئة، فقد أضلهم لاختيارهم العماية ورفضهم الهداية وتنكبهم طرقها، فالله يضل من اختار الضلال، وفي المقابل هو يهدي من اختار الهدى والرشاد.

وقد نبه القرآن على هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (الصف: ٥)[2]، فكان إضلال الله لهم ومنعه الهداية عنهم بسبب زيغانهم، ومثله قوله: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ (البقرة: ١٠).

ومثله حال أولئك الذين صرف الله قلوبهم عن النور والهدى بسبب استكبارهم عن قبول الحق ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ (الأعراف:

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢٨٦٥).

(٢) وقد ورد مثل هذا في آيات كثيرة ذكرت أن الله لا يهدي الظالمين والكافرين والخائنين وغيرهم ممن تنكب طريق الحق واختار العماية على الهداية.

١٤٦).

ووفق هذه القاعدة أيضاً أضل الله من نقض عهده وميثاقه وأفسد في الأرض بالمعاصي: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ۞ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦-٢٧)، فهذا الفاسق يستحق الضلالة بسبب إفساده في الأرض وعمله المشين.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠)، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (النحل: ٣٧)، فكل هؤلاء الذين أضلهم الله لا يستحقون هداية الله بسبب فعالهم القبيحة: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (آل عمران: ٨٦-٨٧).

وكما أن الإضلال نتيجة للضلال ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠)، فكذلك هداية الله إنما هي توفيق وجزاء لمن اختار طريق الطاعة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٥)، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (الليل: ٥-١٠).

وبعد ثبوت براءة القرآن مما نسبوه إليه فإني أتساءل والعَجب يلفني: هل جهل أصحاب هذه الشبهة وجود ما استنكروه على القرآن في كتبهم؟ ألم يقرؤوا ما جاء في سفر حزقيال ، وهو من الأسفار المقدسة التي يؤمن بها الطاعنون في

القرآن من اليهود والنصارى: «**النبي إذا ضل وتكلم بكلام ، فأنا الرب أضللت ذلك النبي**» (حزقيال ١٤/ ٩)؟![1]، وفي العهد الجديد يقول بولس: « **لأنهم لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا، ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب ، لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق، بل سروا بالإثم**» (تسالونيكي (٢) ٢/ ١٠-١٢)، كما ذكر بولس أن الله يقسي قلوب من أراد ضلالهم: «**هو يرحم من يشاء، ويقسي من يشاء**» (رومية ٩/ ١٨)، فماذا هم قائلون؟

وبعيداً عن التعليل القرآني الذي ذكرناه لإضلال الله أهل الشر من عباده؛ فإن بولس لا يجعل الهداية والإضلال بسبب اختيار البشر ونتيجة أفعالهم، بل يسنده وما يستتبعه من العذاب إلى حق الله المطلق في فعل ما يشاء، فيقول: «**فتقول لي: لماذا يلوم بعد؟ لأن من يقاوم مشيئته! بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعل الجبْلة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة، وآخر للهوان**» (رومية ٩/ ١٨-٢١)، فالإضلال حسب النص الإنجيلي لا يتعلق إلا بالمشيئة الإلهية، وليس بسبب ظلم العباد وضلالهم وطغيانهم.

(١) وقد تكرر هذا في نصوص كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها: انظر: (الخروج ٧/ ٣)، (الأيام (٢) ١٨/ ٢٢)، (إشعيا ٦٣/ ١٧).

ثالثاً: هل يأمر الله بالفحشاء؟

قالوا: القرآن ينسب إلى الله الأمر بالفاحشة في قوله: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ (الإسراء: ١٦)، ففهموا منه أن الآية تقول: الله أمر المترفين بالفسق، ثم عاقبهم على ذلك!

والجواب: لم يظهر في منطوق الآية صريحاً حقيقة ما أمر به الله ، فالآية تقول: ﴿ **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** ﴾، ولا تحدد حقيقة المأمور به ولا تفصيله، لكن مفهوم الآية يدل على أن الله أمرهم بالطاعة ﴿ **فَفَسَقُواْ فِيهَا** ﴾ بعصيانهم له، فالفسق هو الخروج عن الطاعة.

قال ابن منظور: " ﴿ **فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ خرج من طاعة ربه، والعرب تقول إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس ، والفسق الخروج عن الأمر وفسق عن أمر ربه أي خرج"(١).

ومن هذا تبين أن فسقهم هو خروجهم عن أمر الله الذي أمرهم بالصالح ، فخرجوا عن أمره، والله عز وجل لا يأمر إلا بالصالح، ولا يدعو تبارك وتعالى إلى الفاحشة ولا إلى السيء من القول أو الفعل ﴿ **وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأعراف: ٢٨).

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٣٠٨).

رابعاً: هل يتحسر الله؟

قالوا: نسب القرآن إلى الله التحسر في قوله: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** ﴾ (يس: ٣٠)، والتحسر أشد الندم، فهل الله يتحسر؟

والجواب: أن الآية لم تذكر مطلقاً صدور الحسرة من الله، بل تحكي تحسر الكافرين على تكذيبهم الرسل وهم يلقون في النار، ولو كان التحسر من الله - عياذاً بالله من هذا المعنى - فإن الله قادر على إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة؛ فهذا أولى له من التحسر الذي يصنعه من لا يملك حيلة ولا دفعاً لما يتحسر عليه.

وهذا المعنى فهمه مفسرو الإسلام ونقلوه عن التابعين، قال ابن كثير: «قال قتادة: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ** ﴾: أي يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله ... ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله»(١).

قال ابن عباس: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ** ﴾ أي يا ويل العباد(٢).

ويصدق هذا قول الله تعالى: ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾ (الزمر: ٥٦)، فالمتحسر هو الكافر، لا الله عز وجل، فبطلت الشبهة واستبان الحق لمن ألقى السمع وهو شهيد.

والعجب أن كتب أصحاب هذه الشبهة لا تمل من كثرة نسبة التحسر والندم إلى الله تعالى، ومن ذلك أن الرب قال: «**ندمتُ على أني جعلتُ شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي، ولم يقم كلامي**» (صموئيل (١) ١٥/ ١٠)، وأنه رفع عن بني إسرائيل العذاب بيد أعدائهم «**لأن الرب ندم من أجل أنينهم**» (القضاة ٢/ ١٨).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٥٧٤).
(٢) المصدر السابق (٦/ ٥٧٤).

خامساً : هل الكبر صفة محمودة؟

قالوا: الكبر صفة مذمومة ينفر منها العقلاء، ومع ذلك فإن القرآن يصف الله ويسميه بالمتكبر في قوله: ﴿ **هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (الحشر: ٢٣).

والجواب: بداية فإن الله عز وجل وصف نفسه وسماها في القرآن الكريم بأسماء وصفات الجمال والجلال ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى** ﴾، فأي اسم من أسمائه يدل على غاية في الحسن والكمال، مما يليق بجلال الله وعظمته.

وهذا المعنى يلازم صفات الله، وإن دلت هذه الصفات على غير الكمال والجلال حين تضاف إلى العباد؛ فإن الاسم في إطلاقه على الله يتعالى عن كل معنى مشين.

وقد سمى الله تعالى نفسه بالمتكبر لتعاليه وتنزهه عن كل النقائص والمعايب، قال قتادة: «تكبر عن كلّ شر»[1].

ولو تساءلنا عن معنى الكبر في لغة العرب؛ لوجدنا المرتضى الزبيدي يجيب بالقول: «الكِبر : الرفعة والشرف ... والتكبر والاستكبار : التعظم .. »، والله عز وجلّ مستحق للرفعة والشرف والتعظم، بل له من ذلك أكمله وأتمه.

قال ابن الأثير: «المتكبر والكبير أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عتاة خلقه .. والكبرياء العظمة والملك، وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله تعالى»[2].

---

(١) جامع البيان، الطبري (٢٣/ ٣٠٢).
(٢) لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٢٥).

وأما كِبر الإنسان فهو مذموم - بالجملة - إذا طلب فيه الإنسان ما لا يستحقه، فالناس سواسية، لا يتميز بعضهم على بعض إلا بقدر ما أنعم الله به على الواحد فيهم، فمن كان هذا حاله؛ فحقه المزيد من التواضع والصَّغار لله المنعِم، لا التباهي والكبر على عباد الله، يقول الزبيدي: «الكبر والتكبر والاستكبار متقاربة، فالكبر: حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه أكبر من غيره»(١)، فمثل هذا الكبر مذموم؛ لأن البشر متساوون، فتعظم بعضهم واستكبارهم على بعضهم غير مستحق، فلحق صاحبه الذم.

كما أن من كِبر العباد ما هو ممدوح؛ كاستكبارهم واستعلائهم عن الذنوب والدنايا والخسائس، فالعاقل يتكبر ويترفع على مواقعتها، وتكبره عليها غير مذموم.

ومن الكبر غير المذموم ما يقع طبيعة؛ كاستكبار الإنسان على غيره من الحيوانات، فيرى أنه أفضل منها وأعلى، وأنه أحق بالحياة منها، وأن حياة كثير منها رهن مصلحته وحاجته، وأنه الأحق بمنافع الكون المسخر له، فاستكباره عليها وتكبره بذبحها وإهدار مصالحها ليس بمذموم؛ لأنه حقه، فإذا كان كذلك؛ فتكبر الله المنعم على عباده أولى.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي (٣/ ٥١٤).

سادساً : هل الله لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها؟

قالوا: القرآن ينسب إلى الله أنه لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها، واستدلوا بآيات، منها قوله : ﴿ **الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا** ﴾ (الأنفال: ٦٦)، وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ** ﴾ (البقرة: ١٤٣).

والجواب: أن القرآن نسب إلى الله العلم المطلق بكل شيء، فهو الذي يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، والآيات القرآنية في هذا الصدد لا تكاد تحصى لكثرتها، منها قوله: ﴿ **وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقوله: ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (آل عمران: ١١٩)، وقوله: ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ (النساء: ٣٢).

وعلمُ الله أزلي، وقد كتب الله ما سيعمله العباد قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، يقول ﷺ : «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»[1] وفي حديث آخر : «**وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**»[2] فهذا النوع الأول من علم الله، وثبوته كاف في دفع الشبهة.

والنوع الثاني من العلم الإلهي هو علمه بوجود ما علمه أزلاً، أي عِلمه بحدوث أفعالنا التي كان يعلم أنها ستكون، فالله يعلم ذنب المذنب وطاعة المطيع قبل أن يخلق الخلق، ثم إذا أذنب العبد أو أطاع؛ علم الله تحقق الفعل ووجوده، فأثابه عليه بموجب فعله، فهذا نوع آخر من العلم ، يتصف به الله العليم الذي كان وما يزال عليماً.

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣١٩٢).

وهو ما يفهمه المتأمل في آيات القرآن الكريم، ففي آيات سورة المائدة يخبر الله أنه يبتلي عباده بما حرم عليهم من الصيد ليعلم من يخافه بالغيب ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ (المائدة: ٩٤)، فهذا علم الوجود للفعل وتحققه، وهو العلم الذي يحاسب الله الخلائق به، ولا يمنع هذا ولا يتعارض مع علم الله المطلق الذي أثبته السياق نفسه: ﴿ **لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (المائدة: ٩٧).

ومثله في حديث الله عن المنافقين، فقد أخبر الله أنه يعلم ما في صدورهم، وأنه سيعلم أفعالهم التي تخبر بما في قلوبهم حين يفعلونها ﴿ **أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ (العنكبوت: ١٠-١١).

ومثله قول الله تعالى: ﴿ **وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، فهو عليم بضمائرهم، واختباره لهم ليس لزيادة علمه تبارك وتعالى، بل ليتحقق ما علمه بفعل العباد، فيجازيهم بموجب هذا العلم ، أي بموجب علمِه بما عملوا.

وقد سمى العلماء هذا العلم "علم المشاهدة"، أي مشاهدة أو رؤية ما علمه الله أزلاً، ثم تحقق فرآه ، ومن المعلوم أن الرؤية والعلم يترادفان في بعض الإطلاقات، كما في قوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ (المجادلة: ٧)، ومعناه: ألم تعلم، لذا قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ** ﴾ (الجن: ٢٨): "المعنى: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً"[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٩/ ٣١).

وفي شرح قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ ﴾ **(محمد: ٣١)** يقول ابن الجوزي: «العلم الذي هو علم وجود، وبه يقع الجزاء»(١).

وقال ابن تيمية: «عِلم الرب تبارك وتعالى لا يجوز أن يكون مستفاداً من شيء من الموجودات، فإن علمه من لوازم ذاته؛ فعلمُ العبد يفتقر إلى سبب يحدثه وإلى المعلوم الذي هو الرب تعالى أو بعض مخلوقاته، وعلم الرب لازم له من جهة أن نفسه مستلزمة للعلم والمعلوم: إما نفسه المقدسة وإما معلوماته التي علمها قبل خلقها ...».

ثم ذكر بعضاً من الآيات من جنس ما أورده الطاعنون في القرآن اليوم، وعقب بالقول: «هذا مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن الله عالم بما سيكون قبل أن يكون، وقد نص الأئمة على أن من أنكر العلم القديم فهو كافر»(٢).

وهكذا تبين فساد هذا القول وبطلانه بالدليل والبرهان.

لكن العجب في هذه الأبطولة صدورها ممن في كتبه مثل هذه المعاني من غير أن يستنكرها، فقد جاء في سفر التكوين أن الله قال لإبراهيم: « **لا تمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئًا، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني**» (التكوين ٢٢/ ١٢)، ومثله في سفر التثنية «**وتتذكر كل الطريق التي فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر؛ لكي يُذلّك ويجربك، ليعرف ما في قلبك؛ أتحفظ وصاياه أم لا؟**» (التثنية ٨/ ٢)، أفما كان أولى بهم أن يحملوا نصوص القرآن على المعاني التي يحملون عليها ما جاء في كتبهم؟ لكنهم قوم مبطلون.

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٤١١).

(٢) درء تعارض العقل مع النقل، ابن تيمية (٥/ ١٧٩).

سابعاً: هل شكّ القرآن في عدد قوم يونس عليه السلام؟

قالوا: شك القرآن في عدد قوم يونس حين قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧)، وهذا الشك - الذي يفيده حرف (أو) - يمنع نسبة القرآن إلى الله العليم الذي لا يخفى عليه عدد قوم يونس ولا غيرهم.

والجواب: الله بكل شيء عليم، ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما جهل المستشكل لهذه الآية لغة العرب، ذلك أن (أو) في لغة العرب تأتي على معاني[1]، فمنها ما هو للشك، كقولنا: جاء محمد أو زيد، ومنها ما يفيد التخيير، كقولنا: تعال اليوم أو غداً، ومنها ما يأتي بمعنى (و) أو (بل)، وهما معنيان متقاربان، وهو موضع الشاهد، ويلزمنا فيه بعض التفصيل.

تفيد (أو) معنى الواو، وهو كثير في لغة العرب، كما في قول الشاعر توبة بن الحمير:

وقد زعمت ليلى بأني فاجرٌ ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها

أي: وعليها فجورها.

ومثله قول أبي الأسود الدؤلي:

أُحب محمّداً حباً شديداً ... وعباساً وحمزة أو عليّاً

ويريد أنه يحب حمزة وعلياً؛ لا أنه متردد في محبته بينهما.

ومثله قول جرير وهو يمدح الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز:

نال الخلافة أو كانت له قدَراً ... كما أتى ربَّه موسى على قدَر

أي: نال الخلافة وقد كانت له قدَراً.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي (١/ ٢٠)، والجنى الداني في حروف المعاني، ابن أُمّ قَاسِم المرادي، ص (٢٢٧-٢٣٠)، وشرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، محمد الجوجري (٢/ ٨٠٨).

وهذا الاستخدام الشائع عند العرب لحرف (أو) بمعنى الواو[1] ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُوراً ﴾ (الإنسان: ٢٤)، أي: ولا تطع آثمًا وكفوراً ، وكذلك قوله: ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ (المرسلات: ٦)، أي: عذراً ونذراً، وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه: ٤٤)، أي: يتذكر ويخشى، وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ (طه: ١١٣)، أي: يتقون ويحدث لهم ذكراً ، وقوله: ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٤٦)، أي : وما اختلط بعظم.

وقد خرج العلماء قوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ على هذا المعنى الشائع عند العرب، أي: بمعنى الواو، فالمعنى: أن الله أرسل يونس إلى مائة ألف ويزيدون ، ونُقل ذلك عن بعض الصحابة والتابعين، كابن عباس والحسن وسعيد بن جبير، بل هو مروي عن النبي ﷺ ، فقد سأله أُبي بن كعب عن هذه الآية؟ فقال ﷺ: «**عشرون ألفًا**»[2]، أي: يزيدون عشرين ألفًا.

كما تأتي (أو) في لغة العرب بمعنى آخر قريب، وهو (بل) التي تفيد الإضراب الانتقالي كما أسماه إماما اللغة أبو علي الفارسي وابن جني، وغيرهما، واستشهدوا بقول جرير وهو يصف كثرة عياله :

ماذا ترى في عيال قد بَرِمْت بهم ... لم أُحصِ عدتهم إلا بعَدَّاد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية ... لولا رجاؤك قد قَتَّلْتُ أولادي

---

(١) انظر المزيد من الشواهد في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٣٢٢٩)، والطبري في تفسيره (٢١/ ١١٥)، وفيه رجل مبهم، فالحديث ضعيف.

ومثله قول ذي الرمة:

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشمس في رَوْنَق الضُّحَى وصورتِها أو أنتِ في العين أَمْلَحُ(١)

وتفيد (بل) معنى زائداً على (الواو)، وهو إثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عنه، ومعناه في البيت الأول أنهم ثمان وثمانون، وليسوا أقل من ذلك، وفي الثاني أن جمالها ليس بأقل من قرن الشمس، بل هي أجمل منها.

وهذا المعنى الفصيح والبليغ لـ (أو) ورد في القرآن مراراً، ومنه قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ (البقرة: ٧٤)، أي: بل هي أشد قسوة، وقوله: ﴿ **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** ﴾ (النساء: ٧٧)، أي: بل أشد خشية، وقوله عن قرب النبي ﷺ من جبريل: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾ (النجم: ٩)، أي: بل هو أدنى، وقوله: ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** ﴾ (النحل: ٧٧)، أي: بل هو أقرب، وقوله: ﴿ **فَاذْكُرُواْ الله كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً** ﴾ (البقرة: ٢٠٠)، أي: بل أشد ذكراً.

لذا لما سأل عبد الله بن سلام النبي ﷺ: على كم تفرقت بنو إسرائيل؟ أجابه ﷺ: «**على واحدة أو اثنتين وسبعين فرقة، وأمتي أيضـًا ستفترق مثلهم، أو يزيدون واحدة، كلها في النار إلا واحدة**»(٢).

وقوله: «**على واحدة أو اثنتين وسبعين فرقة**»، ليس للشك، بل المعنى: واحدة وسبعون لليهود، واثنتان وسبعون للنصارى، كما يفسره ﷺ في حديث عوف بن مالك عنه: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة .. وافترقت**

(١) مختار الصحاح، الرازي (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ح (١٨٦٧٥).

النصارى على اثنتين وسبعين فرقة».

وكذلك قوله ﷺ: «**وأمتي أيضـًا ستفترق مثلهم ، أو يزيدون واحدة**»، معناه: بل يزيدون واحدة، كما في قوله في حديث عوف السالف: «**والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** »[(١)].

ومال إلى هذا التوجيه ابن كثير بقوله في شرحه لآية سورة يونس: "أي: ليسوا أقل منها، بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به، لا شك ولا تردد ، فإن هذا ممتنع هاهنا"[(٢)].

وهكذا فإن القرآن ينص على أن عدد قوم يونس عليه السلام قد جاوز المائة ألف، فاستبان الأمر وبطلت الشبهة ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ (الفرقان: ٣٣).

***

---

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٣٩٩٢)، والطبراني في الكبير ح (١٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١٦).

الأباطيل المتعلقة بما في القرآن عن أنبياء الله تعالى

الأنبياء رسل الله إلى خلقه من الجن والإنس، وهم صفوته منهم، وحملة رسالاته ووحيه إليهم، اختارهم الله واصطفاهم لهذه المهمة الشريفة من بين سائر عباده ﴿ **وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (النمل: ٥٩)، فهم أبرُّ أهل الأرض، وأكرمهم، وأجلهم، عصمهم الله من الكفر، ونزههم عن مقارفة الكبائر بتوفيقه وهدايته ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ (يوسف: ٢٤)، فالرسول على قدر المرسِل.

لكنهم صلوات ربي وسلامه عليهم - رغم عصمة الله لهم من الكبائر والخسائس - فإنهم كسائر بني آدم، بشر يصيبون ويخطئون، وينالهم ما يصيب غيرهم من عوارض البشرية، وقد قال ﷺ: «**لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا، ما هم بخطيئة**». قال عبد الله بن عمرو راوي الحديث: أحسبه قال: «**ولا عملها** »[(١)]، وفي رواية ابن عباس، وفيها ضعف: «**ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا**»[(٢)]، فالحديث يفيد عصمة نبي الله يحيى دون سواه من الأنبياء عن الصغائر التي تجوز في حقهم، وكما قال ابن بطال فإن المسلمين "اختلفوا، هل يجوز وقوع الذنوب منهم؟ فأجمعت

---

(١) أخرجه البزار في مسنده ح (٢٣٥١)، وقال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله ثقات". مجمع الزوائد، الهيثمي (٨/ ١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٢٩٤)، وأبو يعلى ح (٢٥٤٤)، والطبراني في معجمه الكبير ح (١٢٩٣٣)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٦٤٧)، وقد ضعفه العلماء لأجل علي بن زيد، وهو ضعيف عند الجمهور. مجمع الزوائد، الهيثمي (٨/ ١٤٢).

الأمة على أنهم معصومون في الرسالة، وأنه لا تقع منهم الكبائر.. وقال أهل السنة: جائز وقوع الصغائر من الأنبياء"(١).

وقد ذكر القرآن الكريم وقوع بعض الأنبياء في صغائر الذنوب، وذكر استغفارهم الله وتوبتهم منها، ومنه قوله تعالى عن أبينا آدم: ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (طه:١٢١- ١٢٢)، وقوله على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ (الشعراء: ٨٢)، وقوله عن النبي ﷺ: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ (الفتح: ٢)، فهم بشر يخطئون، لكنهم – عليهم الصلاة والسلام- أعرف الناس بربهم، وأخوفهم له، وأسرعهم إليه توبة، وأقلهم مواقعة لمعصيته، فـ"الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا .. وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور [أي كانت نادرة]، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة"(٢).

وهذه الذنوب الصغائر يُغض عنها، فتطوى لندرتها ؛ فإنها تغور في بحور حسنات الأنبياء الذين سبقوا إلى الله بالعمل الصالح ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٠).

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٤٣٩)، وقد خالف الخوارج والمعتزلةُ أهلَ السنة والحق، فقالوا بعصمة الأنبياء عن الصغائر، كما شذَّ الرافضة حين ادعوا عصمة الأنبياء قبل النبوة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٢٥٥).

وإزاء هذا التصور الإسلامي لمقام النبوة تثور مفاهيم باطلة؛ يزعم أصحابها فيها أن القرآن أساء فيها إلى أنبياء الله الكرام، وانتقص من أقدارهم، والعجب كل العجب أن هذه الغيرة المزعومة على الأنبياء صدرت ممن تطفح كتبه بنسبة الكفر والكبائر من الذنوب والإثم إلى الأنبياء، ففي توراتهم التي يؤمن بها كل من اليهود والنصارى أن نوحاً عليه السلام سكر وظهرت عورته أمام أبنائه (انظر التكوين ٩/ ٢٥ - ٢٦)، وأن لوطاً أسكرته ابنتاه، وضاجعتاه، وأنجبتا منه (انظر التكوين ١٩/ ٣٠ - ٣٧)، وأن هارون عليه السلام صنع العجل الذهبي لبني إسرائيل ليعبدوه من دون الله (انظر الخروج ٣٢/ ٢-٤)، وأنه وأخاه موسى - عليهما السلام - خانا الله (انظر التثنية ٣٢/ ٥١)، ولم يؤمنا به (انظر العدد ٢٠/ ١٢).

ولا تخص التوراة النبي موسى بالأمر بقتل النساء والأطفال (انظر العدد ٣١/ ١٤ – ١٨)، بل تنسب هذا الفعل المريع الشنيع إلى وصيه النبي يوشع بن نون (انظر يشوع ٦/ ٢٠-٢٤) ، وإلى نبي الله داود الذي تزعم الأسفار أنه لم يكتف بقتل النساء والأطفال، بل عمد إلى نشر أعدائه الفلسطينيين بالمناشير، وحطم عظامهم بالفؤوس قبل أن يحرقهم في الأفران (انظر صموئيل (٢) ١٢/ ٣١) و(الأيام (١) ٢٠/ ٣).

وقد نال هذا النبيَّ الكريم الأواب (داود)، وابنَه الحكيم سليمان النصيبُ الأكبر من الجرح والسوء، فيذكر سفر صموئيل أنه رقص حتى تكشفت عورته أمام عبيده (انظر صموئيل (٢) ٦/ ١٤ - ٢٠)، وأنه قتل مائتين من الفلسطينيين، وقطع غُلُفهم ليقدمها مهراً لزوجته ميكال ابنة الملك شاول (انظر صموئيل (١) ١٨/ ٢٧)، وأنه حين تولى الملك ضاجع زوجة قائده أوريا، فحبلت منه، فدفع زوجها إلى الموت ليستر على فعلته (انظر صموئيل (٢) ١١/ ٢-٢٦).

وأما ابنه النبي الحكيم سليمان ؛ ففي التوراة - التي يؤمن بها الطاعنون في

القرآن الكريم - أن نساءه الوثنيات أملن قلبه إلى آلهتهن في شيخوخته ، فبنى معابد للأوثان ، لتُعبد فيها الأصنام من دون الله (انظر الملوك (١) ١١/ ٣-١١).

وهكذا ، سلسلة طويلة لا تنتهي من الإساءات إلى أنبياء الله تمتلئ بها صفحات كتب الطاعنين في القرآن، الذي يقابلها جميعاً بقول الله للنبي ﷺ عن هؤلاء الأنبياء: ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ولكن صدور تلك الإساءات إلى الأنبياء في كتب الطاعنين لن يكون كافياً في الذَّبِّ عن القرآن الكريم، بل لابد من التعرض بالتفصيل والشرح والبيان لحقيقة هذه الأباطيل.

أولاً: هل وقع آدم في الشرك؟

قالوا: القرآن ينسب الشرك إلى الأنبياء، فقد نسبه إلى آدم بقوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٩٠)، واستدلوا لذلك بما أورده المفسرون من حديث سمرة المرفوع إلى النبي ﷺ: «ولما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سميه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»(١)، قالوا: والحارث اسم الشيطان حين كان في الجنة.

والجواب: القرآن يثني على آدم عليه السلام أعظم الثناء وأزكاه ﴿ **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (آل عمران: ٣٣)، ويؤكد هدايته واصطفاء الله له بعد توبته من أكل الشجرة ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (طه: ١٢٢)، ولا يمكن لمن مدحه الله هذه المدحة أن يكون مشركاً بالله.

وأما ما ينقله المفسرون في كتبهم من روايات فيصدق فيها قول أبي حيان الأندلسي: "وذكروا في ذلك محاورات جرت بين إبليس وآدم وحواء لم تثبت في قرآن ولا حديث صحيح فأطرحت ذكرها"(٢)، وبمثل هذا يتشبث المنصفون في كل عصر وحين.

وقد أطبق العلماء على ضعف حديث سمرة الذي فيه أمر الشيطان لآدم بتسمية ابنه عبد الحارث، لأن في سنده الحسن يرويه عن سمرة بصيغة العنعنة،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٣٠٩)، والترمذي ح (٣٠٧٧).
(٢) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (٤/ ٤٣٧-٤٣٨).

وهو مدلس، فلا تقبل روايته إلا إذا صرح بالتحديث، قال الذهبي: «كان الحسن كثير التدليس ، فإذا قال في حديث : عن فلان ، ضعف احتجاجه»(١).

قال البيهقي: «أكثر الحفاظ لا يثبتون سماع الحسن البصري من سمرة في غير حديث العقيقة»(٢).

ولذلك حكم الألباني بضعف الحديث، وقال: « ضعيف .. وأعله ابن عدي في "الكامل" بتفرد عمر بن إبراهيم، وقال: وحديثه عن قتادة مضطرب»(٣)، واستدل لتضعيفه بما نقله ابن كثير من تفسير الحسن للآية، فقد جاء تفسيره مخالفًا للمروي عنه في هذا الأثر: «قال [أي الحسن]: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم ..عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده»، فقوله هذا مبطل لما روي عنه.

ثم عقب ابن كثير بقوله: « وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وَوَرَعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن مُنَبّه وغيرهما»(٤).

ولو فرضنا جدلاً صحة القصة التي تنسب إلى آدم ؛ فإن غاية ما تذكره القصة أن آدم وقع في شرك التسمية؛ حين سمي الولد "عبد الحارث"، ولكنه لم

---

(١) ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ٥٢٧).

(٢) السنن الكبرى ، البيهقي (٥/ ٢٨٨).

(٣) انظر: السلسة الضعيفة، الألباني ح (٣٤٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٦٣).

يقع في شرك العبادة، وبين النوعين فرق كبير، قال قتادة: «فأشركا في الاسم ، ولم يشركا في العبادة »[١].

وقال القرطبي في شرحه: «قال المفسرون: كان شركاً في التسمية والصفة، لا في العبادة والربوبية .. إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد، فسمياه به، كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له، لا على أن الضيف ربه، كما قال حاتم طيء:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما فيَّ إلا تيك من شيم العبد »[٢].

وبالعود إلى الآية المستشكلة في معناها فإن من العلماء من يرى أنها تتحدث إلى قريش، وأن الله خلقهم من نفس واحدة هي نفس أبيهم قصي بن كلاب، وأنها تعنفهم على ما وقعوا فيه من الشرك بعد ذلك[٣].

ولكن جمهور المفسرين يرون أن قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ مقصود به آدم وزوجه، ثم انتقلت الآية للحديث عن ذريته وما وقعوا فيه من الشرك بالأصنام، وهذا التفسير مشهور عند العلماء ، نقله المفسرون ومنهم ابن عجيبة بقوله: "﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا** ﴾ ولداً ﴿ **صَالِحاً** ﴾ كما سألا ، جعل

(١) جامع البيان، الطبري (١٣/ ٣١٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/ ٣٣٩)، وانظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٢٥٩)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٣/ ٣٠٣).

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٤/ ٤٣٦)، والكشاف، الزمخشري (٢/ ١٨٠- ١٨١).

أولادُهما ﴿ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك، ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك؛ لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يُعاتبُ المِلكُ الأب على ما فعل أولادهُ، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك"(١).

وهذا المعنى للآية منقول عن جملة من التابعين، منهم عكرمة القائل: «لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الناس بعد آدم»(٢)، ومنهم الحسن البصري الذي يقول: «كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم»، وكان يقول: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصروا»(٣).

ويرى المفسرون ومنهم البغوي في تفسيره أن في الآية محذوفاً في قوله: ﴿ جَعَلَا لَهُ ﴾: «راجع إلى جميع المشركين من ذريَّةِ آدم .. أي: جعل أولادهما له شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم؛ كما أضاف فعل الآباء إلى الأبْنَاءِ في تعييرهم بفعل الآباء فقال: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ (البقرة: ٥١)، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ (البقرة: ٧٢)، خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك الفعل من آبائهم»(٤).

والالتفات في الخطاب من آدم إلى بنيه من غير التنبيه على فصل في الحديث معهود في القرآن، وأمثلته كثيرة، ذكر السيوطي بعضها بعد أن نقل

(١) البحر المديد، ابن عجيبة (٢/ ٣٤٧).

(٢) ذكره سعيد بن منصور في سننه (٥/ ١٧٤).

(٣) جامع البيان، الطبري (١٣/ ٣١٥).

(٤) معالم التنزيل، البغوي (٣/ ٣١٤)، وانظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٣/ ٣٠٤)، والبحر المحيط، ابن حيان (٤/ ٤٣٦-٤٣٨)، والكشاف، الزمخشري (٢/ ١٨٠-١٨١)، ومفاتيح الغيب، الرازي (١٥/ ٨٧).

الآثار السابقة وغيرها من تفسير ابن أبي حاتم(١).

ومن صوره ما جاء في قصة آدم ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤)، فالحديث في أول الآية موضوعه آدم وحواء ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾، ثم انتقل بلا فصل للحديث عن ذريته ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾.

ومما يشهد لصحة هذا التأويل (الانتقال في الخطاب إلى بني آدم) ويدل عليه قوله تعالى في آخر السياق: ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩١) وما بعدها، فقد انتقل من الحديث عن الاثنين (آدم وحواء) إلى الحديث عن الجمع (ذريته).

والسياق أيضًا بيِّن وواضح في أن المقصود من الشرك عبادة الأصنام؛ لا عبادة الشيطان المذكورة في قصة آدم ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۞ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٢-١٩٤)، فهذا كله في عبادة الأصنام لا الشياطين.

ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾، فقوله ﴿مَا﴾ يبين أن المتحدث عنه مما لا يعقل، وهو الأصنام، ولو كان المتحدث عنه الشيطان

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤-١٦٣٥)، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي (١/ ٢٤٠).

لقال: (أيشركون من لا يخلق)[1].

ويدل على صحة هذا التأويل أيضـًا أن آدم في حديث الحشر يعتذر عن الشفاعة يوم القيامة متذرعـًا بذكر ذنبه الأكبر، فيقول: «**ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح**»[2]، فلو كان آدم وقع في الشرك لذكره في هذا الموطن، فهو أعظم من الأكل من الشجرة، وهو أدعى للاعتذار عنه في موطن الخوف والإقرار والبراءة من الذنب، ومحال أن يعتذر آدم عن الصغير ويغفل الكبير، فدل ذلك كله على براءة آدم من الوقوع في الشرك.

---

(١) انظر: تفسير مفاتيح الغيب، الرازي (١٥/ ٨٦)، ويجوز أن تستخدم (ما) للعاقل، لكن ما سقته هو الأغلب عند العرب.

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٣٤٠).

ثانياً: هل شك إبراهيم عليه السلام؟

قالـوا: القرآن أساء إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، حين اتهمه بالشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

كما نقل عنه أنه قال بربوبية الشمس والقمر: ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ** ﴾ (الأنعام: ٧٧-٧٨).

والجواب: أن إبراهيم عليه السلام – حسب القرآن – هو المثال الأعلى للمؤمنين ، فقد اصطفاه الله ﴿ **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (آل عمران: ٣٣)، وأمر جل وعزَّ بالتزام دينه ﴿ **قُلْ صَدَقَ الله فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (آل عمران: ٩٥)، فدينه أحسن الأديان ، وهو خليل الله ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ **(النساء: ١٢٥)** ، كما أمر القرآن بالتأسي به ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ** ﴾ (الممتحنة: ٤)، ففي هذه الآيات وغيرها من بيان فضل إبراهيم الخليل ما يقطع قول كل خطيب.

وأما الشك في الإيمان فهو منفي عن إبراهيم الخليل ﷺ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) ، فقد آمن عليه الصلاة والسلام بقدرة الله على الإحياء، وانعقد قلبه على ذلك،

وسؤاله لرؤية عملية الخلق فعل حسن أراد أن يترقى به في معارج الإيمان؛ بالانتقال من حال علم اليقين ، وهي حالة ذهنية متيقنة إلى حال عين اليقين، أي مشاهدته، فسؤاله طلب ليقين بعد يقين.

وقد نفى ﷺ الشك عن إبراهيم بقوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[1]، أي أنه منزه عنه كتنزيه النبي ﷺ عنه.

وأما قول الخليل عن الشمس والقمر أنها ربه؛ فكان من باب تبكيت الخصم وإقامة الحجة عليهم، فقد يقول المجادل ما لا يعتقده في إقامة الحجة والبرهان على مجادله ومناظره ، قال الرازي: "هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه".

وقوله عليه السلام عن الشمس والقمر والكوكب: ﴿ **هَذَا رَبِّي** ﴾ إنما هو نوع من التدرج في إبطال ربوبيتها بدليل قوله تعالى في السياق: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ** ﴾ (الأنعام: ٨٢).

وقد ذكر الرازي وجوهاً في توجيه قول إبراهيم عليه السلام منها " أنه ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبُعد طباعهم عن قبول الدلائل؛ أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب، مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئناً بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله، وتمام التقرير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقاً سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٢٧٢)، ومسلم ح (١٥١).

مأموراً بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر"(١).

وقال ابن تيمية: « قاله على سبيل التقرير، لتقريع قومه أو على سبيل الاستدلال والترقي»(٢)، وقال ابن القيم: «قيل: إنها على وجه إقامة الحجة على قومه، فتصور بصورة الموافق ليكون أدعى إلى القبول، ثم توسل بصورة الموافقة إلى إعلامهم بأنه لا يجوز أن يكون المعبود ناقصاً آفلاً »(٣)، فكل أحد يعلم أن الشمس ستغيب آخر النهار وكذلك الكوكب، وقوله: ﴿ **فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ (الأنعام: ٧٦)، ليس لطروء علم جديد على إبراهيم، بل لتبكيت المشركين عبدة الشمس والكواكب بعد إظهار الموافقة على سبيل الجدل والتنزل مع المخالف.

والعودة الفاحصة للآيات تكشف لكل حصيف ما تتضمنه الآيات من تعظيم إبراهيم لله عز وجل دون سواه: ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنعام ٧٧ -٨٣).

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (١٣/ ٤٠ -٤١).

(٢) دقائق التفسير، ابن تيمية (٢/ ١١٢).

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم (٣/ ٦١).

ثالثاً: هل شك يونس عليه السلام في قدرة الله؟

قالوا: القرآن يتهم النبي يونس بأنه شك في قدرة الله، وهذا كفر، فحين أرسله الله إلى أهل نينوى لم يذهب إليهم، وذهب إلى البحر ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

والجواب: أن القارئ لن يجد كتاباً عند أمة من الأمم يعظم الأنبياء كما عظمهم القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي ينزه الأنبياء عن الكبائر والنقائص، فضلاً عن الكفر والشرك بالله تعالى.

وقد فضل الله يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين: ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ **(الأنعام: ٨٦)**.

وإنما أُتي القائل لهذه الشبهة من سوء فهمه للآية، فليس مقصودها أن يونس ظن أنه معجز الله بهربه، بل المعنى أنه ظن أن الله لن يقدر عليه، أي لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته، فهي كقول الله تعالى: ﴿ **وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضُيِّق عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿**الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦)، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس رضي الله عنه وعن غيره من التابعين[١].

وحفاظًا على منزلة يونس بن متى في قلوب المؤمنين نهى النبي ﷺ عن تفضيل المرء نفسه على هذا النبي الكريم: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: إنه خير من يونس بن متى**»[٢]، وفي رواية: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى؛ فقد كذب**»[٣]، فثبت بذلك براءة القرآن من فرية الإساءة إلى يونس عليه السلام.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦٠٤).

رابعاً: همُّ يوسف عليه السلام

قالـوا: نسب القرآن إلى الصديق يوسف عليه السلام الهمَّ في الخطيئة مع زوجة العزيز ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ (يوسف: ٢٤)، وقالوا: تمتلئ كتب التفسير بصور مشينة لهذا الهمِّ الفاسد الذي لا يليق بنبي كريم.

والجواب: لو قرأ الطاعنون في القرآن تمام الآية المستشكَلة لأدركوا منزلة يوسف الصديق وعصمة الله إياه من الذنب: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ (يوسف: ٢٤).

وقد شهدت امرأة العزيز له بالخيرية والعصمة بقولها: ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ (يوسف: ٣٢).

ولئن همَّت امرأة العزيز بالفاحشة؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقع منه الهمُّ أصلاً؛ وهذا منطوق الآية لمن فهم لغة العرب وطرائقهم في البيان، فالآية تثبت لامرأة العزيز الهمَّ ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** ﴾، لكنها تنفي الهمَّ بالمعصية عن الصديق يوسف ﴿ **وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾، و (لولا) عند العرب تفيد امتناعاً لوجود ، أي لم يحصل الفعل لوجود ما منعه، فلم يتحقق الهمّ بالخطيئة لأنه رأى برهان ربه.

قال أبو حاتم : «كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن ، فلما أتيت على ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا** ﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير، كأنه قال: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها»[1].

ومثله في قول الله تعالى عن أم موسى: ﴿ **إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** ﴾ (القصص: ١٠)، فهي لم تبد لهم بحقيقة أمومتها لموسى؛ لأن الله

(١) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢٦).

ربط على قلبها، وكذلك لم يهم يوسف بالمعصية لأنه رأى برهان ربه.

ومثله أيضاً في قول الله لنبيه ﷺ: ﴿ **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٤)، فالركون لم يقع منه ﷺ لوجود التثبيت من الله ، وكذلك الهمُّ لم يقع من يوسف عليه السلام لوجود برهان الله أي تثبيته وعصمته.

ومثله في كلام الناس معروف: لقد رسبتُ لولا أني درست، فهو يفيد – في ذهن السامع – النجاح لا الرسوب، وأن ذلك سببه الدراسة.

قال أبو حيان: «والذي أختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله .. ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة ، وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين»(١).

ثم لو فرضنا وقوع الهمِّ بالفاحشة من الصديق يوسف؛ فإن الهمَّ في لغة العرب حديث النفس بمواقعة أمر، فإن كان الهمُّ في أمر حسن فهو حسن، وإن كان في أمر سوء لم يكن سوءاً إلا بترقي الهمِّ إلى العزم أو الفعل(٢) ، وإلا كان

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٢٩٤-٢٩٥)، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٢/ ٦٨٥).

(٢) الفعل على ست مراتب (الخاطر ثم الهاجس ثم حديث النفس ثم الهم ثم العزم ثم الفعل)، فأما الخاطر والهاجس وحديث النفس فلا يكتبون على العبد؛ لا في الخير، ولا في الشر، كما قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به» أخرجه مسلم ح (١٢٧)، وأما الهمُّ فلا يكتب في الشر بمجرد الهمِّ، ويكتب خيراً إن همَّ العبد بأمر الخير أو ترك همَّ السوء، وأما العزم فيكتب بالخير والشر؛ ولو لم يقع الفعل لعزم القلب عليه، ومنه قول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار»؛ فقلت [أي أبو بكرة رضي الله عنه راوي الحديث]: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» أخرجه البخاري ح (٣٧).

تركه لله سبباً في اكتساب الحسنات والمنزلة عند الله ، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه؛ حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف**»(١)، فلو وقع همٌّ بالسوء من يوسف فهو له حسنة، لأنه لم يترقَ إلى فعل، فقد تركه لله وخوفاً منه «**وإن تركها من أجلي، فاكتبوها له حسنة**».

وأخيراً فإن ما ورد في بعض كتب التفسير من أقوال في همِّ يوسف لم يصح منه شيء عن النبي ﷺ، وهي ومثلها من الإسرائيليات كثير في كتبهم التي لم تخلُ من أساطير أهل الكتاب وحكاياتهم؛ الغث منها والسمين، ورحم الله أبا حيان الأندلسي فقد أصاب وأجاد في قوله: «طوَّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّين ، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق .. وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً ، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين ، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة .. وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره ، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب ومساق الآيات»(٢).

وأما الشيخ ابن تيمية، فيرى أن هذه القصص المكذوبة المروية في كتب المسلمين من مرويات وقصص أهل الكتاب "وما ينقل من أنه حلَّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضّاً على يده وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر اللهُ به ولا رسولُه، وما لم يكن كذلك فإنما هو

(١) أخرجه البخاري ح (٧٥٠١)، ومسلم ح (١٢٩)، واللفظ للبخاري.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً"(١).

وهكذا يستبين لكل منصف براءة القرآن من المعاني الباطلة التي حاكها الأفاكون بجهلهم أو بتعاميهم عن معاني الآيات القرآنية التي تعتبر هؤلاء الأنبياء خيرة الله في أرضه، كيف لا! وهم رسل الله الأطهار ﴿ **وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** ﴾ (ص: ٤٧).

***

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٠/ ٢٩٧).

الأباطيل المتعلقة بشخص النبي ﷺ

أولاً: قصة الغرانيق

قالوا: النبي [ﷺ] يعرض له الشيطان كما يعرض لغيره من الناس، فيختلط عليه القرآن بغيره، واستدلوا لهذه الفرية بقصة الغرانيق التي أوردها المفسرون في سياق تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الحج: ٥٢).

والقصة - كما ذكرها المفسرون - تتلخص في أن النبي ﷺ كان في مجلس قريش، فنزلت عليه سورة النجم، فقرأها على المشركين حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى** ﴾ (النجم: ١٩-٢٠)، فألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لتُرتَجى).

ففرحت قريش، وسجدوا مع النبي ﷺ في آخرها، وقالوا: لقد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر[1].

والجواب: أول ما يجدر التنبيه عليه أن ورود هذه الروايات في كتب المفسرين أو قصاص السير لا يعني صحتها ولا توثيقها بحال من الأحوال، وقد نبه على ذلك غير واحد من العلماء، ومنهم الطبري في تاريخه بقوله: «ما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أُتِي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري (١٨/ ٦٦٤-٦٧٠).

ذلك على نحو ما أُدِي إلينا»[١]، ومثله قول الكمال ابن الهُمام: «كتب التفسير مشحونة بالأحاديث الموضوعة»[٢].

وممن أورد هذه القصة ابن إسحاق في سيرته[٣]، مع اعتقاده ببطلانها، وعنه نقلها من نقل، يقول أبو حيان: «سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية ، فقال: هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتاباً»[٤] ، فإيراده رحمه الله هذه الروايات في كتابه ليس توثيقاً لها، بل هو على عادة قصاص السير في جمع الأخبار وترك التحري في السير وقصصها.

وإن قصة الغرانيق من أضعف ما رواه المفسرون في تفاسيرهم ، فجميع أسانيدها ضعيفة أو منقطعة، وهي في جملتها موقوفة على جماعة من التابعين الذين لم يشهدوا القصة، ولم يرووها عمن حضرها من الصحابة، فهي موقوفة على التابعين سعيد بن جبير وقتادة وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبي العالية، وكلهم لم يحضر القصة، لا بل ولد معظمهم بعد القصة بخمسين سنة.

ولم تتصل أسانيد هذه القصة إلى الصحابة إلا فيما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس [٥] الذي هو أيضاً لم يحضر الواقعة، فقد ولد بعدها

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري (١/ ٢).

(٢) فيض القدير، الشوكاني (١/ ١٧).

(٣) السيرة النبوية، ابن إسحاق، ص (١٧٧).

(٤) البحر المحيط، أبو حيان (٦/ ٣٥٢).

(٥) وفيه هشام الكلبي ، وهو كذاب مردود الرواية، قال البخاري: "أبو النضر الكلبي، تركه يحيى وابن مهدي"، ثم قال: "قال علي: حدثنا يحيى، عن سفيان، قال لي الكلبي: كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب".

وقال ابن عدي: "وقد حدث عن الكلبي سفيان وشعبة وجماعة، ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فعنده مناكير، وخاصة إذا روى عن أبي صالح، عن ابن عباس". انظر ميزان الاعتدال،

بخمس سنين ، وما رواه البزار من طريق أمية بن خالد بإسناده إلى ابن عباس مع تنبيهه إلى شك الراوي في رفعها إلى ابن عباس، فقال: «عن ابن عباس فيما أحسب»، وهذا كما قال البزار: «هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير»(١). فهذا يؤكد الشك في الرواية المرفوعة المسندة بإسناد مقبول.

ويجدر بالذكر أن البخاري ذكر في صحيحه من رواية ابن عباس قصة سجود المشركين ولم يذكر شيئاً عن موضوع الغرانيق(٢)، ومثله في رواية أبي داود عن ابن مسعود، وكذلك رواية أحمد عن المطلب بن أبي وداعة السهمي، وكان ممن حضر يومئذ مع المشركين(٣).

وقد رد المحققون من أهل العلم قصة الغرانيق، وبالغوا في التحذير من رواياتها وبيان ضعفها، قال ابن كثير: «لم أرها مسندة من وجه صحيح»، وقال: «وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات ».

وقال ابن خزيمة: «إنها من وضع الزنادقة».

الذهبي (٣/ ٥٥٧-٥٥٨)، وهذا الأثر مما أخرجه الكلبي عن أبي صالح، فهو بعض ما اعترف الكلبي بكذبه فيه.

(١) نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، الألباني ، ص (٥٦)، وأمية بن خالد مختلف في توثيقه، فقد ذكره العقيلي في الضعفاء، ونقل عن الإمام أحمد أنه: «لم يحمده في الحديث، وقال: إنما كان يحدِّث من حفظه، لا يخرج كتاباً» الضعفاء الكبير، العقيلي (١/ ١٢٩).

(٢) في البخاري من رواية ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . أخرجه البخاري ح (١٠٧١).

(٣) انظر: سنن أبي داود ح (١٤٠٦)، ومسند أحمد ح (٢٦٧٠١).

وقال أبو حيان الأندلسي: «قال البيهقي: هي غير ثابتة من جهة النقل، وقال ما معناه: إن رواتها مطعون عليهم وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثة شيء مما ذكروه فوجب اطّراحه. ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه».

وأما القرطبي فقال: «الأحاديث المروية في نزول هذه الآية، وليس منها شيء يصح ... وضعف الحديث مُغنٍ عن كل تأويل».

وكذلك ضعفها ابن حزم بقوله: «والحديث الذي فيه: وإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترجى. فكذب بحت لم يصلح من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد»(١).

وقال القاضي عياض: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم»(٢).

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/ ٨٠، ٨٤)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٣١٨)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة (٣١٤)، ونصب المجانيق لإبطال قصة الغرانيق، محمد ناصر الدين الألباني، ص (٤٤-٤٧)، والبحر المحيط، أبو حيان (٦/ ٣٥٢).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٢٥)، وقد حسَّن ابن حجر روايات قصة الغرانيق رغم اعترافه بأن أسانيدها مرسلة، واحتج لتحسينه بتعدد مخارجها، لكنه مع ذلك لا يقول بما يقول به المرجفون بهذه القصة من نطق النبي ﷺ بهذه الكلمات، بل يتأولها على أن الشيطان كان يتكلم بين سكتات النبي ﷺ، واستدل لذلك بما جاء في رواية ابن أبي حاتم من سماع المشركين لهذه الكلمات وعدم سماع المسلمين لها «فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التي ألقى الشيطان في مسامع المشركين». انظر: فتح الباري، ابن حجر (٨/ ٤٣٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠١).
وقد رد العلامة الألباني تحسين ابن حجر لهذه الروايات واعتبرها من أوهامه رحمه الله. انظر: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، الألباني، ص (٣٧)، وكذلك فعل المحدث أحمد شاكر

قال الرازي: «وأما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة وموضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول»(١).

وإضافة إلى الضعف الذي يكتنف سند القصة؛ فإن في متونها من التناقض والخلل ما يكفي لردها وإبطال الشبهة المثارة من خلالها، ومن ذلك:

١ - ما نبه العلماء عليه من تعارض روايات قصة الغرانيق الضعيفة وغير المتصلة بالإسناد إلى من حضر الواقعة، يقول القاضي بكر بن العلاء المالكي: «لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر

فقال: «حاول أن يدعي أن للقصة أصلاً، لتعدد طرقها، وإن كانت مرسلة أو واهية، وقد أخطأ في ذلك خطأ لا نرضاه له، ولكل عالم زلة» تحقيق أحمد شاكر لجامع الترمذي (٢/ ٤٥٦).

وقد فهم ابن حجر من قوله تعالى: ﴿ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أنه بمعنى: عند تلاوته، أي ألقى الشيطان في مسامع الكفار تلك الكلمات عند تلاوة النبي ﷺ وفي سكتاته، وهذا تحتمله لغة العرب، لأن (في) تأتي بمعنى: (عند)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨)، أي لبثت عندنا.

وإلى هذا أشار القرطبي ورتبه: «على تسليم الحديث لو صح، وقد أعاذنا الله من صحته .. الذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه [أي إذا سلمنا بصحة الرواية، وليست بصحيحة] أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، كما أخرجه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكياً نغمة النبي ﷺ؛ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه، فيكون ما روي من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وبسبب هذه الفتنة». الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/ ٨٣).

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٣/ ٥٠).

يقول قالها وقد أصابته سِنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فيها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: والله ما هكذا نزلت، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة»(١).

قال الباقلاني: «وهذا الخبر من أخبار الآحاد، مضطرب الرواية، مختلف الألفاظ»(٢).

٢- أن العرب لا تطلق كلمة (الغرنوق) على الأصنام، بل هو اسم لطائر مائي أبيض أو أسود، وفي ذلك يقول الأصمعي:

يظلّ تغنّيه الغرانيق فوقه ... آباء وغيلٌ فوقه متآصر(٣)

ومثله قول ابن السكيت: الغرانيق: طير مثل الكراكي، الواحد غرنوق، وأنشد:

أو طعم غاديةٍ في جَوفِ ذِي حَدَبٍ ... من ساكن المُزْن يجري في الغَرَانيق(٤)

ومن معاني الغرنوق المذكورة في قواميس العرب: الشاب الأبيض الناعم، ومنه قول الليث:

ألا إنَّ تَطْلابِي لمثلك زَلـةٌ ... وقد فات ريعانُ الشباب الغُرانِقِ

كما يطلق في لغة العرب أيضـًا على النبات اللين(٥).

ولا تشابه بين سائر هذه المعاني العربية والأصنام، وغاية ما وجدته في هذا الصدد ما نقله الزبيدي بصيغة التمريض والتضعيف، وهو قوله: «وقيل: هو

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٢٥).

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (٣٠٨).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده الأندلسي (٦/ ٧٢-٧٣).

(٤) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (٨/ ٢٢٤).

(٥) لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٢٨٦)، وتاج العروس، الزبيدي (٧/ ٣٥)، وانظر: السيرة النبوية، أبو شهبة (١/ ٣٦٧).

الكركي، شبهت الأصنام بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء على حسب زعمهم»[١].

ونقل المفسرون عن الحسن أن المقصود بالغرانيق العلى؛ الملائكة المرتفعة في السماء ، وهؤلاء ترتجى شفاعتهم، إذ هم ممن أذن الله لهم في الشفاعة ، كما جاء في السياق القرآني في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿**وكم من ملكٍ في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ (النجم: ٢٦).

٣- أن السياق القرآني في سورة النجم التي ذكروا أن هذه الكلمات ألقيت على النبي ﷺ فيها يندد بأصنام المشركين ومعبوداتهم ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ (النجم: ١٩-٢٣)، فلو كان النبي ﷺ نطق بتلك الكلمات فإن في السياق ما يبين براءته من الأصنام وكفره بها، فلو كان المشركون سمعوا من النبي ﷺ مدحًا لأصنامهم وهو يقرأ آيات سورة النجم المشنعة على هذه المعبودات الباطلة لقالوا له: ما بالك تشتم آلهتنا وتذكر أنها معبودات باطلة نعبدها نحن وآباؤنا من غير سلطان من الله، ثم أنت تقول: شفاعتهن ترتجى! لكن شيئًا من ذلك لم يكن، لأن القصة مختلقة وغير صحيحة.

يقول القاضي عياض: « استحالة هذه القصة نظراً وعرفًا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من

---

(١) تاج العروس، الزبيدي (٧/ ٣٥).

المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه»(١).

٤- لا علاقة بين أسطورة الغرانيق المكية وآيات سورة الحج المدنية، والتي ورد فيها قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الحج: ٥٢)، فقد ربط بينهما من وصفهم القاضي عياض بأنهم «المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم»(٢).

ولو أغمضنا الطرف عن مدنية سورة الحج ومباينتها للأسطورة المكية؛ فإن في تمام آيات سورة الحج ما يرد على القادحين بوحي القرآن، ففي تمام الآية السابقة أن الله يحفظ آياته ويحكمها؛ وأنه يبطل عنها ما يلقيه الشيطان ﴿ **فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الحج: ٥٢)، فبإحكام الله لآياته يزول كل لبس وتنجلي كل شبهة إلا عند أصحاب القلوب المريضة الذين تصور الآيات افتتانهم بهذا الذي ألقاه الشيطان وأبطله الله ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الحج: ٥٣-٥٤).

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٢٧)، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٤٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٢٥).

٥- تتعارض روايات الغرانيق مع عصمة الله أنبياءه عليهم السلام من تسلط الشيطان عليهم وتخليط باطله بالوحي المنزل إليهم، فالله يثبت أنبياءه عليهم السلام ويمنعهم مما يعرض لغيرهم من عوارض الضعف البشري الذي يخل بمنصب النبوة والرسالة، ومن مثل ذلك قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** ﴾ (الإسراء: ٧٣-٧٥)، فتثبيت الله تعالى له نفى عنه المقاربة والميل إلى الكافرين.

وقد امتن الله على نبيه ﷺ بهذه العصمة الإلهية، فهي بعض فضل الله عليه ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ (النساء: ١١٣).

يقول القاضي عياض: «قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً - وذلك كفر - أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله»(١).

وثمة سؤال يطرح نفسه: إذا بطلت قصة الغرانيق وظهر خطأ المعنى الذي تداوله المفسرون فما معنى الآية التي في سورة الحج ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٢٦).

ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢)؟.

وفي الإجابة نقول: إن معنى الآية يدور على فهم معنى قوله تعالى: ﴿**إذا تمنى**﴾، وقد ذكر جمهور المفسرين أنه بمعنى (قرأ) أو (تلا)، وهذا التأول للتمني بمعنى التلاوة جائز من الناحية اللغوية[1]، ويتساوق مع روايات الغرانيق الضعيفة التي أوردوها في كتبهم، وقد يشهد له قوله: ﴿ **ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ** ﴾.

لكن إذا تجاوزنا إيحاءات روايات الغرانيق، فإن إفساد الشيطان لتلاوة النبي ﷺ إنما هو «ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده»، وهذا هو « الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين»[2].

لكن المعنى الذي اختاره جماعة من المحققين أن قوله: ﴿**إِذَا تَمَنَّى**﴾ على ظاهره، من الأُمنية كما ذهب إليه الفراء والكسائي وغيرهما[3].

---

(١) يتشكك ابن عاشور في تفسيره بصحة تفسير: ﴿تمنى﴾ ، بمعنى: التلاوة، ويتشكك في صحة ما اعتمد عليه متأولوها، وهو البيت المنسوب لحسان بن ثابت في رثاء عثمان رضي الله عنهما؛ على اختلاف في عجزه:

تمنى كتاب الله أول لَيْلِهِ وآخره لاقى حمام المقادر

وأما الشيخ الشعراوي فيرى خطأ ظاهراً في الحيدة عن المعنى المشهور للتمني، وهو من الأمنية التي تتلجلج في الصدر، إلى معنى التلاوة، ويراه معنى غريباً لا يصار إليه إلا بدليل، ويرى أن الأولى هو تفسيرها بالأمنية، لأن النبي يتمنى، ولا يتلو كتاباً، بينما الآية تقول: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى** ﴾ (الحج: ٥٢). انظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٧/ ٢٩٩)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٧٣) .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي (٥/ ٧٩٨).

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٦٦٠).

قال الرازي بعد أن ذكر ارتباط معنى التمني بالتلاوة بسبب روايات الغرانيق الباطلة: «وأما إذا فسرناها [أي قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾] بالخاطر وتمني القلب؛ فالمعنى أن النبي ﷺ متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور؛ يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي؛ ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته»(١)، والمعني بالأمنية التي ألقى فيها الشيطان ما نقله الشوكاني: «قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية: أنه لما شقّ عليه ﷺ إعراض قومه عنه تمنّى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم»(٢)، فأحكم الله آياته وأنزل ما كان يحذره الشيطان من ذكر أصنام قريش بالسوء، ولو أدى ذلك إلى نفورهم، فإن الهادي هو الله تعالى.

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٣/ ٥٢).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٤٦١).

ثانياً: سحر النبي ﷺ

قالوا: تعرض النبي [ﷺ] للسحر، وهذا يلقي بظلال الشك على ما أتى به من أخبار، إذ قد يكون بعض ما يقرأه على أنه من القرآن إنما هو من تأثير السحر، وهذا يوجب الشك في كل القرآن.

وقالوا: إن سحر النبي يدل على تسلط الشيطان عليه، وهذا يقدح في أهلية الرسول لحمل الرسالة الإلهية، فالقرآن يجزم أن الشيطان لا يتسلط إلا على أوليائه: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ (النحل: ٩٩-١٠٠).

وفي الجواب نقول: إن الأنبياء بشر ، يعرض لهم ما يعرض لسائر البشر من مرض وهم وحزن وغضب وابتلاء وقتل، ولا يمتازون عنهم إلا بما خصهم الله من الوحي وما يستلزمه ذلك من تأييد بالحجة والبرهان ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ (فصلت: ٦).

وقد تعرض الأنبياء لصنوف البلاء التي صبها عليهم شياطين الإنس والجن ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ (الأنعام: ١١٢)، لكن هذا التسلط الشيطاني لم يجاوز أجسادهم، ولم يصل - لعصمة الله لهم- إلى أرواحهم؛ لأنهم أولياء الله تبارك وتعالى يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ (الحجر: ٤٢)، فلم يقع منهم كبير ذنب ولا قبيحه، لأنهم رسل الله، والرسول على قدر المرسِل.

ووفق هذا المبدأ يرفض المسلمون ما تطفح به كتب أهل الكتاب من اتهام الأنبياء بالزنا أو السكر أو عبادة الأصنام ، فهذا كله إنما يقع بتسلط الشيطان،

وهم معصومون منه بقوة الله وحفظه.

وكذلك كان نبينا ﷺ، فلم يتسلط شيطان عليه، ولم تقع منه القبائح قبل السحر ولا بعده، وغاية الأمر في حادثة سحره ﷺ أن الشيطان آذاه في جسده، كما تؤذيه – وإخوانه الأنبياء – شياطينُ الإنس، بل والجراثيم، فيصاب بالأمراض والأذى وغيرهما من العوارض التي لا يسلم منها بشر، لكن ذلك لا يخلُّ – بحال من الأحوال – بأهليته للرسالة وعصمته عن الخطأ في البلاغ عن الله، فما ينقله النبي ﷺ عن ربه ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ (النجم: ٣-٤).

ولهذا كان عبد الله بن عمرو يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله ﷺ ليحفظه، فنهته قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ يقول عبد الله: فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه فقال: «**اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق**»[١]، فهو ﷺ معصوم في كل أحواله من الزلل والغلط.

والسحر على أنواع بعضها دون بعض، ومن أنواعه سحر التخييل، حيث يتخيل المسحور أنه فعل شيئاً من غير أن يكون قد فعله حقيقة، كما وقع لموسى عليه السلام حين ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم ﴿ **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** ﴾ (طه: ٦٦).

وهذا النوع من السحر هو ما أصاب النبي ﷺ حين سُحر، وقد انحصر أثره في علاقة النبي ﷺ الجسدية مع أزواجه، فكان يخيل إليه أنه يجامع نساءه من غير أن يكون ذلك حقيقة، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (**مكث النبي ﷺ كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله، ولا يأتي**)[٢]، قال القاضي عياض: «فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه؛ لا على تمييزه

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٦٤٦).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٢٦٨).

ومعتقده»[١].

ويجدر التنبيه هنا إلى أنه لا يلزم من تخيله ﷺ أنه فعل الشيء الذي لم يفعله أن يجزم بتخييله ذاك، فقد يكون تخييله من جنس الخاطر الذي يخطر على باله ولا يثبت[٢]، وهو أمر قد يحصل لأي أحد من غير سحر ولا نفث عقد.

وقد اعتبرت الملائكة ما أصاب النبي ﷺ من السحر من جنس المرض الذي يصيب الأنبياء وغيرهم، فقال «**أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟**» فاعتبراه مريضاً، وكذلك اعتبره النبيُّ ﷺ، فقد قال في آخر الحديث: « **فأما أنا فقد شفاني الله**»[٣]، وفي رواية: «**إن الله أنبأني بمرضي**»، وكذلك ورد في حديث عائشة قولُها: (**فكان يدور ولا يدري ما وجعه**)[٤]، وقال ابن عباس: (**مرض النبي ﷺ، وأُخذ عن النساء والطعام والشراب**)[٥].

وفي قصة سحره ﷺ فوائد، منها: قطع ذرائع الغلو في شخصه ﷺ، والإيمان أنه بشر كسائر البشر ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ (الإسراء: ٩٣).

ومنها الدلالة على نبوته ﷺ[٦]، فقد قالت أخت الساحر لبيد: "إن يكن نبيـاً فسيُخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله"[٧]، وقد كانت الأُولى حين أخبر، ثم شفي لما أنزل الله عليه المعوذتين.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٧)، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (٢/ ١٧٦).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣٢٦٨).

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٥) انظر: ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٩٨)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٤٨) وأضواء البيان، الشنقيطي (٤/ ١٣٠).

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٧)، ولأجل ذلك أورد البيهقي قصة سحر النبي ﷺ في كتابه "دلائل النبوة".

(٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات ح (٢/ ١٩٨)، وهو مرسل.

ثالثاً: هل النبي ﷺ مصاب بالصرع؟

قالوا: النبي ﷺ مصاب بالصرع، وهذا الذي يأتيه فيزعم أنه من الوحي إنما هو بعض آثار هذا المرض، واحتجوا لذلك بما كان يرافق النبي ﷺ من أحوال غير معتادة، وقعت له ﷺ بسبب ثقل الوحي عليه.

والجواب: لكم يعجب المرء لهذه الأُبطولة، فلئن أنكر القوم نبوته ﷺ أفتراهم ينكرون أنه غيَّر واقع العرب من قبائل متناحرة؛ لا حظ لها بالعلم والمعرفة والمدنية فأقام منهم أمة قادت الحضارة الإنسانية ثمانية قرون!؟ أم تراهم ينكرون ما قدمه ﷺ من إصلاح اجتماعي وأخلاقي جعل المسلمين أفضل الأمم أخلاقاً وأحسنهم أوضاعاً من الناحية الاجتماعية!؟ أفيصنع هذا مريض بالصرع يحتاج من يعينه على تدبر أمره وإصلاح حاجاته الشخصية!؟ ﴿**فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً**﴾ (النساء: ٧٨).

لقد صدق المستشرق نورمان في شهادته التي تنبئ عن عقل ودراية بأحوال الأمم وتطور الشعوب، حيث يقول: «لو كان محمد يعاني منذ طفولته من مرض عضال حقاً، لما تخلى عن تلك الذريعة أبداً، بل من غير المعقول أن ينجز رجل مريض ما أنجز محمد، فقد كان تاجراً موهوباً هادئ الطبع، وقراراته عادة ما تصدر عن غريزة سياسية ذكية متبصرة .. وكان قائداً بعيد النظر للدولة ولمجتمع ديني نام على حد سواء، وهذه كلها تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان سليماً معافى .. والذين يقولون بهذا الكلام لم يحلُّوا المشكلة بقدر ما زادوها تعقيداً، ويجب أن يساورنا الشك مستقبلاً في إمكانية أي ظاهرة خلل في سلوك محمد»[1].

(١) انظر: المستشرقون والقرآن، عمر لطفي العالم، ص (٥٠)، نقلاً عن رسالة دكتوراه "القرآن الكريم في مواقع الإنترنت العربية دراسة تحليلية نقدية"، عبد الرحيم الشريف [كتاب إلكتروني].

ويقول المستشرق الألماني الطبيب ماكس مايرهوف: «أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره، ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول»(١).

ثم إن الصرع مرض معروفة أعراضه، كاصفرار الوجه، وذهول العقل، وغياب الذاكرة، وارتعاش الجسد، وفقدان السيطرة على الجسم، وغالباً ما يصحبه تقيؤ وإفرازات لعابية، وقد يصحبه تبول لا إرادي، وغير ذلك مما نعرفه من أحوال المصروعين، فهل كان شأنه ﷺ حال الوحي كحال المصروعين؟

للوقوف على جواب السؤال ومعرفة حقيقة ما يرافق الوحي من أحوال؛ فإننا يمكننا رصد عدة مظاهر:

١ - يُسمع صوت أزيز بجوار أذنه، ثم ينفصل عنه وقد وعى ما أوحي إليه، يقول ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال**»(٢)، ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل)(٣).

٢ - يصيبه تعرق شديد حتى في الليلة الباردة، تقول عائشة: (فلقد رأيت رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه؛ وإن جبينه ليتفصد عرقاً)(٤).

٣- تغشاه السكينة ويطرِق برأسه إلى الأرض، فأما غشيان السكينة عليه

---

(١) انظر: الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، أحمد بوطامي، ص (٦٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٢).
(٣) أخرجه الترمذي ح (٣١٧٣)، وأحمد ح (٢٢٤).
(٤) أخرجه البخاري ح (٢).

فيخبر به زيد بن ثابت بقوله: (إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ يوماً إذ أوحي إليه، وغشيته السكينة، ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة)(١).

وأما إطراقه إلى الأرض ففي قول ابن عباس: (كان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله)(٢)، أي وعده الله أن يمكنه في قلبه ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ (القيامة: ١٦-١٧)، ويقول عبادة بن الصامت: (كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي؛ نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم)(٣).

٤- يحمر وجهه كأنه غضب، ففي حديث عبادة بن الصامت قال: (كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك، وتربد وجهه)(٤) أي تغير لونه، وفي حديث يعلى بن أمية: فإذا النبي ﷺ محمر الوجه كذلك ساعة، ثم سري عنه)(٥).

ولما ذكرت أم المؤمنين عائشة غضب رسول الله ﷺ ، قالت: (فتمعر وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي)(٦).

٥- يسمع له ﷺ غطيط ، فإذا سري عنه أخبر بما أوحي إليه، يقول يعلى بن أمية: فنظرت إليه له غطيط .. فلما سري عنه قال: «**أين السائل عن العمرة؟ اخلع عنك الجبة، واغسل أثر الخلوق عنك، وأنق الصفرة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك**»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢١١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٢٩)، ومسلم ح (٤٤٨).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٣٣٥).

(٤) أخرجه مسلم ح (٢٣٣٤).

(٥) أخرجه أحمد ح (١٧٤٨٨).

(٦) أخرجه أحمد ح (٢٤٦٤٥).

(٧) أخرجه البخاري ح (١٧٨٩)، ومسلم ح (١١٨٠).

٦- يثقل وزنه ، يقول زيد بن ثابت: (فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي)[١].

ويقول عبد الله بن عمرو : (أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها)[٢].

وتقول أم المؤمنين عائشة : (إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها)[٣].

وأما أسماء بنت يزيد فتقول: (إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ أنزلت عليه المائدة كلها؛ فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة)[٤].

وهذه الأحوال المنقولة عن النبي ﷺ هي على خلاف ما نعرفه من أحوال المصروعين ، وسببها ثقل الوحي النازل عليه ﷺ : ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ (المزمل: ٥)، فالوحي هو حالة فريدة لا يعرفها إلا الأنبياء، والموحى به هو كلام الرب الذي ذلت لعظمته الرقاب.

وهذه الحال لم يتفرد بها النبي ﷺ، بل أصابت من سبقه من الأنبياء، يقول الأب متى المسكين: «الغيبوبة أو اختطاف العقل أو الجذب الروحي عند الأنبياء .. هكذا وصف آباء الكنيسة الأولون حالة الذهن عند الأنبياء .. حيث يكون الوعي بالنفس مغلقاً نوعاً ما، حيث يكون عقل النبي خارج الحدود الطبيعية، ومرتفعاً لمنطقة الإلهام والوعي الفائق للعقل .. والشخص يكون في

(١) أخرجه البخاري ح (٢٨٣٢).

(٢) أخرجه أحمد ح (٦٦٠٥).

(٣) أخرجه أحمد ح (٢٤٣٤٧).

(٤) أخرجه أحمد ح (٢٧٠٢٨).

حالة شبه غيبوبة؛ ليستطيع أن يطلع على ما هو فوق العقل»(١).

وضرب الأب المسكين أمثلة لهذه الغيبوبة من الكتاب المقدس، ونكتفي بذكر ثلاثة مواضع من الكتاب المقدس تتحدث عن أحوال الأنبياء عند الوحي؛ وإن كنا لا نسلم بنبوة بعضهم ، وأولها ما جاء عن بولس (الرسول)، حيث يقول: «**وحدث لي بعد ما رجعت إلى أورشليم، وكنتُ أصلّي في الهيكل أني حصلت في غيبة، فرأيته قائلاً لي: أسرع واخرج عاجلاً من أورشليم، لأنهم لا يقبلون شهادتك عني**» (أعمال ٢٢/ ١٧-١٨)، فبولس يتحدث عن غيبة حصلت له وهو يوحى إليه حسب زعمه.

وفي سفر دانيال يحكي النبي دانيال عن الأثر الكبير الذي تركه الوحي عليه: «**فبقيت أنا وحدي، ورأيت هذه الرؤيا العظيمة، ولم تبق فيّ قوة، ونضارتي تحولت فيّ إلى فساد، ولم أضبط قوة، وسمعت صوت كلامه، ولما سمعت صوت كلامه كنت مسبّخًا على وجهي، ووجهي إلى الأرض، وإذ بيد لمستني وأقامتني مرتجفًا على ركبتيّ وعلى كفيّ يديّ**» (دانيال ١٠/ ٧-١٠).

ومثله في قوله: «**أنا دانيال ضعفتُ ونحلت أيامًا، ثم قمت وباشرت أعمال الملك، وكنت متحيّراً من الرؤيا ولا فاهم**» (دانيال ٨/ ٢٧).

إن تهمة الإصابة بالصرع لم تصدر عن واحد من معاصريه ﷺ رغم استحكام العداء بينهم وبينه، ورغم حرصهم على تلفيق الكاذب من التُّهم كاتهامه ﷺ بالسحر والجنون وقول الشعر، لكن لم يتهموه بالصرع أبداً، فدل ذلك على أن الأمر لا يعدو أن يكون أبطولة من نسج خيال المبطلين المتأخرين.

إن أحداً من العقلاء لن يقبل فكرة أن هذا الرجل الذي أنشأ الأمة التي قادت الحضارة الإنسانية كان مريضًا، ولسوف يصبح مضحكة للصغار قبل الكبار حين

(١) النبوة والأنبياء، الأب متى المسكين، ص (١٥-١٧).

يقول: إن هذا القرآن العظيم ببيانه وإعجازه وأسلوبه كان نتيجة وأثراً لمرض عضال.

وهكذا تبين براءة شخص النبي ﷺ مما يقوله الأفاكون عنه، وأن ما يقولونه لا يعدو ما قاله إخوانهم في الإفك من كفار قريش ، حين رموه بالجنون والكهانة والشعر، حسداً منهم لشخصه ﷺ ونبوته.

القرآن والمسيحية

أولاً : القرآن وألوهية المسيح

قالوا: القرآن وافق المسيحية في معتقداتها وبخاصة تأليه المسيح، فقد ذكر بأنه كلمة الله وروحه: ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ (النساء: ١٧١)، فهذا عين ما يقوله النصارى عنه، فكلمة الله ليست مخلوقة، بل هي كلمة أزلية، وكذلك روحه هي حياته، وإذا كان كذلك فالمسيح أزلي، والأزلية من لوازم الربوبية والألوهية.

ومضى بعضهم إلى القول: إن القرآن المكي كان يمتدح النصارى ويتقرب إليهم بسبب علاقة النبي ﷺ بخديجة ابنة عم ورقة بن نوفل وبالنجاشي الذي آوى المسلمين في الحبشة، وأن القرآن المدني هو الذي سجل موقفاً رافضاً للمسيحية، خلافاً للقرآن المكي.

وفي **الجواب** نقول: القرآن المكي والمدني كلاهما من عند الله ، وليس في أي جزء منه ما ينقض الجزء الآخر، بل تتكامل آياته المكية والمدنية في رفض مظاهر الشرك المسيحية المتمثلة في عبادة المسيح عليه السلام والقول بالثالوث.

ولعله يحسن أن نبدأ بما جاء في السور المكية حول هذا الموضوع، ثم ننتقل إلى المدنية منها.

ففي الحبشة وقف المسلمون الملتجئون إلى النجاشي بين يديه فسألهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول "[1]،

(١) أخرجه أحمد ح (٤٣٨٦).

وهذا القول مصداق ما أنزل الله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۞ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (مريم: ٣٠-٣٧)، فهذه الآيات المكية ناطقة بعبودية المسيح لله، وأنه مخلوق بكلمة (كن)، وأن الله متوعد بعذابه الذين خالفوا الحقيقة وتنكبوها في شخص المسيح.

ومن أراد مزيد بيان فليصخ السمع إلى التقريع الذي ترتجف لقوته الأفئدة وتهتز القلوب، تقريع يشنع فيه القرآن المكي على من زعم أن لله ولداً ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٨٨-٩٥).

لقد كان القرآن الكريم صريحاً في التشنيع على أقوال النصارى في المسيح، وإثبات عبوديته لله في الآيات المكية والمدنية على السواء، ففي المكي يقول: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۞ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الزخرف: ٥٧-٥٩).

ثم تمضي الآيات لتقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ

رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (الزخرف: ٦٣-٦٥).

وفي المدني يقول الله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢)، وفي سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧)، فأي فرق يجده القارئ بين القرآني المكي والمدني؟!

وكما كان القرآن المكي صريحاً في اعتبار المسيح رسولاً من رسل الله الكرام ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف : ٦)، فإن القرآن المدني كان كذلك: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَالله هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة: ٧٥-٧٦).

وهكذا تبين بطلان الدعوى باختلاف حديث القرآن المكي عن المدني في

المسيح عليه السلام، فالكل من عند الله علام الغيوب.

وإذا كان كذلك، فكيف يتوافق القول بعبودية المسيح مع القول بأنه كلمة الله وروح منه؟!

وبداية ننبه إلى أن هذا الاستدلال المغلوط قديم، قاله نصارى نجران بين يدي النبي ﷺ حين سألوه: " ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟ فقال: «بلى». قالوا: فحسبنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ** ﴾ (آل عمران : ٧)"[1]، فهذا القول من الفتنة لما فيه من التلبيس اعتماداً على المتشابه من القول، أي ما يحتمل معاني مختلفة.

ولو قرؤوا الآية بتمامها لوجدوا فيها بيان ما تشابه عليهم، فهي تنعى عليهم غلوهم في شخص المسيح، وقولهم بأنه ابن الله، وأنه مشترك مع الله في الثالوث ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً**﴾ (النساء: ١٧١-١٧٢)، فالمسيح عبد الله ورسوله، وهو أيضاً كلمته وروح منه.

فماذا يعني قولنا: المسيح كلمة الله؟ هل يعني أنه عليه السلام صفةُ الكلام الأزلية لله؟ بالطبع: لا، فالمسيح كلمة الله المخلوقة، لا الكلمة التي يخلق الله بها خلقه [كن]، وهذا صريح القرآن ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ**

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٧٧).

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٤٥-٤٧)، فصرحت الآيات أن المسيح ﴿**كَلِمَةٍ مِنْهُ**﴾، وأكمل السياق القرآني فوصفه بأنه مخلوق ﴿**الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾.

فكيف تكون كلمة الله مخلوقة مع يقيننا بأن القرآن كلام الله المنزل غير المخلوق؟

ولتقريب معنى "كلمة الله" نضرب مثلاً بعبارة "اضطهاد اليهود"، فهي تدل على معنيين متغايرين صحيحين:

الأول : "اضطهاد النازيين لليهود"، أي أنها تدل على المفعول.

الثاني: "اضطهاد اليهود للفلسطينيين"، أي أنها تدل على الفاعل.

وهكذا اختلفت دلالة العبارة بين هذين المعنيين.

ومثلها قولنا: "كلمة الله" فيمكن أن تدل على كلمة الله التي خلق بها الأشياء ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (يس: ٨٢)، كما يمكن أن تدل على ما خُلق بهذه الكلمة ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران: ٥٩)، والباحث عن الحق يختار منهما ما وافق السياق، وانسجم مع المعاني المحكمة؛ خلافاً لأصحاب القلوب المريضة الذين يختارون من المعاني ما يوافق أهواءهم؛ ولو خرج بالنصوص عن مساقها: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ** ﴾ (آل عمران : ٧).

وسبب اختصاص المسيح بهذا الاسم الشريف دون غيره من المخلوقين بكلمة الله؛ أنه خلق من غير تدخل أبوي، خلق بأمر الله وكلمته التكوينية (كن)،

ولما لم يكن للمسيح سبب بشري قريب ينسب إليه من جهة أبيه كغيره من الناس؛ فقد نُسب إلى السبب البعيد، وهو تخليقه بكلمة الله، التي تخلّق وفق إرادة الله تبارك وتعالى(١).

ومما يؤكد أن مقصود القرآن بالكلمة؛ كلمة الله التي كانت سبباً في وجوده، لا المعنى الفلسفي الذي يزعمه النصارى (اللوغس)(٢) قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّه يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ (آل عمران: ٤٥)، فهو كلمة من الله، وليس صفة الله الأزلية.

وأما قوله تبارك وتعالى عن المسيح ﴿**وروح منه**﴾ فلا يفيد أن المسيح روح الله أو حياته كما نطق بذلك فلاسفة المسيحية، لأن قوله: ﴿**منه**﴾ ليست للتبعيض، بل لابتداء الغاية، بمعنى صادرة عنه، فهي كقوله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ (الجاثية: ١٣)، أي خلقت منه.

ويجدر هنا التنبيه إلى أنه ليس من المسلمين أحدٌ يعتقد أن الروح صفة من صفات الله القائمة بذاته، بل الأرواح جميعاً مخلوقاته تبارك وتعالى، ونسبتها إليه من باب نسبة المخلوق إلى خالقه وموجده، وهو من باب التشريف، كقولنا: بيوت الله، شعب الله، وأمثالهما.

ولا يختص المسيح بأنه روح الله، فقد قال الله عن الصديقة البتول مريم: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**﴾ (مريم: ١٧)، فالمراد بالروح في الآية جبريل عليه السلام، كما سماه الله عز وجل في آية أخرى روح القدس: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ**

---

(١) انظر: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، أبو حامد الغزالي، ص (١٦٦)، والداعي إلى الإسلام، ابن الأنباري، ص (٣٧٦).

(٢) (logos) مصطلح لاهوتي مسيحي، يطلق على المسيح كلمة الله، بمعنى أنه عقل الله الناطق.

بِالْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢)، وفي آية أخرى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** ﴾ (الشعراء: ١٩٣)، وسبب تسميته بالروح أنه مخلوق روحي غير مادي.

وقد تمثل جبريل (روح الله) للعذراء في صورة رجل ﴿ **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً** ﴾ (مريم: ١٧) ، فنفخ في جيبها، فسرى المسيح في أحشائها، فالمسيح خلق بنفخة منه ﴿ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴾ (الأنبياء: ٩١).

وهذا المعنى الشريف ورد في حق آدم أيضاً الذي خلق من طين، ثم: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ (الحجر: ٢٩)، فإضافة روحه عليه السلام إلى الله إضافة تشريف وتكريم، ولو أوجبت هذه الإضافة معنىً خارجاً عن الإنسانية؛ لكان آدم أولى بذلك من المسيح ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٥٩).

ثانياً: هل امتدح القرآن النصارى؟

قالوا: امتدح القرآن النصارى، وذكر بأنهم في الجنة في قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة: ٦٢).

والجواب: كما كان القرآن واضحاً في بيان وحدانية الله وعبودية المسيح وبشريته ؛ كان صريحاً في إضلال القائلين بألوهيته وربوبيته وتكفيرهم ، وهذا منثور في مواضع كثيرة من القرآن، منها قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ (المائدة: ١٧)، وقوله: ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (المائدة: ٧٣)، فهاتان الآيتان وغيرهما واضحتان في بيان كفر القائلين بعقيدة التثليث وألوهية المسيح.

ولكن هذا الحكم القرآني لا يسري على المسيح الذي تبرأ من هذه المعتقدات ﴿ **وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ (المائدة: ٧٢)، كما لا يسري الحكم بالكفر والنار على أتباعه المخلصين المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده، وشهدوا للمسيح بالرسالة فحسب، واتبعوه ونصروه ﴿ **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ (آل عمران: ٥٢-٥٣)، وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**﴾ (المائدة: ١١١)، فهؤلاء من خيرة لله في خلقه، وهم مؤمنون بالمسيح الرسول، وبريئون من معتقدات النصارى التي استقاها

المسيحيون من أقوال بولس والمجامع الكنسية من بعده.

إن هذه الثلة المؤمنة ممدوحة في القرآن ولا ريب، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿**أنصار الله**﴾ (الصف: ١٤)، ومدحة الله لهم في القرآن تسري على كل مؤمن مشى على نهجهم إلى يوم الدين[١].

ولما بعث النبي ﷺ كان لمنهجهم بقايا على الأرض تمثل في أشخاص أحبهم الله؛ لاستقامتهم على التوحيد، وإعراضهم عن مذاهب التثليث والشرك التي كرهها الله، يقول ﷺ: «**وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[٢].

فهؤلاء ومن سلفهم من المؤمنين هم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (**البقرة: ٦٢**)، وقد ذُكر في سبب نزولها أن سلمان حدَّث النبيَّ ﷺ عن أصحابه النصارى الذين كانوا على الإيمان الخالص بالله عز وجل قبل مبعث النبي ﷺ، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «**يا سلمان، هم من أهل النار**». **فأنزل الله هذه الآية**: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾[٣].

وهذا المعنى بينٌ واضح لمن قرأ الآية في سياقها فتدبر الآيات التي قبلها

---

(١) يمتلئ تاريخ المسيحية بما تسميه الكنيسة اليوم بفرق الهراطقة، كالأريوسية والأبيونية، وهي فرق تنكر ألوهية المسيح وتندد بالتثليث، وكانت تمثل السواد الأعظم من النصارى حتى القرن الرابع الميلادي.

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره بإسناد منقطع (٢/ ١٥٤).

والتي بعدها، حيث تكفر الآيات قبلها اليهود والنصارى، وتنسب إليهم الإساءة إلى الله، وتتوعدهم بالنكال والعذاب: ﴿ وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَالله أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ۞ وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۞ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ (المائدة: ٦١-٦٤)

ويستمر السياق القرآني بعدها في تكفيرهم مع استثناء المؤمنين منهم ممن كان على منهج الأنبياء ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٨-٦٩).

فمن المحتم أن الذين سماهم الله في آخر الآية: ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ ليسوا الذين تحدث عنهم صدر الآية التالية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى ﴾، فهؤلاء غير الأولين، هؤلاء من المؤمنين بدليل ما ذكر في الآية في وصفهم: ﴿ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾، والمرء لا يكون مؤمناً بالله بمجرد الإيمان بوجوده، فقد آمن بذلك كفار قريش، ولم يستحقوا هذا الاسم الشريف الذي يختص به من آمن بالله تبارك وتعالى وحده رباً وإلهاً، فلم يعبد معه أحداً غيره.

ثم يمضي السياق القرآني ليقول: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِالله

فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة: ٧٢-٧٥)، ويستمر السياق القرآني إلى آخر آيات السورة وهو يتحدث عن كفر النصارى ، فلِم أعرض القائلون بمدحة الله للنصارى عن هذا كله، وبتروا الآية من سياقها؟!.

ثالثاً: من أتباع المسيح؟

قالوا: وصف القرآن النصارى بأنهم أتباع المسيح الموعودون بالظفر على الكافرين إلى يوم القيامة: ﴿ **إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وهذا كله يدل على صحة طريقتهم ودينهم ؛ خلافاً لما يقوله المسلمون من تكفيرهم، وأنهم من أهل النار.

والجواب: قد سبق لنا بيان الموقف القرآني من النصارى القائلين بألوهية المسيح والتثليث.

وأما بخصوص هذه الآية فهي تمتدح أتباع المسيح عليه السلام، وهم المسلمون الذين يصدقون أقواله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧)، والمسلمون هم الذين يقولون: ادعاء الألوهية للمسيح ليس بحق، في حين يزعم النصارى أنه إله معبود بحق.

ووفق هذا فإن المسلمين هم أتباع المسيح، وقد قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعَلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٤٤٣)، والإخوة لعَلات هم الإخوة من أب واحد، وأمهاتهم مختلفات.

إن الدلالة على اتباع المسلمين للمسيح ومفارقة النصارى له ليست من القرآن فحسب، بل هي في كتابهم أيضاً؛ فإن قارئ العهد الجديد (الإنجيل) لن يجد فيه حرفاً واحداً يتحدث فيه المسيح عن ألوهية نفسه، بل على العكس من ذلك تجده يصرح بما ينقضها، فيقول عن نفسه: «**وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله**» (يوحنا ٨/ ٤٠)، كما يجده عليه السلام يخبر عن كونه رسولاً لله فحسب، مما يقتضي التنديد بأهل التثليث؛ والحكم بحرمانهم من الحياة الأبدية، فيقول مخاطباً الله: «**هذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته**» (يوحنا ١٧/ ٢-٣)، وهذا معنى صريح في أن الجنة مدخرة فقط لمن يقول: (لا إله إلا الله، المسيح رسول الله)، وهذا بالحقيقة قول المسلمين؛ لا النصارى، فتبين أننا أتباعه عليه الصلاة والسلام الموعودون بالعلو على الكافرين إلى يوم القيامة، وقد علوناهم بالحجة والدليل والبرهان بالأمس واليوم وغداً بإذن الله ومِنَّته.

ولئن غابت شمس المسلمين اليوم عن قيادة الحضارة الإنسانية المادية (لا الروحية) فقد كان لهم شرف ريادتها زهاء ثمانية قرون، وإنها سُحب توشك أن تنبلج، لتشرق شمسنا من جديد، وما هذه الصحوة الإسلامية المباركة التي تهدر في عالم اليوم إلا طلائع هذا الفجر الآتي القريب بإذن الله.

رابعاً: سؤال أهل الكتاب

قالوا: طلب القرآن من النبي أن يسأل النصارى فيما يشكل عليه، وفيما يقع له من الريبة في دينه بقوله: ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (يونس: ٩٤)، وكما طلب هذا من النبي؛ فإنه طلبه من المسلمين حين أمرهم بسؤال أهل الذكر، أي الكتب السابقة في قوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل: ٤٣).

والجواب: أن الآية الكريمة ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (يونس: ٩٤)، لا تتحدث عن مشركي النصارى المنكرين لنبوته، ولا تجعلهم مرجعاً للنبي ﷺ، بل تتحدث عن الذين يشهدون له بأنه أتاه الحق من ربه.

كما يلزم التنويه أيضاً إلى أن النبي ﷺ لم يشك في شيء من نبوته، ولم يسأل أهل الكتاب ولا غيرهم، بل نقل عن بعض التابعين أن النبي ﷺ قال: «**لا أشك ولا أسأل**»(١).

فلفظة (إنْ) لا تفيد أي تحقق لوقوع الشك من النبي ﷺ، إذ قد يعلق المحال بـ (إنْ)، كما في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ (الزخرف: ٨١)، وقوله: ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ** ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وقد فسر العلماء مقصود الآية بقولين يكمل أحدهما الآخر:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ح (١٠٢١٠).

الأول: أن المقصود بالسؤال هم المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما: (الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به ..فاسألهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم)(١).

الثاني: أن المقصود في الآية ليس أمر النبي ﷺ بالسؤال، بل الخطاب - في ظاهره - للنبي ﷺ، والمراد به غيرُه من المشركين، على عادة العرب في الخطاب "إياك أعني واسمعي يا جارة"(٢).

ومثله في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ (الأحزاب: ١)، وقال: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (الزمر: ٦٥)، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ (الطلاق: ١).

وهذا الوجه صححه الطبري، واستدل له الرازي بقول الله تعالى في آخر السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ (يونس: ١٠٤)، وقال: «فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح .. فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ؛ إلا أن المراد الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم»(٣).

---

(١) جامع البيان، الطبري (١٥/ ٢٠٠).
(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٢٧٠).
(٣) التفسير الكبير، الرازي (١٧/ ١٧٢).

بقي أن نشير إلى أن الأمر بالسؤال ليس على ظاهره، فإن العرب تستخدم طلب السؤال؛ بمعنى تأكيد الأمر، ولا تريد طلب السؤال حقيقة، ومنه قول الشاعر:

سلوا الليل عني مذ تناءت دياركم   هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجفان

وقول الآخر:

سلوا نسمات الريح كم قد تحملت   محبة صب شوقه ليس يكتم

فهذان وأضرابهما لا يراد منه -في لغة العرب- حقيقة السؤال؛ إذ كيف يُسأل الليل أو نسمات الريح، إنما يراد تأكيد تلك المعاني التي طلب السؤال عنها.

ومثله في القرآن قوله تعالى: ﴿ سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ (القلم: ٤٠)، وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ (الزخرف: ٤٥)، وقوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ (الأعراف: ١٦٣) وقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (الصافات: ١١)، ففي كل هذا لم يطلب الله من النبي ﷺ حقيقة السؤال، إنما قصد الإخبار وتأكيد صدق هذه المعاني والأخبار التي ذكرها الله تبارك وتعالى في القرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل: ٤٣)، فهو خطاب من الله للمشركين المنكرين للنبوة؛ المستغربين نزول الوحي على رجل، فقد نبههم الله إلى أن نزول الوحي على بشر أمر معهود تعرفه البشرية، ودعاهم إلى سؤال أهل الكتاب للتأكد من حقيقته والوقوف على جلائه، يقول ابن القيم: «فبقاؤهم [أي أهل الكتاب] من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد، وقد قال تعالى لمنكري ذلك ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ .. يعني سلوا أهل الكتاب: هل أرسلنا قبل محمد رجالاً يوحى إليهم أم كان محمد بدعاً من الرسل لم يتقدمه رسول حتى

يكون إرساله أمراً منكراً؟»[١].

وهكذا فالآية تجعل من شهادة أهل الكتاب دليلاً ناهضاً للاحتجاج على مشركي مكة في مسألة نبوة النبي ﷺ، وهو معنى تكرر في مواضع أخرى من القرآن، كقوله: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣).

خامساً: التوثيق المزعوم لكتب أهل الكتاب في القرآن

قالوا: في حين أن المسلمين يرمون كتب أهل الكتاب بالتحريف والتبديل فإن القرآن يُعلي من شأن التوراة والإنجيل، ويصفهما بالهدى والنور ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ (المائدة: ٤٤)، و﴿**وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾ (المائدة: ٤٦).

وقالوا: ذكر القرآن أن التوراة والإنجيل الموجودين عند أهل الكتاب زمن النبي غير محرفين؛ بدليل أنه دعا إلى تحكيمهما ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ (المائدة: ٦٦)، وقال لهم: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ (المائدة: ٦٨).

وقالوا: شهد القرآن والسنة أن كتبنا فيها حكم الله ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ** ﴾ (المائدة:٤٣)، ولما أخذها النبي بيده نزع الوسادة من تحته، فوضع التوراة عليها، ثم قال: «**آمنت بك وبمن أنزلك**»[٢].

والجواب: امتدح الله في القرآن ما أنزله على أنبيائه ورسله، وذكر أنه هدى ونور، فكل كتب الله تعالى كذلك، ولو أقام البشر في حياتهم ما أنزل الله إليهم؛

(١) أحكام أهل الذمة، ابن القيم (١/ ٩٧).
(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٤٤٩).

لسعدوا ونجوا، لكن هذه الكتب المنزلة ضاعت وحرفت وبدلت، فما التوراة ولا الإنجيل اللذين بين أيدي اليهود والنصارى بتوراة الله ولا إنجيله؛ وإن كان فيهما بقية أثارة حق مما نزل على الأنبياء، يقول ﷺ: «**إن بني إسرائيل لما طال الأمد و قست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون**»(١).

وإثبات تحريف الكتب الموجودة بين أيدي اليهود والنصارى باب يطول، وليس هذا محله(٢)، ويكفي في هذا الموضع أن نؤكد أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم ليسا الكتابين اللذين أنزلهما الله عز وجل وامتدحهما القرآن.

وإثبات هذا ميسور، فقد نسب القرآن الكريم إلى توراة الله وإنجيله معاني نفتقدها في الكتب الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى، ففقدُها دليل على أن هذه الكتب قد غيرت وبدلت، وأنه ضاع منها ما أشار القرآن الكريم إلى وجوده فيها.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**﴾ (التوبة: ١١١)، فالآية صريحة في أن موعود الله بالجنة للمؤمنين المجاهدين في سبيله مسطور في التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله تعالى، ولا وجود لهذه المعاني في العهد القديم ولا الجديد [التوراة والإنجيل المحرفين].

ومثله قوله تعالى: ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞ إِنَّ**

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٦٩٤).

(٢) أفردت لهما كتابين، الأول: "هل العهد القديم كلمة الله؟" ، والثاني: "هل العهد الجديد كلمة الله؟".

هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٦-١٩)، فهذا المعنى لا وجود له في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام في العهد القديم، والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة، فضلاً عن المقارنة بينها وبين الدنيا.

ومثله نفقد في الأسفار الحالية ما نسبه الله إلى توراته وإنجيله في سورة الأعراف من حديث عن النبي الأمي الذي يبعثه الله فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وهكذا نخلص إلى القول ؛ أن التوراة والإنجيل الممدوحين بالقرآن ليسا بالأسفار الموجودة اليوم؛ لفقد هذه المعاني منها.

والقرآن شهد على الأسفار الموجودة بين يدي اليهود والنصارى بأنها محرفة، وقعت فيها الزيادة، كما وقع فيها النقص، فقد قال تعالى عن تحريف النقص: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ (المائدة: ١٥)، فما جاء به محمد ﷺ فيه بيان لبعض ما أخفاه أهل الكتاب، وقد عفا عن الكثير مما أخفوه فلم يذكره، قال ابن كثير: "أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه، ولا فائدة في بيانه"(١).

كما أخبر القرآن الكريم عن وقوع الزيادة في هذه الكتب: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ**

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٦٧).

لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)، وقال: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٧٨).

لكن وقوع الزيادة والنقص في الكتاب لا يعني - بالضرورة - أن التحريف قد طال كل سطر وكل كلمة في الكتاب، بل القرآن شهد لهذه الكتب أن فيها بقية من الحق الذي أنزله الله ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٧١).

ومن بقايا الحق الذي شهد القرآن بوجوده حكم الرجم للزاني والزانية، فهو موجود في سفر التثنية في الإصحاح الثاني والعشرين، لذلك قال الله: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ**﴾ (المائدة: ٤٣)، فكون حكم الله بشأن الزانيين موجوداً فيها لا يعني أن كل ما فيها هو حكم الله تعالى، فاسم التوراة باق عليها رغم تحريفها، فهي التوراة المحرفة؛ لا المنزلة[1].

وأما قوله تعالى لليهود حين أنكروا أن الأطعمة كانت حلالاً عليهم قبل نزول التوراة: ﴿ **فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (آل عمران: ٩٣) فهو لا يفيد سلامة التوراة التي بين أيديهم من التحريف.

فمطالبته بالإتيان بها؛ إنما يريد به إقامة مزيد من الحجة عليهم من كتابهم

---

(١) ليس بالضرورة أن تكون العندية دليلاً على أن المخاطبين بالسياق القرآني المعاصرون للنبي ﷺ، فإن القرآن حين يخاطب بني إسرائيل يخاطبهم كأمة واحدة، ويتجاوز في خطابه معهم حدود الزمان، فيقول لهم: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ (البقرة: ٨٧)، مع أن قتل الأنبياء لم يقم به جيل واحد منهم، ومثله قوله: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ** ﴾ (البقرة: ٥٥)، والقائل حقيقة أجدادهم، ومثل هذا كثير في القرآن يطول المقام بتتبعه.

(التوراة المحرفة)، قال ابن حزم: " إنما هو في كذب كذبوه، ونسبوه إلى التوراة على جاري عادتهم؛ زائد على الكذب الذي وضعه أسلافهم في توراتهم، فبكتهم عليه السلام في ذلك الكذب المحدث بإحضار التوراة إن كانوا صادقين، فظهر كذبهم"(١).

وقد دعا الله عز وجل أهل الكتاب إلى إقامة هذا الحق المتبقي، لأنه كفيل بهدايتهم إلى الإسلام، قال ابن كثير: «أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ (الأعراف: ١٥٧)»(٢).

وقال القرطبي: «وإقامة التوراة والإنجيل؛ العمل بمقتضاهما وعدم تحريفهما»(٣).

وقال ابن حزم: «وأما قول الله عز وجل: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾؛ فحق لا مرية فيه، وهكذا نقول، ولا سبيل لهم إلى إقامتها أبداً، لرفع ما أسقطوا منها، فليسوا على شيء إلا بالإيمان بمحمد ﷺ، فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل، كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل الله منهما ؛ وُجِد أو عُدم ، ويكذبون بما بدل فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهما، وهذه هي إقامتهما حقاً»(٤).

---

(١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١/ ١٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٢٢٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٤١).
(٤) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١/ ١٥٨).

وهـذا الأسـلوب في طلـب المحـال علـى سـبيل التبكيـت أسـلوب قـرآني ونبـوي، ومنـه قـول الله تعـالى للمنـافقين يـوم القيامـة: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديـد: ١٣)، ومـن المعلـوم أنهـم لا يقـدرون علـى الرجـوع، ولـو رجعوا لم يفدهم رجوعهم.

ومثله في التبكيت قول النبي ﷺ: «**من تحلم بحلم لم يره؛ كُلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ... ومن صوَّر صورة؛ عُذب وكُلف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ**»[١].

ويجدر هنا التنبيه على ضعف الحديث الـذي رواه أبـو داود في سننه، وفيـه أنه ﷺ وضع التوراة على وسادة وقال: «**آمنت بك وبمن أنزلك**»[٢]، فالحديث ورد في قصـة رجـم اليهـوديين الـزانيين، وهـو مـروي في الصـحيحين وغيرهمـا، وليس فيه هذه الزيـادة[٣]، وهـذه الزيـادة غيـر موجـودة حتـى في روايـات أبـي داود الأخرى للقصة[٤].

وقد ضعف هذه الرواية غير واحد من أهل العلم، منهم ابن حـزم إذ يقـول: «قوله عليه السلام: «آمنت بما فيك»؛ فإنه باطل لم يصح قط، وكله موافق لقولنـا في التوراة والإنجيل بتبديلهما، ولـيس شـيء منه حجة لمـن ادعـى أنهمـا بأيـدي اليهود والنصارى كما نزلا ... فخبر مكذوب موضـوع، لـم يـأت قـط مـن طـرق فيها خير، ولسنا نستحل الكلام في الباطل، لو صح فهـو مـن التكلـف الـذي نهينـا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧٠٤٢)، ومسلم ح (٢١١٠).
(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٤٤٩).
(٣) انظـر: صـحيح البخـاري ح (٣٦٣٥)، (٤٥٥٦)، (٦٨١٩)، (٦٨٤١)، (٧٥٤٣)، وصـحيح مسلم ح (١٦٩٩)، (١٧٠٠)، والموطأ ح (١٥٥١)، وسنن الدارمي ح (٢٣٢١).
(٤) انظر: سنن أبي داود ح (٤٤٤٦)، (٤٤٥٠).

عنه كما لا يحل توهين الحق ولا الاعتراض فيه»[١].

وهذه الزيادة «**آمنت بك وبمن أنزلك**» مروية في إسناد ضعيف متهالك لا يصلح للاحتجاج، فهي من رواية هشام بن سعد القرشي، وقد ضعفه العلماء، وترك التحديث عنه جملة من المحدثين، منهم يحيى القطان الذي كان لا يحدث عنه، ومما قاله العلماء عنه:

قال النسائي: «ضعيف»، وقال في موضع آخر: «ليس بالقوي».

وقال يحيى بن معين: «ليس بشيء»، وفي موضع آخر قال: «ليس بذاك القوي».

وأما أحمد بن حنبل فقال عنه: «ليس هو محكم الحديث». وفي موضع آخر قال: «لم يكن بالحافظ».

قال أبو حاتم: «يكتب حديثه ولا يحتج به».

وقال ابن حبان: «كان ممن يقلب الأسانيد، وهو لا يفهم، ويسند الموقوفات من حيث لا يعلم، فلما كَثُر مخالفته الأثبات فيما يروي عن الثقات بطُل الاحتجاج به، وإن اعتبر بما وافق الثقات من حديثه فلا ضير»[٢].

وهكذا فهذه الرواية التي تفرد بها هشام مردودة، ولا يحتج بها إلا الذين يتعلقون بخيوط أوهى من بيت العنكبوت.

كما لن يفوتني تسجيل عجبي من اليهود والنصارى الذين يرومون توثيق كتبهم من القرآن والسنة؛ في حين أن كتبهم تشهد على نفسها بالتحريف في مواضع كثيرة منها: قول النبي إرمياء: «**كيف تقولون: نحن حكماء، شريعة الرب معنا**

---

(١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (١/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) انظر: المجروحين، لابن حبان (٣/ ٨٩)، والموضوعات، ابن الجوزي (١/ ٣٦٦)، والكامل، ابن عدي (٧/ ١٠٨)، وتهذيب الكمال، المزي (١١/ ٣٧)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر (٣٠/ ٢٠٦)، والضعفاء والمتروكين، النسائي (١/ ٢٤٥).

حقـًا، إنه إلى الكذب، حوَّلها قلم الكتبة الكـاذب » (إرميا ٨/ ٨)، أي أن دعـواكم بامتلاك شريعة الرب كذب منكم، لأن هـذه الشـريعة غيَّرهـا وبـدَّلها الكتبـة الكذبة بأقلامهم المحرِّفة.

ويؤكـد النبـي إرميـاء وقـوع التحريـف في الكتـاب، ويتهـدد بالعقوبـة أولئـك الذين مازالوا يتحدثون عن كلام الرب، فينسبون ما في أيديهم إليه بعد أن حرفـوه، فيقول: « **وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً: ما وحي الـرب؟ فقـل لهـم: أي وحي؟ إني أرفضكم هو قول الرب، فـالنبي أو الكـاهن أو الشـعب الـذي يقـول: وحي الرب أعاقب ذلك الرجل وبيته.. أما وحي الرب فلا تذكروه بعـد، لأن كلمـة كـل إنسـان تكـون وحيـه، إذ قـد حـرّفتم كـلام الإلـه الحـي رب الجنـود**» (إرميـاء ٢٣/ ٣٣-٣٦).

سادساً: هل الذكر المحفوظ هو كتب أهل الكتاب؟

قالوا: سمى القرآن كتبنا ذكراً في قوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل: ٤٣)، فاعتبر الكتب السابقة ذكراً، ثم أخبر أن الذكر محفوظ من التحريف والتبديل ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩)، فدل ذلك على سلامتها من التحريف والتبديل.

والجواب: أن كل ما ينزله الله تعالى من وحي هو ذكر، يذكِّر الله به عباده.

لكن الله لم يحفظ من الذكر إلا ذكره الأخير، أي القرآن، فهو الذي تكفل الله بحفظه بقوله: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩)، بدلالة السياق الذي وردت فيه الآية، إذ يقول الله: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٦-٩)، فالذكر المحفوظ هو الكتاب المنزل على النبي ﷺ كما هو ظاهر في السياق.

وهكذا تبين وضوح المعتقد الإسلامي بخصوص ما أنزله الله على الأنبياء، وكذلك تبين تحريف الكتب الحالية وتبديلها، وأنها ليست من عند الله.

سابعاً: هل نسب القرآن إلى المسيح صفة الخالقية؟

قالوا: القرآن يعتبر المسيح خالقاً محيياً للموتى ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ (آل عمران: ٤٩)، ولم يشهد بمثل ذلك لغيره من المخلوقات، فالخلق صنعة الله التي لا يشاركه فيها إلا المسيح، وفي هذا دليل ألوهيته واستحقاقه للعبادة، ويوافق ما ذكره العهد الجديد عن المسيح «**الله خالق الجميع بيسوع المسيح**» (أفسس ٣/ ٩)، وفي إنجيل يوحنا «**كان في العالم، وكوِّن العالم به، ولم يعرفه العالم**» (يوحنا ١/ ١٠).

والجواب: لا ريب أن الله خالق كل شيء ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (الزمر: ٦٢)، فالآيات التي تقرر هذه الحقيقة لا يتسع المقام لتعدادها، وكلها تؤكد على حقيقة تفرد الله بالخالقية التي لم يشاركه فيها أحد من خلقه، ولا المسيح عليه السلام، فهو مخلوق أكذب الله مؤلهيه، وكفرهم وتوعدهم بالبوار ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (المائدة: ١٧).

وحين تحدثت الآيات القرآنية عن معجزات عيسى عليه السلام؛ ما فتئت تذكر أن هذه المعجزات عطية الله تعالى لنبيه المسيح عليه السلام ﴿**قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾، وقد صنعها وغيرها من المعجزات بإذن الله ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي**

الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، فمعجزاته عليه السلام ومعجزات غيره من الأنبياء لا تنفك عن مشيئة الله وإقدارهم عليها.

فهل نسب القرآن الخالقية المطلقة للمسيح حين قال: ﴿ **أَخْلُقُ لَكُمْ** ﴾؟

والجواب بدون ريب ولا تلكؤ: لا.

ولفهم الآيات يحسن الوقوف على معنى لفظة (الخلق) في لغة العرب، إذ تطلق هذه اللفظة على معان؛ ويهمنا منها معنيان:

الأول: الإيجاد من العدم، والإبداع من غير مثال سابق، فالله ﴿ **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنعام: ١٠١)، فهذا خلق يختص به الله وحده.

الثاني: التصوير لما أوجده الله وخلقه، ومنه قول الله: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون: ١٤)، فقد وردت في سياق الحديث عن تصوير الإنسان ونقله من طور إلى طور ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون: ١٤).

قال القرطبي: «أتقن الصانعين. يقال لمن صنع شيئًا خلقه ؛ ومنه قول الشاعر: ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

ولا تُنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع وإيجاد من العدم»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١١٠).

وبمثل هذا المعنى تحدث القرآن عن صنع عيسى من الطين كهيئة الطير ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩).

قال أبو حيان الأندلسي: «والخلق يكون بمعنى الإنشاء وإبراز العين من العدم الصرف إلى الوجود. وهذا لا يكون إلاّ لله تعالى. ويكون بمعنى: التقدير والتصوير، ولذلك يسمون صانع الأديم ونحوه: الخالق، لأنه يقدّر، وأصله في الأجرام، وقد نقلوه إلى المعاني، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ (العنكبوت: ١٧)، ومما جاء الخلق فيه بمعنى التقدير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي المقدّرين»[١].

ومن هذا المعنى أيضاً ما يقال يوم القيامة للمصورين: « **أحيوا ما خلقتم**»[٢]، أي ما صورتموه من الصور، فهذا معنى الكلمة في لغة العرب لمن أراد تدبراً ووصولاً إلى حق.

وبقي في جواب هذه الأبطولة أن ننبه القائلين بها إلى أن المسيح لم يدع في الإنجيل المنسوب إلى تلاميذه وتلاميذهم أنه خالق، وأن غاية ما ذكره بولس أن الله هو الخالق، ولكنه خلق الخلائق بالمسيح «**الله خالق الجميع بيسوع المسيح**» (أفسس ٣/ ٩)، فهو واسطة الخلق، وليس الخالق، يقول القس جيمس أنِس: "الآب خلق العالم بواسطة الابن"[٣].

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري ح (٥١٨١)، ومسلم ح (٢١٠٧).

(٣) علم اللاهوت النظامي، القس الدكتور جيمس أنس، ص (١٧٨)، وللمزيد من البيان انظر كتابي "الله جل جلاله واحد أم ثلاثة؟".

الأخطاء المزعومة في القرآن الكريم

أولاً: العين الحمئة

استشكل البعض ما ورد في سورة الكهف، في سياق الحديث عن رؤية الملك ذي القرنين الشمس وهي تغرب في عين حمئة، وذلك في قوله: ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾ (الكهف: ٨٦)، فتساءلوا كيف تغرب الشمس في عين صغيرة على الأرض وهي نجم عظيم يدور في السماء؟

لا ريب أن القول بغياب الشمس في عين أو بحر بعيد كل البعد عن أبسط معارفنا العلمية التي قررها القرآن منذ زمن بعيد؛ فقد ذكر القرآن أن الشمس والقمر والأرض كواكب أو نجوم تسبح في أفلاكها في السماء ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٣٣)، فلكل فلكه الخاص الذي لا يتداخل مع فلك غيره، فكيف يسوغ – بعد ذلك – أن ينسب إليه القول بغروب الشمس في عين من عيون الأرض.

إن هذا القول أبعد ما يكون عن لفظ القرآن ومعناه، ولو كان هذا الفهم المغلوط مراداً؛ لوجب أن تشرق الشمس من نفس المحل وعلى نفس القوم الذين غربت عليهم، وهو ما لا يظنه عاقل، ولو صغرت سنه، وهو ما ينفيه القرآن في نفس السياق، إذ بعد غياب الشمس انطلق ذو القرنين تجاه مشرقها ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً** ﴾ (الكهف: ٨٩-٩٠).

القرآن في هذه الآية وصف ما تبدى لذي القرنين ساعة الغروب، حيث ﴿ **وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾، ولم يقل القرآن: إن الشمس تغرب في تلك العين. ومثل هذا كمثل ما يراه الناظر من غروب الشمس في البحر أو خلف جبل،

فهو يجدها كذلك فيما يتبدى له، وهي في حقيقتها ليست كذلك.

وهذا الفهم للآية ليس تأولاً لها في عصر العلم، بل هو قول معروف تداوله العلماء منذ قرون طويلة ، فقد نقل المفسر أبو بكر القفال الكبير (تـ ٣٦٥هـ) عن العلماء قولهم في تفسير هذه الآية: "ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا ومشرقًا حتى وصل إلى جرمها ومسها ، لأنها تدور مع السماء حول الأرض، من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة ، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، ولهذا قال: ﴿ **وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً** ﴾، ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم"[1].

وقال الرازي: «ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن السماء محيطة بها ، ولا شك أن الشمس في الفلك ، وأيضًا قال : ﴿**وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا**﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود ، وأيضًا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ، إذا ثبت هذا فنقول: تأويل قوله : ﴿ **تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ من وجوه:

الأول : أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٥٠).

الثاني : أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار»[١].

وقال ابن كثير: " ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه"[٢].

وما زال هذا المعنى مشهوراً عند العلماء في القديم والحديث، ومنه قول سيد قطب: «مغرب الشمس هو المكان الذي تغرب عنده وراء الأفق ، و هو يختلف بالنسبة إلى المواضع ، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف الجبل ، تغرب في الماء كما في المحيطات ... والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي ... فرأى الشمس تغرب فيه، والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب، ويجتمع حولها طين لزج هو الحمأ ، وتوجد البرك، وكأنها عيون الماء ... عند هذه الحمأة وجد ذو القرنين قومـًا...»[٣].

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢١/ ١٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ١٩١) .

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٣/ ٢٢٩١).

ولئن كان المدعي لهذه الأبطولة يتحدث عن غروب الشمس في عين ؛ فإن القرآن تحدث عن مغارب الشمس، وأراد بذلك – والله أعلم- ما نعرفه اليوم من دوام الغروب والشروق بدوام دوران الأرض حول محورها.

ويشكل على هذا المعنى ما روي عن النبي ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه : «**يا أبا ذر، هل تدري أين تغيب هذه الشمس ؟ .. فإنها تغرب في عين حمئة، تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش، فإذا كان خروجها أذن الله لها، فإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها**»(١).

لكن هذا الحديث لا يصح نسبته إلى النبي ﷺ، لأنه من رواية سفيان بن حسين الواسطي السلمي، وهو راو وهَّى حديثه أهلُ التحقيق والاختصاص.

فقد سأل المروزيُ الإمامَ أحمد عن سفيان بن حسين كيف هو ؟ فقال: "ليس بذاك، وضعفه"(٢).

وقال ابن أبي شيبة: "كان ثقة، ولكنه كان مضطرباً في الحديث"(٣).

وقال محمد بن سعد: "ثقة يخطئ في حديثه كثيراً"(٤).

وقال يحيى بن معين عنه: "ليس بالحافظ"(٥).

وعليه فلا اعتداد بروايته، فهي دون مرتبة الاحتجاج، واستبان براءة القرآن من الفهم السخيف بأن الشمس تغرب في بئر ماء.

---

(١) أخرجه البزار ح (٤٠١٠).

(٢) تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ١٤٩).

(٣) تهذيب الكمال، المزي (١١/ ١٤١).

(٤) المصدر السابق (١١/ ١٣٩).

(٥) تهذيب التهذيب (٤/ ١٩٠).

ثانياً: مريم أخت هارون

قالوا: أخطأ القرآن حين جعل مريم بنت عمران أختاً لهارون في قوله تعالى: ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ (مريم: ٢٨)؛ إذ المعلوم في علم التاريخ أن مريم كانت بعد هارون بن عمران بما يربو على الألف سنة.

والجواب: أن هذه الأبطولة من أقدم الشبهات المطروحة على القرآن الكريم، وقد تولى الرد عليها وبيان أغلوطة قائلِها النبيُّ ﷺ، وما يزال أقوام يرددون هذه الشبهة البائدة.

جاء في صحيح مسلم أن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ** ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله سألتُه عن ذلك فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**»[1].

فبهذا البيان النبوي تبين أن هارون أخا البتول مريم ليس بهارون أخي موسى، كما توهم نصارى نجران والمبطلون من بعدهم.

ولو فهموا لغة العرب وسعة ألفاظها لما قالوا ما قالوه، فالعرب تطلق كلمة الأخ على الشبيه وعلى قريب النسب؛ وإن لم يكن أخاً.

فأما الشبيه، فكقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** ﴾ (الإسراء: ٢٧)، فالمبذر بمثابة أخ للشياطين، لشبهه بفعالهم.

وأما أخوة القرابة فكقوله تعالى: ﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** ﴾ (الأعراف: ٧٣).

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢١٣٥).

ثالثاً: هل القلوب العاقلة في الصدور؟

قالـوا: يعرف علماء التشريح اليوم أن القلب عضلة ضاخة للدم فحسب، وأن مراكز الإحساس والتفكير في الدماغ، بينما القرآن يؤكد أن القلوب التي في الصدور هي مركز التفكير ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ (الحج: ٤٦).

والجواب: أن ما يتعلق بمسألة علاقة القلب بالفكر مسألة علمية ما زال العلماء والأطباء يراوحون فيها بين مثبت ومنكر، وهي مسائل ظنية لم ترق إلى كونها حقيقة علمية، ومن كان هذا حاله لا ينهض للاحتجاج به إزاء الحق الذي أوحاه الله العليم بخلقه ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الملك: ٤).

ثم إن القرآن تحدث عن الأعين والآذان والقلوب المادية، وتحدث أيضاً عن العيون والآذان والقلوب المعنوية، وهذه الأعضاء في حال دلالتها على الهدى تكون أعضاء عاملة، وحين تتنكر للحق وترفضه فإنها تكون في حكم العدم، ولذلك وصف الله الذين لا يبصرون الحق ولا يسمعونه بأنهم ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨)، فهم صم عن الحق، لا عن السماع، وهم بكم وعمي بهذه المثابة أيضاً.

وهذا مثله في القرآن كثير: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ (البقرة: ١٧١)، وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ (الأنعام: ٣٩).

وهكذا فحين يتحدث القرآن عن العيون والآذان والألسن لا يقصد الجوارح المحسوسة، وإنما يقصد ما وراءها من العقل والإدراك الإيماني، ومنه قول الله ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ (الشعراء:

١٩٣-١٩٤).

وهذا المذكور عن هذه الجوارح ينطبق على القلب تماماً، فالقلوب التي يتحدث عنها القرآن هي القلوب المعنوية، لا المضغة الجسدية، ومثاله في القرآن كثير، كقوله: ﴿**وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ (الأنعام: ٤٣)، وكقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: ٢٨).

والمقصود في كل هذا القلوب العاقلة، لا المضغة الصنوبرية التي في الجسم ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (الحج: ٤٦).

ومثله في كلام النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب**»[١]، فالمقصود تقليب القلوب المعنوية من الكفر إلى الإسلام، وليس المقصود تقليب القلوب المادية.

وهذا الفهم ليس بجديد عند العلماء المسلمين، بل هو قديم نقله الرازي في تفسيره عن بعض السابقين، وعزاه ابن أمير الحاج المتوفى سنة ٨٧٩هـ إلى عامة أهل السنة والجماعة بقوله: "ومحلها أي القوة التي هي العقل؛ الدماغ للفلاسفة وخصوصاً الأطباء، وأحمد في رواية، وأبي المعين النسفي، وعزاه صدر الإسلام إلى عامة أهل السنة والجماعة، فقال: وهو جسم لطيف مضيء محله الرأس عند عامة أهل السنة والجماعة، وأثره يقع على القلب، فيصيرُ القلب مدركاً بنور العقل الأشياءَ، كالعين تصير مدركة بنور الشمس وبنور السراج الأشياء"[٢].

وما قلناه عن القلوب والعيون والآذان المعنوية الإيمانية ينطبق تماماً على

(١) أخرجه الترمذي ح (٢١٤٠)، وأحمد ح (١١٦٩٧).
(٢) التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج (٣/ ٣٧٨).

الصدور، فنقرأ في القرآن والسنة حديثاً متكرراً عن انشراح الصدر وانقباضه وضيقه وظلمته، وليس المراد الصدر الجسدي، بل المراد الصدر المعنوي ﴿**وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ**﴾ (الشعراء: ١٣)، ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ (الزمر: ٢٢)، ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ (الشرح: ١)، ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم**﴾ (الأعراف: ٤٣) ﴿**قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ۞ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**﴾ (الإسراء: ٤٩-٥٠) ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ (النمل: ٧٤)، فكل هذا حديث عن الصدر المعنوي لا التجويف المسمى بالقفص الصدري.

وجاءت نصوص قرآنية ونبوية تجمع بين الصدر المعنوي والقلب المعنوي، منها قول الله: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (النحل: ١٠٦).

ومثله قوله: ﴿**وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ (آل عمران: ١٥٤)، ومثله قول النبي ﷺ: «**والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر**»(١).

وهكذا تبين أن القرآن حين تحدث عن حواس الإنسان فإنما قصد البُعد الإيماني المعنوي لها، وكذلك نسب التحكم فيها إلى القلب والصدر الإيماني المعنوي، لا الحسي، فثبت بذلك صدق القرآن، وتبين فساد هذه الأبطولة من أباطيل المرجفين.

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٧٥٤٠).

رابعاً: النجوم التي ترجم بها الشياطين

قالوا: القرآن يتحدث عن النجوم السيارة الهائلة في حجمها، والتي يكبر حجم بعضها الأرض آلاف المرات، وأن الله خلقها ليرجم بها الشياطين، وأنها تتحرك في السماء خلف هذه الشياطين، وهذا المعنى الغريب – ورد حسب اعتقادهم – في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ** ﴾ (الملك: ٥).

والجواب: إن القرآن لم يقل: خلق الله النجوم لأجل هذا، ولم يقل أن النجوم السيارة تتبع الشياطين، بل أخبر تعالى أنه خلق في السماء مصابيح، أي أجساماً منيرة مضيئة تحرق الشياطين.

وهذه المضيئات قد تكون نجوماً، وقد تكون شهباً، فالأمر محتمل للمعنيين لولا أن الآيات القرآنية تبين أن المقصود من المصابيح الشهب؛ لا النجوم، قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَداً** ﴾ (الجن: ٩)، وقال: ﴿ **وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ (الحجر: ١٧-١٨)، وقال: ﴿ **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ (الصافات: ١٠)، فالشهب هي الأجسام المضيئة التي تحرق الشياطين، وهذه الشهب منها الكبير، ومنها الصغير، وهي نجوم أو كواكب مفتتة تسبح في الكون الفسيح، فإذا شاء الله عقوبة واحد من الشياطين سلط عليه واحداً من هذه الشهب، فرجمه به، فما الذي يستنكره العاقل في عقوبة الله لهذه المخلوقات بحرقها بشهب السماء؟.

خامساً : هل القرآن يشجع على فعل المعاصي؟

قالوا: القرآن يشجع على المعاصي من غير الكبائر بقوله: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ (النجم: ٣١-٣٢)، فهذا الوعد الإلهي بالمغفرة لأصحاب الصغائر يغري بها.

والجواب: أن العلماء اختلفوا في اللمم المعفو عنه على أقوال ذكرها الطبري في تفسيره[(١)]:

أ. أنها ذنوب الجاهلية يغفرها الله في الإسلام، قال الطبري: " معنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا اللمم الذي ألمُّوا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه، فلا يؤاخذهم به".

ب. أنه ما يلِّم به المرء، أي يصيبه من ذنب صغير أو كبير من غير إصرار عليه، ثم يتوب منه ، قال أبو هريرة ﷺ: (اللَّمة من الزنى، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود؛ واللَّمة من شرب الخمر، ثم يتوب ولا يعود، فتلك الإلمام) ، وهذا المعنى مروي عن عامة أصحاب النبي ﷺ، قال الحسن: (كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: هذا الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيخفيها فيتوب منها).

ج. أنها صغار الذنوب مما لا يوجب حداً في الدنيا ولا توعد بعقوبته في الآخرة، وقد رجحه الطبري مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾ (النساء: ٣١)، فاجتناب

---

(١) جامع البيان، الطبري (٢٢/ ٥٣٢).

الكبائر سبب في مغفرة الصغائر، لكن هذا أيضـًا معلق بالتوبة وعدم الاسترسال في الصغيرة، حتى لا تتحول باستمرائها إلى كبيرة، فقد سأل رجل ابن عباس: كم الكبائر؟ سبعـًا هي؟ قال: (هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، وإنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار)(١).

ولذا حذر القرآن الكريم من الصغائر، وأخبر أن الله يكتب على العبد الصغير من عمله والكبير، فإذا قامت القيامة وجد العبد الجميع بين يديه **﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** (الكهف: ٤٩)، **﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** (الزلزلة: ٨)، ولسوف يحاسب الله العبد المؤمن على هذه الصغائر **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾** (الانشقاق: ٧-٨).

كما حذر النبي ﷺ من الصغائر في مواضع كثيرة، منها قوله: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»(٢)، وقوله: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»(٣)، وقال ﷺ: «**يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبـًا**»(٤).

وأود أن أهمس في آذان الطاعنين في القرآن من أبناء الكنيسة، فأقول: ليس

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٣٤)، والقضاعي في مسند الشهاب ح (٨٥٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٦٤٧٨)، ومسلم ح (٢٩٨٨).
(٣) أخرجه أحمد ح (٢٢٣٠١).
(٤) أخرجه ابن ماجه ح (٤٢٤٣)، وأحمد ح (٢٣٨٩٤).

من عقيدة في الدنيا تشابه المسيحية التي تريح المؤمن من طرق أبواب الفضيلة بالقدر الذي تفتحه أمامه من مصاريع الشر والرذيلة، فهي تعتبر البشرية خاطئة فاجرة بالفطرة « **ليس بار ولا واحد. ليس من يفهم. ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معًا. ليس من يعمل صلاحًا ، ليس ولا واحد**» (رومية ٣/ ١٠-١٢)، ولذلك يقول لوثر أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي: « إن الإنجيل لا يطلب منا الأعمال لأجل تبريرنا، بل بعكس ذلك، إنه يرفض أعمالنا ... إنه لكي تظهر فينا قوة التبرير يلزم أن تعظم آثامنا جداً، وأن تكثر عددها »، وهذا المعنى يستوحيه المصلح الإنجيلي الشهير من رسالة بولس إلى أهل رومية: «**وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية، ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً**» (رومية ٥/ ٢٠).

ويفتح الإصلاحي الألماني فيليب ملانكثون (ت١٥٦٠م) في كتابه "الأماكن اللاهوتية " كل أبواب الرذيلة أمام المؤمنين الذين يغنيهم الإيمان عن كل عمل صالح : « إن كنت سارقًا أو زانيًا أو فاسقًا لا تهتم بذلك، عليك فقط أن لا تنسى أن الله هو شيخ كثير الطيبة، وأنه قد سبق وغفر لك خطاياك قبل أن تخطئ بزمن مديد ».

سادساً: الجنة والخمر

قالـوا: إذا كان الله لا يجعل المحرم جزاء للمؤمنين، فما باله جعل الخمر جزاء لهم؟!

والجواب: حرم الله الخمر لما فيها من تعطيل لموهبة العقل التي منحها الله للإنسان، والتي ميزه بها عن الحيوان، فقد بعث الله الأنبياء وأنزل الشرائع لحراسة هذا المقصد النبيل، فحرَّم قليل الخمر وكثيرها «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[١]، ولعن رسول الله ﷺ في الخمر كل مساهم في شيوع فسادها، يقول أنس رضي الله عنه: «**لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها وشاربها، وحاملها والمحمولة إليه، وساقيها وبائعها وآكل ثمنها، والمشتري لها والمشتراة له**»[٢].

فإذا عرفت علة التحريم لخمر الدنيا؛ عرف علة كونها حلالاً بل جزاء للمؤمنين في الآخرة، فخمر الجنة ليس فيها واحدة من المزريات الموجودة في خمر الدنيا، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء)[٣].

ولقد وصف الله خمر الجنة بأحسن الوصف، ونزهها عما يعتري خمر الدنيا من الفساد، فلئن كانت خمر الدنيا مما يستقبح طعمه؛ فإن خمر الجنة لذة للشاربين: ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى** ﴾

(١) أخرجه الترمذي ح (١٨٦٥)، والنسائي ح (٥٦٠٧)، وأبو داود ح (٣٦٨١)، وابن ماجه ح (٣٣٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١٢٩٥)، وابن ماجه ح (٣٣٨١)، وأحمد ح (٤٧٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦).

(محمد: ١٥).

ولئن كانت خمر الدنيا المحرمة تذهب العقل؛ فإن خمر الجنة ليست كذلك: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۞ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۞ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ** ﴾ (الصافات: ٤٥-٤٦)، فاختلاف الأحكام لاختلاف الخواص والصفات.

ولئن كانت خمر الدنيا تصدع رؤوس أصحابها وتمرضهم؛ فإن خمر الجنة منزهة عن ذلك، فالولدان المخلدون يطوفون عليهم ﴿ **بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۞ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ** ﴾ **(الواقعة: ١٨-١٩)**.

قال الطبري: « لا في هذه الخمر غول، وهو أن تغتال عقولهم، يقول: لا تذهب هذه الخمر بعقول شاربيها كما تذهب بها خمور أهل الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها، كما قال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا   وتذهب بالأول الأول»[1]

وأكد الله هذه الخاصية لخمر الجنة بقوله: ﴿ **وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ** ﴾ (الصافات: ٤٧)، قال الطبري: «من الإنزاف بمعنى: ذهاب العقل من السكر، ومنه قول الأبيرد:

لعمري لئن أنزفتموا أو صحوتم   لبئس الندامى كنتم آل أبجرا »[2].

وهكذا يستبين للمنصف خطأ وتجني أصحاب الفهوم المعوجة أو المنكوسة على القرآن الكريم الذي أرسى فضائل الأخلاق ومعالي الآداب ، وأقام حضارة ذخرت بالقيم التي لم تعرفها من قبل ولا من بعد أمة من أمم العالمين.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٢١/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق (٢١/ ٤٠).

سابعًا: هل أخطأ القرآن في ذكر السامري في عهد موسى؟

قالوا: تحدث القرآن عن السامري الذي يصنع العجل في زمن موسى ﴿**فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾ (طه: ٨٧-٨٩)، أي في حوالي السنة (١٣٠٠ ق م)، في حين أن الكتاب المقدس يذكر أن السامرة هي عاصمة الأسباط العشرة، وتأسست إبان حكم الملك عمري بن آخاب ملك إسرائيل، أي بعد موسى بما يقارب الخمسمائة سنة (انظر الملوك (٢) ١٦/ ٢٣-٢٥).

الجواب: لا يوجد نص في الكتاب المقدس يتحدث عن تاريخ بناء السامرة، والمذكور في سفر الملوك لم يفهمه العلماء الكتابيون على أنه بناء تأسيس، يقول قاموس الكتاب المقدس: «وقد بنيت المدينة أو أصلح بناؤها أيام عمري بن آخاب ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٤٢ ق.م)»[1].

ولو فرضنا أن الكتاب المقدس زعم أمراً ما بخصوص هذا الموضوع أو غيره، فهذا لا يحتج به على القرآن، بل ولا على كتب التاريخ، فموثوقية هذه الأسفار ومعلوماتها أقل من أن يستشهد بها؛ فضلاً عن بلوغها درجة الاحتجاج ومحاجة الآخرين أو محاكمة كتبهم.

وأستشهد هنا بإقرار المطران كيرلس سليم بسترس رئيس أساقفة بعلبك وتوابعها للروم الكاثوليك بتعارض الروايات التوراتية ومعطيات العلم الأولية، واعتذاره لذلك بالقول: «لحلّ تلك التناقضات بين الكتاب المقدس والعلم، لا بدّ لنا من التأكيد من جديد أن الكتاب المقدس ليس كتاباً علمياً يحوي دروساً

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص (٤٤٨).

في علم الكون أو في علم الحياة؛ إنما هو كتاب ديني يحتوي تعاليم عن علاقة الكون بالله خالقه»(١)، فلا ينبغي اعتبار الكتاب مصدراً معتبراً في العلوم الكونية والإنسانية، ومنها علم التاريخ الذي نحن بصدد دراسة واحدة من مسائله.

وعلى كل حال فإن القرآن سمى صاحب العجل بالسامري، وهو اسم قديم سمي به (شامر بن محلي بن موشي بن مراري بن لاوي)، وهو الجيل الرابع للاوي بن يعقوب عليه السلام (انظر: الأيام (١) ٦/ ٤٧)، أي كان معاصراً لموسى (بن عمران بن قهات بن لاوي) (انظر الخروج ٦/ ١٦ - ٢٠)، فدل ذلك على وجود هذا الاسم زمن موسى، وأن لا ارتباط بينه وبين مدينة السامرة التي ستبنى بعد قرون؛ إلا أن تكون قد سميت نسبة إلى هذا الاسم القديم.

ويصح أن يقال أيضاً بأن موسى عليه السلام نادى السامري باسم مهنته (يا حارس)، فلفظة (السامري) مشتقة من الكلمة العبرانية (השומר، وتنطق: ها شِمير) معناها: (الحارس).

ويحتمل أيضاً أن السامري كان من أبناء السومريين، وهي حضارة وجدت في العراق قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة، واستمرت قائمة حتى عام ٢٠٠٠ ق.م، ويتعزز هذا الاحتمال بمعرفتنا أن السومريين برعوا بالمصنوعات الخزفية، التي تتوافق مع ما فعله السامري الذي صنع العجل الذهبي لبني إسرائيل(٢).

وفي كل واحد من هذه الاحتمالات ما يدفع هذه الأبطولة ويؤذِن بضعفها، ويكشف عن بوار فكر أصحابها.

---

(١) تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ١٦٩-١٧٠)، وانظر: كيف يفكر الإنجيليون في أساسيات الإيمان المسيحي، واين جردوم، ص (٧٥).

(٢) انظر: موسوعة المورد، منير البعلبكي (٩/ ١٣٨).

ثامناً : هل أخطأ القرآن بذكر هامان المصري؟

قالوا: أخطأ القرآن فنسب هامان الفارسي إلى أرض مصر، وجعله وزيراً لفرعون إبان حياة موسى عليه السلام؛ خلافاً لما تذكره التوراة عن هامان الفارسي في سفر إستير، فقد كان وزيراً وخليلاً لأحشوريش (زركيس) ملك الفرس، بعد موسى بـ ١١٠٠ سنة.

والجواب: من عجائب الطاعنين في القرآن أنهم يحاكمونه إلى كتبهم المقدسة، والتي لا يعرف كاتبها في الجملة، ولا يمكن توثيق شيء من صفحاتها، فتصبح هذه الكتب - التي تدعو أحوالها للرثاء – ميزاناً يقيسون عليه كتب الآخرين.

ولو تحدثنا عن سفر إستير تحديداً فإنه سفر مجهول المؤلف، قال الدكتور سمعان كلهون في كتابه " مرشد الطالبين " عن كاتبه : "مجهول"، فهل يليق عند العقلاء محاكمة القرآن إلى مرجع لا سند له، وكاتبه مجهول!.

وقد تشكك في مصدر هذا السفر المحققون من أهل الكتاب ، فتوقفوا في قداسته وأصالته بل وتاريخيته، ونقل ذلك البروفيسور إسرائيل لركن عن كل النقاد المعاصرين تقريباً. وكان مارتن لوثر في القرن السادس عشر قد سبق إلى القول: «ليت هذا السفر لم يوجد»، متابعاً في قوله من سبقه من الآباء الأوائل المنكرين لقدسية هذا السفر التوراتي الذي خلت من اسمه قائمة الأسقف مليتو أسقف ساردس عام ١٧٠م ، وهو صاحب أقدم قوائم الأسفار المقدسة، ولتخلو منه أيضاً بعد ذلك قائمة البابا أثناسيوس نجم

مجمع نيقية وواضع قانونه الشهير(١).

ولو سلمنا بصحة القصة الأسطورية التي يحكيها سفر إستير عن هامان الفارسي؛ فإنه ليس ثمة ما يمنع أن يتسمى بهذا الاسم أيضاً واحد من وزراء أو مستشاري فرعون ملك مصر ، ولا يمكن إقامة دليل على عدم وجود مستشار بهذا الاسم أو اللقب .

بل الحقيقة بخلافه، فقد ذكر المحققون وجود هامان قريباً من فرعون، ففي كتابه (Moise et Pharaon) "موسى وفرعون" يقول الدكتور موريس بوكاي ما نصه : "يذكر القرآن الكريم شخصاً باسم هامان هو من حاشية فرعون، وقد طلب إليه هذا الأخير أن يبني صرحاً عالياً يسمح له، كما يقول ساخراً من موسى، أن يبلغ رب عقيدته.

وأردت أن أعرف إن كان هذا الاسم يتصل باسم هيروغليفي من المحتمل أنه محفوظ في وثيقة من وثائق العصر الفرعوني، ولم أكن لأرضى بإجابة عن ذلك إلا إذا كان مصدرها رجلاً حجة فيما يخص اللغة الهيروغليفية وهو يعرف اللغة العربية الفصحى بشكل جيد، فطرحت السؤال على عالم المصريات وهو فرنسي يتوافر فيه الشرطان المذكوران تماماً.

لقد كتبت أمامه اسم العلم العربي (هامان) ولكنني أحجمت عن إخبار مخاطبي بحقيقة النص المعني، واكتفيت بإخباره أن هذا النص يعود تاريخه بشكل لا يقبل النقض إلى القرن السابع الميلادي. كان جوابه الأول

(١) انظر قاموس الكتاب المقدس ، ص (٦٤).

أن هذا الأصل مستحيل، لأنه لا يمكن وجود نص يحتوي على اسم علم من اللغة الهيروغليفية، وله جرس هيروغليفي، ويعود إلى القرن السابع الميلادي، وهو غير معروف حتى الآن، والسبب أن اللغة الهيروغليفية نسيت منذ زمن بعيد جداً.

بيد أنه نصحني بمراجعة معجم أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة Dictionary of Personal names of the New والبحث فيه إن كان هذا الاسم الذي يمثل عندي الهيروغليفية موجوداً فيه حقاً. لقد كان يُفترض ذلك.

وعند البحث وجدته مسطوراً في هذا المعجم تماماً كما توقعته، ويا للمفاجأة !! ها أنا فضلاً عن ذلك أجد أن مهنته كما عُبر عنها باللغة الألمانية (رئيس عمال المقالع)، ولكن دون إشارة إلى تاريخ الكتابة إلا أنها تعود إلى الإمبراطورية التي يقع فيه زمن موسى، وتشير المهنة المذكورة في الكتابة إلى أن المذكور كان مهتماً بالبناء مما يدعو إلى التفكير بالمقاربة التي يمكن إجراؤها بين الأمر الذي أصدره "فرعون" في القرآن وبين هذا التحديد في الكتاب".

وهذا الاسم لهامان المصري أشير إليه في لوح أثري في متحف هوف في فينا وفي مجموعة من النقوش كشفت لنا أن هامان كان رئيس عمال محجر البناء ، وقد كشف عنه كنت كتشن (K.A. Kitchen) في كتابه (Pharaoh Triumphant the life and times of Ramesses II)، وترجمه إلى العربية أحمد زهير أمين بعنوان " رمسيس الثاني ، فرعون المجد والانتصار "، وفيه يتحدث كتشن نقلاً عن المكتشفات المصرية عن الشاب em inet Amen

ابن (ون نفر) كبير كهنة آمون.

Amen أو (هامن) كان صديقاً مقرباً للأمير الذي سيصبح بعد برهة الملك الفرعوني رمسيس الثاني، ويتحدث بإسهاب عنه وعن عائلته، وعن المناصب التي تقلدها وأقرباؤه في البلاط الملكي ، فقد رقَّاه رمسيس الثاني إلى قائد المركبات الملكية قبل أن يصبح رسوله ، ثم مديراً لمشاريعه ومسؤولاً عن قطاع الصناعة في بلاط الملك.

وهكذا فإن القرآن يثبت مرة بعد مرة أنه كلام الله العليم الذي أطلع نبيه ﷺ على أخبار الغيب الحاضرة والمستقبلة ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (هود: ٤٩).

تاسعاً: هل يؤمن اليهود برسالة المسيح عليه السلام؟

قالوا: أخطأ القرآن حين نسب إلى اليهود القول بأن المسيح رسول الله، وهم يكفرون به، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ (النساء: ١٥٦-١٥٧).

الجواب: من المتيقن عندنا أن اليهود كفروا بالمسيح عليه السلام، واتهموه وأمه بأشنع القبائح، وهو ما حكته الآية الكريمة عنهم حين وصفتهم بالكفر ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ** ﴾، والمقصود كفرهم بالمسيح كما هو واضح من سياق التالية لها: ﴿**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ (النساء: ١٥٩).

وأما وصفهم للمسيح بأنه رسول الله فجاء منهم على سبيل التهكم والسخرية منه، أو على معنى مقدر (قتلنا المسيح الذي يزعم أنه رسول الله)، وهو أسلوب في الإضمار معلوم عند أرباب البلاغة، ورد مراراً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۞ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (الحجر: ٦-٧)، فكفار قريش يصفون النبي ﷺ بالجنون، ولا يؤمنون بأن القرآن (ذِكر)، ولا يصدقون بنزوله على النبي ﷺ، وقولهم: ﴿ **نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ** ﴾ خرج مخرج السخرية منه، أو بمعنى: (يا أيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر).

ومثله ما حكاه الله عز وجل عن وصف اليهود للقرآن في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (آل عمران: ٧٢)، فوصفهم للقرآن بأنه

﴿أَنزل﴾ ، وللصحابة بأنهم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خرج مخرج السخرية من القرآن والمؤمنين، أو على سبيل حكاية قولهم، بمعنى : (آمِنوا بالقرآن الذي يزعمون هؤلاء الإيمان به، وأنه منزل من عند الله).

ومثله أيضاً ما حكاه الله تعالى من قول كفار قوم شعيب عليه السلام ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود: ٨٧)، أي (أنت الذي تزعم أنك الحليم الرشيد).

ومثله كذلك خرج مخرج السخرية والاستصغار للمشرك حين يدخل النار قولُ الله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۞ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ (الدخان: ٤٩-٥٠)، أي (كنت تزعم أنك العزيز الكريم).

ومنه قول الحُطيئة في هجاء الزَبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فمن عرف ما عرف العرب لم ينكر ما سكتوا عنه، فإن القرآن نزل بلسانهم، ووفق طرائقهم في البيان والتعبير، ومنها التهكم والحكاية.

عاشرًا :أين هم اليوم يأجوج ومأجوج؟

قالوا: القرآن ثم السنة يحدثان عن قوم «يأجوج ومأجوج»، وأن عددهم جدُ كبير، ثم يذكران أنهم محصورون خلف سد يمنعهم من الناس، وأنهم سيخرجون قبل يوم القيامة، وهي مزاعم يرفضها العلم الحديث، فوسائل التقنية وصور الأقمار الصناعية لا تقبل بوجود عدد كبير من الناس في مكان ما بانتظار يوم الخروج.

والجواب : كثيرًا ما تشوش الروايات الضعيفة على التصور العام للموضوع، فتختلط مفاهيم الناس بالمرويات الشعبية التي تنزع عادة نحو الخرافة والأسطورة، بعيدًا عن القول المحكم الصحيح.

مسألة يأجوج ومأجوج واحدة من أهم صور هذا المسلك، فقد اختلطت فيها الحقيقة بالخرافة، لتصوغ منها ما أشبه الأسطورة ، فقد زعم البعض أن يأجوج ومأجوج مختلفون عن البشر، استنادًا إلى رواية لا تصح، تجعل «**يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربع مائة ألف، لا يموت الرجل حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه .. هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز. .. طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء، .. وصنف منهم يفترش بأذنه، ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه**»[1].

فهذا بعض التسطير (من الأسطورة) الذي وقع في تحديد إنسانيتهم، لذا

---

(١) قال الألباني: « موضوع، أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٦٩) ، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٠٦) ، والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢٢٧/ ١/ ٤٠١٢) ». سلسلة الأحاديث الضعيفة ح (٤١٤٣).

قال الإمام ابن كثير: «وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك الغتم المغول؛ المجرزمة عيونهم، الدلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالهم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما ويتوطأ بالأخرى؛ فقد تكلف ما لا علم له به، وقال ما لا دليل عليه»[١].

وكما وقع الزلل في تحديد ماهيتهم، فقد وقع في وصف سدهم وأخبارهم معه، فجاءت الرواية غير الصحيحة لتزعم أن «**يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدا. فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس** ... »[٢]، فهذا الحديث الذي صحح إسناده بعض المحدثين لما رأوا قتادة المدلس يصرح بالسماع من أبي رافع، فحكموا عليه بالصحة[٣]، وبقيت روايته تلقي

(١) النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير (١/ ٢١٠).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٣١٥٣)، وابن ماجه في سننه ح (٤٠٨٠)، وأحمد في مسنده ح (١٦٣٢)، وقال الشيخ الألباني بصحته مرفوعًا ، وأما الشيخ شعيب الأرناؤوط فقال: «إسناده إلى أبي هريرة صحيح، وفي رفعه نكارة».

(٣) لكن غيرهم من العلماء يعل الرواية من جهة إسنادها أيضًا، فقتادة لم يسمع من أبي رافع ، فالحديث منقطع، قال ابن رجب: « ولم يسمع قتادة من أبي رافع شيئًا . وقد ذكر الأثرم في العلل أنه عرض هذا الكلام كله على أحمد، فقال أحمد: "هذا اضطراب".. وكان شعبة ينكر سماع قتادة من أبي رافع، وقال أحمد : لم يسمع قتادة من أبي رافع» شرح علل الترمذي، ابن رجب

بظلالها على فهوم المسلمين لقصة سد يأجوج ومأجوج، فتمسك جملتهم ببقاء السد إلى ظهورهم قبيل يوم القيامة.

وهذا الحديث على الصحيح ليس من قول النبي ﷺ، بل هو من كلام كعب الأحبار، وقد وهم من رفعه إلى النبي ﷺ، قال الشيخ المحدث محمد أنور شاه الكشميري: «فاعلم أنَّا لم نجد في القرآن، ولا في حديث صحيح أن السد مانع عن خروجهم، إلا ما عند الترمذي، فإنه يشعر بظاهره أنه مانع عنه .. ولكنه مخالف لما في الصحيح، لأنه يدل على أن السد في زمنه ﷺ كان فتح مثل هذه، وحلق بإصبعيه: الإبهام، والتي تليها»[١].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا إسناد قوي، ولكن في رفعه نكارة... ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب الأحبار، فإنه كثيراً ما كان يجالسه، ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم»[٢].

ومما يشهد له بعدم صحة الرفع إلى النبي ﷺ أن الخبر نفسه مروي في تفسير الطبري عن كعب الأحبار، وكذلك هو عند ابن أبي حاتم[٣]، ولأجل ذلك فإن الكشميري يقول: «ابن كثير علله، وقال: «إن أبا هريرة قد يرفعه، وقد يوقفه على كعب»، وبه يحكم وجداني: أنه ليس بمرفوع، بل هو من

(٢/ ٧٨٩).

ونقل ابن أبي حاتم عن الإمام أحمد قوله: «أدخل بينه وبين أبي رافع خلاس والحسن» المراسيل، ابن أبي حاتم، ص (١٦٩)، فهذان راويان أسقطهما قتادة من إسناده.

(١) فيض الباري شرح صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري (٤/ ٣٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥/ ١٩٨).

(٣) انظر: جامع البيان (١٨/ ٥٢٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٩٠).

كعب نفسه»[١].

ولعل مما يشهد له ما رواه الإمام مسلم بإسناده عن بسر بن سعيد ، أنه قال: «اتقوا الله، وتحفظوا من الحديث ، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة، فيحدث عن رسول الله ﷺ ، ويحدثنا عن كعب ، ثم يقوم ، فأسمع بعضَ من كان معنا يجعل حديث رسول الله ﷺ عن كعب ، وحديث كعب عن رسول الله ﷺ »[٢].

لذا كان لزامًا التخلص من أثر هذه الروايات في الذهنية الشعبية، بالاعتماد على المعطيات الصحيحة:

أ- يأجوج ومأجوج اسم أطلق بادئ ذي بدء على جنس من البشر كانوا في زمن ذي القرنين الذي يرجح أبو الكلام آزاد أنه كورش الأخيمني (ت ٥٢٩ ق م) الذي حكم فارس وأواسط آسيا في القرن السادس قبل الميلاد، وقد بنى على القوم سدًا من الحديد انضاف إلى السدود الطبيعية التي تسهم في حصارهم ومنع أذاهم عن جيرانهم، فما زالوا يحاولون الخروج من حبسهم ذاك.

فمن هم هؤلاء؟

تجيبنا الأحاديث الصحيحة أنهم أقوام من سكان أواسط آسيا، فقد قال ﷺ: « **وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوًا حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، شهب الشعاف، من كل حدب ينسلون ،كأن**

---

(١) فيض الباري، الكشميري (٤/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتابه التمييز ح (١٠).

وجوههم المجان المطرقة»(١)، وهذه الصفات نفسها وصف بها سكان أهل خوز وكرمان التي تقع اليوم في دولة إيران، فقد قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر**»(٢).

وفي صحيح مسلم نص ﷺ على تسميتهم بالترك، فقال: « **لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التركَ؛ قومًا وجوههم كالمجان المطرقة، يلبسون الشعر، ويمشون فى الشعر**»(٣).

ب - من الثابت أن ليأجوج ومأجوج خروجًا قبيل يوم القيامة، يقترن بظهور عيسى عليه السلام، وفيه يحدثون من الفساد العريض ما أخبرت به الأحاديث الصحاح.

ولكن، هل من رابط بين انهدام السد وهذا الخروج؟ أو بمعنى آخر: هل خروجهم مقرون بانهدام السد في ذلك الزمان؟

يجيبنا عن هذا السؤال عدد من العلماء الذين تحرروا من ربقة تصحيح حديث قتادة الضعيف، منهم:

- الشيخ عبد الرحمن السعدي صاحب تفسير "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن"، حيث يقول: «ويوجد كثير من المؤمنين يتوهمون، ويظنون، ويعتقدون أن يأجوج ومأجوج، أنهم إلى الآن لم يظهروا، ولم يعثر عليهم أحد، ولم يبرزوا إلى الناس، وأنهم وراء السد والردم الذي بناه

(١) أخرجه أحمد ح (٢٢٣٣١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٥٩٠).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ح (٧٤٩٧).

ذو القـرنين، وأنهـم أمـم عظيمـة، أضـعاف أضـعاف الموجـودين الآن في الأرض من الآدميين ... وهذا الظن غلطٌ محض، وسببه عدم فهـم مـا جـاء به الكتاب والسنة على وجهه في هذه المسألة، وعدم العلـم بـالواقع، وعـدم العلم بأحوال الأرض وسكانها، مع ورود أحاديث لا خطام لها ولا زمـام في صفاتهم»(١).

- الشيخ محمد أنور شاه الكشميري، حيث قال: «إن سد ذي القرنين قـد انـدك اليـوم، ولـيس في القـرآن وعـدٌ ببقائـه إلـى يـوم خـروج يـأجوج ومأجوج، ولا خبر بكونـه مانعـًا مـن خـروجهم، ولكنـه مـن تبـادر الأوهـام فقط، فإنه قال: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾، ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**﴾ إلخ، فلهم خروج مرة بعد مرة، وقد خرجوا قبل ذلـك أيضـًا، وأفسدوا في الأرض بما يستعاذ منه.

نعم يكون لهم الخروج الموعود في آخر الزمان، وذلـك أشـدها، ولـيس في القـرآن أن هـذا الخـروج يكـون عقيـب الانـدكاك متصـلاً، بـل فيـه وعـدٌ باندكاكه فقط، فقد انـدك كمـا وعـد، أمـا أن خـروجهم موعـود بعـد اندكاكـه بدون فصل، فلا حرف فيه»(٢).

واستذكر الكشميري قوله تعالى: ﴿**حتى إذا فتحـت يـأجوج ومـأجوج**﴾ فقـال: «فلـم يقـل: حتى إذا فتح الـردم، والمـراد تلـك النوبـة مـن الخـروج، وينبغي أن يعلم أن قول ذي القرنين: ﴿**قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقـا**﴾ (الكهـف: ٩٨]) قـول مـن جانبـه، لا

(١) رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج، عبد الرحمن السعدي، ص (٦٩).
(٢) فيض الباري شرح صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري (٦/ ١٧).

قرينة على جعله من أشراط الساعة، ولعله لا علم له بذلك، وإنما أراد وعد اندكاكه. .. نعم قوله: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون**﴾ هو من أشراط الساعة، لكن ليس فيه للردم ذكر، فاعلم الفرق»(١).

- الشيخ المفسر ابن عاشور: «إن موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب مغوليا، وقد وجد السد هنالك، ولم تزل آثاره إلى اليوم، شاهدها الجغرافيون والسائحون، وصورت صورًا شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية ... وهو الآن بحالة خراب، فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع»(٢).

وهكذا فهؤلاء العلماء وغيرهم يرون أن السد قد اندك، وأن لا رابط بين اندكاكه وخروج يأجوج ومأجوج الأخير قبيل الساعة، فقد كان السد مانعًا من خروجهم زمن بنائه وما قرب منه من أزمان.

ج - ونصل إلى سؤال أقل أهمية، وهو: أكان اندكاك السد قبل بعثة النبي ﷺ أم بعده؟

ظاهر حديث أم المؤمنين زينب يدل على وجود السد زمن النبي ﷺ، فقد صحا ﷺ من نومه وهو يقول: «**لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» ، ولكن صح عن بعض أهل العلم تأويل هذه الرؤيا بظهور الفتن، وليس بخرم السد على

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٥٤).

(٢)التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٥/ ١٣١-١٣٤).

الحقيقة، كما نقل ابن كثير عنهم بقوله: « من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن، وأن هذا استعارة محضة وضرب مثل .. قول من جعل ذلك إخبارًا عن أمر محسوس، كما هو الظاهر المتبادر»(١)، فعلى التأويل الأول يستوي الاحتمالان : البقاء والانهدام، وأما التأويل الثاني فيفيد وجود السد زمن النبي ﷺ .

د – وهكذا فقد انهد السد، وخرج يأجوج ومأجوج مرارًا، «وليس القرآن العزيز نصًا في أن السد منعهم من كل جهة، ولا أن عدم خروجهم في الأزمنة الآتية لعدم الاندكاك فقط، فإن ذلك إذ ذاك - أي عند بنائه - ودهرًا بعده. وأما بعد ذلك، فلهم عدة خروج»(٢).

ومن ذلكم ما صنعه التتار ببلاد العراق والشام «وقد خرجوا مرارًا، فإن تيمورلنك وجنكيزخان، وهولاكو ، كلهم كانوا من يأجوج ومأجوج، ولم أرَ فعلهم ببني آدم إلا التدمير، واستباحة بيضتهم، ولعلهم يخرجون من نسلهم في زمن قدَّره الله تعالى، فيعيثون في الأرض مفسدين»(٣).

ونقل السعدي عن القاضي محمد سليمان قوله في مقال له نشره في مجلة «الفتح» في عددها الصادر في ٨ محرم، ١٢٥٤ هـ (ص ٩٦): «جاءت القرون الوسطى، فجاء أهل أوربا عادِين على المسلمين يغزونهم في ديارهم، ويحاربونهم على تخومهم، وفتحت يأجوج ومأجوج، فانسل التتار من الشرق على بلاد الإسلام فاكتسحوها، وخربوها، وهدموا

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٢/ ٥٥٨).
(٢) فيض الباري شرح صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري (٤/ ١٩٧).
(٣) المصدر السابق (٤/ ١٩٧).

الخلافة، وقتلوا الخليفة، ووقع المسلمون بين شقي الرّحا من الشرق، ومن الغرب في بلاءٍ مبين»(١)، فاعتبر القاضي ما فعله التتار خروجًا ليأجوج ومأجوج بعد انهدام السد.

وأما القرطبي فقال: «وإذا كان هذا؛ فقد نعت النبي ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج، .. وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم»(٢).

وقال الدكتور محمد توفيق صدقي: «ومن تذكر إغارة المغول (التتار) وهم نسل يأجوج ومأجوج في القرن السابع الهجري على بلاد المسلمين والنصارى ، وما أَتَوْهُ من الإفساد في الأرض ، وما أوقعوه بالأمم المختلفة من القتل والسَّبْي والنَّهْب ؛ أمكنه تصور حصول هذا منهم مرةً أُخرى قبل مجيء الساعة ، كما قال القرآن الشريف»(٣).

وهكذا فإن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة لا يفيد بقاء هاتين الأمتين خلف السد الذي بني عليهم قبل أزيد من ألفين وخمسمائة سنة، ولسوف يأتي على الدنيا زمان يعود أبناء هؤلاء إلى الإفساد من جديد قبيل الساعة كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وإن غدًا لناظره قريب.

***

(١) رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج، عبد الرحمن السعدي، ص (٩٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١١/ ٥٨).
(٣) مجلة المنار (١١/ ٢٨٣).

الأخطاء اللغوية المزعومة في القرآن الكريم

أولاً: الأخطاء النحوية المزعومة في القرآن

قال بعض من يزعم أنه من أبناء العربية: إن في القرآن أخطاء نحوية خالف فيها قواعد اللغة العربية، وهذا يدل على أنه ليس من كلام الله، لأن الله لا يخطئ، قالوا هذا حين استشكلوا بعضَ آيات القرآن؛ ورأوها على خلاف ما تعلموه في دراستهم لقواعد النحو في المرحلة الابتدائية ، فظنوا أن في هذه الآيات خطأ فات الأولين، وأنهم تنبهوا له - بعبقريتهم - بعد مر القرون.

وقبل أن نعرض لأهم الآيات التي استشكلوها، نجيب بأجوبة إجمالية بين يدي البحث:

أولاً: أن العرب الذين نزل فيهم القرآن كانوا أفصح الناس، وكان فيهم أصحاب المعلقات كلبيد بن ربيعة رضي الله عنه الذي ترك نظم الشعر بعد سماعه للقرآن، ولم يستشكل ما استشكله أعاجم العرب اليوم، كما لم يستشكله مشركو قريش وغيرهم، رغم عداوتهم القرآن وحربهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم وحرصهم على معاداة دينه ﴿**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ (مريم: ٩٧)، لكنهم كانوا عربًا أقحاحًا، فعرفوا ما جهله أهل العُجمة من العرب اليوم.

ثانيًا: أن اللغة في أصلها سماعية، لا قاعدية، فالعربي حين كان ينطق بالفاعل مرفوعًا، لا لأن آباءه علَّموه أن الفاعل مرفوع، بل لسليقته العربية التي نشأ عليها منذ طفولته.

لكن في القرن الثاني من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم دخلت الفرس والروم والترك وغيرهم في الإسلام، وتكلموا بالعربية ، فظهر اللحن ، وضاعت السليقة، مما دعا العلماء المسلمين لوضع قواعد اللغة المعروفة عندنا اليوم، وقد وضعوها اعتماداً على مصدرين أساسين: **الأول** : القرآن الكريم، **والثاني**: ما ورد عن

العرب في أشعارهم وكلامهم، فالقرآن هو المصدر الأول والأساس لقواعد العربية.

لكن العرب الفصحاء قبل وضع هذه القواعد لم يكونوا على نسق واحد في الإعراب والأساليب اللغوية، فلكل قبيلة خصوصيتها اللغوية وفصاحتها وشعراؤها وأدباؤها وإثراؤها للغة الضاد، فعمد مقعدو اللغة إلى الشائع عند عموم العرب، وأهملوا غيره مما هو فصيح تنطق به بعض قبائل العرب.

ولو شئنا أن نضرب مثلاً لقلنا: الشائع في قواعد اللغة حذف ضمير الفاعل من الجملة إذا جاء الفاعل اسماً ظاهراً، فيقول عموم العرب : (جاء المسلمون)، ولا يقولون: (جاؤوا المسلمون)، لكن قبيلة طيء تجيز إثبات ضمير الفاعل ، مع وجود الاسم الظاهر، وهي اللغة المشهورة عند النحاة بـ (أكلوني البراغيث) ، ومنه قول أبي فراس الحمداني:

نُتِج الربيعُ محاسناً ألقحنَها غرُّ السحائب

وكذا قول محمد بن أمية:

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي فأعرضنَ عني بالخدودِ النواضرِ[1]

فالشاعران ذكرا ضمير الفاعل (نون النسوة) في قولهما: (ألقحنها)، و(رأين) مع ذكر الفاعل الظاهر بعده، وهو قولهما: (غرٌّ)، (الغواني).

فلا يصح أن يقال عن قوله: (رأين الغواني) بأنه لحن، وأن صحيحه حذف الضمير: رأت الغواني، فقد نطق به الفصحاء من العرب؛ وإن جاء على خلاف قواعد المتأخرين منهم، أو بالأحرى على خلاف الشائع عند الكثير من قبائل العرب.

ومثله شاع اليوم عندنا استخدام كلمة (الذين) في معنى الوصل، وهي لغة

---

(١) شرح شذور الذهب ، ابن هشام ، ص (٢٢٩)، وفقه اللغة، الثعالبي (٢/ ٥٦٩) .

فصيحة عند العرب، ومثلها في الفصاحة ما يقوله بنو عقيل وغيرهم من العرب الذين يستعيضون عنها بكلمة (الَّذُونَ)، وكذلك (الَّذُو)، كما في قول الشاعر:

قومي الذو بعكاظ طيروا شرراً ... من روس قومك ضرباً بالمصاقيل(١)

وقول الآخر:

نَحْنُ الَّذُونَ صَبَّحُوا الصَّبَاحَا ... يَومُ النُّخَيلِ غَارَةً مِلحَاحَا(٢)

ومثله قول الشاعر الهذلي:

هم اللاؤون فكوا الغل عني ... بمرو الشاهجان إلى الجناح(٣)

فهل سيقال عن قبيلة هذيل أنها تلحن لقولهم (اللاؤون)، في حين أن غيرهم من العرب يقول (اللائي)؟.

ومثله حذف بعض العرب نون النسوة من الفعل المرفوع، في حين أن القواعد التي وضعها المقعِّدون بعد ذلك تعتبر إثبات النون علامة على رفع الفعل، بينما حذفها يعني جزمه أو نصبه، فهل سيقول أعاجم العرب اليوم أن هؤلاء العرب الأقحاح يلحنون؟

وهل سيتهمون الشاعر المبدع بشار بن برد باللحن والجهل لأنه حذف نون النسوة في قوله:

فلقد كان ما أكابد منها ... ومن القلب يتركاني وحيداً(٤)

ثالثاً: القرآن نزل بلسان عربي مبين ﴿ **قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ (الزمر: ٢٨)، والعرب لم تعرف قواعد اللغة إلا بعد الإسلام، وقد وضعها

(١) شرح الرضي على الكافية، الأستراباذي (٣/ ٢٠).
(٢) شرح ابن عقيل (١/ ١٤٤)، ومعجم القواعد العربية، الدقر (٢٤/ ٢٨).
(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، ص (٥٣٥).
(٤) انظر: بشار بن برد – شخصيته وفنه، إبراهيم عوض، ص (٣٩٢).

المسلمون كالخليل بن أحمد وسيبويه وابن نفطويه وأمثالهم، واستنبطوها من القرآن أولاً ثم من أشعار العرب ومأثوراتها ثانياً، فكيف يحاكم القرآن إلى قواعد وجدت بعده، بل أخذت منه.

إن تقريرنا لهذه القواعد العامة كاف في الرد على كل الأباطيل المتعلقة بالنحو، لكن كفايتها لن تمنعنا من الرد التفصيلي على ما اشتبه على أصحاب الشبهات والأباطيل:

المسألة الأولى: رفع اسم (إنَّ).

قالوا: أخطأ القرآن في قوله تعالى – حسب قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم -: ﴿ **إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ** ﴾ فقالوا: رفع القرآن اسم إن بالألف، وكان المفروض أن ينصبه بالياء، فيقول: (إن هذين لساحران).

والجواب من وجوه ثلاثة:

الأول: أن قوله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ** ﴾ جاء على لغة بلحارث بن كعب وزبيد وخثعم وهمدان ومن وليهم من قبائل اليمن، حيث يلزمون المثنى الألف مهما كان موقعه من الإعراب، قال ابن جني: "من العرب من لا يخاف اللبس، ويجري الباب على أصل قياسه، فيدع الألف ثابتة في الأحوال، فيقول: قام الزيدان، وضربتُ الزيدان، ومررتُ بالزيدان، وهم بنو الحارث وبطن من ربيعة"(١).

ومن صور ذلك قول شاعرهم هوبر الحارثي:

(١) سر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٧٠٤)، وانظر: نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (١٣٠).

تزود منا بين أذناه ضربةً دعته إلى هابي الترابِ عقيمُ (١)

فألزم المثنى الألف في قوله: (بين أذناه)، ولم يقل (بين أذنيه) كما هو معهود في قواعد اللغة التي كتبها النحاة بعده حسب الشائع عند غير قبيلته من قبائل العرب.

ومثله قول جرير بن عبد العزى الحارثي:

فأطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجاعِ وَلَوْ رَأى مَساغـًا لِناباهُ الشُّجاعُ لصَمّما (٢)

فألزم المثنى الألف في قوله: (لناباه)، مع أنه مجرور باللام، فهذه لغة قومه، وهم من هم في الفصاحة والبلاغة.

ومثله قول الآخر:

أعرف منها الجيدَ والعينانا ومَنخران أشبها ظبيانا(٣)

وفيه من شواهد مسألتنا ثلاث كلمات (العينانا) و (منخران) و (ظبيانا)، فهي جميعا مثنى منصوب بالألف؛ خلافـًا لما قعَّده العلماء بعد ذلك وفقـًا للمشهور في لغة العرب من نصب المثنى بالياء.

الوجه الثاني: أن من العرب الأقحاح الفصحاء من يقلب كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها إلى (ألف).

وبمثل هذا قال أبو النجم العِجْلي:

واهـًا لسلمى ثم واهـًا واها هي المنى لو أننا نلناها

ياليت عينَاها لنا وفاها بثمن نُرضي به أباها

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ٢١٧)، وانظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٧٠٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١١/ ٢١٧)، وسر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٧٠٤).

(٣) شرح ابن عقيل (١/ ٧٣)، وانظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٧٠٥).

إن أباهـا وأبـا أباها قد بلغـا في المجـد غـايتَاها

فقد أبدل الشاعر الياء الساكنة المفتوح ما قبلها بالألف في قوله: (عيناها بدلاً من عينَيْها) وكذلك (غايتاها بدلاً من غايتَيْها).

ومثله قول الشاعر:

أي قلوص راكب تراها اشْدُدْ بمَثْنَيْ حَقَبٍ حَقْواها

ناجيَـةً وناجيـاً أَباها طـاروا عـلاهن فَطِرِ علاها

قال ابن الحاجب: "القياس: عليهن وعليها، لكن لغة أهل اليمن قلب الياء الساكنة المفتوح ما قبلها، هذا الشعر من كلامهم"(١).

الوجـه الثالـث: (إنَّ) معناهـا: (نَعَـمْ)، والمعنـى: نعـم لسـاحِرَانِ هَـذان، ورجحه عدد من أئمة اللغة منهم ابن المبرد وإسماعيل القاضي وأبو إسحاق الزجاج وعلي بن سليمان.

واستدل لـه أبـو بكـر ابـن السـراج بقـول سيبويه: «وأمـا قـول العـرب في الجواب: إنَّه. بمنزلة: أجل، وإذا وصلتَ قلتَ: إنَّ يا فتى ، وهي بمنزلة : أجل».

واستدلوا لصحة هذا الوجه بجواب ابن الزبير لأعرابي قال له: «لعن الله ناقة حملتني إليك. فقال ابن الزبير : «إنَّ وراكبها». أي : نعم، وكذلك لعنَ راكبها. وكذلك مثله قول ابن قيس الرقيات:

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قدْ علَّا كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

أي : نعم، والهاء للسكت.

وكما قال الآخر:

قالوا كبرتَ فقلتُ إنَّ وربما ذكر الكبير شبابه فتطربا

أي فقلت : نعم.

---

(١) شرح شافية ابن الحاجب ، الأستراباذي (٤/ ٣٥٦).

ونقل الخليل بن أحمد الفراهيدي في تقويته قول الشاعر:

شاب المفارق إنَّ إنَّ من البلى   شيب القذال مع العذال الواصل

أي: نعم نعم.

وهذا الرأي وهَّنه بعض النحوين، بسبب دخول اللام على الخبر في قوله: ﴿**لساحران**﴾، وقالوا: اللام تقع في جواب (إنَّ) التوكيدية.

ورُدَّ عليهم: هذه اللام أصلها أن تقع في الابتداء، ووُقُوعها في الخبر جائز، واستدلوا بقول الشاعر:

خالي لأَنتَ ومَن جَريرٌ خالُه   يَنَلِ العَلاءَ ويُكْرِمِ الأَخْوالا

وقول الآخر:

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ   تَرْضى من الشاةِ بِعَظْمِ الرَّقَبَهْ

والمعنى: لأنت خالي .. لأم الحليس عجوز[1].

المسألة الثانية: نصب الفاعل

قالوا: القرآن نصب الفاعل (الظالمين) في قوله: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٤). قالوا: والصحيح أن يقول (الظالمون)، فالظالمون لا ينالون العهد. فجعل القرآن الفاعل منصوباً!.

الجواب: أن القرآن الكريم رفع الفاعل في مواضع لا تحصى لكثرتها، ورفع الفاعل أمر يدركه صغار طلاب الكتاتيب، ولا يحتاج في معرفته إلى خبير

(١) انظر: الجمل في النحو، الخليل الفراهيدي، ص (١٥٨)، ومعاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (٣/ ٣٦٣)، والأصول في النحو، ابن السراج (١/ ٢٥٩)، واللمع في العربية، ابن جني، ص (٤٣)، وباهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، أبو القاسم النيسابوري (٢/ ٩١١)، والهداية إلى بلوغ النهاية، أبو محمد مكي القيسي (٧/ ٤٦٥٨).

في اللغة العربية، فإذا علم ذلك فإن الحصيف إذا ما وجد أمراً استغربه – في كتاب ما- لوروده على خلاف المعهود فإنه لن يسارع إلى تجهيل المؤلف أو تغليطه، إذ مثل هذا لا يغلط به أحد.

والحق أن الخطأ وقع فيه المتحذلقون الذين ظنوا أن الفاعل في الآية هو (الظالمون)، والصحيح أن (العهد) هو الفاعل، وقوله: (الظالمين) مفعول به، والمعنى: لا يشمل عهدي واستخلافي الظالمين.

وهذا التعبير شائع عند العرب، فيقولون: هذا ناله خيرٌ، وذاك ناله ظلمٌ.

وهو مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ (الأعراف: ١٥٢)، والمعنى: سينال غضب الله الظالمين ، ومثله في قوله تعالى: ﴿**أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ (الأعراف: ٣٧)، فالفاعل في الجملة (نصيب)، كما الفاعل في الآية السابقة (غضب) ، وفي الآية التي استشكلوها (عهدي)، ولم تظهر عليها علامة الرفع لتعذره بسبب إضافتها إلى ضمير المتكلم (الياء)، إذ يتعذر النطق بـ (عهدُي)، فتبين جهل القائلين بهذه الأبطولة، أو بالأحرى عجزهم عن الإتيان بغلط في القرآن يوافقهم عليه البلغاء والعقلاء.

المسألة الثالثة: عطف المنصوب على المرفوع

قالوا: العرب تعطف مرفوعاً على مرفوع، ومنصوباً على منصوب ، في حين أن القرآن عطف على المرفوع منصوباً في قوله: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (النساء: ١٦٢)، فقالوا: يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع، فيقول: (والمقيمون الصلاة) بدلاً من نصبه في قوله: ﴿ **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ**﴾،

لأنها معطوفة على مرفوع ﴿وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ وقوله: ﴿ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾.

والجواب: أن الواو في قوله ﴿ وَالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ ليست واو العطف، بل واو معترضة، وما بعدها منصوب على الاختصاص بالمدح، أي: وأمدح المقيمين الصلاة، وفي هذا مزيد عناية بهم عن المذكورين في الآية، فـ﴿المُقِيمِينَ﴾ منصوبة على المدح، كما قال إمام اللغة سيبويه[1].

ومثله قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّراء**﴾ (**البقرة: ١٧٧**)، فلم يقل: (والصابرون) وقد سبقها: ﴿**الْمُوفُونَ** ﴾، والتقدير: وأخص بالمدح الصابرين في البأساء.

ونصب ﴿**المُقِيمِينَ**﴾ خلافاً لنسق ما قبله وما بعده ؛ وهي طريقة في الإنشاء تفعله العرب لفتاً لنظر القارئ أو السامع إلى أهمية ما بعده وخصوصيته، وتفعله بقصد المدح كما في هذه الآية ، أو بقصد الذم كما في قوله تعالى: ﴿ **وامرأته حمالةَ الحطب** ﴾ (المسد: ٤)، أي أعني حمالة الحطب، فنصب ﴿ **حمالةَ** ﴾ على الاختصاص بالذم.

والنصب على الاختصاص سائغ ومعروف في كلام العرب، ولم يستنكره إلا أعاجم العربية اليوم ، وقد كثر في أشعار العرب وآدابها ، ومنه قول الخِرنقُ بنتُ بدر بن هَفَان وهي ترثي زوجها بشر بن عمرو الضبعي:

لا يبعدن قومي الذين هم — سمُّ العداة وآفةُ الجُزْر
النازلين بكل معترَك — والطيبون معاقد الأُزْرِ[2]

فقولها: (النازلين) منصوب على الاختصاص، وليس صفة أو معطوفاً على: (سمُّ العداة) و(آفةُ الجزر).

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري (١/ ٢٩٦).

(٢) معجم القواعد العربية، الدقر (٢٥/ ١٠٤).

ومثله قول أميةَ بن أبي عائذ:

وَيَـأْوِي إِلَى نِسْـوَةٍ عُطَّلٍ وَشُعْثًـا مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالِي

فنصب « شُعْثًا » على الاختصاص ، مع أنه معطوف على مجرور.

وهكـذا فـالقرآن الكـريم نصـب قولـه تعـالى: ﴿والمُقِيمِـينَ﴾ علـى الاختصاص، والواو هي واو الاعتراض ؛ لا العطف.

المسألة الرابعة: عطف المرفوع على منصوب في قوله ﴿وَالصَّابئُونَ﴾

قالـوا: المعطوف على المنصوب حقه في لغة العرب النصب، والقرآن رفعه مخالفـًا قواعد العربية في قوله: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (المائدة: ٦٩)، والصحيح – حسب حذلقتهم – أن ينصب المعطوف على اسم إنَّ، فيقول: (والصابئين) كما في سورة البقرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله ﴾ (البقرة: ٦٢)، وسورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾ (الحج: ١٧).

والجـواب: أن الـواو في الآيتين الأخيـرتين للعطـف، والمعطـوف علـى المنصوب منصوب، بينما الأمر مختلف في قوله: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالـذِينَ هَـادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾، فالواو فيه استئنافية، وليست للعطف على الجملة الأولى.

وقولـه: ﴿وَالصَّـابِئُونَ﴾ مرفـوع علـى الابتـداء، وخبـره محـذوف، قـال سيبويه والخليل: "الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الـذين آمنـوا والـذين هادوا والنصارى حكمهم كذا... والصابئون كذلك"، ومثّل له سيبويه بقول الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق[1]

ومثله قول ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحلُه فإني وقيَّارٌ بها لغريب[1]

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٤٦).

فرفع الشاعر اسم فرسه (قيار)، وهو فيما يظهر معطوف على منصوب (ياء المتكلم في قوله: فإني)، فرفع الشاعر (قيار) على الابتداء، والمعنى: إني غريب، وقيار كذلك غريب، ومثله سواء بسواء رفع ﴿**الصَّابِئُونَ**﴾ في الآية المستشكلة.

لكن يشكل على هذا التخريج ما أورده أبو عبيد في "فضائل القرآن" من خبر يرويه أبو معاوية الضرير من طريق هشام بن عروة بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير: (**يا ابن أختي، هذا عمل الكتاب أخطؤوا في الكتاب**)(٢)، فهذا الخبر لا يصح سنداً، وهو منكر متناً.

فأما ضعف إسناده فسببه أبو معاوية الضرير، قال عنه المزي: "روى أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر أحاديث مناكير .. قال ابن خراش: صدوق، وهو في الأعمش ثقة، وفي غيره فيه اضطراب"(٣).

وأما الذهبي في ميزان الاعتدال فنقل عن الإمام أحمد قوله عنه: "هو في غير الأعمش مضطرب، لا يحفظها حفظاً جيداً، علي بن مسهر أحب إلي منه في الحديث".

ثم قال الذهبي: "وقد اشتهر عنه الغلو، أي غلو التشيع"(٤).

وقال أبو داود: "أبو معاوية إذا جاز حديث الأعمش كثر خطؤه، يخطئ

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٥٠-٥٢)، والمدخل لدراسة القرآن العظيم، محمد محمد أبو شهبة، ص (٣٣٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ح (٤٦٩)، وهذا الخبر يماثل ما مرَّ معنا قبل من آثار منسوبة إلى ابن عباس ﷺ، فما من حاجة لإعادة ماذكرناه هنالك، فليرجع إليه.

(٣) تهذيب الكمال، المزي (٢٥/ ١٢٤).

(٤) ميزان الاعتدال، الذهبي (٤/ ٥٧٥).

على هشام بن عروة، وعلي بن إسماعيل، وعلى عبد الله بن عمر"[١]، وهذا الأثر يرويه أبو معاوية عن هشام، فروايته مما يظن فيه الاضطراب.

وأعلَّ يعقوبُ بن شيبة أبا معاوية بعلة أخرى هي التدليس، فقال عنه: "ثقة ربما دلس، وكان يرى الإرجاء"[٢]، ومن المعلوم في قواعد الرواية أن المدلس يقبل حديثه إذا صرح بالتحديث [أي قال: حدثني فلان]، ويتوقف فيه إذا عنعنه [أي قال: عن فلان]، وقد عنعن أبو معاوية في هذه الرواية، وهو ينقلها عن هشام بن عروة.

فهذه العلل ظلمات بعضها فوق بعض، وكلها تضعف الرواية من جهة إسنادها، ولا تشفع لها ولا تقويها رواية ابن شبة[٣] التي يرويها عن أحمد بن إبراهيم الموصلي عن علي بن مسهر ، لضعف الموصلي أحمد بن إبراهيم ، فقد وصفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بأنه "لا بأس به"، وهي عند علماء الجرح لا تفيد توثيقاً لروايته، كما لا تفيد جرحاً.

وأما شيخه في هذه الرواية، ابن مسهر فقال عنه ابن حجر: "قاضي الموصل، ثقة له غرائب بعد أن أضر"[٤]، فمن كان هذا حاله ترد عليه غرائبه ، وتطوى ولا تُروى.

ولو فرض المحقق صحة الإسناد فإن في المتن ما يقتضي رده، إذ ينسب إلى عائشة رضي الله عنها جهلها بما ذكرناه من أوجه الإعراب التي لا تخفى على العرب زمن النبي ﷺ، وقد بيَّن ذلك الإمام أبو عمرو الداني حين أعل الرواية لأنها جعلت "أم المؤمنين رضي الله عنها مع عظيم محلها وجليل قدرها واتساع علمها

---

(١) سؤالات الآجري (١/ ١٤٧).

(٢) ميزان الاعتدال، الذهبي (٤/ ٥٧٥).

(٣) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة (٣/ ١٠١٣).

(٤) تقريب التهذيب، ابن حجر، ص (٤٠٥).

ومعرفتها بلغة قومها؛ لحَّنت الصحابة وخطّأت الكتبة، وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة، وموضعهم الذي لا يُجهل ولا يُنكر، هذا لا يسوغ ولا يجوز.

وقد تأوّل بعض علمائنا قول أم المؤمنين: (أخطؤوا في الكتاب) أي"أخطؤوا في اختيار الأَولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه، لا أن الذين كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز، لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن طالت مدة وقوعه وعظم قدر موقعه، وتأوّل اللحن أنه القراءة واللغة"(١).

وأكد على هذا المعنى الزمخشري: «ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان، وغُبِّي عليه [أي خفي عليه] أن السابقين الأولين - الذين مَثَلُهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل - كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذَبِّ المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم»(٢).

المسألة الخامسة: الجمع بين فاعِلَين في الجملة

قالوا: العرب لا تأتي بضمير فاعل مع وجود الفاعل (اسم ظاهر)، حتى لا يكون في الجملة فاعِلَيْن، بينما القرآن جعل للفعل فاعِلَيْن في قوله: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الذِينَ ظَلَمُوا**﴾، ورأى المتحذلقون من أعاجم العرب أن الأولى أن يقول: (وأسر النجوى الذين ظلموا)، أي حذف ضمير الفاعل (الواو) في ﴿**أسرّوا**﴾ لوجود الفاعل ظاهراً وهو قوله: ﴿**الذين**﴾.

الجواب: سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذا المبحث، فهذا الأسلوب جائز على لغة طيء وأزد شنوءة، وهم من العرب الفصحاء، ويضرب اليوم لهذه

(١) المقنع في رسم مصاحف الأمصار، أبو عمر الداني، ص (٤٥).
(٢) الكشاف، الزمخشري (١/ ٢٩٦).

اللغة مثلاً، وهو قولهم لغة (أكلوني البراغيث).

والعرب تعرف هذا في آدابها وأشعارها(١)، كما قال الشاعر:

نصروك قومي فاعتززتَ بنصرهم ... ولو أنهم خذلوك كنتَ ذليلا

فقد ألحق الشاعر الواو بالفعل في قوله: (نصروك)، مع أن الفعل مسند إلى فاعل ظاهر بعده، وهو قوله: (قومي).

ومنه قول عبد الله بن قيس في رثاء مصعب بن الزبير:

تولى قتال المارقين بنفسه ... وقد أسلماه مبعدٌ وحميم

فقد وصل الشاعر ألف التثنية بالفعل؛ مع أن الفاعل اسم ظاهر (مبعد)، وكان القياس على القاعدة أن يقول: (وقد أسلمه مبعد وحميم).

ومنه قول الشاعر:

فأدركنه خالاتُه فخذلنه ألا ... إن عرق السوء لا بد مدرِك

فألحق نون النسوة بالفعل في قوله: (فأدركنه)، مع وجود اسم الفاعل ظاهراً (خالاتُه).

وقد تكرر مثل هذا النسق الإعرابي في آيات قرآنية وأحاديث نبوية، منها قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ** ﴾ **(المائدة: ٧١)**، فقد ألحق علامة جمع الذكور (الواو) بالفعل في قوله: ﴿ **عَمُواْ وَصَمُّواْ** ﴾ مع أن هذا الفعل مسند إلى فاعل ظاهر بعده، وهو قوله: ﴿ **كَثِيرٌ** ﴾ ، ومنه قوله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»(٢).

فهل تراه بقي لطاعن ما يتكلم به وقد عرف أصالته في لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم .

---

(١) انظر الشواهد الشعرية الآتية وغيرها في شرح ابن عقيل (١/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ح (٥٥٥)، ومسلم ح (٦٣٢).

المسألة السادسة: رفع الفعل المضارع بعد (حتى)

قالوا: أخطأ القرآن حين رفع الفعل المضارع بعد (حتى) في قراءة ورش ﴿**حَتَّى يَقُولُ والرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ**﴾ (البقرة: ٢١٤)، ورأوا أنه لا يصح فيها إلا الفتح، وهو الوجه المشهور عند بقية القراء .

والجواب: إن (حتى) من أعجب كلام العرب لكثرة صور إعرابها، وما تدل عليه في استعمالاتها، فمنها ما هو للعطف، ومنها ما هو للابتداء، ومنها ما هو لغير ذلك، ولكثرة معانيها واستخداماتها في لغة العرب قال أبو زكريا الفراء: "أموت وفي نفسي شيء من حتى"[١].

وللفعل المضارع بعد (حتى) ثلاث حالات:

١- الفعل المضارع الدال على الاستقبال، ويتعين نصبه، كقوله تعالى: ﴿**حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**﴾ (الحجرات: ٩).

٢- المضارع الدال على الحال، ويتعين رفعه، ومثَّل العرب له بقولهم: "شربتِ الإبل حتى يجيءُ البعير يجر بطنه".

٣- المضارع الدال على الماضي في معناه، ويجوز فيه الوجهان: الرفع والنصب، فأما الرفع فلكونه ماض في معناه، وأما النصب لكونه صيغة مستقبل، وقد جمعها الراجز[٢] بقوله:

تلخيص مسألة حتى يا فتى ... رفعك حالاً بعدها إذا أتى
ونصب ما استقبل والوجهان ... في ما مضى معنى فخذ بياني
كشربت حتى تجيءُ الإبل ... وما تلا (فقاتلوا) (وزلزلوا)

---

(١) تاج العروس، الزبيدي (١/ ٥٣٧).

(٢) عبد الودود الشنقيطي في تعليقه على كتاب "الجامع بين التسهيل والخلاصة" للمختار بن بونا.

وعليه فيجوز الوجهان (الرفع والنصب) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ (البقرة: ٢١٤)، لأنه ماض في معناه[١].

وهكذا تبين جهل القائلين بوجود اللحن في القرآن، وتسرعهم في الطعن عليه من غير حجة ولا بينة[٢].

المسألة السابعة: هل أدخل القرآن التنوين على الفعل؟

قالوا: القرآن أدخل التنوين على الفعل، والعرب لا تدخله إلا على الاسم، وذلك في قوله: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ (العلق: ١٥) وقوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣)، واستدلوا لقولهم بكتابتهما في المصحف - وفقًا للرسم العثماني - بالتنوين (لنسفعًا، ليكونًا).

الجواب: التنوين هو نون ساكنة من حيث نطقه (كتابٌ، كتابًا ، كتابٍ)، فإنها تنطق في أحوالها الثلاثة (كتابنْ)، وما ألحق بالفعلين في الآيتين الكريمتين نون ساكنة؛ وهي نون التوكيد المخففة، وتنطق (لنسفعنْ، ليكوننْ).

وهنا يثور سؤال عن سبب كتابة الصحابة لهذين الموضعين (لنسفعًا، ليكونًا) بالتنوين (الذي ينطق نونًا ساكنة) بدلاً من النون الساكنة.

وفي الجواب نقول بأن العرب إذا أرادت الوقوف على بعض الحروف فإنها تغير الحرف الذي تقف عليه، ليقرأ على غير حالة التحريك، ومن

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن، محمد عبد الخالق عضيمة (٢/ ١٤٣).

(٢) للاطلاع على المزيد من الردود على الشبهات المتعلقة بالنحو وغيره أدعو القارئ لمراجعة الموسوعة القيمة التي أعدتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في مصر بإشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.

أمثاله التاء المربوطة التي تنطق تاء عند الوصل (القيامة، الجنة)، وهاء عند الوقف (القيامه، الجنه).

ومثله نون التوكيد المخففة، فإن العرب إذا أرادوا الوقف عليها وقفوا بالألف؛ كما في تنوين النصب، ولأجل ذلك كتب الصحابة هذين الموضعين لنون التوكيد المخففة (تنوينًا)، لأننا ننطقها (نونًا ساكنة) عند الوصل، و(ألفًا) عند الوقف، كما في تنوين الفتحتين سواء بسواء.

وقد أجمع قراء القرآن على الوقوف على هاتين الكلمتين بالألف (لنسفعا) (ليكونا)، قال ابن الأنباري عن النون المخففة: «تتغير في الوقف، ويُقَفُ عليها بالألف. قال تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أجمع القراء على أن الوقف فيهما بألف لا غير .

وقال الشاعر: يحسبه الجاهل ما لم يعلما»[1].

وإذا أردنا التدليل على أصالة ما ننسبه إلى العرب من الوقوف على النون الساكنة بالألف - كالتنوين - ؛ فإن شواهده في شعرهم كثيرة، ونبدأ بالبيت الذي ذكره ابن الأنباري من شعر ابن الأعرابي:

يَحسبه الجاهلُ ما لم يَعلما   شيخًا على كُرسيَه مُعمَّما

فقوله: (يعلما)، أصلها نون ساكنة (يعلمنْ)، وكتبت بالألف كما تنطق حال الوقف.

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف (٢/ ٦٥٣)، حين أراد النحوي اللغوي ابن الأنباري الاستشهاد للقاعدة لم يجد لها شاهداً أفضل من القرآن الكريم، فبدأ به، وثنَّى بشاهد من أشعار العرب، فالقرآن ذروة ما قرأه العربي، وبه يحتج لصحة أسلوبه وسلامة لغته.

ومن شواهد هذا الصنيع عند العرب قول ميمون بن قيس الأعشى في مدح النبي ﷺ:

فإياك والميتاتِ لا تأكلَنَّها ولا تأخذنْ سهما حديدا لتفصِدا
وذا النُّصُبِ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه ولا تعبُدِ الأَوثانَ واللهَ فاعبُدَا
وصلِّ على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تقربنّ جارة إنَّ سرَّها عليك حرام فانكحن أو تابدا(١)

وفيه أربعة شواهد (لتصفدا، فاعبدا، فاحمدا، تأبدا)، فهذه الكلمات الأربع تنتهي بنون ساكنة، وهي تكتب ألفًا كما تنطق عند الوقوف عليها؛ كما الحال في تنوين النصب، ولأجله كتبت في هذه المواضع بالألف، كما في الآيتين الكريمتين.

قال ابن منظور: «أراد (فاعبدنْ)، فوقف بالألف كما تقول: رأيت زيداً»(٢).

وقال الثعالبي: «إنه أراد (والله فاعبدنْ)، فقلب النون الخفيفة ألفًا، وكذلك في قوله عزّوجلّ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾»(٣).

ومثله في شعر العرب قول الشاعر:

أقصِرْ فلستَ بمُقْصِرٍ جُزْتَ المدَى وبلغتَ حيثُ النَّجمُ تحتَكَ فارْبَعا

---

(١) أي كن عزبًا.

(٢) لسان العرب (١/ ٧٥٨)، وانظر الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢١١)، وشرح شذور الذهب (١/ ٢٠٧).

(٣) فقه اللغة، الثعالبي، ص (٢١٤).

فقولـه: (فاربعـا) كتبـت بـالألف كحالهـا عنـد الوقـف عليهـا، وهـي في الأصل (فاربعنْ)، ولو وصلت بما بعدها لقرأت بالنون الساكنة (فاربعنْ).

وأيضـًا مثله قول امرئ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حَبيبٍ ومنزلِ   بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ فحومَلِ

قال أبو الحسن المجاشعي: « أراد (قفنْ) ؛ لأنه يخاطب واحداً بدلالـة قوله في آخر القصيدة :

أحار ترى برقـًا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل».

وكـذلك قـال أبـو عكرمـة الضـبي : «أراد (قفـن)، فأبـدل الألـف مـن النـون الخفيفة»[1].

***

(١) النكت في القرآن الكريم ، ص (٤٥٨)، وتاج العروس (٤٠/ ٣٦٤).

ثانياً : الأخطاء البيانية المزعومة

وإذا كان القرآن قد تحدى العرب ببلاغته زمن جزالة اللغة وحجية الناطقين بها؛ فإن بعض أعاجم العرب اليوم يزعمون أن في أساليب القرآن ما لا تجيزه العرب في كلامها، وكأني بهم لم يطلعوا على خبر لبيد بن ربيعة العامري صاحب إحدى المعلقات السبعة، وهو من فحول شعراء العرب، فقد سأله عمر بن الخطاب يوماً: أنشدني من شعرك. فقرأ له لبيد سورة البقرة ، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران.

وقد ترك قول الشعر إعجاباً بالقرآن، حتى قيل أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه القرين الصالح

وقيل بل قال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً[1]

إن عظمة البيان القرآني دعت المستشرق بلاشير إلى الإشادة والإعجاب ببلاغة القرآن، وهو الذي لم يألُ جهداً في الطعن في القرآن ومعاداته في كتابه "القرآن: ترجمة جديدة" (Le Coran: Traduction nouvelle)، لكنه قال: «إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً يمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة؛ تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف»[2].

وإذا كان الأمر كذلك فلسوف نتوقف مع أهم ما استشكله عباقرة البيان في هذا العصر، ممن لا يفرق بين المرفوع والمنصوب، والمشبه والمشبه به:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٥٣)، وتاريخ المدينة المنورة، ابن شبة (٢/ ٦٧٩).
(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (٥٢).

المسألة الأولى: عود الضمائر في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى رسول الله ﷺ.

قالوا: أتى القرآن بتركيب يؤدي إلى اضطراب المعنى، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ لتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفتح: ٨-٩)، فقالوا: الأصل في الضمير عوده على آخر مذكور، بينما نجد أن الضمير في قوله: ﴿تعزّروه وتوقروه﴾ عائد على الرسول المذكور آخراً.

وأما قوله: ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ عائد على اسم الجلالة المذكور أولاً.

وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بطريقين صحيحين:

الأول: اعتبر ابن الجوزي جمع شيئين مختلفين في سياق واحد من صور بلاغة العرب، فيرد كل واحد منهما إلى ما يليق به، وضرب له أمثلة، منها هذه الآية، وأمثلة أخرى، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤). فالمعنى يقول المؤمنون: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾، فيقول الرسول: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ (القصص: ٧٣)، فالسكن بالليل، وابتغاء الفضل بالنهار، لكنه جاء بالسكن بعد ذكر النهار، لأن السامع يعلم اختصاص الليل بالسكن، والنهار بالبحث عن الرزق وابتغاء فضل الله فيه.

وبمثله يمكن فهم آية سورة البقرة، فالمعنى: لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزروا رسوله وتوقروه، فهذان من حق الرسول، ثم شرعت الآية في الحديث عن حق الله فيقول: وتسبحوه، وأهمل التفصيل لأنه مستغنى عن ذكره لكونه معلوماً عند أهل العلم والبيان، ومن المعيب في البيان ذكر ما يستغنى عنه.

ولهذا المعنى حبذ القرطبي الوقوف على قوله: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ ثم الابتداء بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١].

الثاني: أنه ليس ما يمنع أن تعود الضمائر كلها على الله، أي لتؤمنوا بالله وتعزروه أي تنصروه، وتوقروه وتسبحوه، فتعزير الله هو نصره تبارك وتعالى بنصر دينه، وهو كقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وكقوله ﷺ: «**الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، فقال: لله ولرسوله ولكتابه**»[٢].

المسألة الثانية: ورود ضمير المفرد في سياق التثنية

قالوا: أتى القرآن بضمير المفرد في حديثه عن المثنى، وذلك في قوله: ﴿**والله ورسوله أحق ان يرضوه**﴾ (التوبة: ٦٢)، وقالوا مستنكرين: لماذا لم يثنّ الضمير العائد على اثنين (اسم الجلالة ورسوله)؟ فالأَولى تثنيتهما، وأن يكون السياق: (أحق أن يرضوهما).

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

أ- إفراد الضمير ليختص بالحديث عن الله، وليدل بذلك على أن إرضاء الله هو عين إرضاء الرسول، فمن أرضى الله فلا ريب أنه أرضى الرسول ﷺ، ومثله قول الله: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، فأفرد الضمير لتلازم الرضائين.

كما أهمل عود الضمير على الرسول لمعنى آخر: وهو التفريق بين الرضائين (رضا الله ورضا رسوله)، فإرضاء الله مقصود لذاته، بينما إرضاء الرسول تبع لرضا الله، لا يستقل، ولو استقل رضاه عن رضا الله – وحاشاه – لما صح أن يطلب رضاه.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم ح (٥٥).

ب- الأَولى أن لا يذكر مع اسم الله أحد، فلا يُثَنَّى مع اسم الله ملَك ولا رسول، ولا يُذكر الله تعالى مع غيره في صيغة تشرك معه غيره ، بل يفرد بالذكر تعظيماً له، ففي صحيح مسلم أن خطيباً قام عند النبي ﷺ فقال في خطبته : "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى". فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**»(١). فكره النبي ﷺ أن يجمع مع الله غيرُه في ضمير واحد.

ج- وذهب سيبويه في فهم الآية على وجود خبر محذوف للعلم به ضرورة، فالمعنى: (الله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك)، فيكون الكلام جملتين حُذف خبر إحداهما لدلالة الثاني عليه، والتقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك(٢)، قال أبو عبيدة : «والعرب إذا أشركوا بين اثنين قصَروا، فخبَّروا عن أحدهما استغناء بذلك، وتحقيقاً لمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر، وأنشد :

فمن يك أمسى بالمدينة رحْلُهُ   فإني وقيَّارٌ بها لغريب»(٣)

ولم يقل: (لغريبان)، فالمعنى: (إني لغريب، وقيار كذلك) .

ومثله كثير في أشعار العرب(٤) كقول الفَرَزدق:

إنّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أتانِي ما جَنى   وأَبي فَكانَ وكُنْتُ غَيرَ غَدُورِ

ولم يقل: (غَدُورَيْن)، والمعنى: (فكنت غير غدور ، وأبي كذلك).

---

(١) أخرجه مسلم ح (٨٧٠).

(٢) إعراب القرآن، ابن سيده (٥/ ٢٩٠).

(٣) مجاز القرآن، أبو عبيدة (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٤) انظر المصدر السابق، وزاد المسير، ابن الجوزي (٣/ ٤٣٠)، والمدخل لدراسة القرآن ، محمد أبو شهبة ، ص (٣٣٦).

ومثله قول عمرو بن أحمر الباهلي:

رماني بأمر كنتُ منه ووالدي بريئًا ومن أجل الطوى رماني

ولم يقل: (بريئين). والمعنى: (من أجل شجارنا عند بئر الطوى رماني بما أنا بريء منه، وكذلك والدي).

وهذا الذي عرفته العرب[1] من الاكتفاء بأحد المذكورَين، والاستغناء بذكره عن الآخر لشرف الأول أو لغيره من الأسباب البيانية تكرر كثيراً في القرآن: كقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ (الجمعة: ١١)، لم يقل: (إليهما)، بل أعاد الضمير إلى التجارة؛ لأنها الأهمّ.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ (النساء: ١١٢)، أي يرمي بالإثم، ولم يقل: (بهما)، بل أعاد الضمير على الإثم دون الخطيئة، لأنه أعظم منها.

المسألة الثالثة: خطاب المثنى بصيغة الجمع

قالوا: أتى القرآن بالمعيب عند أهل البيان حين ذكر المثنى بصيغة الجمع، في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤)، فالخطاب موجّه لحفصة وعائشة. فلماذا لم يقل: (صغا قلباكما)، إذ أنه ليس للاثنتين أكثر من قلبين؟

وفي **الجواب** ذكر علماء اللغة أجوبة، أهمها:

أ- أن الله قد أتى بالجمع في قوله: ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، لأنه يسوغ في لغة العرب؛ لإضافته إلى مثنى، وهو ضميرهما. والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى. فإن العرب تكره اجتماع تثنيتين، فيعدلون إلى صيغة الجمع؛ لأن التثنية جمع في المعنى والأفراد.

---

(١) انظر: فقه اللغة، الثعالبي (٢/ ٥٦٩-٥٧٠).

ب- أن الكثير من العرب يجعل أقل الجمع اثنين، والقرآن وافق العرب في أساليبها في هذا الموضع وفي غيره ، فعبر عن المثنى بالجمع، ومنه قول الله لآدم وحواء: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ (البقرة: ٣٦)، ووافق أسلوب غيرهم ممن يجعل أقل الجمع ثلاثة في سورة طه، فقال: ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ (طه: ١٢٣).

ومثله قول الله لموسى وهارون: ﴿**قَالَ كَلاَّ فاذهبا بآياتنا إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ**﴾ (طه: ١٥)، ووافق أسلوب الآخرين في سورة طه: ﴿ **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى**﴾ (طه: ٤٦).

وأمثلته في كلام العرب أكثر من أن تحصى، ومنه قول الأخفش:

لما أتتنا المرأتان بالخبر　　　فقلنَ إن الأمر فينا قد شهر

وقال أبو سعيد الزيدي:

يحيِّي بالسلام غنيَّ قوم　　　ويَبخلُ بالسلام على الفقير

أليس الموت بينهما سواءً　　　إذا ماتوا وصاروا في القبور[1]

فقال: (ماتوا)، ولم يقل : (ماتا)، مع أن واو الجماعة تتعلق باثنين، وهما الغني والفقير.

المسألة الرابعة: تذكير المؤنث

قالوا: أخطأ القرآن حين ذكَّر المؤنث في قوله تعالى: ﴿**اللهُ الذِي أَنزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَالمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾ (الشورى: ١٧)، فقال في سياق حديثه عن (الساعة)، وهي مؤنثة: ﴿ **قَرِيبٌ** ﴾ ولم يقل: (قريبة).

ومثله في قوله: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٦)، ولم يقل:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٣)، وفقه اللغة ، الثعالبي (٢/ ٥٧٠).

(قريبة)، مع أنه يتحدث عن رحمة الله، وهي مؤنثة.

والجواب: أن المعترض يجهل أن العرب تجيز التسوية بين المذكر والمؤنث في مواضع، أهمها خمسة أوزان، وهي: (فعول) كرجل شكور وامرأة شكور، (مِفْعال) كرجل مِقدام وامرأة مِقدام، (مِفعيل) كرجل مسكين وامرأة مسكين، (مِفعَل) كرجل مغشم وامرأة مغشم، (فعيل) كرجل جريح وامرأة جريح(١).

وقوله تعالى: ﴿ قَرِيبٌ ﴾ على وزن (فعيل)، فيسوى فيها بين الذكر والأنثى.

ومنه قول امرئ القيس

له الوَيْلُ إِنْ أَمْسَى ولا أُمُّ هاشمٍ ... قَرِيبٌ ولا البَسْباسةُ ابنةُ يَشْكُرا

ومنه قول قيس بن الخطيم:

فليت أهلي وأهل أثلة في الـ ... دار قريب من حيث نختلف

ومثله قول وضاح:

حين تنبي أن هنداً قريب ... يبلغ الحاجات منها الرسول

ومثله قول عبد الله بن الحجاج:

وأنى ترجي الوصل منها وقد نأت ... وتبخل بالموجود وهي قريب

وقد جمع بين الوجهين (بعيدة ، قريب) الشاعر بقوله:

عشية لا عذراءُ منك بعيدة ... فتدنو ولا عذراءُ منك قريب(٢)

المسألة الخامسة: ضمير الجمع والإفراد

قالوا: القرآن يخلط بين المفرد والجمع، وذلك في قوله: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي

---

(١) وانظر بيانه في صبح الأعشى، القلقشندي (١/ ٦١).

(٢)انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٦٦٣).

اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٧)، فصدر الآية يتحدث عن مفرد ﴿ **الَّذِي اسْتَوْقَدَ** ﴾ ، لكنه في آخر الآية استخدم ضمير الجمع ﴿ **بِنُورِهِمْ** ﴾، والأولى - حسب زعمهم - أن يقول: (بنوره)، كما استشكلوا أمراً آخر، وهو تشبيه الجماعة بالواحد.

والجواب: أن الله لم يشبه الجماعة بالواحد، وإنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، فالمعنى: مَثَلُ استضاءة المنافقين بما أظهروه بلسانهم وهُم به مكذبون اعتقاداً؛ كمثَل استضاءة المُوقِد ناراً.

ولن يعترض معترض على قولنا: (كمثل استضاءة)، فالحذف في الكلام معروف عند العرب، إذا فهم المعنى من السياق، كما قال نابغةُ بني جَعْدَة:

وَكَيْفَ تُوَاصِل من أَصْبَحَتْ خِلالَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ[1]

أي: كخِلالة أبي مَرْحب. فأسقط (خِلالة)، لأنها مفهومة من السياق.

وأما تمثيلَ الجماعةَ بالواحد فجائز، ومثاله كثير في القرآن ولغة العرب، كقوله: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ** ﴾ (الجمعة: ٥).

ثم يصح أن يقال: إن الآية تتحدث عن مستوقد واحد أضاء للمجموع، فصار هذا الضوء لهم جميعاً، لأنهم جميعاً منتفعون به.

ووجه آخر لم يعرفه أعاجم العرب الطاعنون في القرآن، وهو أن العرب تأتي بـ (الذي) بمعنى (الذين)، كما قال الأشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفَلْج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

ومثله قول الشاعر:

ربَّ عَبْس لا تُبارِكْ في أَحَدْ في قائمٍ منهم ولا فيمن قَعَدْ
إلاّ الذي قامُوا بأَطْراف المَسَدْ[1]

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري (١/ ١٧٤).

□**المسألة السادسة:** هل يعود الضمير على غير مذكور في السياق؟

قالوا: كيف يعود القرآن بالضمير على غير مذكور في القرآن كله، وذلك في آية رفع المسيح وإلقاء شبهه على غيره، وهي قوله تعالى: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ (النساء: ١٥٧)، أي: (شُبِّه لهم غيرُ المسيح بالمسيح)، فضمير نائب الفاعل في قوله: ﴿ **شُبِّه** ﴾ يعود على (المصلوب البديل)، وهو غير مذكور في السياق، لا بل هو غير مذكور في القرآن كله؟

والجواب: القرآن نزل في مخاطبة العقلاء، ومن فائق بلاغة البليغ أن يطوي أو يضمر ذكر بعض ما يعرفه السامعون ببداهة عقولهم، فيستغنون بها عما لا يستغني عنه أصحاب البلادة.

وقد كان من عادة العرب في كلامهم العودُ بالضمير على غير مذكور في السياق لاستغناء السامع عن ذكره، لذا وردت أمثلة عديدة له في آيات القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى في صدر سورة القدر: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ (القدر: ١)، فالضمير في قوله ﴿ **أَنْزَلْناهُ** ﴾ يعود على (القرآن الكريم)، وهو غير مذكور في السورة، لكنه مفهوم من السياق.

ومثله عود الضمير في قوله تعالى: ﴿ **كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ** ﴾ (القيامة: ٢٦-٢٧)، وقوله: ﴿ **فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** ﴾ (الواقعة: ٨٣-٨٤)، فالضمير في كلتا الآيتين في قوله: ﴿ **بَلَغَتِ** ﴾ يراد منه (الروح)، وهي غير مذكورة في السياقين، لكنها مما يفهمه السامع، فيستغنى عن ذكرها البلغاء.

---

(١) انظر المصدر السابق (١/ ١٧٤)، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٨٤)، وسر صناعة الإعراب، ابن جني (٢/ ٥٣٧).

وكذلك يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿**فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ۞ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ۞ إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً ۞ فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً**﴾ (الواقعة: ٣٢-٣٦)، فيعرف أن ضمير النسوة في قوله: ﴿**أَنْشَأْناهُنَّ**﴾ يراد منه (حوريات الجنة)، رغم أنهن غير مذكورات في السياق.

وهو كذلك يدرك عود الضمير على (الأرض) حين يقرأ قول الله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ (الرحمن: ٢٦)، وقوله: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**﴾ (فاطر: ٤٥)، ومع أن (الأرض) غير مذكورة في السياقين، فإن معنى قوله: (عليها، ظهرها) لم يلتبس على أحد ممن يفقه كلام العرب وأساليبهم، فهذا أسلوب عربي في البيان، سجلوه في الكثير من أشعارهم التي تمثل إحدى ذرى البيان العربي، فمنه قول حميد بن ثور:

وصهباء منها كالسفينة نضجت   به الحمل حتى زاد شهراً عديدها

فالضمير في قوله: (منها) يراد به (الإبل)، وهن غير مذكورات فيما قبله من أبيات.

ومثله قول حاتم الطائي في مطلع رائيته:

أماويُ ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقوله: (حشرجت وضاق بها) يعني به حشرجة (الروح)، وهي غير مذكورة في هذا البيت الذي استفتح به قصيدته.

وكذلك قول لبيد في معلقته:

حتى إذا ألقت يداً في كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

فالضمير في قوله: (ألقت)، يراد منه (الشمس)، ولم يجر لها ذكر فيما قبله، ولكن يدل عليه عجز البيت، وهو قوله: وأجن عورات الثغور ظلامها.

ومثله كذلك قول طرفة في معلقته:

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي   ألا ليتني أفديك منها وأفتدي

فالضمير في قوله (مثلها) عائد على (الفلاة) ولم يرد لها ذكر في الأبيات قبله، لكنه مفهوم من السياق، فاستغنى البلغاء عن التصريح به لاستغناء العقلاء عنه.

وهكذا فإن عود الضمير على غير مذكور في السياق ضرب من ضروب البلاغة التي لم يعرفها الطاعنون في القرآن، فحالنا وحالهم كما قال الشاعر:

إذا حسناتي اللاتي أدل بها   صارت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

المسألة السابعة: هل في القرآن ما هو لغو ولا معنى له؟

قالوا: إن في القرآن ما يعتبر لغواً في الكلام، ولا فائدة من ذكره، ومقصدهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ (البقرة: ١٩٦)، فقالوا: ﴿ **عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ لا داعي لها، لأن كل سامع للآية يعرف أن ٧+٣=١٠.

والجواب:

كلام العقلاء والبلغاء قائم على الاختصار غير المخل والإسهاب غير الممل، فثمة مواضع يحلو فيها الكلام بذكر بعض لا يخلو من بعض التفاصيل، فنقول: رأيته بعيني. وسمعته بإذني. والرؤية لا تكون إلا بالعين، والسمع لا يكون إلا بالأذن، ومع ذلك لا يعتبر هذا من لغو الكلام، بل هو متمم لجماله.

والعرب في بليغ كلامها إذا ذكرت عددين فإنها تجمعهما فيما يسمونه

الفذلكة [١]، ولا يرون في ذلك لغواً أو عيباً، قال ابن عرفة: «مذهب العرب إذا ذَكَرُوا عَدَدين أَن يُجْمِلُوهما» [٢]، وبمثله نزل القرآن كما في الآية التي استشكلوها، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢).

وشواهد الفذلكة في شعر العرب كثير، منها قول النابغة:

توهَّمْتُ آياتٍ لها فَعرَفْتُها   لِسِتَّةِ أَعْوامِ وذا العامُ سابِعُ

وكذلك قوله:

قالت ألا لَيتما هذا الحمامُ لنا   إلى حمامَتا ونِصْفُهُ فَقَدِ
فحسبوه فألْفَوْه كما حَسِبتْ   تسعاً وتسعين لم تنقُص ولم تَزِدِ
فكمّلَتْ مائةً فيها حمامتُها   وأسرعتْ حِسْبةً في ذلك العدد

فقوله: (سابع) و (فكمّلَتْ مائةً) قد يراه الجاهل بطرائق العرب لغواً يعيب الكلام، لكن هيهات لأعاجم العرب الذين لا يملكون من الذوق اللغوي ما يملكه النابغة أو الفرزدق القائل:

ثَلاثٌ واثْنتانِ فهُنّ خَمْسٌ   وثالِثةٌ تَميل إِلى السِّهَام

ومثله من الفذلكة كذلك قول الأعشى:

وسِتّ حين يدركني العشاء   ثلاثة بالغداة فهي حسبي
وشرب المرءِ فوق الريِّ داء   فذلك تسعة في اليوم ريّي

فهذه الشواهد التي قالها أدباء العربية وأساطينها تبين فناً من فنون البيان

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٧/ ٢٩٤).

(٢) لسان العرب (٤/ ٥٨٦).

جهله الطاعنون في القرآن الذي نزل وفق نسق كلام العرب موافقـًا لوجوه بلاغتهم.

وقد ذكر العلماء وجوهـًا من المعاني تبين فائدة الفذلكة، منها دفع التوهم بأن الواو التي بين الأرقام بمعنى (أو)، وهو معنى صحيح لها على مذهب علماء العربية الكوفيين، فعن قوله تعالى: ﴿ **فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ** ﴾ قال الزجاج: «جَمَعَ العددين لجواز أن يُظَنَّ أنَّ عليه ثلاثة أو سبعة، لأن الواو قد تقوم مقام (أو)، ومنه: ﴿**مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ (فاطر: ١)، فأزال احتمال التخيير»[١].

وقال الزمخشري: «فائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة، كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم».

وقال غيره من العلماء: ذكر الله العشرة لئلا يتوهّم أنَّ العدد سبعة يراد به الكثرة، لا العدد نفسه، كما هو معهود عند العرب، فقد روى أبو عمرو بن العلاء وابن الأعرابي عن العرب: "سَبَّع الله لك الأجرَ" أي أكثر ذلك، يريدون التضعيف.

وقال الأزهري في قوله تعالى: ﴿ **إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** ﴾ (التوبة: ٨٠) هو جمع السبع الذي يستعمل للكثرة[٢]، وهو مشهور في لغة العرب.

ولهذا لما احتمل أن يُتوهّم أنَّ المراد بالسبع ما هو أكثر من السبع، ذكرت الآية الفذلكة، فرفع هذا الاحتمال.

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٢/ ٢٦٨).

(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٢٦٨).

وهكذا ففي كل هذه الوجوه ما يؤكد على حكمة الله البالغة بذكر جمع الأعداد؛ وإن جهل ذلك الطاعنون في القرآن والشانئون له بغير علم ولا بينة.

ومن ذلك كله تبين جهل الطاعنين في بلاغة القرآن وأسلوبه، لقد جهلوا لغة العرب وبلاغة القرآن التي عرفها أعداؤه زمن بلاغة العرب وجزالة اللغة، فقال قائلهم (الوليد بن المغيرة): والله إنَّ لقولِه الذي يقولُ لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدِقٌ أسفلُه، وإنه ليعلو وما يُعلا، وإنه ليَحطِم ما تحته"[1].

***

(١) السيرة النبوية، ابن كثير (١/ ٤٤٩).

التناقضات المزعومة في القرآن الكريم

التناسق الداخلي للنص شرط لا غنى عنه في الكتاب حين ينسب إلى كاتب حصيف، وهو من باب أولى شرط في الكتاب حين ينسب إلى الله عز وجل؛ لذا يستحيل أن يوجد التناقض في كلام الله ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً** ﴾ (النساء: ٨٢).

وما ذكره البعض عن تناقضات مزعومة في القرآن لا يعدو أن يكون سوء فهم منهم لآياته أو جهلاً بلغة العرب ومساقات كلامها، وهذا بيِّن لمن تبصر هذه المواضع التي استشكلوها:

الإشكال الأول: هل أقسم الله بمكة أم لم يقسم؟

قالوا: تناقض القرآن في مسألة قسم الله بمكة، فهو أقسم بها في قوله: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ (التين: ٣)، وفي موضع آخر ينكر هذا القسم بمكة، فيقول: ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ (البلد: ١).

والجواب: لقد أقسم الله بالبلد الأمين (مكة) كما في آية سورة التين.

وما فهمه المعترضون من آية سورة البلد خطأ قادهم إليه جهلهم بلغة العرب وطرائقها في البيان، ففي قوله: ﴿ **لَا أُقْسِمُ** ﴾. (لا) ليست (لا) النافية التي تعني نفي القسم، بل هي (لا) الصلة، ويسميها بعض النحويين (لا) الزائدة، فهي زائدة نحويًا، وإن كانت غير زائدة بلاغيًا، لأنها تفيد التأكيد[1].

قال الزجاج : "لا اختلاف بين الناس أن معنى قوله تعالى : ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ**

---

(١) انظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (٨/ ٣٤٩)، والأصول في النحو، ابن السراج البغدادي (٢/ ٢٥٩).

الْقِيَامَةِ ﴾ وأشكاله في القرآن معناه: أقسم"[١].

والعرب ما زالت تستخدمها في كلامها من القديم، فهي كقولنا: لا أوصيك بفلان، أي لا أحتاج إلى وصاتك به، فهي نوع من التأكيد على الوصاة، وليست طلباً للإهمال.

ومن طريف الأخبار أن رجلاً سأل أبا العباس بن سريج عن هاتين الآيتين، فقال ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك؟ أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال الرجل: بل اقطعني ثم أجبني.

فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال ، وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجَهِلْتَ، فلم ينكروا منه ما أنكرت[٢].

إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتاً[٣].

ومثله كثير في أشعار العرب[٤]، ومنه قول النابغة:

فَلاَ وَحقِّ الَّذِي مَسَّحْت كَعْبَتَهُ ... وَمَا هُرِيق عَلَى الأنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

أي: فوحق الذي...

وقول الآخر:

---

(١) تاج العروس، المرتضى الزبيدي (٤٠/ ٤٧٠)، وانظر: لسان العرب ، ابن منظور (١٥/ ٣٦٤).

(٢) وهذا كلام نفيس ينطبق على الكثير مما يخطه أصحاب الأباطيل – اليوم – عن القرآن الكريم.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٥٤)، وانظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ص (٣٢٩).

(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص (٢٤٤-٢٤٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠/ ٥٩)، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، الشنقيطي، ص (٢٦٩-٢٧١).

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي: يتصدع .

ومثله قول الشاعر:

فَلاَ وَاللهِ لاَ يُلْقَى لمَا بي وَلاَ لِما بهِمْ أبَداً دَواءُ

أي: فوالله .

ومثله قول طرفة:

فَلاَ وَأَبِيكِ ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

أي : وأبيكِ .

وهذا الأسلوب في القسم يفيد تعظيم المقسم به ، كما في سورة البلد، وكما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٧)، وكقوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ١-٢).

وقد وردت (لا) الصلة في مواضع كثيرة في القرآن الذي نزل بلغة العرب، ومنه قوله: ﴿ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٣)، أي (لتحزنوا)، وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ (طه:٩٢-٩٣)، أي (أن تتبعن)، وقوله: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: ٦٥)، أي: (فوربك)، وقوله: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ ﴾ (الحديد: ٢٩)، أي : (ليعلم أهل الكتاب).

وقد ورد في سياق قصة آدم إثبات (لا) الصلة في موضع، وحذفها في آخر، لجواز الوجهين وتكامل معنييهما، فأما إثباتها ففي قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف: ١٢)، وقد حذفت في قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ (ص: ٧٥)، والمعنى فيهما واحد، وهو: ما الذي منعك أن تسجد لآدم؟.

الإشكال الثاني: كم عدد الملائكة الذين نزلوا يوم بدر؟

قالوا: اختلفت الآيات في عدد الملائكة النازلين في غزوة بدر، ففي سورة الأنفال أنهم ألف: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ (الأنفال: ٩)، وفي سورة آل عمران أنهم ثلاثة آلاف ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾ (آل عمران: ١٢٤)، وفي الآية التي بعدها أصبحوا خمسة آلاف ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ (آل عمران: ١٢٥).

والجواب: أما الخمسة الآلاف فجاء ذكرها في تعزية المسلمين في هزيمتهم في غزوة أُحد، فامتن الله على الصحابة بذكر مدد ملائكة بدر، وذكر لهم أن المشركين لو عادوا إليهم فإن الله سيمدهم بخمسة آلاف من الملائكة إذا صبروا على ما فيهم من الجراحات وثبتوا لقتالهم ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ (آل عمران: ١٢٤)، لكن الله منَّ على المسلمين بعد أن أظهروا الثبات وتجهزوا للقتال، فصرف عنهم المشركين، فلم يعودوا لقتالهم، ولم تتنزل الملائكة في أُحد لفوات الشرط ﴿**وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ**﴾.

وقال بعض أهل العلم: بل كان هذا الوعد في بدر حين بلغ المسلمين أن كرز بن جابر الفهري يمد المشركين، فشق عليهم، فأنزل الله: ﴿**أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ (آل عمران: ١٢٥)، قال الشعبي: فبلغت كرز الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم يمد

الله المسلمين بالخمسة آلاف(١)، فهذا خبر الخمسة آلاف.

والحق أن الله أنزل من الملائكة يوم بدر ثلاثة آلاف، كما قال النبي ﷺ لأصحابه قبل المعركة: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٤)، وقد نزل هؤلاء الملائكة بالترادف ألفًا بعد ألف، كما قال الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، فقوله: ﴿ مُرْدِفِين ﴾ تعني: ردفهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أُخر مثلهم، فالترادف هو التتابع، والرادف: المتأخر، والمردف: المتقدم الذي أردف غيره(٢).

الإشكال الثالث: أيهما خلق أولاً، السماوات أم الأرض؟

قالوا: تناقض القرآن حين تحدث عن ترتيب وجود المخلوقات، فتارة يجعل الأرض مخلوقة قبل السماء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩)، وأكد هذا في سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: ٩-١٢)، فهذه الآيات تجعل خلق الأرض قبل خلق السماوات، بدليل قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء﴾

---

(١) جامع البيان، الطبري (٣/ ٤٢٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٢)، والبحر المحيط، ابن حيان (٨/ ٣٠٧-٣٠٨)، ومفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص (١٩٣).

في الموضعين.

وتارة يجعل القرآن خلق السماء قبل خلق الأرض ﴿ **أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣)[١].

وفي الجواب : عن هذه الشبهة وجوه ثلاثة:

الأول: وهو الذي مال إليه جمهور المفسرين في القديم، ويقوم على أن مادة الأرض خلقت في اليومين الأولين، ثم خلقت السماوات في اليومين الثالث والرابع، ثم دحيت الأرض وجهزت لتصلح لاستقرار حياة الإنسان في اليومين الأخيرين.

وهذا الوجه أخرجه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن رجلاً استشكل مسألة ترتيب الخلق بين السماوات والأرض ، فسأله عنها ؛

(١) قبل المضي في جواب هذه الشبهة أود الهمس في آذان مثيري هذه الأُبطولة وأضرابهم، وأقول بأن لغة العرب أوسع بكثير من فهومهم الكليلة، فقول العرب (بعد هذا) أو (بعد ذلك) لا يفيد بالضرورة التراخي والترتيب الزماني، بل قد تأتي بمعنى (إضافة إلى ذلك)، وهو تأويل ذكره بعض المفسرين لقوله تعالى: ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾ (النازعات: ٣٠)، أي إضافة إلى خلقه السماوات فإنه دحى الأرض.

وهذا المعنى لـ (بعد) مشهور عند العرب، وقد تكرر في القرآن في مواضع ، منها قوله : ﴿ **هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ (القلم: ١٣)، أي هو ملحق في قومه وليس منهم؛ إضافة إلى اتصافه بتلك الصفات الذميمة، ومن المعلوم أن كونه دعياً في قومه متقدم في التاريخ على اتصافه بهذه الصفات، فهو كذلك من قبل.

ومثله قوله: ﴿ **فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ (التحريم: ٤)، أي أن الله يتولى النبي ﷺ وجبريل والمؤمنون، وينضاف إليهم تأييد الملائكة.

فأجابه ابن عباس: (وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض ، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين)(١) وشهرة هذا الوجه عند المفسرين تغني عن تفصيله.

الثاني: وهو الذي ذكره بعض المتأخرين من أهل العلم، وهو ما يترجح لي، وأجمله بالقول: السماوات والأرض خلقتا معًا في اليومين الأولين، ثم تكامل خلق الأرض وإعدادها للإنسان في الأربعة الأخيرة من الأيام الستة.

وتفصيله : الله خلق السموات والأرض معًا مجتمعين ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والرتق ضد الفتق ، أي كانتا منضمتين ، بعضهما إلى بعض، ثم فتقهما الله، فحدث ما يسمى عند علماء الجيولوجيا والفلك بالانفجار الكبير، قال ابن كثير: «ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا، أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه»(٢).

وقد وضحت هذا المعنى الآيات القرآنية كما في قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، فالخلق يعود إلى حالته الأولى، فيطوى من جديد ﴿**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ (القيامة: ٩).

وأما كون الخلق للسماوات والأرض في يومين فهو لقول الله عن السماوات: ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾، وعن الأرض: ﴿ **خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾، فهذان هما اليومان الأولان، ثم دحيت الأرض واكتمل

(١) انظر: باب تفسير القرآن في صحيح البخاري.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٢٣٨).

إعدادها لصلاح معيشة الإنسان عليها في أربعة أيام أخرى ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ** ﴾.

وقد يشكل على البعض - ممن قلَّ علمه بلغة العرب ودلالات الألفاظ فيها- أن آيات سورة فصلت تحدثت عن خلق الأرض في يومين، ثم تحدثت عما خلق الله فيها في أربعة أيام ، ثم قال الله بعد ذكر هذا وذا: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾، فاعتقدوا أن ﴿ **ثُمَّ** ﴾ تفيد التأخر والتراخي، ومثله فهموه من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** ﴾ (البقرة: ٢٩).

وهكذا ينحصر الإشكال في دلالة كلمة (ثم) على التراخي والترتيب.

لكن أهل البلاغة يعرفون أن (ثم) لا تفيد بالضرورة الترتيب الوجودي الذي نعرفه في المتبادر إلى الذهن، بل لها دلالة أخرى، وهو ما تسميه العرب (الترتيب الذكري).

ولبيان هذا النوع من الدلالة لـ (ثم) نقرأ قول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه   ثم قد ساد قبل ذلك جده[1]

والمعنى: اذكروا خبر من ساد، ثم اذكروا خبر من ساد أبوه، ثم اذكروا خبر من ساد جده. وليس المعنى أن المرء يسود ثم يسود أبوه ثم يسود جده، بل العكس هو الصحيح، فالمرء يسود بعد سؤدد جده وأبيه.

ويشهد لصحة هذا الفهم قول الشاعر: (ثم ساد قبل ذلك)، فـ (ثم) للترتيب الذكري ، لا الوجودي.

ومثله قول طرفة بن العبد وهو يصف راحلته :

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ١٠٢)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، ص (١٥٩)، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/ ٢١١).

جَنُوح دِفاق عَنْدَلٌ ثم أُفرِعَت لَهَا كَتِفَاها في مُعَالىً مُصَعَّد

فإنه ذكر جملة من محاسنها، ثم نبه على وصف آخر أهم في صفات عنقها، وهو طول قامتها (ثم أُفرعت)، ولا يقصد أن قامتها طالت بعد اتصافها بهذه الصفات[1].

وهذه الدلالة لـ (ثم) موجودة في القرآن الكريم في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** ﴾ (السجدة: ٧-٩)، ومن المعلوم أن التسوية تكون قبل إنجاب النسل، فهذا لا يخفى، ومع ذلك قال القرآن: ﴿ **جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ** ﴾ فـ (ثم) هنا للترتيب الذكري؛ لا الوجودي، والمعنى: ثم اذكر كيف سواه الله.

ونحو هذا ما جاء في سياق وصايا الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ** ﴾ وفي آخرها يقول: ﴿ **ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** ﴾ (الأنعام: ١٥٣-١٥٤)، ومن المعلوم أن موسى كان قبل وصية الله لنبينا ﷺ، لكن الترتيب الوجودي غير مراد في قوله: ﴿ **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى**﴾.

ومثله أمره تبارك وتعالى للمؤمنين بالإفاضة من عرفات بعد حديثه عن المشعر الحرام ﴿ **فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**﴾ (البقرة: ١٩٨)، ثم عادت الآية التي بعدها للحديث عن مسألة الإفاضة من عرفات ووجوب مخالفة المشركين فيها، وصدرت الآية بـ(ثم)، فقال الله: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ**

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (١/ ٣٧٦-٣٧٧).

رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٩٩)، ومن المعلوم أن الوقوف بعرفات سابق على الوقوف بالمشعر الحرام (مزدلفة).

ومثله قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۞ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٧-٨)، والسؤال يكون يوم القيامة قبل رؤية الجحيم، وأمثال هذا الاستخدام لـ(ثم) كثير في القرآن[1].

وإذا تبين ما تفيده (ثم) عند العرب، فلنقرأ الآيات مع أبي حيان الأندلسي وفق هذا المفهوم: "(ثم) لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة، كأنه قال: فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء، فلا تعرض في الآية لترتيب .. فصار كقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (البلد: ١٧) بعد قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١)، ومن ترتيب الإخبار ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ (الأنعام: ١٥٤) بعد قوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

ويدل على أنه المقصود؛ الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زماني قوله في الرعد: ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢) الآية، ثم قال بعد: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ (الرعد: ٣) الآية. وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي، وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها، ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زماني"[2].

وهكذا يستبين معنى آيات سورة فصلت التي قد ورد فيها الإشكال، فقد بدأ القرآن بالحديث عن خلق الأرض، لأنها القريب المباشر للإنسان، ثم انتقل

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٢/ ١١٦-١١٨).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٥/ ٣٥٤).

للحديث عن البعيد، وهو السموات، من غير أن يكون ذلك مقتضياً خلق الأرض قبل السماء.

وهكذا، فهذان الوجهان مذكوران عند العلماء في القديم والجديد، قد أشار ابن جزيء في تفسيره إلى صحتهما بقوله: « الجواب من وجهين: أحدهما: أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك، فلا تعارض، والآخر: تكون (ثم) لترتيب الأخبار»[١].

الوجه الثالث: أن الخلق على نوعين: خلق إيجاد، وخلق تقدير، فأما خلق الإيجاد فهو الخلق المعلوم، وأما خلق التقدير فكما في قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

وضرب الرازي لهذه الخلقة مثلاً بقول الله: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران: ٥٩)، إذ "لا يقال للشيء الذي وجد: كن، بل الخلق عبارة عن التقدير، وهو في حقه تعالى؛ حكمه أن سيوجد، وقضاؤه بذلك بمعنى خلق الأرض في يومين، وقضاؤه بحدوث كذا، أي مدة كذا، لا يقتضي حدوثه ذلك في الحال، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء"[٢].

فهذه أوجه ثلاثة من تدبرها استبان له المعنى، وعلم براءة القرآن من الاختلاف والتناقض، وعلم سعة لغة العرب وجهل أعاجم العرب المتحدثين بالسوء عن القرآن العظيم.

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزيء (١/ ٤٣)، وانظر الجواهر الحسان، الثعالبي (١/ ٤٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٢٢٣).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ١٠٧).

الإشكال الرابع: أحوال الناس في يوم القيامة

قالوا: تناقض القرآن وهو يقص أحوال الناس في يوم القيامة، فتارة يقول: إنهم لا ينطقون: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾ (المرسلات: ٣٥-٣٦)، وتارة يذكر أنهم ينطقون ويعتذرون: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام: ٢٣)، وأنهم يقولون: ﴿ **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ** ﴾ (النحل: ٢٨).

والجواب: أن يوم القيامة يوم طويل ﴿**كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ (المعارج: ٤)، وفيه مواقف متباينة، لكل منها ما يخصه من الأحكام والأحوال، ففيه حذر وترقب، وفرج وبشارة، وفيه حزن وهلاك، وأمن وأمان، والناس يتنقلون بين هذه المواقف، بل لربما تنقل المرء فيه من حال إلى حال، ففي حديث عائشة أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**»، قالت: ذكرتُ النار فبكيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم: أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ﴾؛ حتى يعلم أين يقع كتابه، أفي يمينه أم في شماله؟ أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط: إذا وضع بين ظهري جهنم**»[1]، فهذا لا يتعارض مع قوله: ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ (عبس: ٣٧)، فهذا الذهول لا يستغرق يوم القيامة، بل هو متعلق ببعض مواقفه، وهو لكل بحسب عمله وتقواه.

وهكذا فما يذكر من اختلاف الأحوال لاختلاف المواقف، ولطول ذلك اليوم وعظم شأنه عبَّر القرآن عن كل واحد منها بكلمة ﴿**يوم**﴾ أو ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾، من غير أن تعني استغراق الفعل لكل ذلك اليوم الطويل.

ويدل لذلك قول الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۞ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ**

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٧٥٥)، وأحمد ح (٢٤١٧٥)، واللفظ لأبي داود.

أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: ٣٣-٤٢)، فذكرت الآيات في نفس السياق حالين للمؤمنين (الخوف ثم الفرح) وحالين للكافرين (الخوف والكآبة)، وكل هذه الأحوال في يوم القيامة، فالإشارة إلى حدوثها في يوم القيامة لا يعني دوام الحال الواحد واستغراقه لكل ذلك اليوم الطويل، فقوله: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ **(عبس: ٣٧)**، لا يستوعب كل يوم القيامة؛ لوجود أوقات يأمن فيها المرء على نفسه، حين يعلم صلاح مآله ونجاته من النار، كما قال ﷺ في الحديث السالف: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً**»، مما يعني أن في غيرها من المواطن يتذكر المرء أحبابه وخلانه، لأمنه فيها من العذاب.

وكذلك قوله: ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ (الفجر: ٢٣-٢٤)، ومن المعلوم أن مجيء النار وتذكر الإنسان لا يستغرق كل يوم القيامة، بل يكون في جزء منه.

الإشكال الخامس: هل يتساءل الناس يوم القيامة؟

قالوا: يخبر القرآن عن أهل النار أنهم يوم القيامة يتساءلون: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ (الصافات: ٢٧)، بينما يخبر في سورة (المؤمنون) أنهم لا يتساءلون: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ (المؤمنون: ١٠١)، وهذا - بحسب زعمهم - من التناقض الصريح الذي يمنع نسبة القرآن إلى الله العليم.

وفي **الجواب** ذكر العلماء وجهين صحيحين:

الأول: وهو ما ذكرناه في الإشكال السابق، ويتلخص في أنهم عند النفخة

وقيام الأشهاد واضطراب الخلائق لا يتساءلون لهول المطلع ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ** ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، فهذا الوقت عصيب، وهو وقت فزع وخوف ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ** ﴾ (النمل: ٨٧)، مثله في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ** ﴾ (الحج: ١-٢)، ثم يفيق العباد من هول المطلع فيكون بعد ذلك التلاوم والتساؤل.

الثاني: أن القرآن نزل بلسان العرب، موافقـًا لما عهدوه في أساليبهم وطرائقهم في البيان، والعرب تعتبر الفعل الذي لا فائدة منه كالعدم، ولأجل هذا سمى القرآن المنافقين: ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨)، وهم في الحقيقة يسمعون وينطقون ويبصرون ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** ﴾ (الأحقاف: ٢٩)، لكنهم صم عن سماع الحق، وعمي عن رؤيته ، وبكم عن النطق به ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وبمثل هذا نقول: إن النظر مع عدم الإفادة منه هو كعدم النظر حكمـًا، فصاحبه أعمى ، وإن كان يرى ما يراه ذو العينين، قال الشاعر قعنب بن أم الصاحب:

صمٌ إذا سمعوا خيرًا ذكرتُ به وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أذنوا

ولمثل هذا قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧)، فليس المقصود منه نفي نظر الله إليهم، فالله لا يغيب عنه أحد، وليس المقصود أنه تبارك وتعالى لن يكلمهم، فكلامه لهم ثابت في عشرات الآيات التي تحكي عن توبيخ الله للمشركين وتقريعه لهم، لكن المقصود أنه لا يكلمهم كلاماً ينفعهم، لا يكلمهم بما فيه رحمة لهم، ولا ينظر إليهم نظرة تفيدهم وتنجيهم من عذابهم وخوفهم، فلما لم يكن لها فائدة كانت بمنزلة العدم.

ومثله قول الله تعالى عن الكافر: **﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾** (طه: ٧٤)، أي لا يحيى فيها حياة طيبة هانئة، وإلا فهو - على الحقيقة - حي فيها لا يموت أبداً.

ومثله كذلك قول النبي ﷺ لمن صلى على الحقيقة؛ غير أنه أساء في صلاته: «**ارجع فصلِ؛ فإنك لم تصلِ**»، فصلاته في حكم العدم لعدم إقامته ركوعها وسجودها(١).

ومثله قوله تعالى وهو يصف حال الناس في كربات يوم القيامة: **﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾** (المؤمنون: ١٠١)، فليس معناه أنهم تنقطع الأنساب بينهم، فلا يكون الابن ابناً لأبيه، فإن القرآن أثبت النسب بين الناس في يوم القيامة ونفى الانتفاع به **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** (عبس: ٣٤-٣٧)، فلما كان النسب لا ينفع يومئذ قال الله: **﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾** (المؤمنون: ١٠١)، أي لا ينفعهم النسب حينذاك ، كما لا ينفعهم التساؤل(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧٥١)، ومسلم ح (٣٩٧).

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (٢٠١).

وإلا فإن التساؤل بينهم من غير منفعة واقع، وقد ذكره القرآن في غير آية ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۞ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۞ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۞ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۞ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ (الصافات: ٢٧-٣٣)، لكنه تساؤل التلاوم الذي لا فائدة فيه ولا نفع، فوجوده وعدمه بالنسبة لهم سواء، لذا قال الله: ﴿ **فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ** ﴾.

قال الشنقيطي: "المراد بنفي الأنساب انقطاع فوائدها وآثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا؛ من العواطف والنفع والصلات والتفاخر بالآباء، لا نفي حقيقتها"[١].

الإشكال السادس: هل يسأل الله عن الذنوب أم لا يسأل؟

قالوا: تناقض القرآن في مسألة السؤال عن ذنوب المجرمين ، فنفاه في قوله: ﴿ **وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ (القصص: ٧٨) ، وقوله: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾ (الرحمن: ٣٩)، وأثبته في مواضع أخرى فذكر أنه يسألهم: ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الأعراف: ٦) فهذه الآية تدل على سؤال الجميع يوم القيامة، ومثلها قوله تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣).

وفي **الجواب** نقول: السؤال على أنواع، فبعضه للاستفسار والتعلم، وبعضه للتقريع والتوبيخ، وبين هذا وهذا بون شاسع، فالأول منتف في حق الله تعالى علام الغيوب ، فهو لن يسأل أحداً عن ذنبه سؤال تعرف واستخبار، بل يعاقب الله تعالى العبد بما عرف من ذنوبه ومعاصيه ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا**

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، ص (١٦٨).

فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة: ٦)، كما صنع مع قارون والجبابرة من قبلهم؛ حين فجأهم ببأسه وإهلاكه ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ (القصص: ٧٨)، فالله لا يسأل المجرمين ولا يستفسر منهم عن ذنوبهم حين يريد عقوبتهم.

وكذلك فإن الملائكة حين تنزل بالعذاب فإنها لا تسأل المجرمين ولا تسأل عنهم، لأنها تعرفهم بسيماهم ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ** ﴾ (الرحمن: ٣٩-٤١).

قال الربيع بن أنس: « قوله: ﴿ **وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾: لا يسألون عن إحصائها، يقول: هاتوا فبينوها لنا، ولكن أُعطوها في كتب فلم يشكوا الظلم يومئذ، ولكن شكوا الإحصاء»(١).

وقال الحليمي: «لا يُسألون سؤال التعرف لتمييز المؤمن عن الكافر، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة، فتقول: ما كان ذنبك، وما كنت تصنع في الدنيا حتى يتبين له بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كافراً، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه مشروحي الصدور، والمشركين يكونون سود الوجوه زرقاً مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتمييزهم في الموقف عن المؤمنين كفتهم مناظرهم عن تعرف ذنوبهم»(٢).

وأما سؤال الحساب والتوبيخ والتقريع فهذا نوع آخر من السؤال، يسأله الله تبارك وتعالى المجرمين، بل ويسأل الأنبياء ليقرع المجرمين ويقيم عليهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠١٢).
(٢) شعب الإيمان، البيهقي (٢/ ٥٠).

الشهود ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الأعراف: ٦).

وقد ذكر القرآن في مواضع عديدة صوراً من هذه الأسئلة التقريعية التوبيخية التي سيسألها الله للمجرمين على سبيل التوبيخ، كما في قوله: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ**﴾ (الصافات: ٢٥)، وكقوله: ﴿ **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الطور: ١٥)، وكقوله: ﴿**ألم يأتكم رسلٌ منكم**﴾ (**الأنعام: ١٣٠**)، **وكقوله:** ﴿**ألم يأتكم نذيرٌ**﴾ (الملك: ٨)، فهذا كله مثبت معلوم.

الإشكال السابع: ألف سنة أم خمسون ألف سنة؟

قالوا: تناقض القرآن في حديثه عن طول يوم القيامة، فذكر في موضع أنه ألف سنة ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ (السجدة: ٥)، وذكر في آخر أنه خمسون ألف سنة ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (المعارج: ٤).

والجواب: إن القارئ للآيتين يدرك أن التباين بينهما مرده اختلاف موضوعهما، فالخمسون ألف سنة هي مقدار يوم القيامة، فقد نصت عليه الآيات بعدها ﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۞ وَنَرَاهُ قَرِيباً ۞ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ** ﴾ (المعارج: ٧-٨)، وقد أكد النبي ﷺ هذا الطول ليوم القيامة ، وهو يحكي عن عذاب تارك الزكاة: «**كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؛ حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار**»[(١)].

وأما الألف سنة فلا علاقة لها بيوم القيامة، وإنما وردت في سياق الحديث

(١) أخرجه مسلم ح (٩٨٧).

عن مدة نزول الأمر من الله ثم عروجه إليه(١)، وهو منطوق الآية وصريحها، لأن الله يقول: ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ (السجدة: ٥).

ومصداقه في قول النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمس مائة سنة**»، فنزول الأمر ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ في خمسمائة عام، ومثلها في صعوده ﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾، فهذه الألف سنة.

قال ابن عباس: "المعنى ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره لو سِيَر فيه السير المعروف من البشر ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء"(٢).

بقي لنا أن نهمس في آذان أصحاب هذه الشبهة، فنقول: الحديث في مسألة الزمن نسبي، فحين نتحدث عن أعمار البشر فإنا نتحدث عن أيام وسنين أرضية؛ لأن البشر يعيشون على الأرض، ولكن لو فرضنا أن مخلوقاً يعيش على القمر فإن حساب سني عمره يكون بالسنين القمرية لا الأرضية، فيختلف عمره القمري عن الأرضي باختلاف السنين القمرية عن الأرضية.

وهكذا يكون الحال حين نبتعد أكثر، فنتحدث عن عروج الملائكة في السماوات أو نزولهم فيها، فأيامهم ليست أياماً أرضية، ولا قمرية، ولا شمسية، والألف منها باعتبار قد يعدل الألفين أو العشرة باعتبارات أخرى، فيكون الإخبار عن هذا كله صحيحاً رغم اختلاف الأرقام.

---

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص (١٦٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزيء (٣/ ١٢٩).

الإشكال الثامن: هل تتبدل كلمات الله؟

قالـوا: اختلف القرآن في مسألة تبديل كلام الله، فحين يكون المقصود فيه التوراة والإنجيل فإن المسلمين يقولون بوقوع التبديل والتحريف محتجين بقول القرآن: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ (البقرة: ٧٩)، في حين أن آيات أخرى تذكر أن كلمات الله لا تتبدل ﴿ **لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله**﴾ (يونس: ٦٤)، وكذا قوله: ﴿ **وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله**﴾ (الأنعام: ٣٤)، وكذا قوله: ﴿**لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (الأنعام: ١١٥)؛ إذ لا يقوى البشر على ذلك ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ (الكهف: ٢٧).

وتساءلوا : كيف يقدر البشر على تحريف كتاب الله، ورأوا أن قول القرآن ومعتقد المسلمين في ذلك يحط من قدر الله العظيم الذي لا يعجزه حفظ كتبه وصيانتها عن عبث البشر وزياداتهم ونقصهم!!

والجواب: لقد كان القرآن الكريم صريحاً في تشنيعه على أهل الكتاب تحريفهم لكتبهم، وتلاعبهم بها زيادة ونقصاً ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٧٨).

والحق أن الله على كل شيء قدير، ولو تعلقت مشيئته بحفظ كتبه لحفظها؛ ولما استطاع تحريفها إنس ولا جان، وأيضاً لو أراد عز وجل حفظ أنبيائه من القتل والاضطهاد؛ لفعل، لكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك، فتعرض السفهاء لأنبيائه بالقتل والتنكيل، ولكتبه بالتبديل والتحريف، فمسألة تحريف كتب الله مطابقة لمسألة قتل الأنبياء، فكما أقدر الله عتاة بني إسرائيل على قتل

أنبيائه؛ فإنه أقدرهم على تحريف كتبه، من غير ضعف منه تبارك وتعالى، فهو فعال لما يريد.

وأما اللبس الذي ذكروه في مسألة تبديل كلام الله فقد وقع لاجتزائهم النصوص وإخراجها لها من مساقها، وتحويرها وتحريف معناها لتدل على غير ما تحدثت عنه، فالقرآن - كما أسلفت - صريح في وقوع التحريف في كتبهم، وليس هذا موضع بسطه[1].

وفي مقابله ذكر القرآن نوعين من كلمات الله لا تتبدل:

الأول: القرآن، وهو وإن كان من جنس ما نزل على أهل الكتاب؛ إلا أن الله خصه بالحفظ دون سائر كتبه ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ (الكهف: ٢٧)، فالكلام الذي لا يبدل هو ﴿ **مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ** ﴾، أي القرآن الذي قال الله عنه: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

وأما قول الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (الأنعام: ١١٤-١١٥)، فقد اختلف العلماء في المراد بـ ﴿ **لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ فقال بعضهم: هو القرآن، وقال بعضهم: المقصود نواميسه الكونية، والسياق محتمل للمعنيين، وكلا الأمرين لا يبدله أحد، ولا يقدر على تبديله.

وقد جمع بين المعنيين أبو جعفر الطبري بقوله: "يقول تعالى ذكره: وكملت ﴿ **كَلِمَةُ رَبِّكَ** ﴾، يعني القرآن .. ﴿ **لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾، يقول: لا مغير

(١) انظر "هل العهد القديم كلمة الله؟" و"هل العهد الجديد كلمة الله؟"، وكلاهما للمؤلف، ففيهما -بفضل الله- ما يبين هذه المسألة لكل باحث عن الحق مذعنٍ له.

لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه، وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾ (الفتح: ١٥)، فكانت إرادتُهم تبديلَ كلام الله، مسألتَهم نبيَّ الله أن يتركهم يحضرون الحرب معه"(١).

الثاني : موعود الله وقضاؤه، فالله لا يخلف الميعاد، ولا يقوى أحد على تغيير قضائه وموعوده تبارك وتعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤)، فما لا يتبدل هو موعود الله لأنبيائه بالنصر، ومثله في موعود الله للمؤمنين بالجنة ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس : ٦٣-٦٤)، فالحديث في الآيات المانعة من تبديل كلام الله يتعلق بالقرآن أو بموعود الله لعباده، ولا يتحدث عن الكتاب المقدس الذي توعد الله محرفيه ومبدليه **بالويل والثبور**: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

الإشكال التاسع: عروبة القرآن مع عُجمة بعض كلماته

قالوا: تناقض القرآن في قوله بأنه نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥)، في حين أنا نجد فيه كلمات أعجمية كأسماء بعض الأعلام (إبراهيم، إسماعيل، إسحاق)، أو أسماء بعض الأشياء مستعارة من لغات أخرى كالسريانية والعبرية والنبطية، وأوصلوها إلى ما يقرب من أربعين كلمة، منها (القرآن - سكينة - زكاة- سرادق- الحور- مشكاة- إستبرق- السبت - زنجبيل - سجيل).

(١) جامع البيان، الطبري (١٢/ ٦٢).

والجواب: نزل القرآن بلسان عربي مبين، لذا لا يوجد في سطر من سطوره جملة واحدة غير عربية ، ولا يوجد جملة واحدة مركبة بما يخالف أساليب العرب وطرائقها في البيان.

إن وجود كلمات فرنسية متفرقة في كتاب مكتوب بالإنجليزية، لن تجعل الكتاب فرنسيًا، ولن تشكك في إنجليزية الكتاب ولا الكاتب، وبخاصة حين تكون هذه الكلمات أسماء لأعاجم، فهذه الكلمات تنقل كما هي من لغة إلى أخرى من غير ترجمة معانيها.

ثم إن كثيراً من هذه الكلمات - التي استعجموها- عربية في جذورها واشتقاقاتها، وجهل البعض بها لقلة استخدامها أو غيره لا يعني أعجميتها، ومن ذلك كلمة (قرآن - سكينة - حور)، فكلمة (قرآن) ليست من الكلمة العبرية (קָרָא) قارا، ولا من السريانية (قرُا)، بل هي من الجذر العربي (قرأ)، وهذا التشابه في جذور كلمات اللغات السامية كبير ومعروف عند علماء اللغات، وصوره أكثر من أن تحصى في اللغات السامية، وبسببه أخطأ البعض في نسبة بعض الكلمات العربية الأصيلة إلى لغات أخرى [1].

ولو ضربنا لذلك مثلاً بكلمة (قرآن)، فإنا نقول بأنها مشتقة عربية على وزن (فعلان) من (قرأ ، قرآن)، ومثل هذا الاشتقاق كثير في لغة العرب (رحمن - فرقان – رضوان – حيوان – حيران - غضبان).

---

(١) القرآن ولغة السريان، أحمد محمد علي الجمل، (كتاب إلكتروني)، وقد بين الدكتور الجمل أمثلة لهذا المتشابه، ومنه لفظة (الحور)، فتدور معانيها في العربية والعبرية والسريانية على البياض والصفاء، لكنها كلمة عربية أصيلة استخدمها العرب، ووردت في أشعارهم ، ومن ذلك قول عمرو بن قُميئة:

لَها عَينُ حَوراءَ في رَوضَةٍ وَتَقرو مَعَ النَبتِ أَرطى طِوالا

وقول خليفة بن بشير:

حتى أضاءَ سِراجٌ دونه حَجَلٌ حُورُ العيونِ مِلاحٌ طرفُها ساجي

وكلمة (قرآن) مصدر آخر من الفعل (قرأ)، وهو يختلف في معناه عن المصدر (قراءة)، كما يفترق (رحمن عن رحيم، وفرقان عن فرق، ورضوان عن رضا، وحيوان عن حياة، وحيران عن حائر)، فالمصدر (فعلان) يفيد معنى زائداً، فالقراءة في أي كتاب هي صورة للقراءة، أما القرآن فهو حقيقة القراءة، وكذلك (الحياة) تدل على أي صورة من صور الحياة، بينما (الحيوان) تدل على الحياة الحقيقية، لذلك قال الله عن الآخرة: ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وكذلك الفرق بين الرضى والرضوان، وبين الفرق والفرقان(١).

لكن العرب أيضاً استخدمت كلمات وفدت إلى العربية من لغات أخرى، وهي في غالبها تتعلق بمسميات وافدة على العرب، فاستوردها العرب في رحلاتهم إلى الشام وفارس مع أسمائها كـ (سندس، إستبرق، زنجبيل)، فأصبحت عربية بالتعريب واستخدام العرب لها، ويشبه هذا استخدامنا اليوم لبعض الكلمات المتعلقة بمصنوعات وفدت إلينا من الغرب، كـ (التلفزيون، الفيديو، الراديو).

واستعمال العرب ثم القرآن لأمثال هذه الكلمات لن يقلل من عروبة القرآن، فعروبة أساليبه وفصاحة كلماته لم ينكرهما حتى عرب الجاهلية، وهم من هم في الفصاحة والجزالة، وكذلك في الحرص على الوقوف على زلل في القرآن أو خطأ.

***

(١)انظر: صيغ النسب في اللغتين العربية والسريانية، د.أحمد الجمل، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، العدد ٣٢ لسنة ٢٠٠١م، ص (٢٤٢ - ٢٤٤)، نقلاً عن كتاب القرآن ولغة السريان، أحمد محمد علي الجمل.

سوء الفهم لبعض آيات القرآن الكريم وألفاظه

١. **قالـوا**: القرآن يستخدم كلمات لا تليق وتخدش الحياء، مثل كلمة (النكاح) أو (الغائط) أو (الفرج)، ومفهوم كلمة النكاح عندهم (الجماع)، وأما (الغائط) فرأوه اسماً صريحاً لما يخرج في الخلاء، وكذلك الحال في (الفرج) الذي اعتبروه لفظاً صريحاً في الدلالة على محل الجماع.

والجواب: لعل من نافلة القول أن نقرر أن الباحث في كتب أهل الأديان اليوم لن يجد كتاباً مثل القرآن في عنايته بالآداب وانتقائه لأجود الكلمات والألفاظ، لأنه كتاب الرب الحكيم العليم، تعالى عن كل نقيصة ومثلبة.

لكن الجماع والتبول والتبرز عمليات حيوية لا يخلو عن التطرق إليها كتاب يتناول توجيه المناشط الإنسانية ، بيد أن عظمة القرآن عرضت ما يتعلق بهذه المعاني في قالب أدبي رصين لا مثيل له، فذكرها بطريق الاستعارة والكناية استعلاءً وترفعاً عن اللفظ الصريح المستقبح.

ومن ذلك أنه تبارك وتعالى عبر بالمماسة والملامسة عن الجماع، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا** ﴾ (المجادلة: ٣-٤)، ومثله قوله: ﴿ **وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ** ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، وقوله: ﴿ **أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء** ﴾ (النساء: ٤٣).

وفي مواضع أخرى استعاضت الآيات عن ذكر الجماع بألفاظ عامة كالرفث والإفضاء والمباشرة والاعتزال، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ** ﴾ (البقرة: ١٨٧)، قال ابن عباس: "الرفث، الجماعُ، ولكن الله

كريم يَكني"[١]، وأصل الرفث كما قال أبو عبيدة هو: «اللغا من الكلام، وأنشد:

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم»[٢]

وأما التكنية عن الجماع بالإفضاء، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ** ﴾ (**النساء: ٢١**)، وفي آية أخرى كنَّى الله تعالى عنه بالمباشرة؛ لما فيه من التقاء البشرتين ﴿ **فَالآنَ بَاشِرُوهُنّ** ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وأما لفظة (النكاح) فهي في لغة العرب بمعنى الاختلاط والتضام، كما تستعمل العرب (النكاح) بمعنيين مجازيين: أولهما: للدلالة على عقد النكاح. والثاني: هو الجماع.

قال الفيومي: « تناكحَتِ الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض، أو من نكح المطر الأرض إذا اختلط بثراها، وعلى هذا فيكون (النِّكَاحُ) مجازاً في العقد والوطء جميعًا، لأنه مأخوذ من غيره، فلا يستقيم القول بأنه حقيقة، لا فيهما، ولا في أحدهما، ويؤيده أنه لا يفهم العقد إلا بقرينة نحو (نَكَحَ) في بني فلان ولا يفهم الوطء إلا بقرينة نحو (نَكَحَ) زوجته، وذلك من علامات المجاز»[٣].

وحين استخدم القرآن هذه اللفظة (النكاح) أراد المعنى المجازي الأول (عقد النكاح) ، ولم يرد (الجماع)، وهذا يتبين لمن تأمل الآيات القرآنية، كمثل قوله تعالى: ﴿ **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ** ﴾ (النور: ٣٢)، فالمعنى: زوجوهم، ومثله في قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** ﴾ (الأحزاب: ٤٩)، فالآية صريحة في طلاق الزوجة

(١) جامع البيان، الطبري (٣/ ٤٨٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٤٠٧).

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٦٢٤).

بعد العقد عليها وقبل الدخول فيها، فقوله: ﴿نَكَحْتُمُ﴾ أي عقدتم، ومثله قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ (القصص: ٢٧)، أي أزوجك وأعقد لك.

ومثله قوله ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع؛ لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[١] أي تخطب المرأة، ويطلب الزواج منها لهذه الأمور.

وكذلك كنّى القرآن عن محل الجماع بالحرث والتغشي، فأما الحرث ففي قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، والتغشي في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ (الأعراف: ١٨٩).

وكذلك كنَّى القرآن عن مقدمات الجماع بالمراودة، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ (يوسف: ٢٣)، فهو كناية عما تطلب المرأة من الرجل وما يطلبه الرجل من المرأة.

وبمثل هذا الأدب كنى القرآن عن محل الجماع بـ (الفرج)، في قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (الأنبياء: ٩١)، وهو لفظ كناية، وليس بلفظ صريح، كما توهم الجهلة من أعاجم العربية، فالفرج عند العرب يراد به أصلاً فرج القميص، أي شقه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: ٢٦)، والتعبير به عن موضع العفة من ألطف الكنايات وأحسنها.

قال الجرجاني: "فرج بالسكون، والفرجة الشق بين الشيئين، والفرج ما بين الرجلين .. وقال بعضهم أصله الشق، وكني به عن السوأة، وكثر حتى صار كالصريح"[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠٩٠)، ومسلم ح (١٤٦٦).

(٢) التعريفات، الجرجاني، ص (٥٥٣).

وحين تحدث القرآن عن التبول والتغوط لم يصرح بهما، بل ذكر لازمهما، وهو الطعام والشراب، فقال عن المسيح وأمه: ﴿ **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ (المائدة: ٧٥).

وأما لفظة (الغائط) فهي أيضاً من ألفاظ الكناية، وهي صورة أخرى من صور الأدب القرآني، لأن الغائط في لغة العرب ليس اسماً للعذرة التي تخرج من الإنسان، بل هو المكان المنخفض من الأرض، ولما كانوا يقضون حوائجهم فيها؛ فقد استعملوه للدلالة على العذرة، لكراهية العرب للتصريح باسمها.

قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

فكم من غائط من دون سلمى قليل الأنس ليس به كتيع

ومراده كثرة الوديان التي تفصله عن سلمى.

وفي مقابل هذا الأدب القرآني الجمِّ؛ فإننا نذكر المرددين لهذه الشبهة ببعض ما في كتبهم مما تستقبح ذكره الطباع: فقد ورد ذكر (الخرء) في سفر حزقيال حين زعموا أن الله قال لنبيه حزقيال: «**وتأكل كعكاً من الشعير، على الخرء الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم**» (حزقيال ٤/ ١٢).

ووردت المضاجعة صريحة في كتبهم في مواضع لا تحصى لكثرتها، بل ورد ذكر تفاصيل فاضحة عن العلاقة الجنسية، ومنه قول التوراة: «**وزنتا بمصر في صباهما زنتا. هناك دغدغت ثديّهما ، وهناك تزغزغت ترائب عذرتهما**» (حزقيال ٢٣/ ٣)، ومثله في قولها: «**حبيبي لي، بين ثديي يبيت**» (نشيد ١/ ١٥)، وأمثال هذا كثير، يطول المقام بتتبعه.

وهكذا فإن أدب العبارة القرآنية لا يبارى ولا يجارى، لأنه كتاب الله

وكلامه، وما وقع فيه الآخرون من اتهام القرآن بذكر القبيح؛ إنما كان لعدم فهم هذه الألفاظ ، فقد فاتهم أنها ألفاظ كناية تستخدمها العرب لتوري بها عن الصريح المستقبح ، فلما غلب استعمالها على ما أطلقت عليه كناية؛ ظنها الجاهلون بلغة العرب من ألفاظ الفحش والقباحة ومما لا يليق.

٢. قالوا : القرآن يحرم إكراه العفيفات على البغاء، ويجيز إكراه غير العفيفات ، وذلك في قوله: ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (النور: ٣٣).

والجواب: المتأمل للمعنى المقلوب الذي فهمه الشانئون من هذه الآية يدرك المأزق الذي يعانيه أعداء القرآن، إذ لا يستقيم عند عاقل تحريم إكراه العفيفة وجواز إكراه غيرها، فإن البغيَّ لا تكره على البغاء، فإنما يكره على الشيء من يكرهه. ومن لم تُرِد التحصن بغت طوعاً[١].

ولو شاء الطاعنون في القرآن نصفته لشهدوا أنه ما من دين أرسى من مبادئ العفة ما أرساه الإسلام، هل رأيت في دين من أديانها أنه يعاقب على الزنا بالقتل ويحرم حتى النظر إلى الأجنبية، ويأمرها بالستر بين الرجال، ويمنع اختلاط النساء بالرجال حتى في المساجد وفي حال العبادة والطهر والسمو الروحي الذي تغور – عادة – عنده دواعي الشهوة.

ولو أرادوا الحقيقة لما أعياهم الرجوع إلى سبب نزول الآية، واستجلاء الوقائع التي أنزل الله معالجتها في تلكم الآيات التي لووها لمزاً للقرآن وطعناً فيه، فقد نزلت في جاريتين (مُسيكة وأُميمة) كانتا لرأس النفاق

(١) انظر اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي الحنبلي (١٤/ ٣٧٧).

والمنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول، وكان يكرههما على الزنى، ليتكسب من أجره، فشكتا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية(١).

والسؤال: ما الذي يفيده قول الله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾؟

والجواب: أن هذا ما يسميه العلماء (صفة كاشفة)، أي: ولا تكرهوا على البغاء فتياتكم اللاتي أردن التحصن، كما يراد منه زيادة التأكيد على التحريم، فلئن كان البغاء محرماً في كل حال؛ فإنه أشد حرمة وقبحاً حين يكون إكراهاً وإجباراً للمستعفَّات على فعل الفاحشة التي يكرهونها.

ومثل هذا الوصف الكاشف استخدمه القرآن في مواضع كثيرة، فقد عدَّد الله المحرمات من النساء، وذكر منهن: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ (النساء: ٢٣) وربيبة المرء [ابنة زوجته من غيره] تحرم على المرء ولم تسكن في بيته، فقوله: ﴿ فِي حُجُورِكُمْ ﴾ لا مفهوم له، وخرج مخرج الغالب.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (النساء: ١٠١)، ومن المعلوم أن قصر المسافر الصلاة لا يتعلق بحال الخوف دون الأمن، لكنه كما قال ابن كثير: «فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية. إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة في مبدئها مخوفة. بل كانوا لا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.. ومما يشهد بأن للمسافر

---

(١) أخرجه مسلم ح (٣٠٢٩).

أن يقصر سواء أكان آمناً أم خائفاً»[١]، وهكذا فقوله: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لا مفهوم له.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ فهو لا مفهوم له في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ (آل عمران: ١٣٠)، فالربا كله حرام، سواء كان الربا أضعافاً مضاعفة أم دون ذلك، وهو قيد للتعليل، وليس للاحتراز.

٣. **قالوا:** آيات القرآن تصف غير المسلمين بأنهم نجس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (التوبة: ٢٨)، ورأوا في هذا ظلماً وانتهاكاً لإنسانية غير المسلم.

والجواب: المؤمن والكافر لا يستويان في ميزان الله ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)، ولا ريب أن المؤمن حبيب الله بما يمتاز به من نقاء الظاهر والباطن.

ولما كان تعظيم بيوت الله من شعائر الله وتوقيره؛ فإن صونها عن النجس أول حقوقها «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن»[٢]، وتحقيقاً لهذا الصون نهى النبي ﷺ عن نشدان الضالة في المسجد وأمثاله مما هو متعلق بالدنيا.

وقد أمر الله المسلم بالتجمل للمساجد والتزين قبل دخولها ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف: ٣١)، ومنع المسلم والمسلمة-

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٤).

(٢) رواه مسلم ح (٢٨٥).

في حال الحيض أو الجنابة أو أكل الثوم والبصل - من دخول المساجد صيانة لها عن الأذى وتعظيماً لها عن الأحوال الدنيئة، والكافر أولى بهذا المنع ؛ إذ لا يغتسل من جنابة، ولا يحترز من خمر أو غيره من دقيق النجاسة التي يتوقى منها المسلم بموجب دينه وشريعته؛ حرصاً على صحة صلاته وسلامة دينه.

وهذا كله لا يمنع من القول بنجاسة الكافر معنوياً أيضاً ؛ بما يحمله في قلبه من تعظيم لغير الله وعبادة لمن لا يستحق العبادة، ومثل هذا المعنى كثير في كتب الطاعنين في القرآن، فقد وصف سفر إشعيا غير المؤمنين بأنهم نجس «**وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم**» (إشعيا ٣٥/ ٨)، وكذلك «**البسي ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة، لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس**» (إشعيا ٥٢/ ١).

ومثل هذا المعنى ورد في العهد الجديد « **إنكم تعلمون هذا أن كل زان أو نجس أو طماع الذي هو عابد للأوثان ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله**» (أفسس ٥/ ٥)، وكذلك لما تحدث عن زواج المؤمن أو المؤمنة بالكافر أو الكافرة قال: «**لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل، وإلا فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون** » (كورنثوس (١) ٧/ ١٤)، فالكافر والكافرة بمفهوم النص نجس « **وإلا فأولادكم نجسون** »، وترتفع النجاسة عنهما بالزواج من المؤمن والمؤمنة، وحين ينجب هذا الزواج المختلط فإن الأبناء يكونون طاهرين.

وكذلك يندرج في هذا السياق القول المنسوب للمسيح: «**لا تعطوا القدس**

للكلاب، ولا تطرحوا دُرركم قدام الخنازير» (متى ٧/ ٦).

***

المرأة في القرآن

قالـوا: القرآن يمتهن المرأة ، ويحط من منزلتها بالعديد من تشريعاته التي قدمت الرجل على المرأة، فالقرآن جعل القوامة في الأسرة للرجل: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ (النساء: ٣٤)، وأصر على تقديم الرجل عليها بقوله: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ (البقرة: ٢٢٨).

والجواب: إن المتفوه بمثل هذا جاهل بالتكريم الذي خص الله به النساء في شريعته وسنة نبيه ﷺ.

ولعل من المناسب قبل الخوض في تفاصيله أن نلقي نظرة على وضع المرأة عند الأديان التي سبقت الإسلام، ففي سفر الجامعة، وهو من الأسفار المقدسة عند اليهود والنصارى نقرأ: «**فوجدت أمَرَّ من الموت : المرأة التي هي شباك ، وقلبها أشراك، ويداها قيود، الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطئ فيؤخذ بها ... رجلاً واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد**» (الجامعة: ٧/ ٢٦).

وفي سفر اللاويين حديث مسهب في غاية القسوة على المرأة حال حيضتها؛ حتى أن مجرد مسها ينجس الماس إلى المساء، كما ينجس كل من مس فراشها أو شيئاً من متاعها (انظر اللاويين ١٥).

وأما سفر الخروج فيجيز للأب بيع ابنته «**و إذا باع رجل ابنته أمةً لا تخرج كما يخرج العبيد**» (الخروج ٢١/ ٧) ، وطبق هذا الحكم بوعز في عهد القضاة؛ حين اشترى جميع أملاك أليمالك ومحلون، ومن ضمن ما اشتراه راعوث

المؤابية امرأة محلون (انظر راعوث ٤)[١].

وفي المسيحية كانت المرأة على موعد مع إساءة أكبر، فقد حمل بولس المرأة خطيئة آدم ، ولأجل ذلك يأمرها فيقول: «**لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلّم، ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن المرأة أغويت ، فحصلت في التعدي**» (تيموثاوس(١) ٢/ ١١-١٤)، فسبب هذه الإهانة وقوعها (حواء) في إغواء الشيطان.

وفي سفر حكمة يشوع بن سيراخ يؤكد على دور المرأة في خروج الجنس البشري من الجنة: «**من المرأة نشأت الخطيئة، وبسببها نموت أجمعون**» (ابن سيراخ ٢٥/ ٢٤).

وقد ترك هذا الاتهام للمرأة أثراً بالغاً في الحياة المسيحية، عبّر عنه أحد أعظم آباء الكنيسة، وهو الأب ترتليان في القرن الميلادي الثالث بقوله عن المرأة: «ألستن تعلمن أن كل واحدة منكن هي حواء ؟!... إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة لصورة الله (الرجل)».

ويقول آخر من أهم الآباء، وهو يوحنا فم الذهب عن المرأة: «إنها شر لا بد منه، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة و البيت، ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مطلية مموهة»[٢].

لكن أبشع ما تعرضت له المرأة من الاضطهاد حدث في ظل سيطرة

---

(١) وتبعاً لذلك فإن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥م أباح للرجل أن يبيع امرأته بست بنسات، في حين أن قانون الثورة الفرنسية اعتبر المرأة قاصراً كالصبي والمجنون ، واستمر العمل به حتى عام ١٩٣٨م.

(٢) تعدد نساء الأنبياء ، ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام ، أحمد عبد الوهاب ، ص (٣٣٠-٣٣٩)، وانظر مختصر تاريخ الكنيسة، ملر، ص (٢٧٧).

الكنيسة على أوربا في القرن السادس عشر والسابع عشر؛ حيث انعكست الصورة السوداوية التي تنظر بها الكنيسة إلى المرأة بظهور فكرة اجتاحت أوربا، وهي وجود نساء متشيطنات، أي تلبسهن روح شيطانية، فهن يعادين الله، ويعادين المجتمع، تقول كارن ارمسترنج في كتابها "إنجيل المرأة": «لقد كان تعقب المتشيطنات بدعة مسيحية، وكان ينظر إليها على أنها واحدة من أخطر أنواع الهرطقات... ومن الصعب الآن معرفة عدد النساء اللائي قتلن خلال الجنون الذي استمر مائتي عام، وإن كان بعض العلماء يؤكد أنه مات في موجات تعقب المتشيطنات بقدر ما مات في جميع الحروب الأوربية حتى عام ١٩١٤م... يبدو أن الأعداد كانت كبيرة بدرجة مفزعة»[(١)].

أما إذا عدنا إلى حال المرأة عند عرب الجاهلية؛ فإنا سنجد أن حالها لم يكن أفضل بكثير مما عند الأمم الأخرى، فقد انتشر في بعض قبائلهم وأد البنات ومنعهن من الميراث، ويصور لنا عمر بن الخطاب - بكلمات جامعة - حال المرأة عند العرب قبل الإسلام، فيقول: «**والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً؛ حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم**»[(٢)].

وقد حذر القرآن من صنيع الجاهلية التي كانت تنتقص المرأة وتعتبرها عاراً تتخلص منه بوأدها حال الطفولة ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ۝ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

وفي إزاء هذا الواقع الجاهلي الظالم خص النبي ﷺ البنات والأخوات

(١) انظر: تعدد نساء الأنبياء، ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، ص (٢٣٣-٢٤٧).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩١٣).

بالمزيد من وصاته فقال: «**من يلي من هذه البنات شيئًا، فأحسن إليهن؛ كُنَّ له ستراً من النار**»(١).

وبشّر بالجنة من أحسن رعاية الإناث من أخوات وبنات، فقال: «**من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو ابنتان أو أختان؛ فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن؛ فله الجنة**»(٢).

ويرتفع الجزاء في حديث آخر ليبلغ بالمحسن إليهن إلى أعلى الجنة، حيث أنبياء الله والصالحون من عباده، يقول ﷺ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو**» وضم أصابعه(٣)، أي أنه يجاور النبي ﷺ في الجنة كما تتجاور الأصبعان في يد الواحد فينا.

كل هذا الترغيب والحث من الإسلام ليبطل شرعة الجاهلية في انتقاص المؤنسات الغاليات اللاتي يرغِّب النبي ﷺ بمحبتهن فيقول: «**لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات**»(٤).

لقد قرر الإسلام تساوي الذكر بالأنثى في إنسانيتهما وكافة الأمور العبادية، ولم يميز بينهما في شيء إلا حال التعارض مع الطبيعة التكوينية والنفسية والوظيفية للذكر أو الأنثى.

فأما تساويهما في الإنسانية، فقد قرره النبي ﷺ بقوله: «**إنما النساء شقائق**

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٩٩٥)، ومسلم ح (٢٦٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١٩١٦)، وأبو داود ح (٥١٤٧)، وأحمد ح (١٠٩٩١).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٦٣١).

(٤) أخرجه أحمد ح (١٦٩٢٢).

الرجال»[١]، كيف لا يتساويان وهما معاً أصل الجنس البشري ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى** ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويشملهما جميعاً تكريم الله للجنس البشري ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ويقرر القرآن أهلية المرأة للإيمان والتكليف والعبادة، ومن ثم المحاسبة والجزاء ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (النحل: ٩٧)، فهي كالرجل سواء بسواء، وهذا التساوي يسري في المسؤولية الشرعية ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، حيث إن الله يساوي بين الرجال والنساء في ثواب وعقاب أفعال الإنسان، بلا تمييز لجنس أو لون ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ويبرأ الإسلام من تفضيل الذكر على الأنثى، ويعد النبي ﷺ بالجنة من أكرمها ولم يفضل الذكور عليها: «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها؛ أدخله الله الجنة**»[٢].

وكما أوصى الإسلام برعاية الابنة؛ فإنه أمر بذلك لكل أنثى، سواء كانت

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢٥٦٦٣)، وأبو داود ح (٢٣٦)، والترمذي ح (١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ح (٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٥١٤٦)، وأحمد ح (١٩٥٨).

زوجة أم أمًّا؛ بل وأكد على رعاية حقوقها حتى في حال العبودية، ففي حديث الثلاثة الذين يؤتيهم الله أجرهم مرتين ذكر ﷺ «**الرجل تكون له الأمة، فيعلمها فيحسن تعليمها، ويؤدبها فيحسن أدبها، ثم يعتقها فيتزوجها، فله أجران**»(١).

وأما المرأة حين تكون أمًّا فللإسلام معها شأن آخر، فلئن كانت النصوص التي تأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما كثيرة في القرآن والسنة؛ فإن النبي ﷺ قدَّم حق الأم على حق الأب، فاعتبرها أحق العالمين بحسن صحبة الابن وأولى الناس ببره وإحسانه، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»(٢).

وما زال ﷺ يوصي بحق المرأة ويحذر الرجل من الاغترار بقوته وظلمها، فيشهد الله على تأكيده على حقها: «**اللهم إني أحرج** (أي أشدد) **حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»(٣)، فمثل هذا يتناقض مع القول بظلم الإسلام للمرأة.

ولسوف نعرض تفصيلاً لأهم ما يثار حول المرأة في الإسلام وما زعمه المبطلون من انتقاص الإسلام كرامتها وأنه ظلمها.

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٠١١).

(٢) أخرجه البخاري ح (٥٩٧١)، ومسلم ح (٢٥٤٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه ح (٣٦٧٨)، وأحمد ح (٩٣٧٤).

أولاً: القوامة وظلم الزوجة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين جعل القوامة في المجتمع للرجل دون المرأة: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ (النساء: ٣٤).

والجواب: إن نظرة سريعة إلى المنهج الإسلامي في التعامل مع المرأة ستكشف عن القدر العظيم للمرأة في الإسلام، فما زال النبي ﷺ يوصي بحسن عشرة النساء، ففي حجة الوداع وأمام جموع الصحابة وقف النبي ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «**ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم** [أي مثل الأسيرات عندكم] .. **ألا إن لكم على نسائكم حقـًا، ولنسائكم عليكم حقـًا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشَكُم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهنَّ عليكم أن تحسنوا إليهن في كِسوتهن وطعامهن**»(١).

وأمر النبي ﷺ بحسن العشرة للنساء والصبر على ما يصدر منهن من أذى اللسان، فإن المرأة بحسب جِبِلَّتها تأخذ حقها بلسانها، فقد قال ﷺ: «**واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضِلَع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً**»(٢).

ولما كانت الأسرة كسائر المؤسسات المجتمعية والاقتصادية تحتاج إلى قائد يقودها؛ فإن القرآن جعل القوامة في الأسرة للرجل دون المرأة ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي ح (١١٦٣)، وابن ماجه ح (١٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٣٣١)، ومسلم ح (١٤٦٨).

(النساء: ٣٤)، فالآية تحدد صاحب المسؤولية الأولى في الأسرة، وهو الرجل، إذ أي مجتمع إنساني – صغر أم كبر – لا يخلو من قيِّم مسؤول يقود من تحت ولايته بما يمتاز به عن الآخرين، ككبر سنه أو امتلاكه حصة أكبر في الأسهم أو خبرة وأقدمية في العمل، لكن – على كل حال – لابد من وجود مدير أو مسؤول أول أو قائد لهذه المؤسسة.

وفي حالتنا هذه نحن أمام أحد خيارين: إما أن تكون المسئولية الأولى للمرأة، أو أن تكون للرجل.

إن نظرة بسيطة تتفحص عالمنا – الذي ما فتئ ينادي ويصرخ بالمساواة العمياء بين الرجل والمرأة – لتكشف لنا عن حقيقة تميز الرجل عنها في مختلف بلدان الداعين إلى المساواة، لذلك أسأل القارئ الكريم: كم نسبة الوزيرات إلى الوزراء في دول العالم الذي ينادي بالمساواة بين الجنسين؟ وكم نسبة الملوك والرؤساء من النساء في تلك البلاد؟ وكم نسبة نساء الدولة والبرلمان وقادة الأحزاب إلى الرجال في هذه الدول؟!

لا ريب أننا جميعاً متفقون على تقدم الرجل – في كل هذا – على المرأة وبفارق كبير ، فكيف وقع هذا عند من يدعون المساواة؟.

إن الدول الإسكندنافية حققت أعلى الأرقام العالمية في تولية المرأة مناصب قيادية، لكنها لم تتجاوز نسبة الـ٣٠ ٪، لماذا؟

القرآن يجيبنا: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ (النساء: ٣٤)، نعم لقد خلق الله الرجال لغاية، وأعطاهم من المَلكات والإمكانات ما يعينهم عليها ، ومن ذلك مسؤولية القيادة في الأسرة والمجتمع، لأنه مسؤول عن رعاية البيت ونفقته، فالزوجة دُرة مصانة، ليس واجباً عليها ولا مطلوباً منها أن تكدح وتشقى بالعمل لتضمن

مكاناً لها في بيت الزوجية، فهذا ليس من واجباتها، ولا هو متناسب مع أنوثتها وطبيعتها الحانية العاطفية التي فطرها الله عليها لتناسب مهمتها السامية في إدارة بيتها وتربية أبنائها وإعطائهم حقهم من الحنو والرعاية «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته .. والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها**»[(١)].

والمرأة مكفولة النفقة، أمّاً كانت أو زوجة، أختاً كانت أو ابنة «**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»[(٢)]، فواجب الرجل الإنفاق على الأسرة عموماً ، وعلى الزوجة خصوصاً، ولو كانت ذات مال ووظيفة، فقد أمر النبي ﷺ بذلك: «**ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[(٣)].

والعلاقة الزوجية جملة متبادلة من الحقوق والواجبات، وهي قائمة على مبدأ الأخذ والعطاء ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ (البقرة: ٢٢٨) ، وهذه الدرجة (القوامة) ليست لقعود جنس النساء عن جنس الرجال، بل تفضيل متناسب مع ما أودعه الله في الرجل من استعدادات فطرية تلائم مهمته وتتناسب مع إنفاقه على الأسرة.

وقوامة الرجل على المرأة والأسرة لا تعني تفرده بالقرار، فها هو ﷺ أكمل الرجال وسيدهم يستشير أم سلمة في مسألة تتعلق بالأمة، لا بالأسرة فحسب، فقد أمر أصحابه يوم الحديبية أن يحلقوا رؤوسهم ويحلوا من عمرتهم؛ ليعودوا إلى المدينة المنورة، فكرهوا ذلك ولم يقم منهم أحد، فدخل

---

(١) أخرجه البخاري ح (٨٩٣)، ومسلم ح (١٨٢٩).
(٢) أخرجه النسائي ح (٢٥٣٢)، وأحمد ح (٧٠٦٥).
(٣) أخرجه مسلم ح (١٢١٨).

على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: «يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَك فيحلِقَك، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالِقه فحلَقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلِق بعضاً حتى كاد بعضُهم يقتل بعضاً غماً»(١).

بقي أن نهمس في آذان أصحاب هذه الأبطولة، فنسألهم: من القيم على الأسرة في كتابكم الرجال أم النساء؟ وما رأيكم في قول بولس: «**الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل**» (كورنثوس (١) ١١/ ٨-٩)، وهذا النص وأمثاله يفيد قوامة الرجل، ويفيد أيضاً ما لا نقبله، ونراه إزراء بالمرأة التي لم تخلق للرجل، فهي ليست كسائر ما سخره الله لنا من متاع، بل هي كالرجل مخلوقة لعبادة الله وعمارة الأرض بمنهجه تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري ح (٢٧٣٤).

ثانياً: الأمر بضرب الزوجة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين أجاز لزوجها أن يضربها: ﴿ **وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً** ﴾ (النساء: ٣٤).

والجواب: سبق لنا التعرف على منهج القرآن في التعامل مع المرأة، ورأينا ما فيه من التكريم والإجلال الذي عزَّ أن نجد مثيله في كتب الآخرين، فهذا هو الأصل في معاملة المرأة، والنبي ﷺ كان نموذجاً لهذا الأصل «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1]، وصفته أم المؤمنين عائشة: «**ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل**»[2].

وهكذا، فالأصل تكريم المرأة، لكن للقاعدة شواذ، فالإنسان مكرم، لكن اللص والمجرم يهان، والأصل -في الإنسان- حفظ حياته، أما القاتل فيقتل، والأصل في المرأة تكريمها، لكن الناشز المستخفة برباط الزوجية تُضرب وتؤدب إذا لم تنفع معها وسائل الإصلاح، ولو قَتلت تُقتل.

وقد أذن القرآن الكريم للزوج بتأديب زوجه، بل أوجب عليه ذلك، فلو كانت زوجة الواحد منا لا تصلي مثلاً أو امرأة ناشزاً؛ فإن الزوج يندب إلى وعظها، ثم هجرها إن أصرت على النشوز وتدمير الحياة الأسرية، فإن لم ترعوي فإن الله أذن له بضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح.

وهذا التأديب -كما سبق- ليس أصلاً في معاملة المرأة، بل هو خاص

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٧٩٥).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٣٢٨).

بالزوجة الناشز سيئةِ الخلق والدين، وهو نوع من الرحمة بها والوقاية لها من حساب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً** ﴾ (النساء: ٣٤)، فالضرب آخر وسائل الإصلاح، ويكون بعد الوعظ والهجر واستفراغ الجهد في التقويم والإصلاح.

وحين نتحدث عن الضرب تدور في مخيلة البعض النماذج السيئة التي يئن العالم في شرقه وغربه منها ، فقد أصبح العنف مع النساء والقسوة معهن مرضاً عالمياً مزرياً بالإنسان اليوم، وهو بالطبع مما يحرمه القرآن الذي لا يأذن بالضرب المبرح، فالجائز في ضرب الناشز ؛ الضرب غير المبرح، وقد مثلوا لها بضربها بالسواك، وهو عود صغير لو ضرب به طفل لما تأذى، وقد قال النبي ﷺ منبهاً على قدر الضرب المسموح به: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[1].

أما الضرب المبرح الذي يترك أثراً على الجسد فهو حرام، وبخاصة إذا كان على الوجه، فقد لعن النبي ﷺ من ضرب الحيوان على وجهه، فما بالنا بالزوجة : «**أما بلغكم أني قد لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها**»[2].

ولما دخل معاوية القشيريُ على النبي ﷺ سمعه يؤكد على حقوقها

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٢١٨).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٢٥٦٤).

ويقول: «**لا تضربِ الوجه، ولا تقبِّحْ، وأطعمْ إذا أُطعمت، واكسُ إذا اكتسيت، ولا تهجُر إلا في البيت، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض؛ إلا بما حل عليهن**»(١).

وذمًا من النبي ﷺ لأولئك الذين يضربون زوجاتهم وقف ﷺ على المنبر يوصي بالنساء، فيقول: «**يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه**»(٢).

وذات مرة جاء إلى النبي ﷺ رجل يشكو زوجته، فقال: يا رسول الله، إن لي امرأة فذكر من طول لسانها وإيذائها؟ فقال ﷺ: «**طلقها**». فقال: يا رسول الله، إنها ذات صحبة وولد؟ قال: «**فأمسكها وأْمُرها، فإن يك فيها خير فستفعل، ولا تضرب ظعينتك ضربَك أَمتَك**»(٣)، فنهاه ﷺ عن ضربها رغم سوء معاملتها وخلقها.

وخشية من وقوع بعض الأزواج في الظلم والتعدي والتعسف في التأديب قال ﷺ: «**لا تضربوا إماء الله**»، لكن بعض الزوجات أسأن إلى أزواجهن، إذ لا يصلح حالهن إلا التأديب، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئِرنَ النساءُ على أزواجهن (أي نفرن واجترأن)، فرخص ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ: «**لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم**»(٤).

وهكذا نرى وصاة النبي ﷺ لكل حر شريف أن يتقي الله تعالى في زوجه، وأن يعف لسانه ويكف يده بالأذى عنها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ الذي ما

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٩٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩٤٢)، ونحوه في مسلم ح (٢٨٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود ح (١٤٢)، وأحمد ح (١٥٩٤٩).

(٤) أخرجه أبو داود ح (٢١٤٦)، وابن ماجه ح (١٩٨٥).

ضرب زوجًا ولا قبحها، وأما أولئك المسيئون الذين يضربون زوجاتهم فحسبهم حكم النبي ﷺ عليهم أنهم ليسوا من خيار المؤمنين، فخيرهم خيرهم لأهله، ورسول الله ﷺ خيرنا لأهله.

لقد أوجب القرآن العشرة بالمعروف حال الحب والكراهية ﴿**عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ (النساء: ١٩)، فإن وقع طلاق ثم انتهت عدتها؛ فإما أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بإحسان ﴿**الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وهذه العشرة بالمعروف للزوجة تصبح ميزانًا للخيرية عند الله يستبق فيه المسلمون إلى محبة الله ورضاه، فقد قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١)، وفي رواية: «**إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا وألطفُهم بأهله**»(٢).

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٧٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٦١٢)، وأحمد ح (٢٣٦٨٤).

ثالثاً: تعدد الزوجات

قالـوا: القرآن ظلم المرأة حين أباح للرجل أن يتزوج عليها، وفي هذا إضرار بمصلحتها.

والجواب: قبل التعرف على حكم الإسلام في المسألة نقرر أن الإسلام لم يكن أول من شرع هذه الشرعة التي شرعتها الأمم والملل قبل الإسلام، فقد عرفت الأمم جميعاً التعدد، لكنها ترددت بين نوعيه: تعدد الزوجات وتعدد الخليلات، فقد أجاز الإسلام الأول منهما، وحرم الثاني لما فيه من إزراء بالمرأة وظلم فادح لها ، فهو يجردها من جميع الحقوق الزوجية، فالعشيق لا يلتزم للخليلة بما يلتزم به الزوج لزوجاته من نفقة وسكن ورعاية للزوجات ولأبنائهن من غير تفريق بينهم.

والرسالات السماوية قبل الإسلام أباحت تعدد الزوجات، ويكفي في إثبات ذلك أن نذكر أن العهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى يقر بأن إبراهيم كان متزوجاً من ثلاث زوجات (سارة وهاجر وقطورة)، وأما يعقوب فكان متزوجاً من الأختين (ليئة وراحيل)، والأَمتين (زلفة وبلهة)، (انظر التكوين ٢٩)، ويذكر الكتاب المقدس أن داود كان له سبع زوجات، وأن ابنه سليمان النبي: «**كانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري**» (سفر الملوك (١) ١١/ ٣)، فالتعدد مشروع في شرائع التوراة ومن غير ضوابط ولا شروط.

وأما المسيحية فهي تحرم تعدد الزوجات رغم أنه لم يرد عن المسيح ما يبطل هذه الشريعة التوراتية، فالمسيح يقول: «**ما جئت لنقض الناموس أو الأنبياء، بل لأكمل**» (متى ٥/ ١٧).

بل إن العهد الجديد يشير إلى مشروعية التعدد، حيث يقول بولس في

(تيموثاوس (١) ٣/ ١٢): «**فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعلَ امرأة واحدة ... ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة**» ، ويفهم منه منع تعدد الزوجات للشماس، وجوازه لغيره.

وقد بقيت قضية تعدد الزوجات صيحة تنادي بها فرق مسيحية شتى مثل "تجديدية العماد" "الأنا بابتيست" في ألمانيا في أواسط القرن السادس عشر للميلاد ، وكان القس اللامعمداني جان بوكلسون الشهير بيوحنا الليداوي حاكم مدينة مونستر الألمانية التي أسماها (أورشليم الجديدة) (١٥٣١م) يقول: من يريد أن يكون مسيحيًا حقيقيًا فعليه أن يتزوج عدة زوجات.

وبمثله نادت فرقة المورمون في مطلع القرن التاسع عشر، ولم يتخلوا عنه إلا بضغط من السلطات المدنية في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد بلغت الدعوة إلى إباحة تعدد الزوجات مبلغًا ملحوظًا عند مفكري الغرب وعلمائهم؛ وبخاصة بعد أن عانت أوروبا من نقص شديد في عدد الرجال نتيجة للحربين العالميتين التي قتل فيهما أكثر من ٤٨ مليون رجل، وكذلك لانتشار الفواحش والزنا وزيادة عدد اللقطاء[(١)].

ولو عدنا للحديث عن عرب الجاهلية لرأينا أن التعدد شائع عندهم من غير ضوابط، فكان لبعضهم عشر زوجات، فقد أسلم غيلان بن سلمة الثقفي، وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «**اختر منهن أربعًا**»[(٢)]، وأما عميرة الأسدي فيقول: أسلمت وعندي ثماني نسوة ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**اختر منهن**

(١) انظر: حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، عبد الودود شلبي ، ص (٢٤٠-٢٤١)، والتبشير والاستشراق، محمد عزت الطهطاوي ، ص (٢٠٤).
(٢) أخرجه الترمذي ح (١٢٨)، وابن ماجه ح (١٩٥٣)، وأحمد ح (٤٥٩٥).

أربعًا»[١].

وهكذا فالتعدد موجود قبل الإسلام، ومن غير ضوابط، وذلك لواقعية هذه الشرعة، وحاجة بعض الأزواج إلى الزواج بغير زوجته لمرضها أو لعدم قدرتها على الإنجاب أو توقفها، أو لغير ذلك من الأسباب، ولولا تعدد الزوجات لما تزوجت الكثير من العوانس والمطلقات وذوات الأمراض.

لقد كان الإسلام واقعيًا حين أقر شريعة التعدد، فتزوج الزوج بأخرى أولى من طلاق الأولى، وأولى من العلاقة المحرمة، فالتعدد المشروع يغلق الباب أمام تعدد العشيقات غير المشروع الذي يجتاح المجتمعات الإنسانية التي ترفض التعدد.

جاء في إحصائية عن الخيانة الزوجية منشورة في مايو ١٩٨٠م أن ٧٥٪ من الأزواج في أوروبا يخونون زوجاتهم، وأفادت إحصائية أخرى أن مليون امرأة تقريبًا عملن في البغاء بأمريكا خلال الفترة من (١٩٨٠م إلى ١٩٩٠م)، والإحصائيات الأحدث أسوأ وأفظع، فما هو السبب في كل هذا البلاء؟.

ولنسمع إلى المصلح مارتن لوثر مؤسس فرقة البروتستانت وهو يجيب: «إن نبضة الجنس قوية لدرجة أنه لا يقدر على العفة إلا القليل .. من أجل ذلك الرجل المتزوج أكثر عفة من الراهب ... بل إن الزواج بامرأتين قد يسمح به أيضًا، كعلاج لاقتراف الإثم، كبديل عن الاتصال الجنسي غير المشروع»[٢].

إن البشرية لا غناء لها عن تعدد الزوجات إذا شاءت أن تحيا حياة العفة والطهر، وهذا ما ستقودنا إليه دراسة بسيطة للإحصاءات العالمية التي تشير إلى زيادة مطردة لنسبة النساء، فإذا كان عدد الإناث في الولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٢٢٤١) .

(٢) انظر: تعدد نساء الأنبياء، ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، ص (١٥٦-١٦٥ ، ١٨٥).

يزيد على عدد الذكور بأربعة ملايين امرأة، فإن المجتمع الأمريكي مخير بين القبول بأربعة ملايين بغي أو بأربعة ملايين أسرة شرعية تتعدد فيها الزوجات.

وهكذا فإن إباحة القرآن لتعدد الزوجات صورة من حكمة الله الحكيم ، إذ واقع الأرض لا يصلح إلا بمثل هذا التشريع، فعدد نساء البشر اليوم يربو على رجالها بأربعمائة مليون امرأة، مما يجعل تعدد الزوجات ضرورة ملحة لكل مجتمع يخشى الفساد ويحذر الانحلال، لذلك تقول المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغليري (ت ١٩٨٩م): «إنه لم يَقُم الدليل حتى الآن بأي طريقة مُطْلَقَة على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شرّ اجتماعي وعقبة في طريق التّقدّم .. وفي استطاعتنا أيضا أن نُصرّ على أنه في بعض مراحل التّطور الاجتماعي عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها ، كأن يُقتل عدد من الذكور ضخم إلى حدّ استثنائي في الحرب مثلاً ؛ يُصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية»(١).

لكن واقعية الإسلام في إباحة التعدد لم تخلَّ بمثاليته في التشريع، فقد حدده بأربع زوجات فقط؛ حتى يقدر الرجل على الوفاء بحقوقهن، كما سيَّج الإسلام هذه الشرعة وزانها بجملة من الآداب والضوابط، التي تلزم المنصف بتبرئة القرآن من مسؤولية الممارسات الخاطئة التي يقع بها بعض المعددين الذين لم يتأدبوا بآدابه، ولم يفقهوا أن تعدد الزوجات ليس شهوة عابرة، بل هو مزيد من المسئوليات التي يجب على الزوج القيام بها والوفاء بكل متطلباتها المالية والاجتماعية والإنسانية.

ومن آداب الإسلام في هذا الخصوص أنه كتب على الزوج العدل بين نسائه أو الامتناع عن التعدد: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾

---

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل ، ص (٤٢٦).

(النساء: ٣) ، والعدل يشمل السكن والنفقة وغيرها من مستحقات الزوجية.

وحذر النبي ﷺ من صورة كثيراً ما نراها عند المعددين، وهي الميل إلى إحدى الزوجتين ، فهذا النوع من الظلم توعد الله فاعله بعقوبة خاصة يوم القيامة: «**من كان له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط**»(١).

ولو عدنا إلى قول القائلين أن تعدد الزوجات فيه ظلم للزوجة الأولى وإهانة لكرامتها، فجوابه: فإن التعدد فيه مصلحة للزوجة الأخرى وإكرام لها، فكيف تفوت هذه المصلحة؟

ثم إن الزوجة الثانية ستغدو شريكة الأولى بمباركة أسرتها من الرجال والنساء الذين رأوا أن تزوجها من متزوج بغيرها خير لها من أن تكون بلا زوج، وهو صيانة لها ، ويؤهلها لتكون زوجة فاضلة بدلاً من أن تكون خليلة أو عشيقة بلا حقوق ولا كرامة، ثم لا تلبث أن تصير إلى الشارع.

ولذلك يرى الكاتب الإيرلندي "برنارد شو" أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج لمشاكل الغرب ، فيقول: «إن أوروبا لو أخذت بهذا النظام لوفرت على شعوبها كثيراً من أسباب الانحلال والسقوط الخلقي والتفكك العائلي».

ويقول المستشرق "هك فارلين" : «إذا نظرنا إلى تعدد الزوجات في الإسلام من الناحية الاجتماعية أو الأخلاقية أو المذهبية، فهو لا يعد مخالفاً - بحال من الأحوال - لأرقى أسلوب من أساليب الحضارة والمدنية، بل هو علاج عملي لمشاكل النساء البائسات والبغاء، واتخاذ المحظيات، ونمو عدد العوانس المطرد في المدنية الغربية بأوروبا وأمريكا»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه ح (١٩٦٩)، وأحمد ح (٨٣٦٢).

(٢) الإسلام وحقوق المرأة ، بإشراف د. جعفر عبد السلام ، ص (١٤٩).

رابعاً: حقوق المرأة والميراث

قالـوا: القرآن غبن المرأة حين جعل لها من الميراث نصف ما للرجل، وفي ذلك انتقاص من أهلية المرأة، ومعاملتها على أنها نصف إنسان!!..

والجواب: سبق بيان صور التساوي بين الجنسين في الإنسانية، ورأينا تساويهما في المنزلة عند الله وجزائه وعقابه، واستقر لدينا أن التفاضل بينهما إنما هو لدواع مادية بحتة، فالأصل في المسألة قوله ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[١].

وقبل أن نقف على سبب اختلاف الذكور عن الإناث في المواريث أود تذكير الطاعنين على القرآن بأن كتبهم المقدسة تحرم المرأة من الميراث كلية حال وجود أشقاء لها «**فكلم الرب موسى قائلاً ... أيما رجل مات وليس له ابن؛ تنقلون ملكه إلى ابنته**» (العدد ٢٧/ ٨) ، و يفهم من السياق التوراتي – الذي يؤمن به اليهود والنصارى – أن وجود الابن يمنع توريث الابنة (وانظر يشوع ١٧/ ١-٣).

وحين جاء الإسلام كان عرب الجاهلية يحرمون المرأة من الميراث، يقول عمر: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً؛ حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم»[٢]، فألغى الإسلام شرعة الجاهلية، وأحل بدلاً عنه نظام الإرث الإسلامي المبني وفق قواعد ثلاثة:

أولاً: مراعاة درجة القرابة بين الميت والوارث ، فكلما اقتربت الصلة بالميت زاد النصيب في الميراث، وكلما ضعفت الصلة قلَّ النصيب في الميراث، دونما اعتبار لجنس الوارثين، فابنة المتوفى تأخذ أكثر من والد المتوفى أو جده أو

(١) أخرجه الترمذي ح (١١٣)، وأبو داود ح (٢٣٦)، وأحمد ح (٢٥٦٦٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤٩١٣).

أخيه ، وهي تنال نصف التركة لو ورثت مع الأب والأم.

ثانيـاً: مراعاة موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال، فالأجيال الناشئة تقدم على الأجيال الكبيرة، لأنها تستقبل الأعباء والنفقات من دراسة وزواج وإنفاق على الأبناء، بعكس الكبار الذين غالباً ما تخف نفقاتهم، ومرة أخرى لا أثر للذكورة والأنوثة، فبنت المتوفى ترث (النصف) أي أكثر من أم المتوفى وأبيه، وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن .

ثالثاً: مراعاة العبء المالي الذي سيتحمله الوارث، وفق قاعدة الغُنم بالغُرم، فكلما كانت الأعباء عليه أكثر فإنه يرث أكثر، وبسبب هذا يتفاوت الذكر والأنثى، لأن الأعباء المالية على الذكر أكثر، فالذكر مكلف بإعالة الأنثى؛ زوجة كانت أم أختاً أم بنتاً، فهي ترث من أبيها، ويرعاها أخوها وزوجها وابنها(١).

ولو شئنا أن نضرب مثلاً بأخ وأخت ورثا عن أبيهما، فلو ورث الذكر عن أبيه ١٠٠ ألف والأنثى ٥٠ ألفاً، فالأخ مطلوب منه أن ينفق على عائلته كساء وغذاء وسكناً، بينما أخته مكفولة النفقة في بيت زوجها، وإذا كان الأخ يدفع مهراً، فإن الأخت تأخذ مهراً، علاوة على النفقات الأخرى التي يختص بها الرجال دون النساء، كتحمل دفع دية قتل الخطأ مع العصبة والأقارب، فهذا وأمثاله واجب على الأخ دون أخته الوارثة لنصف ما ورث.

وهكذا، حين جعل الله للذكر مثل حظ أنثيين من الميراث لم يقض بذلك لهوان النساء أو ظلمهن، بل قسم المال ووزعه تقسيماً مادياً بحتاً يتناسب والمسئوليات المنوطة بكل منهما في المجتمع والأسرة.

ثم إن الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل لا تعدو ثلاث

(١) انظر: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، [كتاب إلكتروني].

حالات(١):

أ) أولاد المتوفى ، فالذكور يرثون ضعف الإناث، لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١).

ب) التوارث بين الزوجين ، حيث يرث الزوج من زوجته ضعف ما ترثه هي منه، لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (النساء: ١٢).

ج) يأخذ أبو المتوفى ضعف زوجته (أم المتوفى) إذا لم يكن لابنهما وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث.

وفي مقابل هذه الحالات الثلاث فإن الأنثى ترث مثل الذكر في حالات، كما في مسألة الكلالة ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ ﴾ (النساء: ١٢).

كما قد قضى عمر بالتساوي بين الأخوة لأم ذكوراً وإناثًا، قال الزهري: «ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية التي قال الله تعالى: ﴿ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ ﴾ (النساء: ١٢)»(٢).

ومرة أخرى ساوى القرآن بين الوالدين في إرثهما من ولدهما؛ إذا كان له ولد ﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (النساء: ١٢).

---

(١) ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام ، رابطة العالم الإسلامي، ص (١٤٠-١٤١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٨٨).

وهناك أحوال كثيرة ترث الأنثى فيها أكثر من الرجل، فتقدم الابنة مثلاً على الأب والأخ والعم والخال، بل قد ترث هي، ولا يرثون.

وهكذا فالتفاوت في قسم الميراث بين الذكور والإناث ليس مطرداً، وهو متعلق بمنظومة الإسلام الاجتماعية ومقتضياتها في توزيع المسؤوليات والنفقات، ووفق هذه الالتزامات يتوزع الإرث بين الذكور والإناث.

ونختم الرد على هذه الأُبطولة بشهادة عالم الاجتماع المستشرق غوستاف لو بون، حيث يقول: «والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضها، خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية».

ويقول: «وتعد مبادئ الميراث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف.. ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللائي يُزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقاً في الميراث لا نجد مثلها في قوانيننا»[1].

(١) حضارة العرب، غوستاف لو بون، ص (٣٨٩، ٤٠١).

خامساً: شهادة المرأة

قالوا: جعل القرآن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل في قوله: ﴿**وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فزعموا أن في ذلك انتقاصاً للمرأة، واستهانة بها.

والجواب: الأمر الوارد في الآية ليس موجهاً إلى القاضي والحاكم، كما يظن الكثيرون، إنما هو لصاحب المال الذي يداين آخر، فأمره الله بكتابة الدَيْن لحفظه ؛ فإن عجز عن ذلك، فليستشهد عليه شهيدين من الرجال، أو رجلاً وامرأتين، حتى لا يضيع حقه بنسيان المرأة الواحدة لمثل هذا الأمر، الذي لا تضبطه النساء عادة.

وقد عللت الآية السبب الذي لأجله طلب الله من صاحب الدين الاستيثاق لماله بشهادة امرأتين أو رجل واحد ﴿**أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾ (البقرة: ٢٨٢)، أي خوف نسيانها فحسب، لأن المسائل المالية مما لا تضبطه النساء ولا تعنى به عادة. وضلالها وخطؤها ينشأ من أسباب مادية بحتة، لعل أهمها قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد، مما قد يجعلها غير حافظة لكل دقائقه وملابساته.

لكن هذا لا يعني أن شهادة المرأة في المحاكم والقضاء بنصف شهادة الرجل، فالقاضي يقضي بما يتيسر له من الأدلة، عملاً بقوله ﷺ: «**البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه**»[1]، وقد يقضي القاضي بشهادة رجل واحد أو بشهادة امرأة واحدة، أو بأقل من ذلك، كما يوضحه ابن القيم بقوله: «إن البينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة

(١) أخرجه الترمذي ح (١٣٤١).

ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة شاهدين، وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نُكولاً [امتناعاً عن اليمين] .. فقوله ﷺ: «**البينة على المدعي**»، أي عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكم له»[١].

ويقول وهو يرد هذه الشبهة: «فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين، قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها.. وهو سبحانه لم يذكر ما يحكم به الحاكم، وإنما أرشدنا إلى ما يُحفظ به الحق، وطرق الحكم أوسع من الطرق التي تُحفظ بها الحقوق»[٢].

ويقول مبيناً علة التمييز بين شهادة الرجل والمرأة: «والمرأة العدل كالرجل في الصدق والأمانة والديانة إلا أنها لما خيف عليها السهو والنسيان قويت بمثلها، وذلك قد يجعلها أقوى من الرجل الواحد أو مثله، ولا ريب أن الظن المستفاد من شهادة مثل أم الدرداء وأم عطية أقوى من الظن المستفاد من رجل واحد دونهما ودون أمثالهما»[٣].

ومما يشهد لصحة هذا الفهم أن مجمل الشهادات تتساوى فيها شهادة الذكر والأنثى ، ففي شهادات اللعان بين الأزواج تتساوى شهادة الرجل وزوجته، فشهاداتها الأربع في اللعان تعدل شهادات زوجها الأربع، وذلك مقرر في قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ**

(١) الطرق الحكمية، ابن القيم، ص (٣٤).
(٢) المصدر السابق ، ص (٢١٩).
(٣) المصدر السابق، ص (٢١٩).

عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِالله إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ الله عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (النور: ٦-٩).

ولن يفوتنا التنبيه إلى أمر مهم، وهو تساوي شهادة المرأة بالرجل في أهم الشهادات التي لا مدخل فيها للعاطفة الغالبة على المرأة أو قلة الخبرة، أي حين يكون الاعتماد على مجرد الذكاء والحفظ، وذلك في الأمور الدينية، فتقبل رواية المرأة للحديث كالرجل تماماً، ومثله في سائر العلوم.

وقد جعل الشارع شهادة المرأة معتبرة في بعض المسائل التي قد لا يقبل فيها شهادة الرجال، كالأمور النسائية التي لا يطلع عليها الرجال عادة، كإثبات الولادة وحيضة المطلقة وطهرها في قوله: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ الله فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قبل شهادة امرأة واحدة في الرضاع، ففي حديث عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمة سوداء، فقالت: قد أرضعتكما. فذكر ذلك للنبي ﷺ ، ففرق بينهما[1].

إن التشريع القرآني الذي جعل شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل في مسائل الدَّيْن وأمثالها لم يصنعه إجحافاً بحقها أو استهانة بمقامها وإنسانيتها، وإنما هو مراعاة لقدراتها ومواهبها، وإلا فإن أهليتها كأهلية الرجل تماماً في كثير من المعاملات كالبيع والشفعة والإجارة والوكالة والشركة والوقف والعتق...

(١) أخرجه البخاري ح (٢٦٥٩).

سادساً: طلاق المرأة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين أذن بالطلاق بين الزوجين، والمفروض أن تكون الحياة الزوجية على التأبيد، وقالوا بأنه ظلم المرأة حين جعل الطلاق بيد الرجل، دون المرأة.

والجواب: أن الطلاق شرعة موجودة عند كل الأمم بلا استثناء، وما من أمة ولا شرعة إلا وأباحت الطلاق ولجأت إليه كحل لا مفر منه في إنهاء الخلافات المستعصية بين الأزواج، فالعهد القديم يبيح الطلاق، والعهد الجديد كذلك يبيح الطلاق بعلة الزنا، وإن حرمه فيما عدا ذلك، لكن هذا التحريم أدى إلى مفسدة عظمى، فكان سبباً في انتشار الزنا والعلاقات المحرمة بدون زواج، حيث يعيش الرجل مع المرأة سنين طويلة قبل أن يتزوجا، ولا يمنعهما عن الزواج إلا خشية وقوع الفراق، فلا يتزوجان إلا بعد أن ينجبا عدداً من الأبناء، ويتأكدا من ديمومة زواجهما واستغنائهما عن الانفصال.

إن الطلاق ضرورة اجتماعية معروفة في الشرائع قبل الإسلام، وهي مقررة اليوم في كافة القوانين المدنية، فكيف يطالب المرء بإمساك زوجة لا يطيقها ، وقد قيل: «إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك».

ويقرر الإسلام أن الأصل في الحياة الزوجية الديمومة التي تحرسها المودة والرحمة التي يجعلها الله بين الزوجين ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ **(الروم: ٢١)**، فقد رغب القرآن في ديمومة النكاح، وحثَّ الزوج في الإبقاء على العلاقة الزوجية حتى حال الكراهية بين الزوجين ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ (النساء: ١٩).

كما أوصى النبي ﷺ الزوج بحسن تبعل المرأة، وجعل ذلك ميزانًا لخيريته بين المؤمنين: «**خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي**»(١)، وأوصاه بالمحافظة على رباط الزوجية وإن وجد في زوجته ما يكره، فليأنس بغيره مما يحب: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**»(٢).

وكره الإسلام الطلاق ففي المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق**»(٣)، ورغم ضعف إسناده فمعناه صحيح، وهو أمر لا يخفى على من تدبر الآية التي جعلت التفريق بين الزوجين بعض كيد السحرة والشياطين: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ (البقرة: ١٠٢)، فلا يليق بالمسلم أن يوافق مراده مراد الشياطين بلا حاجة ماسة لذلك.

ولحماية الأسرة من الوصول إلى الفراق بالطلاق أوجب الإسلام حسن العشرة بين الزوجين حتى في حال الكراهية ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ (النساء: ١٩)، وخيَّر الزوج بعد طلقتين بين المعروف والإحسان ﴿ **الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وشرع القرآن للزوجين إصلاح ما يفسد بينهما من علاقة، وحثهما على وأد الشقاق والنفور بكل طريق يؤدي إلى الصلح ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ (النساء: ١٢٨)، فإذا لم يستطع الزوجان أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ولم يحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة؛ فإن الله يأمرهما بعرض الأمر على مجلس

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٨٩٥)، وابن ماجه ح (١٩٧٧).
(٢) أخرجه مسلم ح (١٤٦٩).
(٣) أخرجه أبو داود ح (٢١٧٨)، وابن ماجه ح (٢٠١٨)، وفي إسناده ضعف.

عائلي يتكون من حكمين، أحدهما من أهله، والآخر من أهلها، ليبحثا أسباب الشقاق، ويسعيا لإحلال الصفاء والوئام محل النفور والخصام: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا**﴾ (النساء: ٣٥).

فإن استحالت الحياة بين الزوجين فإن الإسلام أذن للزوج بطلاق المرأة مرتين من غير أن يخرجها من بيتها قبل انتهاء عدتها، وأن يكون طلاقه لها في طهر لم يجامعها فيه ، فهذا الشرط يمنع الطلاق حال الحيض وامتناع العشرة الزوجية، وهو شرط لا يتحقق في الحياة الزوجية إلا مع النُفْرة الشديدة المانعة لديمومة الحياة الأسرية.

ويضع القرآن للمطلقة حقاً على زوجها، وهو المتعة ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٤١)، وهو مبلغ من المال يجبر فيه خاطرها ولم يحدد القرآن مقداره، بل قال: ﴿ **وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

وقد وضع الإسلام – كما الشرائع السابقة – الطلاق بيد الرجل لحكم لا تخفى:

أولاً: عاطفية المرأة تؤدي إلى تسرعها في الأمور، بينما الرجل بعقليته الغالبة أقدر على تحمل مثل هذا القرار والتروي في اتخاذه.

ثانياً: الطلاق يحمل الزوج تبعات مالية كخسارة ما دفعه من مهر مقدم، وما يلزمه من مهر مؤجل ونفقة العدة وأجرة الرضاعة والحضانة إن كان له طفل أو أطفال من زوجته المطلقة، وهذا كله مما يحمل الزوج على التأني وعدم العجلة في تطليق زوجته، وربما تزول أسباب طلاقها في حالة تأنيه وعدم عجلته، إضافة إلى أن الخسائر المالية ستلحق به بسبب قراره، لا بسبب قرار يتخذه غيره.

ويحفظ الإسلام للمرأة حقوقها المالية حين الطلاق، فلا يجيز للزوج أن يأخذ شيئًا مما أعطاها إياه؛ ولو كان كثيراً ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (النساء: ٢٠).

وإذا كان القرآن يعطي الزوج قرار الطلاق فإنه يجيز للمرأة أن تطلب من القاضي أن يطلقها من زوجها بعد أن تبدي الأسباب الموجبة لذلك ، كما يجيز فقهاء الإسلام لها أن تشترط في عقدها حقها في طلاق نفسها إن شاءت، فإذا رضي الزوج بهذا الشرط وانعقد العقد بهذا الشرط؛ صار لها حق تطليق نفسها؛ بإرادتها.

كما يعطيها القرآن فرصة معادلة للطلاق للتخلص من رباط الزوجية، وهي الخلع الذي تردُّ فيه بعضاً مما دفعه الزوج، وتحصل على طلاقها ﴿ **فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، فهذا يحفظ للزوج حقه المالي، ويحفظ لها حقها في فسخ النكاح الذي ترى أنها تتضرر به.

لذا لما جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ ترغب في طلاق زوجها قالت: إني لا أعتب عليه في خلق ولا في دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال لها ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» [كان مهراً أعطاها إياه] قالت: نعم، فقال ﷺ لثابت: «**اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة**»(١).

وفي كل ما سبق ما يبرئ ساحة شريعة القرآن من غبن النساء الذي ألحقه الزاعمون به، ويؤكد واقعية هذه الشريعة ومثاليتها في آن واحد.

ومن أراد مزيد يقين فليقرأ شهادة الصحفية الإنجليزية روز ماري هاو: «إن الإسلام قد كرم المرأة وأعطاها حقوقها كإنسانة، وكامرأة، وعلى عكس ما

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٢٧٢).

يظن الناس من أن المرأة الغربية حصلت على حقوقها.. فالمرأة الغربية لا تستطيع مثلاً أن تمارس إنسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المرأة المسلمة. فقد أصبح واجباً على المرأة في الغرب أن تعمل خارج بيتها لكسب العيش.

أما المرأة المسلمة فلها حق الاختيار، ومن حقها أن يقوم الرجل بكسب القوت لها ولبقية أفراد الأسرة. فحين جعل الله للرجال القوامة على النساء كان المقصود هنا أن على الرجل أن يعمل ليكسب قوته وقوت عائلته. فالمرأة في الإسلام لها دور أهم وأكبر من مجرد الوظيفة، وهو الإنجاب وتربية الأبناء، ومع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في العمل إذا رغبت هي في ذلك، وإذا اقتضت ظروفها ذلك»(١).

وكذلك الشهادة المنصفة للمفكر الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه "إنسانية الإسلام": «أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد أنها حامية حمى حقوق المرأة»(٢).

***

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (٤٣٦).

(٢) المصدر السابق (٤١٠).

الجهاد في الإسلام

قالوا: الإسلام دين الإرهاب، والقرآن هو من شرعه في آياته الكثيرة التي تحض على العنف والقتال.

الجواب: أرسل الله نبيه ﷺ إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، ووصفه بقوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، كما وصفه الله تعالى بالرأفة والرحمة في قوله: ﴿**لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ**﴾ (التوبة: ١٢٨)، فمحمد ﷺ هو رحمة الله المسداة إلى خلقه.

وقد امتن الله على البشرية ببعثته ﷺ لما طواه من الأحقاد المريرة؛ التي أنّت المجتمعات الإنسانية منها طويلاً: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

كما وصف الله كتابه الأخير - القرآن العظيم - بالرحمة والشفاء بقوله: ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين**﴾ (يونس: ٥٧)، وأكد عليه بقوله: ﴿**هذا بصائر للناس وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يوقنون**﴾ (الجاثية: ٢٠).

والرحمة كما هي صفة الله ونبيه وكتابه؛ فإنها صفة لازمة للمؤمنين أيضًا، فالله الرحمن الرحيم، ويرحم الرحماء من عباده، و «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**»[1]، والمتواصون بهذا الخلق العظيم هم أهل السعادة يوم القيامة ﴿**ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ۞ أولئك**

(١) أخرجه البخاري ح (٧٣٧٦)، ومسلم ح (٢٣١٩).

أصحاب الميمنة﴾ (البلد: ١٧-١٨).

وقد أمر ﷺ المسلمين أن يتصفوا بصفة الرحمة، في تعاملهم فيما بينهم ومع غيرهم، بل وحتى مع الحيوان، فقوله ﷺ: «**من لا يرحم الناس**»[١]، لفظ عام يشمل كل أحد، دون تمييز لجنس أو لون أو دين.

ومن صور الرحمة لغير المسلمين التصدق على مسكينهم، فقد روى أبو عبيد أن بعض المسلمين كان لهم أنسباء وقرابة من قريظة والنضير، وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم، يريدوهم أن يسلموا، فنزلت: ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم**﴾ (البقرة: ٢٧٢)[٢].

وتمتد الرحمة لتشمل المحاربين الذين وقعوا في أسر المسلمين، يقول أبو رزين: كنت مع سفيان بن سلمة، فمر عليه أسارى من المشركين، فأمرني أن أتصدق عليهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا**﴾ (الإنسان: ٨).

يقول أبو عزيز بن عمير: كنت في الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**»، وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز، بوصية رسول الله ﷺ إياهم[٣].

وإذا كان الإسلام دين رحمة، فمن أين أتى القول الذي تروج له بعض الدوائر التي دأبت على وصف الإسلام بالإرهاب والقسوة؛ متذرعة بما جاء في

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧٣٧٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال ح (١٣٢١)، وابن زنجويه في الأموال ح (١٨٦٢) وصححه الألباني في تمام المنَّة (١/ ٣٨٩).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (١٨٤١٠)، قال الهيثمي: «إسناده حسن» مجمع الزوائد (٦/ ٨٦).

القرآن العظيم من نصوص تأمر المسلمين بإعداد العدة والتأهب لصد العدوان، بل والقتال والتضحية بالنفس ذودًا عن الدين والوطن والنفس والإنسان.

إن رحمة الإسلام ليست استكانة ولا خنوعًا للباطل واستسلامًا للضيم والظلم .. رحمته ليست استخذاء أو مهانة، بل هي رحمة القوي القادر على حماية حقه من العدوان.

حقًا لقد أمر القرآن بالقتال، لكن شتان بين القتل والقتال، بين الإرهاب والجهاد، فالإرهاب هو استهداف الضعيف العاجز أو البريء الذي لا حول له ولا طول بالقتل والترويع، فقتل الأبرياء إرهاب دنيء وإفساد في الارض، وهو - في الإسلام - من أعظم الجرائم وأنكرِها.

لقد استبشع القرآن إرهاب فرعون واعتداءه على الأطفال والمستضعفين من اليهود، واعتبره من المفسدين في الأرض العاتين فيها: ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾ (القصص: ٤).

ونقل القرآن أيضًا بغض الله للمفسدين: ﴿**ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين**﴾ (القصص: ٧٧)، وحكى عن حال أهل البغي والفساد محذرًا من صنيعهم مستنكرًا فعالهم: ﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾ (البقرة: ٢٠٥).

إن قتل نفس بريئة واحدة إفساد في الأرض، وهو أمر جلل مستبشع، كيف لا وهو مشبه بالاعتداء على جميع الجنس البشري ﴿**من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا**﴾ (المائدة: ٣٢).

وقد حرم الله قتل النفس إلا بحق - كقصاص ونحوه - في آيات كثيرة من

القرآن ، منها قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ (الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣)، ووصف عباده المؤمنين بأنهم : ﴿ **لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ (الفرقان: ٦٨).

ومن وقع في قتل نفس بلا حق؛ فقد أدخل الخلل على دينه ، قال ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا**»(١)؛ وكما يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سفك الدم الحرام بغير حله**»(٢).

ويفرِّق الإسلام بين أنواع الكفار، فلا يجعلهم في سلة واحدة، فمنهم المحارب والمستأمن والمعاهد والذمي، فلا يجوز قتل سوى المحارب منهم، وأما ما سواه فهم آمنون معصومو الدم، لا يجوز قتلهم، ولا ترويعهم، ولا ظلمهم، فإن حرمة النفس لا تختص بالمسلم ، بل تشمل كل نفس من غير أهل الحرب والعدوان، وهذا بيّن لمن تأمل وعيد النبي ﷺ لمن اجترأ على دم محرم من غير المسلمين؛ فقد قال ﷺ متوعدًا من يفعل ذلك من المسلمين: «**من قتل معاهَدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٣) ، فهؤلاء المسالمون من غير المسلمين لهم عهد وذمة الله ورسوله، والوعيد النبوي شديد لمن أخفر هذه الذمة «**ألا من قتل نفسًا معاهدة لها ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر ذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٨٦٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٦٨٦٣).
(٣) أخرجه البخاري ح (٣١٦٦).
(٤) أخرجه الترمذي ح (١٤٠٣)، وابن ماجه ح (٢٦٨٧).

إن الإسلام لم يحرم قتل هؤلاء المسالمين الكفار فحسب، بل حرم ظلمهم وانتقاص حقوقهم والإضرار بمصالحهم، والنبي ﷺ - وهو الرحمة المسداة - يُحاج يوم القيامة المسلمين الذين يظلمون هؤلاء، ويجعل نفسه الشريفة خصمًا للمعتدي عليهم، فيقول: «**من ظلم معاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة**»(١) ، فالظلم -لأي أحد -يغضب الله الذي يقبل شكاة المظلوم على ظالمه -ولو كان المظلوم غير مسلم ، فالله يجيب دعوته على ظالمه المسلم، يقول ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم -وإن كان كافرًا -فإنه ليس دونها حجاب**»(٢)، فالله حرم الظلم على ذاته العلية، وكذلك حرَّمه على سائر خلقه، ففي الحديث القدسي أن الله تعالى يقول مخاطبًا البشر جميعًا: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»(٣).

إن ظلم الحيوان يستوجب لصاحبه النار، فما بالنا بظلم الإنسان لأخيه الإنسان، قال ﷺ : «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(٤).

وهكذا فالإسلام أبعد الأديان عن الظلم، وأكثرها تنديدًا به وامتناعًا عنه، لكن ذلك لا علاقة له من قريب أو بعيد بشرعة الجهاد التي يقررها الإسلام، ردعًا للظالم وزجرًا للباغي وصونًا للإيمان وحرية العباد في عبادة الله.

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٠٥٢)، ونحوه في سنن النسائي ح (٢٧٤٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ح (٢٦٢٦).
(٢) أخرجه أحمد ح (١٢١٤٠).
(٣) أخرجه مسلم ح (٢٥٧٧).
(٤) أخرجه البخاري ح (٣٣١٨)، ومسلم ح (٢٦١٩).

إذا أردنا الحديث عن الجهاد فإنه يحسن بنا أن نقرأ – ولو سريعًا – بعض الأحداث في فجر الإسلام، حين بعث الله محمدًا ﷺ رسولاً للعالمين، فتصدت له قريش، وآزرتها قبائل العرب، فأوقعوا النكال والتعذيب والقتل بالمؤمنين، والمؤمنون صابرون محتسبون ملتزمون بنهي الله لهم عن القتال، لقد أمرهم الله بالصبر: ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ (النساء: ٧٧).

لكن الباطل أزبد وأصر على البغي، فأذن الله للمؤمنين المضطهدين بالقتال والذب عن أنفسهم ﴿**أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقديرٌ ۞ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

وبينت الآية نفسها مبلغ الفساد الذي يلحق البشرية على اختلاف أديانها إذا قصرت في رد المعتدي وزجره بالقوة التي يندفع بها عدوانه وتأمن بها المجتمعات ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعضٍ لهدمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيزٌ**﴾ (الحج: ٤٠).

وبينت الآية التي تلتها الصفات التي ينبغي أن يكون عليها أهل الإيمان الذين ينصرهم الله، فهم ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ (الحج: ٤١).

ونهى الله نبيه والصحابة عن الاعتداء والبدء بالقتال ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ۞ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ۞ فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ ۞ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ**

ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ۞ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٤).

ولو انزجر هؤلاء المعتدون بغير القتال لأراحوا الأرض من عناء الحروب وويلاتها **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾** (النساء: ٩٠).

وحين أعلن المشركون الحرب الشاملة على المسلمين؛ قابلهم الإسلام بمثلها، فأمر الله في القرآن بالتوحد لقتالهم: **﴿وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافةً واعلموا أن الله مع المتقين﴾** (التوبة: ٣٦).

وهكذا فإن القتال في الإسلام فرض وفق أسباب شرعية ومبررات واقعية يقدرها توماس كارليل، فيقول: «وكانت نية محمد حتى الآن [أي : بدء الدعوة] أن يشهر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لُبِّه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة ؛ عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه .. رأى أن أولئك القوم صموا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق ، وأبوا إلا التمادي في ضلالهم، يستبيحون الحريم، ويهتكون الحرمات، ويسلبون، وينهبون، ويقتلون النفس التي حرم الله ، ويأتون كل إثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة ، فأبوا إلا عتوًا وطغيانًا ، فليُجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند»[1].

ومثل هذا نقرأه عند المحامي الكاثوليكي آرشي أوغستاين، فقد قال: «القرآن الكريم يأمر المسلم بمقاومة الظلم، فهو لا يستطيع إدارة الخد الآخر،

---

(١) الأبطال، توماس كارليل، ص (٧٩).

وهو لا يستطيع الغفران لشخص سبع مرات، ثم سبعًا، ثم سبعًا، لا يمكن ذلك عندما يحدث تحدٍ وتهديد لعقيدة الإيمان .. فهو يحرض على الجهاد .. إنه يأمر المسلم بأن يحارب العدو بشراسة من أجل حماية الدين والإيمان »(١).

إن الحرب ليست أمرًا محببًا إلى النفوس، لكنها - على كل حال - مبضع الجراح الذي لا غناء عنه إذا أردنا صحة الجسم العليل ﴿**كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ (البقرة: ٢١٦).

والنبي ﷺ يوجه أصحابه إلى دعاء الله والالتجاء إليه لصرف العدو وقطع شره من غير قتال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(٢)، وقد امتن الله تعالى على نبيه ﷺ حين صرف عن المدينة الأحزاب من غير أن يقع بينهم قتل وقتال ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا**﴾ (الأحزاب: ٢٥).

إن غاية الحرب في الإسلام ليست الاستعلاء في الدنيا والتسلط على الآخرين، فمن كان همه الدنيا وزخارفها خسر الآخرة وكرامتها ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين**﴾ (القصص: ٨٣).

ولما جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن غايات الجهاد المشروع الذي شرعه الله، ويقول: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، من في سبيل الله؟ فقال ﷺ مبينًا فساد القتال إذا كان للدنيا ومتاعها

---

(١) دفاعًا عن الجهاد (وجهة نظر مسيحية)، آرشي أوغستاين، ص (٢٨، ٦١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٠٢٤)، ومسلم ح (١٧٤٢).

وغاياتها الخسيسة: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

إن المتدبر لما ورد في القرآن والسنة وتاريخ المسلمين لن تخطئ عينه رؤية مقصدين نبيلين شرع الله الجهاد لحفظهما:

أولهما: دفع العدوان الواقع على الدين، ذلك العدوان الذي يحول بين الناس ودعوة الحق سماعًا لها أو إيمانًا بها، كما قال تعالى : ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ (البقرة: ١٩٣)، يقول ابن عمر رضي الله عنه : «قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه: إما يقتلونه، وإما يوثقونه حتى كثر الإسلام»(٢).

إن المسلم يمضي قُدُمًا بجهاده ليحرر الإنسان ، ويضمن له حرية القرار والاختيار، ويدفع بذلك من يحول بين الناس واختيارهم، يدفع شر أولئك الذين يبغون الفتنة والبوار، فقتال هؤلاء مشروع مبرور ﴿**والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقد جلّى ربعي بن عامرٍ يوم القادسية هذا الهدف النبيل حين قال لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وقد سأله: ما جاء بكم؟ فأجاب ربعي: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ح (٢٨١٠)، ومسلم ح (١٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٥١٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٧/ ٤٠).

إن الإيمان أغلى ما يملكه المسلم، وهو أحق ما بذل له وضحّى من أجله، وقد أنصف الكاتب بيجي رودريك ولم يجاوز الحقيقة حين قال: «الإسلام أذن لرسوله بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد .. ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة للإسلام، تلك الدعوة التي لا تكره أحدًا على الدخول في هذا الدين، وإنما تدعو الناس إليه وتترك لهم الحرية الكاملة للاختيار .. إن الإسلام هو دين السلام ، السلام مع الله والسلام مع الناس جميعًا»(١).

الثاني: رد العدوان الذي يستهدف أوطان المسلمين وينتهك حرماتهم، وتحرير الإنسان من الظلم والاضطهاد، فالظلم يمقته الله، والبغي تستنكفه الضمائر، ولا ترى بُدًا من نصرة المظلوم وإحقاق الحق وإقامة العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرًا**﴾ (النساء: ٧٥).

ويقول ﷺ مبشرًا ومثبتًا من قُتِل وهو يدفع عن ماله وأهله ودينه: «**من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله أو دون دمه أو دون دينه فهو شهيد**»(٢).

وحين يجاهد المسلم فإنه يلتزم في جهاده جملة من الضوابط التي يتميز بها عن الإرهاب، منها:

- القبول بالسلم والهدنة إن طلبها العدو المقاتل، قال تعالى : ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ۞ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ (الأنفال: ٦١-٦٢).

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (٢٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١٤٢١)، وأبو داود ح (٤٧٧٢).

- الامتناع عن قتل المدنيين من النساء والشيوخ والأطفال ومن في حكمهم من المدنيين المعصومين كالخدم والأُجراء ورجال الدين وغيرهم ممن لا يشارك في القتال، فقد ورد النهي عن قتل النساء والشيوخ والصبيان في حديث النبي ﷺ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «**وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان**»(١).

وكان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشًا يقول: «**انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين**»(٢).

ومما جاء في النهي عن قتل النساء والأجراء والعمال الذين لا يحاربون، حديث الصحابي رباح بن الربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: «**انظر علام اجتمع هؤلاء؟**» فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال ﷺ: «**ما كانت هذه لتقاتل**»، وكان على المقدمة خالد بن الوليد، قال: فبعث رسول الله ﷺ رجلاً، فقال: «**قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفًا**»(٣).

وفي رواية، فقل: إن رسول الله ﷺ يأمرك فيقول: «**لا تقتلن ذرية ولا عسيفًا**»(٤).

ولما بعث رسول الله ﷺ سرية يوم حنين قاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل

(١) أخرجه البخاري ح (٣٠١٥)، ومسلم ح (١٧٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٢٦١٤).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٢٦٦٩)، وابن ماجه ح (٢٨٤٢)، والعسيف هو الأجير الذي يخدم الجيش ولا يشترك في القتال.

(٤) أخرجه ابن ماجه ح (٢٨٤٢).

إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ مستنكرًا: «**ما حملكم على قتل الذرية؟**» فقالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين. فقال ﷺ معلمًا ومصححًا مفهومهم الخاطئ: «**أوهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**»(١).

وهكذا نهى النبي ﷺ عن قتل أبناء المشركين، لا بل أخبر أنهم مولودون على الفطرة المؤمنة، وحكمهم كذلك إلى أن يكبروا، فيختاروا الكفر الذي عليه آباؤهم.

وممن يمنع قتله؛ الرهبان لأنهم لا يشتركون في القتال، وقد أوصى الخليفة أبو بكر قائد جيش المسلمين إلى بلاد الشام بقوله: «**إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له**»(٢).

وهكذا فالإسلام بريء من الإرهاب، وكذلك المسلمون الذين التزموا خلال تاريخهم الجهادي بضوابط الإسلام، ولم يكونوا كغيرهم من المحاربين المفسدين في الأرض، وبين أيدينا شهادات عديدة منصفة تؤكد هذا وتجليه:

يقول المؤرخ الأمريكي وليام ديورانت: «إن المسلمين – كما يلوح – كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلّما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م»(٣).

وأما عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لو بون فيقول: «فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم»(٤)،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح (١٥١٦١).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ح (٩٨٢).

(٣) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (٢٤٥).

(٤) حضارة العرب، غوستاف لو بون، ص (٧٢٠).

ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: «وكان عرب أسبانيا -خلا تسامحهم العظيم -يتصفون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخرًا»[١].

ويقول الكولونيل رونالد بودلي: «وحيثما توجه الإسلام بعد موت محمد، فإنه لم يجعل البلاد المفتوحة إقطاعيات، ولم يستغل موارد البلاد لصالح المسلمين، فلم يتبع طريقة الرجل الأبيض .. بل على النقيض من ذلك، فإن المسلمين لم يعرفوا شيئًا عن الأراضي التي كانوا ينتشرون فوقها .. وقد انتفعوا طبعًا بكل ما وجدوه، ولكن كان ذلك بالشراكة مع السكان أصحاب البلاد الذين كانوا يتحولون عادة إلى مسلمين»[٢].

ويضيف: «ولما أصبح عمر خليفة، واستولى على بيت المقدس أصدر أوامر مشددة بعدم الإضرار بالمسيحيين أو كنائسهم.

ولما غزا المسلمون أسبانيا في القرن الثامن احترموا كل شيء مسيحي، وقد استمر الحال على ذلك حتى زوال الحكم العربي من أوربا، ولم يستمر الحال على ذلك حين أصبح للمسيحيين اليد العليا، فحل الاضطهاد الديني محل التسامح الإسلامي»[٣].

ويضيف المفكر الأسباني بلاسكوا أبانيز في كتابه "ظلال الكنيسة" متحدثًا عن الفتح الإسلامي للأندلس: «لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية، وأسلمتهم القرى أزمتها بغير مقاومة ولا

(١) المصدر السابق، ص (٣٤٤).
(٢) الرسول (حياة محمد)، رونالد بودلي، ص (١١٥).
(٣) المصدر السابق، ص (٣٧٩).

عداء، فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى؛ حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب .. كانت غزوة تمدين، ولم تكن غزوة فتح وقهر .. ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمنًا عن فضيلة حرية الضمير، وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب، فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى وبِيَع اليهود، ولم يخشَ المسجد معابد الأديان التي سبقته، فعرف لها حقها، واستقر إلى جانبها، غير حاسد لها، ولا راغب في السيادة عليها»(١).

وهكذا تبين لنا عظيم الفرق بين الجهاد المشروع في الإسلام والأساليب الإرهابية التي تمارس من بعض المسلمين وغيرهم اليوم، والتي يعتبرها الإسلام إفسادًا في الأرض، وتنسب إلى الإسلام جورًا وظلمًا!

إن اتهام الإسلام بالإرهاب زور وظلم يفتقد الموضوعية ويجافي الحقيقة، والزاعمون له أدعياء تجردوا عن المصداقية والصدق حين كلّت أقلامهم وبحّت حناجرهم من لمز الإسلام بالإرهاب، ولم ينطقوا ببنت شفة عن أديان تسوغ كتبها قتل النساء والأطفال والرضع ممن لا علاقة له بالقتال «**هكذا يقول رب الجنود: ... فالآن اذهب، واضرب عماليق، وحرموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملاً وحمارًا**» (صموئيل (١) ١٥/ ٢-٣)، ألم يقرأ هؤلاء ما جاء في سفر الخروج: «**من ذبح لآلهة غير الرب وحده يُهلَك**» (الخروج ٢٢/ ٢٠)، والنص بحسب نسخة الأخبار السارة أوضح: «**فقتله حلال**»!؟ هل قرؤوا في القرآن نصًا يشبه ما جاء في سفر إرمياء: «**ملعون من يمنع سيفه عن الدم**» (إرمياء ٤٨/ ١٠)؟.

إنا لا نطالب هؤلاء باتهام الآخرين، إنما الذي نطالبهم به أن يفهموا

(١) The Shadow of the Cathedral, Vicente Blasco Ibanez, pp63-64.
والترجمة من كتاب: فن الحكم في الإسلام، مصطفى أبو زيد فهمي، ص (٣٨٧).

نصوصنا المقدسة بفهمنا لها، لا بخلطهم وجهلهم، وأن يشيحوا بأقلامهم عنا حين تغيب عنهم الفهوم الصحيحة، وإلا فالأحرى أن يلتمسوا لنا من الأعذار ما التمسوه للآخرين وكتبهم.

ونختم بشهادة للكاتب الأمريكي آندرو باترسون حيث يقول: «إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف»(١).

***

(١) لا سكوت بعد اليوم ، بول فندلي، ص (٩١).

الإرهاب باسم الدين

قالوا: آيات القرآن التي تشرع الجهاد الذي أخرج للدنيا ظاهرة الإرهاب التي أغرقت الأرض اليوم بالدماء!!

الجواب :

أولاً : نظرة في تاريخ الإنسانية

تاريخ الجنس البشري غارق في الدماء من قبل الإسلام ومن بعده، حتى أن بعض الدارسين جعل سنوات السلام في تاريخ البشرية لا يتجاوز الـ ٢٥٠ سنة، وأقتطف هنا من مقال حسين الرواشدة، وفيه « على مدى خمسة آلاف سنة شهد العالم أكثر من (١٥) ألف حرب تسببت في موت أكثر من (٢٥) مليار شخص ، وعلى مدى الـ (٣٤٠٠) سنة الأخيرة من حياة البشرية لم ينعم الإنسان إلا بـ (٢٥٠) سنة سلام فقط.

أما في القرن العشرين فقد شهد العالم نحو (٢٦٠) نزاعًا مسلحًا بلغ عدد ضحاياه أكثر من (١٧٠) مليون إنسان.

أما ضحايا الحروب الدينية في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت فقد بلغت نحو (١٠) ملايين إنسان، يشكلون ما نسبته ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، وفي الحرب العالمية الأولى سقط نحو (٨) ملايين عسكري، فيما سقط في الحرب العالمية الثانية نحو (٦٠) مليون إنسان»[1].

تلك باختصار هي قصة الصراع منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، قصة شارك في كتابتها الجميع، كل وفق أخلاقه ومنظوره، وضمن ضوابطه وقيمه،

---

(١) في مقاله بعنوان: «حروب منزوعة من الأخلاق» موقع وكالة عمون الإخبارية، وقد اعتمد فيه كاتبه على مقدمة الدكتور سعيد جويلي في كتابه «المدخل لدراسة القانون الدولي الإنساني».

وبين أمم الأرض في هذا من البون الشاسع ما لا يحصيه إلا الله.

لكن تبقى الأمة المسلمة أرفع الأمم في حروبها، وأكثرها التزامًا بالنُبل وما يسمونه «أخلاق الفروسية»، وهي على كل حال ليست بأكثر الأمم ولوغًا في الدماء، كما ليست بأقلها، ففي دراسة أعدها الدكتور نفيد شيخ من جامعة لويسفيل حول أعداد القتلى في الأحداث العامة الكبرى كالحروب والحروب الأهلية والمذابح السياسية والعرقية في الفترة منذ بداية التاريخ الميلادي إلى عام ٢٠٠٨م، ونشرت تحت عنوان "عداد القتلى.. دراسة إحصائية للعنف السياسي خلال حضارات العالم" ، فقد أعطت الرقم الأكبر للمسيحيين الذين تسببوا بمقتل ١٧٧,٩٤١,٧٥٠ أي ما يعادل ٧٣,٣٠٪ من إجمالي قتلى الحضارات والديانات، بينما حل المسلمون في المرتبة السادسة، حين تسببوا بمقتل ٣١,٩٤٣,٥٠٠ أي ما يعادل ٥٢,٥٪ فقط من إجمالي قتلى الحضارات والديانات.

ويشمل هذا العدد من ضحايا المسلمين الكثير من الجرائم التي ترتكبها جماعات الإرهاب وتيارات الغلو المدانة من كافة علماء الأمة المسلمة، لخروجها عن نهج الإسلام وضوابطه في عبادة الجهاد في سبيل الله.

وكذلك سنجد على الطرف الآخر أن الكثير من الجرائم التي تمت باسم المسيحية أو اليهودية أو غيرهما، مما ينبغي أن يدان به أصحابه فحسب، من غير أن يسري الحكم على سائر أتباع الدين.

ثانيًا: محاولة لإنعاش ذاكرة المدعين على الإسلام

مما يؤسف له أن الحملة المغرضة على الإسلام واتهامه بالدموية تأتي من أولئك الذين كنا نفترض أنهم أقرب الناس مودة إلينا، وأراه أمرًا متوقعًا تقتضيه ظروف الصراع الحضاري بين الإسلام والمسيحية التي قد يرى بعض أتباعها

أن بينهم وبين المسلمين ثأرًا تاريخيًا، فقد انتزعوا منهم شعوبًا وبلدانًا كانت مهد المسيحية كمصر والشام وتركيا والعراق والحبشة، وهم يرونه اليوم مزاحمًا لهم في أوربا وغيرها بما يحققه من ارتفاع في نسبة معتنقيه في العالم، وبخاصة الغربي، فكان ولابد من تقطيع جسوره قبل تحقيقه المزيد من المكاسب، وقد وجدوا في «الإسلاموفوبيا» أقصر طريق لإقامة الجُدر بين الإسلام والباحثين عن الحقيقة، وأمكنهم ذلك بالتركيز على ما تصنعه المنظمات الإجرامية، والربط بينه وبين شريعة الجهاد القرآنية.

وفي مقابله أرى لزامًا إنعاش ذاكرة هؤلاء ببعض الأحداث من تاريخهم مع استحضار مفارقتين:

الأولى: أن مثل هذه الفظائع التي سنذكرها لا تجده ولا معشاره ولا ما يشبهه في تاريخ المسلمين.

الثانية: أن جُل ما سنذكره أو كله قد تم برضا أو طلب من الكنيسة ورجالاتها، بعكس ما ينسب إلى المسلمين، فإن علماءهم يبرأون من الكثير والكثير منه، ويرونه مخالفًا لتعاليم الإسلام.

ولسوف أعف قلمي عن ذكر المجازر التي ارتكبها بعض المتدينين بعيدًا عن تكليف الدين وأمره، ولو وقعت تحت شعار صليب معكوف، كما سأُعرِض وأتغافل - والغصة في حلقي - عن فلتات لسان الغزاة الجدد التي أفادتنا بأن ما يصنعونه في العراق والشام هو استكمال للحروب الصليبية سيئة الصيت.

لكن لما كان معظم حروب الساسة اليوم مدانة من جانب الكنائس المسيحية المختلفة، فليس من العدل في شيء تحميلهم مغبة أفعال ساسة تحركهم الدوافع الاستعمارية، لا المصالح الدينية التي قد يمتطونها لتحقيق

المزيد من المنافع الخاصة.

وفي توثيق ما نسوقه من وقائع نستند إلى كتابات مؤرخين غربيين، وبعضهم رجال دين، لنستنطقهم حول تاريخ المسيحية الذي أشرف عليه رجال الكنيسة ومؤسساتها، لنضع الطاعنين في الإسلام أمام ضمائرهم ، وهم يكيلون التهم للإسلام والمسلمين، متناسين جرائم إخوانهم التي يشيب لها الولدان، ويمكن للآخرين أن يلمزوا بها المسيحية، سواء بسواء.

ولنبدأ بالحملة الصليبية التي دعا إليها البابا أوربان الثاني في كلمته الحماسية التي ألقاها في مجمع كليرمونت في فرنسا عام ١٠٩٥م، ودعا إلى تخليص القدس وعموم الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وإرجاعها إلى السيطرة المسيحية قائلاً: «اذبحوا الكفار بلا حنو ولا رحمة، هذا هو العمل الذي يطلبه الله من أيديكم، اقتلعوا الزوانَ من جذوره، وألقوه في النار حتى يحترق»[١].

ولبَّت الحملة في العام التالي ما أمر به أوربان، يتقدمها بطرس الناسك، فأحدثت من الأهوال المفزعة ما يندى له جبين الإنسانية، وبعد سلسلة من المجازر، منها مجزرة معرة النعمان التي راح ضحيتها زهاء عشرين ألفاً من المسلمين، ووصلت الحملة إلى غايتها، ودخلت القدس، فماذا فعل جنودها الأتقياء؟

يجيبنا القس أندرو ملر: «وما كادوا يتخطون الأسوار حتى اندفعوا كالوحوش الكاسرة يذبحون المسلمين واليهود بلا تمييز وبلا رحمة ولا شفقة ، حتى امتلأت الأماكن المقدسة بالدماء»[٢].

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٢٥٧).

(٢) المصدر السابق، ص (٣٦٦).

ويصف لنا المؤرخ المصاحب للحملة القس ريموند أوف أجيل بعض ما جرى في القدس يومذاك، فيقول مزهوًا: «وشوهدت أشياء رائعة، فقد جرى قطع رؤوس أعداءَ من المسلمين .. ورمي آخرون بالنشاب، أو أرغموا على القفز من الأبراج، وجرى تعذيب آخرين لعدة أيام، ثم أحرقوا بالنيران .. وخاضت الخيول في المسجد الأقصى بالدماء حتى رُكَبها، لا بل حتى أفواهها، لقد كان حكمًا ربانيًا عادلاً ورائعًا، أن يمتلئ هذا المكان بدماء غير المؤمنين»(١)، وقد وصل عدد القتلى في القدس وفق المؤرخ وليم روبرتسون إلى سبعين ألفًا من المسلمين(٢).

وفي مجمع لاتيران المنعقد عام ١٢١٥ دعا البابا أنوسنت الثالث إلى حملة صليبية جديدة، فانطلقت الحملة الصليبية الخامسة، ووصلت إلى دمياط، وحاصرتها مدة ١٦ شهرًا، ففتكت بالألوف من أهلها بسبب ما أسماه القس أندرو ملر «الغباوة البابوية»، «فالمجاعة عملت في السكان حتى أفنت منهم العدد الكبير، واشتد السيف، وانتشرت الأوبئة حتى أنه من بين ثمانين ألفًا من السكان لم يبق إلا ثلاثة آلاف، وامتلأ الجو من رائحة الجثث، ومع ذلك لم يمتنع الصليبيون وسط هذه الأهوال من الاستمرار في قسوتهم وإكمال وحشيتهم»(٣).

ولم يسلم المسيحيون أيضًا من البابا أنوسنت الثالث، فقد أمر بإبادة الإلبينيين الذين عرفوا بلقب الكاثاريين (أي: الأطهار) لما كانوا عليه من إيمان مسيحي وزهادة ونقاء، لكن مصيرهم كان الفناء، بسبب دعوتهم الكنيسة إلى أن

(١) تاريخ الفرنجة (غزاة بيت المقدس)، ريموند اجيل، ص (٢٤٧).
(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٢٦٣).
(٣) المصدر السابق، ص (٣٧٠).

تتطهر من الفساد الذي لحقها، ورفضهم سيادة البابا أنوسنت الثالث، الذي ردَّ عليهم بتكليف الملك فيليب الثاني بشن حملة صليبية لإبادة الهراطقة الذين وصفهم البابا بأنهم «أسوأ من المسلمين».

وهكذا كان، فقد بدأت الحملة على إقليم لانغدوك الفرنسي عام ١٢٠٧، و«قتلت الحملة الصليبية الألبينية مليونًا من الناس، فهي لم تقتل الكاثاريين وحدهم فقط، بل قتلت كثيرًا من سكان فرنسا، وبعد ذلك ضمت أراضي جنوب فرنسا إلى الشمال بعدما تمت إبادة سكانها تقريبًا»(١).

وإذا بحثنا عن بعض تفاصيل هذه الجريمة المروعة فسنقف على أمور لا تكاد تصدق، فـ«في مئات القرى لم ينج فرد من القتل، ومنذ نهب روما وتخريبها على يد الوندال لم يرَ العالم الأوربي مصيبة أفظع من هذه، ولم يذرف الدموع على كارثة أهلية أوسع نطاقًا وأشد رعبًا»(٢)، و«في كاتدرائية القديس الناصري وحدها جرى قتل مائة ألف، وأعدم فولق أسقف تولوز عشرة آلاف إنسان»(٣).

وحين وصل جيش الكنيسة إلى مدينة بيزيير التي يختلط فيها الكاثوليك المؤمنون بالكاثاريين الهراطقة، وقبل أن يبدأ الجند بذبح الكاثاريين سألوا رئيس الدير النائب البابوي أرنود عموري: « كيف للجنود أن يميزوا الكاثوليك من الهراطقة؟ فقال هذا [أي أرنود]: (اذبحوهم جميعًا، يعلم الرب الذين هم له)، وعندئذ ابتدأت المذبحة، فكان السيف يحصد الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز، ونواقيس الكاتدرائية تقرع حتى انتهت المجزرة .. فأصبح سكان بيزيير جميعًا أكوامًا من الجثث الآدمية، مكدسة بعضها فوق بعض .. عدد

---

(١) الجانب المظلم في المسيحية، هيلين إليبري، ص (٨٩).
(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٣٤٣).
(٣) الجانب المظلم في المسيحية، هيلين إليبري، ص (٨٩).

الذين راحوا ضحية هذه المجزرة كان يتراوح بين العشرين والمائة ألف»(١).

ولن يستغرب القارئ التفاوت الكبير بين الرقمين اللذين يذكرهما القس مِلر، إذا اطلع على التفصيل الذي ذكرته هيلين، فالنائب البابوي هو من قدر أعداد القتلى بعشرين ألفاً، بينما المصادر الأخرى تقدره بين ستين ومائة ألف(٢).

وأما القس الدكتور جون لوريمر فيعمل على إنقاص عدد الضحايا وإعادتهم إلى الحياة من جديد؛ لتبرير الجريمة والتخفيف من وقعها، فيرى أنهم كانوا «أكثر من ٧٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال»، ومع ذلك لم تذرف دموعه عليهم، بل قال: «إنهم كهراطقة صنعوا مشكلة للبابوية، ولكن المشكلة كانت في الواقع تستحق الخطوات الصارمة التي استخدمت ضدهم»(٣).

وأما مدينة لافور، فبعد حصار طويل «سقطت المدينة في أيدي المحاصِرين، وكانت بعد ذلك مذبحة من أشد المذابح هولاً، فالرجال والنساء والأطفال كانوا يُقطَّعون إرباً، وقد أحرقت أربعمائة نفس في كومة واحدة، وكان ذلك سبب فرح عام في كل المحلة، وفي وسط هذا التهليل بكل هذه الفظائع الشيطانية وقف الأساقفة ينشدون ترتيلة: (تعال أيها الروح القدس)»(٤).

وفي عام ١٤٨٦م «صدر مرسوم أنوسنت الثامن الشهير، ليعطي سلطاناً مطلقاً لألبير دي كابيتاني رئيس شمامسة كريمونا أن ينفذ عمليات الاغتصاب

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٢٣٢).
(٢) الجانب المظلم في المسيحية، هيلين إليبري، ص (٨٩).
(٣) تاريخ الكنيسة، جون لوريمر (٤/ ٤٢).
(٤) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٣٣٧).

والقتل في الوديان الموبوءة بداء الهراطقة»[١]، ولحسن حظ أولئك المساكين فقد صمدوا في وديانهم، فلم تبلغ الحملة الصليبية مبتغاها من نسائهم ودمائهم.

وعام ١٥٢٤ قامت ثورة الفلاحين المساكين المطالبين بحقوقهم في ألمانيا، ووقف القس مارتن لوثر يطالب الأمراء والقواد باستخدام كل وسائل القمع لإنهائها: «دعوا كل من يستطيع منكم أن يقتلهم ويذبحهم ويطعنهم في السر أو في العلن».

ثم بعد مقتل مائة ألف من الفلاحين ندم لوثر واعتذر قائلاً: «أعظم السفاحين هم المبشرون، لأنهم حضوا الحكام على أن ينفذوا واجبهم بصرامة ويعاقبوا الأشرار، في الثورة أنا ذبحت الفلاحين، دمهم جميعًا على رأسي، لكني أحوِّل الأمر إلى الله ربنا الذي أمرني أن أتفوه بذلك»[٢].

وفي سنة ١٥٢٥م كانت أوربا أيضًا على موعد مع استئصال بدعة مسيحية أخرى رفضتها الكنيسة، فقد « أصبح تعميد الكبار جريمة عقوبتها الموت .. سرعان ما بدأت الكنيسة الكاثوليكية أيضًا العمل ضد منكري عماد الأطفال .. الامبرطور شارل الخامس جعل إعادة العماد ذنبًا عقوبته الإعدام في كل الامبرطورية، يقدِّر الدارسون أن نحو خمسة آلاف من منكري عماد الأطفال نُفِّذ فيهم حكم الموت ما بين سنة ١٥٢٥-١٦١٨م»[٣].

ولأن الاستهتار بالدماء كان حاضرًا في الذهنية الكنسية؛ فإنا لن نعجب طويلاً مما أصدرته الكنيسة «في ١٩ فبراير سنة ١٥٦٨م أصدر حكم من المجمع المقدس بإعدام جميع سكان الأراضي المنخفضة [هولندا] باعتبارهم هراطقة،

(١) المصدر السابق، ص (٣٨٢).
(٢) حقول الدم، كارين أرمسترنج، ص (٣٧٠)، وانظر: تاريخ الكنيسة، جون لوريمر (٤/ ١٥٣).
(٣) تاريخ الكنيسة، جون لوريمر (٤/ ١٧١).

وقد استثني من هذا الحكم العام أفراد قلائل ذُكرت أسماؤهم حصرًا، وبعد عشرة أيام صدر مرسوم من الملك بتأييد ذلك الحكم الذي أصدرته محكمة التفتيش، وقد أمر الملك بتنفيذه في الحال على الجميع ذكورًا وإناثًا؛ بغض النظر عن السن أو أي اعتبار آخر، وربما كان ذلك المرسوم أكبر مرسوم جامع وموجز صاغته القريحة البشرية، ففي ثلاثة سطور حكم على ثلاثة ملايين من البشر، رجالاً ونساء وأطفالاً أن يساقوا إلى المشنقة»[(١)].

ولن تنسى فرنسا ليلة عيد القديس بارتليمو في ٢٤ آب ١٥٧٢م، حين دُقت أجراس الكنائس لتعطي إشارة البدء لاجتثاث البروتستانت من فرنسا، فقد «جرى ذبح عشرة آلاف بروتستنتي في فرنسا، وقد كتب البابا غريغوري الثالث عشر إلى ملك فرنسا شارل التاسع يقول: نحن نبتهج معك، إنه بعون الرب قد حررتَ العالم من هؤلاء الهراطقة الأشرار»[(٢)].

وكاد لويس الرابع عشر في عام ١٧١٥ أن يكمل إبادة البروتستانت في فرنسا لولا أن عاجله الأجل، فقد دخل عليه الأب لي شيز - المسؤول عن أخذ الاعتراف الكنسي منه - وهو في سكرات الموت، فسأله لويس: «بأي الأعمال الصالحة يمكنني كملك أن أكفِّر عن خطاياي؟ فأجابه ذلك اليسوعي في الحال: بإبادة البروتستانت في فرنسا»[(٣)].

---

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٦١١).

(٢) الجانب المظلم في المسيحية، هيلين إليبري، ص (١١١)، وبعض المؤرخين يصل بأعداد القتلى إلى ستين ألفًا.

(٣) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٦٥٨).

ثالثًا : هل وقع في تاريخنا أمثال هذه الجرائم؟

ولقائل أن يسأل: ما بال الكاتب يغض الطرف عما صنعه المسلمون من مجازر!! ألم يسمع بخبر إبادة الأرمن التي نفذها الأتراك المسلمون في مطلع القرن العشرين؟!

وأقول: لم يكن في تاريخ الأمم أضوأ ولا أنبل من المسلمين الفاتحين، لكنهم بالتأكيد لم يكونوا ملائكة، فقد وقع منهم غيض يُستحى من ذكره مع فيوض غيرهم ... وقع ذلك منهم لما تنكبوا سبيل الرحمة المهداة ﷺ،فلا تكون أفعالهم حجة على الإسلام إذا كانت من محرماته.

فحين وقعت مجازر الأرمن – على فرض صحتها ودقة الأعداد المعلنة عن الضحايا ، ودون النظر إلى ما فعله الطرف الآخر قبلُ- لم يدع فاعلوها أنهم ينفذون أمر الشريعة، لا ولم يكونوا في ظلال خلافة إسلامية حاكمة بشريعة الإسلام، ولم يصحبهم في شنيع أفعالهم المدعاة شيخ ، ولم يبررها لهم عالم من علماء المسلمين، فمرتكبو تلك الجريمة – إذا ثبتت- هم العلمانيون الذين أنهوا الخلافة الإسلامية، فـ«في عام ١٩٠٩ قام حزب "تركيا الفتاة" الحداثي بخلع السلطان عبد الحميد الثاني عبر انقلاب عسكري، وكان أفراد الحزب يعتنقون الأفكار الوضعية المعادية للدين .. وفي سبيل إنشاء دولة تركية نقية قام حزب "تركيا الفتاة" بترحيل وإعادة توطين الأرمن المسيحيين من الامبرطورية؛ بذريعة أنهم متواطئون مع العدو، وقد أدى ذلك إلى أول حرب إبادة في القرن العشرين، لم تقم بدوافع التعصب الديني، وإنما بدوافع علمانية صريحة قُتل ما يزيد على مليون أرمني»[1].

وهكذا فكما أمسكت قلمي عن المجازر التي أحدثها المستعمرون

---

(١) حقول الدم، كارين أرمسترنج، ص (٤٧٧).

الأوربيون في البلاد الإسلامية، كالجزائر التي قُتل فيها ما يناهز المليون ونصف مسلم، أو ما فعله الغزاة الأسبان في الهنود الحمر بأمريكا، فقد وصل عدد ضحاياهم إلى مئات الملايين؛ فإني أمسكته أيضًا عن مجازر الأرمن، مع وجود مفارقات مهمة، فقد مات الضحايا الأرمن ببنادق من لا يلتزم بالإسلام من بيادق الفكر الغربي العلماني، بينما شاركت الكنيسة في مجازر الهنود عبر التفويض الذي منحه البابا اسكندر السادس الذي فوَّض الملك فرناندو وزوجته إيزابيلا «بشن الحرب العادلة ضد السكان المحليين الذين يقاومون المستعمرين الأوربيين»[1].

***

(١) المصدر السابق، ص (٣٥٥)، وللوقوف على بشائع ما حصل للهنود الحمر أدعو لقراءة ما كتبه المؤرخ المطران لاس كازاس في "المسيحية والسيف" فقد كان شاهد عيان على تلك المجازر.

انتشار الإسلام بالسيف

قالـوا: دخل المسلمون بقوة السيف إلى الكثير من البلاد، وفرضوا على أهلها الدخول في دينهم، وألزموهم به بقوة السيف، فهذا هو سر انتشار الإسلام السريع في العالم في القرن الهجري الأول.

الجواب:

لا ريب أن ظاهرة انتشار الإسلام السريع كان أمراً مدهشًا ومحيرًا لكل من درس هذه الظاهرة في تجلياتها القديمة والحديثة، إذ لم يشهد تاريخ البشرية مثل هذا في الأديان الأخرى التي تسللت رويدًا رويدًا إلى مجتمعاتها.

ولـن يصل هؤلاء إلى حل هذه الشفرة ما داموا يتعامون عن الأسباب الحقيقية التي دفعت الناس للهروب من أديانهم، واعتناق الإسلام، لن يصلوا، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا للإسلام بما أودعه الله فيه من مكامن القوة الذاتية التي جعلته قريبًا من القلوب والعقول، فالطاعنون في الإسلام ركنوا إلى إجابة لا أخالها تريح ضمائرهم، وهي أن الإسلام انتشر بالقوة والقهر، فدخل الناس إليه مكرهين تحت وطأة جيوش المسلمين!!.

فهل تسمح الدراسة الموضوعية بالوصول إلى هذه النتيجة؟ وهل يصلح هذا في تفسير ظاهرة انتشار الإسلام اليوم في أوربا وغيرها من بلدان العالم؟ وكيف ينسجم هذا مع بقاء معظم سكان الهند على الهندوسية وقد بقوا تحت حكم المسلمين اثني عشر قرنًا؟! ولماذا حافظ اليونانيون على المسيحية بعد ٣٨٠ عام من حكم المسلمين الأتراك؟

من جهتنا سنحاول الإجابة من خلال عدد من النقاط الرئيسة:

أولا: هل يجيز الإسلام الإكراه على الإسلام؟

يعتقد المسلمون أن دينهم هو الحق المبين، وأن ما عداه ديانات إلهية حُرفت ثم نُسخت بالإسلام، أو ضلالات وثنية وتخبطات أوجدها البشر جهلاً منهم بحقيقة الدين والمعتقد، أو بغياً وهوى، ويؤمنون أن كل ذلك محيق بأصحابه عذاب النار.

وقد أشفق المسلمون على إخوانهم في البشرية من هذا المصير المؤلم، وعملوا جهدهم على استنقاذهم منه ومن دياجير العيش في ظلال الكفر، ولم يدخروا جهداً في استمالة الأمم والشعوب التي اختلطوا بها إلى الإسلام، وذلك بما آتاهم الله من حجة ظاهرة وخلق قويم ودين ميسر تقبله الفطر، ولا تستغلق عن فهم مبادئه العقولُ.

ولم يعمد المسلمون طوال تاريخهم العظيم إلى إجبار الشعوب أو الأفراد الذين تحت ولايتهم على الإسلام، وذلك تطبيقاً لمجموعة من المبادئ الإسلامية التي رسخت فيهم هذا السلوك:

أ. حتمية الخلاف وطبيعته

إن التعدّد في المخلوقات وتنوّعها سنة الله في الكون وناموسه الثابت، فطبيعة الوجود في الكون أساسها التّنوّع والتّعدّد.

والإنسانية قد خلقها الله وفق هذه السنة الكونية، فاختلف البشر إلى أجناس مختلفة وطبائع شتى، وكلّ من تجاهل وتجاوز أو رفض هذه السُّنة الماضية لله في خلقه، فقد ناقض الفطرة وأنكر المحسوس.

واختلاف البشر في شرائعهم هو أيضاً واقع بمشيئة الله تعالى الكونية ومرتبط بحكمته، يقول الله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله**

مرجعكم جميعًا﴾ (المائدة: ٤٨)، فهذا كما يقول ابن كثير: « إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث اللّه به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد»[1].

وقال تعالى: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين ۞ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** (هود: ١١٨- ١١٩).

قال ابن حزم: «وقد نص تعالى على أن الاختلاف ليس من عنده، ومعنى ذلك أنه تعالى لم يرض به [شرعًا]، وإنما أراده تعالى إرادة كونٍ، كما أراد الكفر وسائر المعاصي»[2] ، أي إرادة كونية، إذ لا يقع شيء إلا بعلم الله وقدرته ومشيئته، فلن يُعصى اللهُ قهراً.

وقال ابن كثير في شرح قول الله: **﴿ولا يزالون مختلفين ۞ إلا من رحم ربك﴾** : «أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .. قال الحسن البصري: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف»[3].

ولما كان الاختلاف والتّعدّد آية من آيات الله، فإنّ الذي يسعى لإلغاء هذا التّعدّد كلية، فإنما يروم محالاً ، ويطلب ممتنعًا، لذا كان لابد من الاعتراف بالاختلاف، وهذا ما فعله المسلمون.

ب. مهمة المسلمين الدعوة إلى الله لا أسلمة الناس

أدرك المسلمون أن هداية الجميع من المحال، وأن أكثر الناس – كما أخبر الله تعالى – لا يؤمنون **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** (يوسف:

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٦٧).
(٢) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم (٢/ ٦٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/ ٤٦٦).

١٠٣)، وأيقنوا أن واجب الدعاة هو الدأب في دعوة الآخرين وطلب أسباب هدايتهم، فإن مهمة المسلم هي البلاغ فحسب، والله هو من يتولى حساب المعرضين في الآخرة، قال الله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**فإن تولوا فإنما عليك البلاغ**﴾ (النحل: ٨٢). وقال تعالى: ﴿**فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصيرٌ بالعباد**﴾ (آل عمران: ٢٠).

قال الإمام القرطبي: « فإن تولوا أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان؛ فإنما عليك البلاغ، أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا»[1].

وقال الشوكاني في سياق شرحه لقول الله تعالى: ﴿**فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**﴾ (الرعد: ٤٠): « أي: فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلّغته إليهم، ﴿**وعلينا الحساب**﴾ أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك»[2].

ولذلك فإن المسلم لا يشعر بحالة الصراع مع ذاك الذي تنكب الهداية وأعرض عن أسبابها، فإنما حسابه على الله في يوم القيامة ، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ (البقرة: ٢٧٢). وقال له وللأمة من بعده: ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾ (الشورى: ١٥).

ج. التكريم الإلهي للإنسان

خلق الله آدم عليه السلام، وأسجد له ملائكته ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً**﴾ (الإسراء: ٦١)، وندبه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ١٦١).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٩٠).

وذريته من بعده إلى عمارة الأرض بمنهج الله: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ (البقرة: ٣٠).

ووفق هذه الغاية كرَّم الله الجنس البشري على سائر مخلوقاته ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠)، فهذا التكريم والتفضيل عام لا يخص جنساً أو أتباع دين دون غيرهم.

وقد وهب الله الجميع العقل الذي يميزون به بين الحق والباطل ﴿**وهديناه النجدين**﴾ (البلد: ١٠) ، وبموجبه منحهم الله الإرادة الحرة لاختيار ما يشاؤون ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ (الإنسان: ٣) ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ (يونس: ٩٩).

وأكد نبينا ﷺ - وصحبه من بعده - احترام النفس الإنسانية ومراعاة كرامتها، ففي الخبر أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من الفرس. فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام. فقيل له: إنها جنازة يهودي؟! فقال: «أليست نفساً»[1].

د. لا إكراه في الدين

وبناء على ما تقدم فإن الإنسان كامل الإرادة، يختار ما يشاء من المعتقد ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾ (البقرة: ٢٥٦) ، والله يتولى في الآخرة حسابه ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها**﴾ (الكهف: ٢٩)، أي : « لا تُكرِهوا

(١) أخرجه البخاري ح (١٣١٣)، ومسلم ح (٩٦١).

أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح؛ جليٌ دلائلُه وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته؛ دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً»(١).

وإذا كانت الفائدة المرجوة من إسلام المدعو هي نجاته وهدايته ودخوله الجنة، فإن ادعاء الإسلام - إكراهاً وقهراً - لن يحقق شيئاً من مبتغانا، فهو عند الله كافر، بل هو من المنافقين ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ (النساء: ١٤٥) ، ولا قيمة في أحكام الآخرة لتظاهره بالإسلام، فخسارته للجنة والنجاة هي الخسران العظيم، لذلك يقول الله تعالى: ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني ۞ فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾ (الزمر: ١٤- ١٥)، ويقول: ﴿**وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ۞ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون**﴾ (الحج: ٦٨-٦٩)، فالإيمان - ابتداء - عمل قلبي، فليس بمؤمن من لم ينطو قلبه على الإيمان، وأما تصريحه بلسانه غيرَ ما يعتقد فإنه لا يغير في حقيقة قائله ولا في حكمه في الآخرة.

وكذلك لا قيمة للإكراه على الإسلام في أحكام الدنيا ، قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة: «وإذا أُكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم؛ لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً؛ مثل أن يثبت على الإسلام بعد زوال الإكراه عنه، وإنْ مات قبل ذلك فحكمه حكم الكفار، وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام .. ولنا أنه أُكره على ما لا يجوز إكراهه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤١٦).

عليه، فلم يثبت حكمه في حقه، كالمسلم إذا أكره على الكفر ، والدليل على تحريم الإكراه قول الله تعالى : ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ (البقرة: ٢٥٦)»[١].

وبمثله قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة: «وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم؛ لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعـًا»[٢]، ومقصود الإمامين في إجازة إكراه البعض هم المرتدون عن الإسلام ، إذ لا يحق لهم الخروج من الإسلام بحال من الأحوال، فيكرهون على الرجوع إليه، وأما غيرهم ممن يقيم بين ظهراني المسلمين فلا يجوز إجبارهم على الإسلام، ولا أثر لهذا الإكراه حتى في الأحكام الدنيوية.

وتطبيقه أن الحاكم بأمر الله الذي يصفه المؤرخ الإنجليزي آرثر تريتون بالخبل والجنون، قد كان من خبله أن أكره كثيرين من أهل الذمة على الإسلام، فلما مات غير مأسوف عليه، سمح لهم خليفته الظاهر بالعودة إلى دينهم، فارتد منهم كثير سنة ٤١٨هـ[٣].

ولما أُجبر موسى بن ميمون على التظاهر بالإسلام فرَّ إلى مصر، وعاد إلى دينه، ولم يعتبره القاضي عبد الرحمن البيساني مرتداً، بل قال: «رجل يُكرَه على الإسلام، لا يصح إسلامه شرعـًا»، وعلق عليها تريتون بقوله: «وهذه عبارة تنطوي على التسامح الجميل»[٤].

(١) السير الكبير، محمد الشيباني (١٠/ ١٠٣).
(٢) المغني (٩/ ٢٩)، وانظر كشاف القناع للبهوتي (٦/ ١٨٠).
(٣) أهل الذمة في الإسلام، د. آرثر ستانلي تريتون، ص (٢١٤).
(٤) المصدر السابق ، ص (٢١٤).

هـ. هل يقدم الإسلام لمواطنيه غير المسلمين غير تركهم على أديانهم؟

١. حرية ممارسة الشعائر

وإذا لم يجبر الإسلام من تحت ولايته على الدخول فيه؛ فإنه بذلك قد ترك للناس حرية البقاء على أديانهم[1]، وأول مقتضياته الإقرار بحق الآخرين في ممارسة عباداتهم والسماح بها، وضمان سلامة دور العبادة.

فأما حق الآخرين في ممارسة العبادة الخاصة بهم، فقد كتب خالد بن الوليد ﵁ لأهل عانات بعدم التعرض لهم في ممارسة شعائرهم وإظهارها: «ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»[2].

وطالب الفقهاء المسلمون بتأمين حقوق رعاياهم في العبادة وضمان عدم إشغالهم في أوقاتها، فقرروا أنه «يحرم إحضار يهودي في سبته، وتحريمه باق بالنسبة إليه، فيستثنى شرعًا من عمل في إجازة، لحديث النسائي والترمذي وصححه: **"وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت"**»[3].

وصونًا لاختيار غير المسلم في فعل ما هو جائز في دينه؛ فإن أمان الذمي في المجتمع المسلم يسري على كل ماله ، ولو كان محرَّمًا أو مهدر القيمة عند المسلمين وفي شريعتهم ، وفي هذا الصدد ينقل الطحاوي إجماع المسلمين على حرية أهل الذمة في أكل الخنازير والخمر وغيره مما يحل في دينهم، فيقول:

(١) وهذا خاص في الأديان التي لها أصل سماوي، أما الأديان التي تقوم على عبادة الأوثان والأشجار، فلا شبهة لها في حق، وأحكامها تختلف عن أهل الكتاب ومن في حكمهم.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج، ص (١٧٥).

(٣) غاية المنتهى وشرحه (٢/ ٦٠٤)، وقد أكد عليه عدد من الفقهاء. انظر: الإنصاف للمرداوي (٤/ ٢٤٨)، وكشاف القناع للبهوتي (٣/ ١٤٠)، والحديث أخرجه الترمذي ح (٢٧٣٣)، والنسائي ح (٤٠٧٨)، وأحمد ح (١٧٦٢٦).

«وأجمعوا على أنه ليس للإمام منع أهل الذمة من شرب الخمر وأكل لحم الخنازير واتخاذ المساكن التي صالحوا عليها، إذا كان مِصراً ليس فيه أهل إسلام»(١) أي في بلادهم التي لهم فيها الكثرة، وأما البلاد التي يغلب على سكانها أنهم مسلمون ، فالواجب على غيرهم احترام الذوق العام للأغلبية، وعدم إيذائها بالمجاهرة بما تكرهه.

وبمثله قال الإمام مالك: «إذا زنى أهل الذمة أو شربوا الخمر فلا يعرض لهم الإمام؛ إلا أن يظهروا ذلك في ديار المسلمين ويُدخلوا عليهم الضرر؛ فيمنعهم السلطان من الإضرار بالمسلمين»(٢).

وقال فقيه الأندلس أبو الوليد الباجي: «إن أهل الذمة يقرون على دينهم، ويكونون من دينهم على ما كانوا عليه، لا يمنعون من شيءٍ منه في باطن أمرهم، وإنما يمنعون من إظهاره في المحافل والأسواق»(٣).

وهذا الذي قرره الفقهاء في زمن عزِّ الدولة الإسلامية وتمكنها ؛ امتثله أمراء المسلمين وحكامهم بقدر التزامهم بتعاليم دينهم، فعاش مواطنونا ؛ غير المسلمين في كنف الدولة الإسلامية، وهم يتمتعون بحرية العبادة وإقامة شعائرهم الدينية، يقول ول ديورانت: «وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم .. وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجًا آمنين لزيارة

(١) اختلاف العلماء، الطحاوي، ص (٢٣٣).
(٢) التمهيد (١٤/ ٣٩٢)، وانظر: أحكام أهل الذمة (١/ ٣١٧)، والمحلى (٩/ ١١٨).
(٣) المنتقى شرح موطأ مالك (٢/ ١٧٨).

الأضرحة المسيحية في فلسطين .. »[١].

ويقول الدكتور فيليب حِتّى: «وقد رحب سكان البلاد الساميون في سوريا وفلسطين والحاميون في مصر بالعرب، واعتبروهم أقرب نسبًا إليهم من حكامهم الأغراب الطغاة، .. سُمح للمغلوبين على أمرهم بممارسة دينهم بحرية أوسع وطمأنينة أكبر»[٢].

٢. حق التحاكم إلى محاكمهم الدينية

ولم يتدخل المسلمون في الشؤون التفصيلية لمواطنيهم من أهل الذمة ، ولم يجبروهم على التحاكم أمام محاكم المسلمين؛ وإنْ طلبوا منهم الانصياع للأحكام العامة للشريعة المتعلقة بسلامة المجتمع وأمنه، ونقل العيني عن الزهري قوله: «مضت السنة أن يرد أهل الذمة في حقوقهم ومعاملاتهم ومواريثهم إلى أهل دينهم؛ إلا أن يأتوا راغبين في حكمنا، فنحكم بينهم بكتاب الله تعالى»[٣].

كما نقل عن ابن القاسم قوله: «إنْ تحاكمَ أهل الذمة إلى حاكم المسلمين ورضي الخصمان به جميعًا؛ فلا يحكم بينهما إلا برضا من أساقفهما، فإن كره ذلك أساقفهم فلا يحكم بينهم، وكذلك إنْ رضي الأساقفة ولم يرضَ الخصمان أو أحدهما لم يحكم بينهما»[٤].

لكن الكثيرين من أهل الذمة رغبوا في التحاكم إلى التشريع الإسلامي،

---

(١) قصة الحضارة، وليام ديورانت (١٣/ ١٣٢).

(٢) تاريخ العرب، فيليب حتى ، ص (٦٢).

(٣) عمدة القاري (١٦/ ١٦١).

(٤) المصدر السابق (١٦/ ١٦١).

ورغبوا أن تكون مواريثهم حسب ما قررته الشريعة الإسلامية(١)، لما رأوه من نقصان تشريعاتهم الدينية وعدم شموليتها لما يحتاجونه من أحكام كالميراث، وعجزها عن تحقيق المطالب الحياتية للمؤمنين بها ، وهذا ما حدا بالجاثليق تيموثاوس في حوالي سنة (٢٠٠هـ/ ٨٠٠م) إلى تأليف كتاب عن الأحكام القضائية المسيحية، وفرض على من يتحاكم إلى محاكم المسلمين طائعًا أن يتوب ويتصدق ويقوم على المسح والرماد(٢).

وقد سجل المؤرخون هذا البُعد الجميل في تسامح المسلمين، حين تركوا لمواطنيهم حق التحاكم إلى شرائعهم وبواسطة قسسهم ورجال دينهم، يقول آدم متز: «ولما كان الشرع الإسلامي خاصًا بالمسلمين، فقد خلَّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به»(٣).

ويقول أيضًا: «أما في الأندلس، فعندنا من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجؤون للقاضي إلا في مسائل القتل»(٤).

---

(١) انظر: الإسلام وأهل الذمة، الخربوطلي، ص (١١٩)، وتاريخ العرب، فيليب حتى، ص (١٠٤).

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز (١/ ٩٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٣).

(٤) المصدر السابق (١/ ٩٥).

وأما الدكتور فيليب حتّى فيقول: «وقد تمتع أهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج، وكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية إلى رؤسائهم الروحيين؛ إلا إذا كانت القضية تمس مسلماً»(١).

٣. سلامة دور العبادة

وإذا سمح الإسلام لمواطنيه غير المسلمين بالبقاء على أديانهم وإقامة شعائرها؛ فإنه ولا ريب ضمِن سلامة دور عبادتهم، ليؤدوا واجباتهم الدينية على الوجه الذي يؤمنون به، ولأجل ذلك تضمنت عهود المسلمين - التي أعطوها للأمم التي دخلت في ولايتهم أو عهدهم – سلامة دور عبادتهم ، فقد كتب النبي ﷺ لأهل نجران أماناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم، وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله، يقول ابن سعد: «وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم: أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم ورهبانهم، وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته»(٢).

ووفق هذا الهدي السمح سار الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ ، فقد ضمن الخليفة عمر بن الخطاب نحوه في العهدة العمرية التي كتبها لأهل القدس، وفيها: «بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها

---

(١) تاريخ العرب، فيليب حتى ، ص (١٠٤).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١/ ٢٦٦)، وانظر كتاب الأموال، ابن زنجويه (٢/ ٤٤٩).

ولا من حيزها ، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين»[١].

وحين فتح خالد بن الوليد دمشق كتب لأهلها : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين»[٢].

وفي عهد التابعين أكد أمراء المسلمين وفقهاؤهم على ضمان دور العبادة لمواطنيهم من غير المسلمين، فكتب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز إلى عماله: «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار»[٣].

ولقد كان التاريخ – مرة أخرى– خير شاهد على التزام المسلمين بالجملة بالمحافظة على دور عبادة أهل الكتاب المبادئ، ويمكننا الاطلاع على شهادته بتقليب بعض الصفحات التي سجلها مؤرخو الغرب والشرق عن سماحة المسلمين مع مواطنيهم، وبخاصة فيما يتعلق بسلامة دور العبادة ومن فيها.

يقول ديورانت: «لقد كان أهل الذمة: المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم»[٤].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري (٤/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان، ص (١٦٦)، وانظر كتاب الأموال، ابن زنجويه (٢/ ٤٧٣).

(٣) أخرجه أبو عبيد في الأموال، ص (١٣٨).

(٤) قصة الحضارة، وليام ديورانت (١١/ ١٣١).

وينقل تريتون وأرنولد شهادة البطريك النسطوري يشوع ياف الثالث (عيشو يابه)، سجلها في رسالته إلى سمعان مطران ريفارشير ورئيس أساقفة فارس: «وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا .. ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا، ويكرمون قسسنا وقديسي الرب، ويجودن بالفضل على الكنائس والأديار»(١).

ويتحدث السير أرنولد عن فتح مصر وما قدمه المسلمون للأقباط: «وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان، وقد تركهم عمرو أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنُّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب.. »(٢).

ثانيًا : شهادات التاريخ والمؤرخين الغربيين في مسألة انتشار الإسلام بالسيف

نستطيع القول بملء الفم: لقد امتثل سلفنا هدي الله عز وجل، فلم يلزموا أحدًا بالإسلام إكراهًا، «فلم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من خلفائه؛ أنه أجبر أحداً من أهل الذمة على الإسلام» (٣).

ومن شواهده في الصدر الأول أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٧٩)، وأهل الذمة في الإسلام، آرثر تريتون، ص (١٥٩).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٩٦).

(٣) السير الكبير، محمد بن الحسن الشيباني (١٠/ ١٠٣).

لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق. فلم تقبل العجوز نصحه، وقالت: أنا عجوز كبيرة، والموت أقرب إليّ! فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦)[١].

ومثله صنع رضي الله عنه مع مملوكه أسبق، فقد روى ابن أبي حاتم بإسناده عن أسبق قال: كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليَّ الإسلام، فآبى، فيقول: **﴿لا إكراه في الدين﴾** ويقول مستميلاً لقلبه طامعًا في إيمانه: (يا أسبق، لو أسلمتَ لاستعنّا بك على بعض أمور المسلمين)[٢].

وفي الأثرين الأخيرين المنقولين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما يدل على إحكام آية **﴿لا إكراه في الدين﴾**، ورد على من زعم أنها نزلت في وقت ضعف المسلمين[٣]، وأنها منسوخة، إذ النسخ يتضمن رفع حكم شرعي ثبت بدليل شرعي، فلا يصح هذا الرفع والنسخ إلا بدليل معتبر شرعًا، وكما يقول الشاطبي: «إن الأحكام إذا ثبتت على المكلف، فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق، لأن ثبوتها على المكلف أولاً محقق، فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق .. فلا ينبغي قبول تلك الدعوى فيه إلا مع قاطع بالنسخ، بحيث لا يمكن الجمع بين الدليلين، ولا دعوى الإحكام فيهما، وهكذا

---

(١) المحلى، ابن حزم (١١/ ١٩٦).

(٢) الطبقات الكبرى (٦/ ١٥٨)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣١٢).

(٣) وقد أشار إلى ذلك البابا بندكتوس السادس عشر في خطابه الشهير في جامعة رغنسبورغ حين قال: «ووفقاً للخبراء، فإن هذه السورة قد نزلت في مرحلة مبكرة، عندما كان محمد ما زال بلا حول ومهدداً»، وقد جهل خبراء البابا تأخر نزول سورة البقرة إلى زمن قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة، وأن سبب نزول هذه الآية هو رغبة بعض المسلمين من أهل المدينة في إجبار أبنائهم المتهودين على الدخول في الإسلام.

يقال في سائر الأحكام، مكية كانت أو مدنية»(١).

وكما يقول ابن الحصار الأنصاري: «إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت آية كذا .. ولا يعتمد في النسخ قول عوامّ المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بيّنة»(٢).

لقد فقه المسلمون مبدأ عدم الإكراه على الدين، ووعوه، فتركوا لرعاياهم من غير المسلمين حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر التعبدية، ولم يلزموا أحداً باعتناق الإسلام قسراً وكرهاً، ولن ننقل في إثبات هذا شهادات علماء المسلمين ومؤرخيهم؛ إذ لن تقنع أولئك الذين مازالوا يهرفون بما لا يعرفون، ويصرون على أن انتشار الإسلام في الأرض في غمضة من الزمان كان بسيف القوة؛ لا الحجة والبرهان، فلهؤلاء نسوق بعض أقوال المؤرخين المنصفين من غير المسلمين:

- يقول المؤرخ الإنجليزي توماس آرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام": «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من أسبانيا»(٣).

ويقول: «نستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين

---

(١) الموافقات، الشاطبي (٣/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٢/ ٦٦).

(٣) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٧٦).

يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح»[١].

- ينقل توماس أرنولد شهادة مهمة للبطريك النسطوري يشوع ياف الثالث (عيشو يابه) في رسالته إلى سمعان مطران ريفارشير ورئيس أساقفة فارس، ينوح فيها على دخول شعب خراسان في الإسلام، ويقول: «أين أبناؤك؛ أيها الأب الذي ثكل أبناءه؟ أين أهل مرو العظماء، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفًا ولا نارًا ولا تعذيبًا .. واحسرتاه على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل اسم المسيحية .. فلماذا إذًا هجر شعبُك من أهل مرو عقيدَتهم من أجل هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضًا في وقت لم يرغمهم فيه العرب!؟»[٢].

وفي مصر يتحدث السير أرنولد عن إسلام أهلها: «وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودُخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إِلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين، بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إِلى الإسلام قبل أن يتم الفتح»[٣].

وأما الكولونيل رونالد بودلي فيسجل بإعجاب هذا الحدث: «وفي أشهر معدودات من دخول المسلمين أقسم شعب عريق آخر [أي المصريون] يمين الولاء لعرب الصحراء هؤلاء، ودخل في دينهم، وقد اعتنق البابليون الإسلام أيضًا في نفس الوقت»[٤].

وينقل معرب كتاب "حضارة العرب" قول القس الاسكتلندي

(١) المصدر السابق، ص (٥٤).

(٢) المصدر السابق، ص (٧٩).

(٣) المصدر السابق، ص (٩٦).

(٤) الرسول (حياة محمد)، رونالد بودلي، ص (٤١٩).

ويليام روبرتسون سميث: «إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية»، ثم ينقل أيضـًا عن الراهب الألماني ميشون في كتابه "رحلة دينية في الشرق" (ص ٢٩) قوله: «ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»(١).

- تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام ، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها؛ سمح لهم جميعـًا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟ »(٢).

- وينقل المؤرخ الأمريكي ورئيس جمعية التاريخ العالمي كافين رايلي شهادة أوليفروس المدرسي الذي وقع أسيراً بين يدي الملك الكامل، فرأى نفحة من طيب المسلمين وإحسانهم: «من يمكن أن يشك في أنّ مثل هذا العمل الطيب والصداقة والأريحية هو من عند الله؟ إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوتهم وأخواتهم وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على أراضيهم، والذين سقناهم عرايا من بيوتهم، أعطونا من طعامهم، وأبقوا على حياتنا عندما كنا نتضور جوعـًا، وغمرونا بعطفهم حتى

---

(١) انظر حاشية الصفحة (١٢٨) من كتاب "حضارة العرب" لغوستاف لو بون.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغرد هونكة، ص (٣٦٤) .

ونحن تحت رحمتهم»، ويكمل كافين: «لا شك أن الفرنجة المسيحيين الذين حكموا القدس (١٠٩٩-١١٨٥م) أدركوا أن المسلمين أشد منهم تسامحًا بكثير» (١).

وينعي المؤرخ البريطاني دي لاسي أوليري (ت ١٩٥٧م) على المؤرخين الغربيين تردادهم لهذه الفرية، ويدحضها بأبشع الكلمات: «لقد أوضح التاريخ أن الأسطورة القائلة باجتياح المسلمين المتعصبين للعالم، وفرضهم الإسلام بقوة السيف على الأجناس المقهورة؛ هي واحدة من أكثر الخرافات الخيالية سخافة، والتي رددها المؤرخون دومًا»(٢).

بل على عكس ما يشيعه الطاعنون في الإسلام عن إجبار الناس على اعتناق الإسلام فإن المؤرخين الغربيين ينقلون باستغراب بعض الحوادث المشينة في تاريخنا عن كراهية بعض الأمراء دخول الناس في الإسلام، لكنها على كل حال تنقض ما يزعمه المفترون على الإسلام، تقول المؤرخة هونكه: «لقد عسّر المنتصرون على الشعوب المغلوبة دخول الإسلام حتى لا يقللوا من دخلهم من الضرائب التي كان يدفعها من لم يدخل في الإسلام»(٣).

ويقول ول ديورانت في سياق حديثه عن الخليفة عمر بن عبد العزيز: «وبينما كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين في بلاد الدولة على اعتناق الإسلام، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم، فإن عمر قد شجع المسيحيين، واليهود، والزرادشتيين على اعتناقه، ولما شكا إليه عماله

(١) الغرب والعالم، كافين رايلي (١/ ١٩٩).

(2) Islam at the cross roads, De Lacy O'Leary, P 8.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغرد هونكه ، ص (٣٦٥)، وانظر: تاريخ أسبانيا الإسلامية، ليفي بروفنسال (١/ ١٧٤) .

القائمون على شؤون المال من هذه السياسة التي ستفقر بيت المال أجابهم بقولهِ: (والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا، حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا)»[١].

ويبين لنا توماس أرنولد أن خراج مصر كان على عهد عثمان اثنا عشر مليون دينار، فنقص على عهد معاوية بسبب إسلام القبط حتى بلغ خمسة ملايين، ومثله كان في خراسان.

ولما لم يُسقِط بعض الأمراء الجزية عمن أسلم من أهل الذمة طمعًا في جباية أموالهم، عزل عمر بن عبد العزيز واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكتب: (إن الله بعث محمدًا هاديًا، ولم يبعثه جابيًا)[٢].

ثالثًا : لماذا انتشر الإسلام؟

حقًا كان انتشار الإسلام السريع في العالم القديم حدثًا مدويًا، تجاوز ما عرفته البشرية من زحف بطيء للأديان ، لكن لا حيرة في تفسير هذه الظاهرة عند أحرار الفكر من غير المسلمين، فلنستمع إليهم وهم يتحدثون بحقائق التاريخ عن السر في تقبل الشعوب للإسلام وإقبالها عليه.

- ونبدأ بما سطره توماس كارليل حين قال: «لقد قيل كثير في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناسُ ذلك دليلاً على كذبه؛ فذلك أشد ما أخطؤوا وجاروا، فهم يقولون: ما كان الدين لينتشر لولا السيف. ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق»[٣].

- يقول المستشرق رينهارت دوزي في كتابه "نظرات في تاريخ الإسلام":

(١) قصة الحضارة ، وليام ديورانت (١٣/ ٤٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٨٣)، والدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد، ص (٩٣).

(٣) الأبطال، توماس كارليل، ص (٨٠).

«إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة»[١].

- يقول غوستاف لو بون : «إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم .. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى»[٢].

ويقول: «وما جهله المؤرخون من حِلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم»[٣].

- يوافقه المؤرخ ديورانت فيقول: «وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديدَ معظمُ المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم .. واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وأندنوسيا إلى مراكش والأندلس، وتملَك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها»[٤].

- يضيف السير توماس أرنولد إلى التسامح سببًا آخر أخذ بنواصي الناس إلى الإسلام، وهو الإعجاب بحضارة الإسلام ومدنيته وآدابه: «وقد بلغ من تأثير

(١) الإسلام وأهل الذمة ، الخربوطلي، ص (١١١).
(٢) حضارة العرب ، غوستاف لو بون ، ص (٧٢٠).
(٣) المصدر السابق ، ص (٦٠٥).
(٤) قصة الحضارة، وليام ديورانت (١٣/ ١٣٣).

الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحي أسبانيا مبلغًا عظيمًا حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره، وفلسفته، وفنّه، الذي استولى على عقولهم، وبهر خيالهم .. أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها، باعثًا على الدخول في دينهم، هذا إلى أن الإسلام في أسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة إخوان الصفا»(١).

وممن استثارت حضارة المسلمين إعجابه القس يوحنا موسهيم، فقال: «وحق علينا أن نقول: إن العرب – ولاسيما عرب أسبانيا – هم أصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والتعليميات التي بزغت في أوربا في القرن العاشر فصاعدا»(٢).

ويحكي المؤرخ القس ريموند أوف أجيل - الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية - عن واقعة شهدها تبرز سببًا آخر من أسباب هداية الأمم إلى الإسلام، فقد تعرض الحجاج المسيحيون إلى اعتداء وحشي على يد إخوانهم المسيحيين الإغريق، فحنا عليهم المسلمون الأتراك، وأنقذوهم، وأسعفوهم، فأخذوا بقلوبهم إلى الإسلام بسيف الخلق الكريم والفعل الجميل، وتركوا للقس أجيل الحسرات والزفرات والآهات: «لقد جفوا إخوانهم في الدين؛ الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار [يقصد : المسلمين] الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا إلى صفوف الأتراك ، آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (١٢٨).

(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة ، يوحنا لورنس موسهيم، ص (٣٤٩).

سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات»(١).

- وأما القس - المتهم من الكنيسة بالهرطقة - ويليام روبرتسون سميث فيقول: «لكنا لا نعلم للإسلام مجمعًا دينيًا، ولا رسلاً وراء الجيوش، ولا رهبنة بعد الفتح، فلم يُكرَه أحد عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أُودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالأسباب»(٢).

- ويبدي الكولونيل بودلي دهشه لانتشار الإسلام المتجدد من غير أن تقوم به هيئات خاصة، ويحاول تخيل ما سيكون عليه الحال لو كان للمسلمين بعثات تبشيرية، فيقول: «فإن المسلمين لا يخرجون مجهزين لهذا الغرض بالذات، فليس هناك أوامر مقدسة في الإسلام، فالواعظ كالتاجر، ثم هناك الحلم والشفقة واحترام عادات الوطنيين والتسامح في بعض المعتقدات التي لا ضرر منها .. إن عدد معتنقي الإسلام ليزداد اليوم [النصف الثاني من القرن العشرين] بمقدار ربع مليون في كل عام، وهذا دون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام .. وإن هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان سيحدث لو أنه كان هناك إرساليات عربية عظيمة تبشر بالقرآن كالإرساليات المسيحية الأولى»(٣).

وثمة أسباب أخرى لا تتعلق بالإسلام نفسه؛ دعت الناس إلى ترك أديانهم والدخول في الإسلام، من أهمها ممارسات رجال الدين في هذه الملل، فقد رأى الناس منهم ما قوَّض تعلقهم بأديانهم، إضافة إلى ما لمسوه من قصور في شرائعهم التي عجزت عن تلبية حاجات معتنقيها الروحية، فأسلمتهم تلك

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (١٠٨).

(٢) روح الدين، عفيف طبارة، ص (٤١٢).

(٣) الرسول (حياة محمد)، رونالد بودلي، ص (٤١٣-٤١٤).

الحقائق للإسلام طوعـًا، ففي حديث السير أرنولد عن انتشار الإسلام بين المسيحيين في مصر؛ يرى أن سبب ذلك هو فساد رجال الدين، وتخليهم عن واجبهم الروحي، فيتحدث أرنولد عن تسامح صلاح الدين الأيوبي مع أهل مصر وتخفيفه للضرائب عليهم، ثم يقول: «وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان، لم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أُهمل تثقيف الناس روحيًا وخلقيًا إهمالاً تامًا، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال»[١].

لقد حاولت الكنيسة الحبشية رتق أفعالها واسترداد كبريائها وثقة أتباعها بجملة من «التدابير الصارمة التي اتخذت لصالح المسيحية، قد أخفقت في وقف النفوذ الإسلامي خلال القرن التاسع عشر، فقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت يومًا تدين بالمسيحية .. وكانت قبيلتا منساع مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر، ثم دان السواد الأعظم منهما بالإسلام في مستهل القرن العشرين .. بسبب جهل رجال الكنيسة»[٢].

ومثل هذا حصل في بلاد النوبة (السودان)، حيث «يظهر أن النوبيين قد انسابوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي بطء شديد، وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط.

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (١٠٠).
(٢) المصدر السابق، ص (١٤٣).

ولما وجد المسيحيون أن لا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم؛ وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التي تقع فيما وراء حدودهم؛ لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم ويسد رمقهم الروحي في الدين الإسلامي الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتًا طويلاً»(١).

ويضيف السير توماس أرنولد: «إن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها البقاء؛ أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهالي إلى الإسلام .. ولا شك أن كثيراً أن هؤلاء قد تحولوا - وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم - إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد»(٢).

وكذلك فإن الفيلسوف توماس كارليل لا يخجل من الجهر بالحقيقة والصدع بها، فقد قال: «لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة، فابتلعها، وحُقَّ له أن يبتلعها، لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق، فإنها حطب ميت، أكلته نار الإسلام فذهب، والنار لم تذهب»(٣).

ويضيف: «ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق؛ لأيقنا أنه كان خيرًا من تلك النصرانية التي كانت إذ ذاك في الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان، تلك

(١) المصدر السابق، ص (١٠٤).
(٢) المصدر السابق، ص (١٢٦).
(٣) الأبطال، توماس كارليل، ص (٨٣).

النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة، وتترك القلب ببطلانها قَفْرًا ميتًا»[١].

وهنا يبادرنا سؤال: من المسؤول عن هذه الحملة المنظمة الدائبة على فرية انتشار الإسلام بالسيف؟

تجيبنا المؤرخة والراهبة السابقة كارين أرمسترنج: «فمنذ الحروب الصليبية أصبح المسلمون صالحين للإبادة فقط. في منتصف القرن الثاني عشر صوَّر بطرس المبجل رئيس دير كلوني الإسلامَ على أنه دين دموي لم ينتشر إلا بالسيف ، وهو الوهم الذي ربما كان يعكس ندمًا خفيفًا على سلوك الصليبيين الوحشي خلال الحملة الصليبية الأولى»[٢].

لقد كان هذا «الوهم» من مخترعات الراهب الفرنسي بطرس "المحترم" (ت ١١٥٦م) الذي ترجم القرآن، وأطلق هذه الفرية، ليبرر لنفسه وبني قومه ما فعلوه بالحروب الصليبية التي فتكت بمدائن المسلمين، بل لقد استشعر المرارة من انتشار المسيحية بالسيف، فأراد أن يلصق بالإسلام العار الذي يئن بين جنبيه!!

رابعًا: كيف انتشرت المسيحية؟

إن ما سقناه يذب دعاوى بطرس "المحترم" عن انتشار الإسلام بالسيف والغلبة، لكنه أيضًا ينكأ جروحًا عميقة لم تغادر مخيال المسلمين وهم يقرؤون هذه الفرية أو الوهم البطرسي، الذي سرى في الأدبيات الاستشراقية، ونراه اليوم على صفحات التبشير وقنواته، ونسمعه من أفواه بعض القسس ، الذين لربما لم يطلعوا على حقائق التاريخ، فأحببت أن أنقل لهم شذرات من صفحاته

(١) المصدر السابق، ص (٨٢).
(٢) حقول الدم ، كارين أرمسترنج ، ص (٣٣٩).

الغائبة.

لقد تعرضت المسيحية في القرون الثلاث الأولى إلى اضطهاد مريع على يد الأباطرة الظلمة، ثم تغير الحال حين أصدر الامبرطور قسطنطين مرسوم ميلان (٣١٣م) للتسامح الديني، ثم أعلن تنصره فبدأت سلسلة العذابات في نشر النصرانية حين فرض قسطنطين على سكان بيت المقدس التنصر، وأمر: «كل من لم يتنصر يقتل، فتنصر من الأمم واليهود خلق كثير، وظهر دين النصرانية»[1].

ثم جاء الامبرطور شارلمان (ت ٨١٤ م) فخيَّر قبائل الألمان بين المعمودية (رمز الدخول في النصرانية) والسيف، فتعمد آلاف المقهورين خوفًا ووجلاً من الموت الزؤوم، فقد «كان الغرض الذي يعترف به شارلمان هو غرس المسيحية في أرجاء ألمانيا النائية، ولكن مما يدعو للأسف الشديد أنه استخدم لذلك وسائل عنيفة جدًا، فكان يضطر الألوف للدخول في مياه المعمودية، تخلصًا من الموت الشنيع، وكان الاصطلاح الذي يستعمله الغازي هو: السيف أو المعمودية .. وكان شعار الفرنسيين: الاهتداء أو الإعدام»[2].

لكن هل ثمة ما هو أشد من الموت؟

نعم، الاغتصاب الذي كان سلاحًا استخدمه شارلمان في الدعوة إلى المسيحية، فإنه «لم يترك واسطة ظن لزومها لامتداد الدين المسيحي [أي نشره] وتوطيده .. لكن مما يوجب الأسف أنه لم يستنكف في أن يستعمل الاغتصاب والحرب»[3].

---

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ابن البطريق (١/ ١٣٣).

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر، ص (٢٢٢).

(٣) تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة، يوحنا لورنس موسهيم، ص (٣٠٣).

وأما في النرويج فإن الملك أولاف هارالدسون (١٠١٥م) قد نشر المسيحية في جنوبها بالتقطيع والذبح، «كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريديهم، وبهذه الوسائل نشر الدين في فيجن (جنوب النرويج) بأسرها»[١]، وقد شكرت الكنيسة صنيعه، فاعترفت به قديسًا عام ١١٦٤م.

ولم يكن هذا الفعل سياسة خاصة بأولاف، بل كان مألوفًا بين ملوك عصره، وهو «اتبع الخطة التي كانت شائعة في تلك الأيام، ألا وهي إرغام الناس على اعتناق المسيحية بقوة نفوذه، وباستعمال عقوبات بدنية قاسية حتى إلى الموت»[٢].

ومن هؤلاء الملوك الذين اتبعوا تلكم الطريقة ملك بولندا بولسلاوف الأول شروبري، فإنه «حاول أن يصيرهم [البروسيين] مسيحيين بالقوة، ولكنه أخفق في مسعاه»[٣].

وإذا اتجهنا شمالاً إلى ليفونيا التي تقع اليوم في جمهوريتي أستونيا ولاتفيا فإن «إخوان السيف وغيرهم من الصليبيين الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار، ولقد فرض فرسان (Militiaechrist ordofratram) المسيحية على شعب ليفونيا فرضًا »[٤].

وفي الغرب أسس الملك إيريك الأول مملكة السويد (أسوج) بعد أن تغلب على القوط «فأمر الظافر (ملك أسوج) الملك إيريك الأمة المغلوبة أن

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٣٢).

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر ، ص (٢٣٧).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٣٧).

(٤) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٣١).

تتبع ديانته، فاتبعها كثيرون بالكره وعدم الارتضاء»[١]، وقد أنعم عليه البابا أندرياس الرابع بعد موته بلقب (قديس) تعبيراً عن الرضا والامتنان لما قام به من نشر للمسيحية بقوة السيف وقهر السلطان.

وفي الدانمارك بزغ نجم الملك فالديمار الأول، والذي «اشتهر اشتهارًا عظيمًا بالحروب الكثيرة التي أضرمها على الشعوب الوثنيين السلفونيين والونديين والفندليين وغيرهم، ولم يحارب لأجل صالح رعاياه فقط، بل لأجل امتداد المسيحية أيضًا [أي: نشرها] ... ألزم سكانها الوعريين الوحشيين اللصوص .. إلى استماع الواعظين المسيحيين واعتناق العبادة المسيحية»[٢].

وأما في أسبانيا والبرتغال فقد انتشرت المسيحية بطريقة أخجلت المؤرخ القس يوحنا موسهيم، فلم يفرح بها، بل قال: «أما هذه الزيادات في الديانة المسيحية [أي انتشارها] فلا تعتبر كثيرًا [أي: لا اعتبار لها]، بل يحتقرها الذين يعرفون أن هؤلاء الأمم أجبروا بشرائع وقصاصات بربرية وكريهة على أن يتركوا ديانة أسلافهم»[٣]، فقد وقَّع الملك فرناندو مرسوم ١٤٩٢م الذي «أعطى اليهود الخيار بين الترحيل أو التعميد. اختارت الأغلبية التعميد»[٤]، وقامت محاكم التفتيش سيئة السمعة بالمهمة، فـ«مع عام ١٤٩٢م أصبحت محاكم التفتيش في إسبانيا قاسية وخبيثة جداً، ففي اضطهادهم لليهود طلبت منهم إما التحول إلى المسيحية أو نفيهم مطرودين، وعانى المسلمون أقل قليلاً، وليس مدهشًا أن البلدان الإسلامية منحت اليهود الناجين ملاجئ آمَن مما وجدوه في

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة، يوحنا لورنس موسهيم، ص (٤٠٧).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٠٧).

(٣) المصدر السابق، ص (٥٤١).

(٤) حقول الدم، كارين ارمسترنج، ص (٣٦٢).

البلدان المسيحية»[١].

ويستدل من إحصائيات لورنتيه المأخوذة من سجلات محاكم التفتيش «أنه من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨م أعدمت هذه المحكمة وحدها ما يزيد على ثلاثمائة ألف وأربعين من النفوس، فإذا أضيف إلى هذا العدد جميع من قتلوا في سائر الممالك الأخرى التابعة لمملكة أسبانيا ، فكم يا ترى يكون العدد؟!»[٢].

ولئن خيرت محاكم التفتيش يهود أسبانيا بين التنصر والنفي، فإن الهنود الحمر لم يظفروا بفرصة النفي، فقد احتل كولمبوس بلادهم، وكان «هدفه المتعهد به هو تحويل الكفار الهنود إلى إيماننا المقدس»، ولَما لم يستجيبوا له تعرضوا للاستعباد والإبادة، ففي مكسيكو «جرى إحراق السكان المحليين الذين لم يتحولوا إلى المسيحية»، وسوغ مثلَ هذا الفعل مرسومٌ بابوي صدر عام ١٤٩٣م، وحكم القاضي إينسيسكو عام ١٥٠٩م بأن من حق الملك الاستيلاء على أموال الهنود الكفار وأرضهم، وأن يستعبدهم ويقتلهم كما فعل النبي يشوع بأهل كنعان»[٣] أي وفقاً للكتاب المقدس[٤].

و«في عام ١٥٧٠م أسست محاكم التفتيش محكمة عرفية مستقلة في بيرو، وفي مدينة مكسيكو بقصد تحرير الأرض التي أصبحت ملوثة بالهنود والهراطقة، وجرى إحراق السكان المحليين الذين لم يتحولوا إلى

(١) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي ، هيلين إيليربي، ص (١٠١).
(٢) مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر ، ص (٣٤٩).
(٣) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي ، هيلين إيليربي، ص (١٠١-١٠٣).
(٤) انظر سفر يشوع في العهد القديم.

المسيحية»[١].

وهكذا صارت قارتا أوربا وأمريكا مسيحيتين!!

وتفضيل الكنيسة للإقناع بالحرق لمن رفض الإيمان يستند إلى نصين إنجيليين: «وقد وجد بعضهم ما يبرر هذا التعصب في بعض النصوص المؤولة بصورة متحيزة بشكل خاص، كجملة من تشبيه جاء فيها قوله: «**وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي**» (لوقا ١٤/ ١٣) أو مقطع من مقاطع إنجيل يوحنا ، يرون أنه واجب التطبيق بصورة حرفية: «**إن كان أحد لا يثبت فيّ؛ يطرح خارجًا كالغصن، فيجف ويجمعونه، ويطرحونه في النار فيحترق**» (يوحنا ١٥/ ٦)، ويكشف التاريخ في هذا التعصب المسيحي عن جرائم لا حصر لها، كاضطهاد الوثنيين واليهود والهراطقة والعلماء المستقلين والفلاسفة ومحاكم التفتيش»[٢].

ولم يكن الحال في أفريقيا أفضل من أوربا، لكن التاريخ العنصري لم يحفل كثيراً بتسجيل ما جرى فيها من مخازي، فأكتفي بنقل ما سطره القس أندرو ملر عن عهد الامبرطور فلافيوس جستنيان الأول (ت ٥٦٥م)، فقد أخذ على نفسه نشر النصرانية، وأصدر قوانينه الشهيرة (مدونة جستنيان)، فاعتبرته الكنيسة الأرثوذكسية واحدًا من قديسيها .. لقب تحصل عليه من فوق جثث ملايين القتلى، إذ «يقدرون أنه في أثناء حكم جوستنيان فقدت أفريقيا خمسة ملايين من سكانها، إذ قضى على الأريوسية في تلك الأرجاء»[٣].

وليس ثمة ما يمنع أن نذكر بما صنعه الملك الحبشي جون (ت ١٨٨٠م)، فقد «أرغم ما يقارب خمسين ألفًا من المسلمين على التعميد، كما

---

(١) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي ، هيلين إيليربي، ص (١٠٣).

(٢) موجز تاريخ الأديان، فيلسيان شالي، ص (٣٥٢).

(٣) مختصر تاريخ الكنيسة، اندرو ملر ، ص (١٩٣).

أجبر عشرين ألفاً من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا»[١].

هذا بعض من شهادة التاريخ الذي لا يرحم القساة، ولسوف يخلد ذكرهم بالخزي ما بقي الليل والنهار.

وهكذا ، فإن هذا الذي زعمه بطرس ومن تابعه من انتشار الإسلام بالسيف مناقض لأصول الإيمان عند المسلمين، ومنافٍ لصريح آيات القرآن الكريم، وهو كذلك مباين لكل شواهد التاريخ التي تنقل دخول الشعوب إلى الإسلام بسبب ما وجدوه فيه من عقائد وقيم كانوا يفتقدونها في أديانهم.

ولقد صدق فينا وفي الطاعنين قول العرب: «رمتني بدائها وانسلت».

***

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (١٤٢).

شرعة الجزية في القرآن الكريم

قالـوا: شرَّع الإسلام ظلم غير المسلمين حين أمر بأخذ الجزية منهم، فقال: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ (التوبة: ٢٩) واعتبروا الجزية نوعاً من الإكراه على الإسلام، وأنها جزاء وعقوبة على الكفر، وأن فيها ظلماً لأهل الذمة، وزاد نفورهم من هذه الشرعة حين قرؤوا قوله تعالى: ﴿**وهم صاغرون**﴾ فأخطؤوا ثانية في فهمها ومعرفة مراد الله فيها.

وفي **الجواب** نقول:

أولاً. معنى الجزية في اللغة والاصطلاح

الجزية اسم قديم أطلقته الأمم على ما تدفعه الأمم المغلوبة لغالبيها من مال جزاء الخدمات المقدمة إليهم.

وقد استعمل المسلمون هذا الاسم في معاملتهم لمواطنيهم غير المسلمين، وذلك لموافقته ودلالته على المعنى المراد به في شرعة المسلمين، فالجزية في لغة العرب مشتقة من مادة (ج ز ي)، والعرب تقول: «جزى، يجزي، إذا كافأ عما أسدي إليه»، والجزية مشتق على وزن فِعلة من المجازاة، بمعنى «أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن»، وقال ابن المطرز: بل هي من الإجزاء «لأنها تجزئ عن الذمي»[(١)].

وعلى كلا المعنيين فهي ليست – كما زعم بعض الفقهاء وتلقفها المتربصون

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١١٤)، وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٥٩)، والمغرب في ترتيب المعرب (١/ ١٤٣)، وانظر مختار الصحاح (١/ ٤٤).

- عقوبة ينالها الكافر على كفره، فإن عقوبة الكفر لن تكون بضعة دنانير.

ولو كانت الجزية عقوبة على الكفر لما أسقطت عن النساء والشيوخ والأطفال لاشتراكهم في صفة الكفر، بل لو كان كذلك لزاد مقدارها على الرهبان ورجال الدين، بدلاً من أن يُعفوا منها.

قال الباجي: «الجزية تؤخذ منهم على وجه العوض، لإقامتهم في بلاد المسلمين والذبِّ عنهم والحماية لهم»(١).

وقد تبين لنا قبلُ أن الله هو يتولى حساب من كفر به في الآخرة:﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني ۞ فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾ (الزمر: ١٤-١٥).

وأما الجزية عند أهل الاصطلاح فعرفها ابن قدامة بقوله: «هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام»(٢).

ثانيـًا : شِرعة الجزية قبل الإسلام

لم يكن الإسلام بدعاً بين الأديان، كما لم يكن المسلمون كذلك بين الأمم؛ حين أخذوا الجزية من الأمم التي دخلت تحت ولايتهم، فإن أخذ الأمم الغالبة للجزية من الأمم المغلوبة أشهر من علم ، والتاريخ البشري أصدق شاهد على ذلك.

وقد نقل العهد القديم والجديد شيوع هذه الصورة ، ففي إنجيل متى أن المسيح عليه السلام قال لسمعان: «**ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أمن بنيهم أم من الأجانب؟ قال له بطرس من الأجانب. قال له يسوع: فإذاً البنون أحرار**» (متى ١٧/ ٢٤-٢٥).

(١) المنتقى شرح موطأ مالك (٢/ ١٧٥).
(٢) المغني (٩/ ٢٦٣).

ويذكر العهد القديم شِرعة الجزية في شرائع التوراة، وأن الأنبياء عليهم السلام أخذوا الجزية من الأمم المغلوبة حين غلبوا على بعض الممالك، كما صنع النبي يشوع مع الكنعانيين حين تغلب عليهم «**فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم، وكانوا عبيداً تحت الجزية**» (يشوع ١٦/ ١٠)، وقد جمع لهم بين العبودية والجزية.

وفي العهد الجديد، في إنجيل متّى أن المسيح سئل: «**أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ .. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه**» (متى ٢٢/ ١٧-٢١).

ويعتبر العهد الجديد أداء الجزية للسلاطين حقاً مشروعاً، بل ويعطيه قداسة، ويجعله أمراً دينياً، إذ يقول بولس: «**لتخضع كل نفس للسلاطين، السلاطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة ... إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذي يفعل الشر، لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً، إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، فأعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام**» (رومية ١٣/ ١-٧).

ثالثاً: شريعة الجزية في الإسلام

أ. ممن تؤخذ الجزية؟

إن أصل شِرعة الجزية في الإسلام قوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ (التوبة: ٢٩)، وأول ما نلحظه أن الآية خطاب إلى المؤمنين تأمرهم بأخذ الجزية من

المقاتلين دون غيرهم.

قال القرطبي: «قال علماؤنا: الذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من المقاتلين ... وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون، دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني»(١).

وقال مالك: «مضت السنة أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين قد بلغوا الحلم، وليس على أهل الذمة ولا على المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زروعهم ولا مواشيهم صدقة»(٢).

قال ابن حجر: «لا تؤخذ من شيخ فانٍ ولا زمِن ولا امرأة ولا مجنون ولا عاجز عن الكسب ولا أجير ولا من أصحاب الصوامع والديارات في قولٍ، والأصح عند الشافعية الوجوب على من ذكر آخراً [أي أصحاب الصوامع]»(٣).

وقد كتب عمر بذلك إلى أمراء الأجناد: «لا تضربوا الجزية على النساء والصبيان، ولا تضربوها إلا على من جرت عليه المواسي»(٤) أي ناهز الاحتلام، وهو من يقدر عادة على حمل السلاح.

والتزم بذلك أمراء الإسلام ، ومنهم عمرو بن العاص والي مصر، فقد اصطلح مع المقوقس «على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران، عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحلم

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٢).
(٢) الموطأ، كتاب الزكاة، ص (٦١٩).
(٣) فتح الباري (٦/ ٢٦٠).
(٤) أخرجه أبو عبيد في كتابه الأموال، ص (٥١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ح (١٢٥٥).

منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء»(١).

ويشهد آدم متز بالتزام المسلمين بذلك في البلاد التي تحت سلطانهم، فيقول: «فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار»(٢).

وبمثله شهد ول ديورانت: «ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص، وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير .. ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأَرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمي، والشديدو الفقر»(٣).

ب. مقدار الجزية

ومن النص السابق والشهادتين اللتين بعده يبين لنا أن المبلغ المدفوع للجزية لم يكن كبيراً يعجز عن دفعه الرجال، بل كان ميسوراً يطيقه كل أحد.

ففي زمن النبي ﷺ لم تجاوز جزية الفرد الدينار الواحد في كل سنة، فحين أرسل النبي معاذاً إلى اليمن أخذ من كل حالم منهم ديناراً، يقول معاذ: «بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعاً، أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة [هذه زكاة على المسلمين منهم]، ومن كل حالم ديناراً، أو عدله مَعافر [للجزية]»(٤). والمعافري: الثياب.

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها (٧٠)، وانظر: الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، الأنبا ايسذورس (٢/ ١٠٣).

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز (١/ ٩٦).

(٣) قصة الحضارة، وليام ديورانت (١٢/ ١٣٠-١٣١).

(٤) أخرجه الترمذي ح (٦٢٣)، وأبو داود ح (١٥٧٦)، والنسائي ح (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٥٠٩).

وعلى عهد عمر بن الخطاب ﷺ كانت الجزية على أهل الذهب: أربعة دنانير، وعلى أهل الورِق: أربعين درهمـًا؛ مع ذلك أرزاق المسلمين، وضيافة ثلاثة أيام[١].

وقد تفاوت مقدار الجزية في عصور الإسلام، وقد مر معنا أن عمرو بن العاص أوجب على أهل مصر دينارين فقط في كل سنة ، تدفع عن الرجال دون النساء والأطفال والشيوخ، فيما لم تتجاوز جزية الشخص الواحد الأربعة دنانير زمن الدولة الأموية.

والذي يظهر من هذا التفاوت أن مقدار الجزية متروك للإمام، قال ابن أبي نجيح: قلت لمجاهد: ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير، وأهل اليمن عليهم دينار؟ قال: جعل ذلك من قبل اليسار[٢].

لكنه على كل حال لن يجاوز هذه المبالغ البسيطة التي تراعي حالة الناس ويسارهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم، وهو ما نفهمه من وصية عمر للخليفة بعده بأهل الذمة، إذ يقول: «**وألا يكلفوا فوق طاقتهم**»[٣].

قال ابن حجر: «ويستفاد من هذه الزيادة أن لا يؤخذ من أهل الجزية إلا قدر ما يطيق المأخوذ منه»[٤].

وفي هذا الصدد ينقل آدم متز عن المؤرخ بنيامين قوله: «إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً»[٥].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ح (٦١٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (٣٩٧٠).

(٢) ذكره البخاري في عنوان باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب، وأخرجه أبو عبيد في الأموال ح (٥٧).

(٣) أخرجه البخاري ح (١٣٩٢).

(٤) فتح الباري (٦/ ٢٦٧).

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/ ٩٦).

ويقول وليم درابر فيير في كتابه "المنازعة بين العلم والدين": «إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئًا ضئيلاً من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية»[1].

ويقول مونتسكيو في كتابه "روح الشرائع" : «إن هذه الأتاوات المفروضة كانت سببًا لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم، فالشعوب رأت – بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الأباطرة – أن تخضع لأداء جزية خفيفة يمكن توفيتها بسهولة، وتسلمها بسهولة كذلك»[2].

وأما من عجز عن دفع هذا المبلغ الزهيد، فإن الفقهاء أسقطوها عنه، يقول ابن القيم: «تسقط الجزية بزوال الرقبة أو عجزها عن الأداء»[3].

قال القاضي أبو يعلى: «وتسقط الجزية عن الفقير وعن الشيخ وعن الزَمِن [أي صاحب العاهة]»[4].

ج. الجزية في مقابل الحماية والخدمات الحكومية

وفي مقابل هذه الدنانير المعدودات فإن المسلمين يلتزمون بالدفاع عن أهل الذمة وحمايتهم، ولو أدى ذلك إلى إزهاق أرواحهم في سبيل حماية أهل ذمتهم.

فقد ضمنه كتاب النبي ﷺ لربيعة الحضرمي، إذ يقول: «**وأن نَصْرَ آل ذي**

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة ، ص (٤٠٦).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٠٧).

(٣) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٥٠).

(٤) الأحكام السلطانية، ص (١٦٠).

مرحب على جماعة المسلمين ، وأن أرضهم بريئة من الجور»[١].

وبمثله ضمن عبادة بن الصامت للمقوقس عظيم القبط ، حين قال: «نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا ...»[٢].

وكتب خالد لأهل بعض النواحي في العراق : «فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم»[٣].

قال أبو الوليد الباجي: «وذلك أن الجزية إنما تؤخذ منهم على وجه العوض لإقامتهم في بلاد المسلمين والذب عنهم والحماية لهم»[٤].

وأكد فقهاء الإسلام على حق أهل الذمة بالحماية، واعتبروا قيام المسلمين به من الوفاء بالعهود الذي تحرسه الشريعة وتأمر به.

قال الماورديّ: «ويلتزم ـ أي الإمام ـ لهم ببذل حقَّين: أحدهما: الكفُّ عنهم. والثانِي: الحماية لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنين، وبالحماية محروسين»[٥].

وقال النوويّ: «ويلزمنا الكفُّ عنهم، وضمان ما نُتلفه عليهم، نفسًا ومالاً، ودفعُ أهلِ الحرب عنهم»[٦].

قال ابن قدامة: «الجزية تجب على أهل الذمة في كل عام، وهي بدل عن النصرة»[٧].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٦) .

(٢) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها، ص (٦٨) .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣١٩).

(٤) المنتقى شرح موطأ مالك (٢/ ١٧٥).

(٥) الأحكام السلطانية (١٤٣).

(٦) انظر: مغني المحتاج (٤/ ٢٥٣).

(٧) المغني (١٠/ ٣٦٢).

وينقل القرافي عن ابن حزم إجماعـًا للمسلمين لا تجد له نظيراً عند أمة من الأمم، فيقول: «من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونـًا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ؛ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة»، ويعلق القرافي فيقول: «فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونـًا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم»(١).

ولا يسقط واجب المسلمين بحماية أهل الذمة وهم في ديار الإسلام، بل يمتد إلى إطلاق أسراهم الذين غُلبنا عليهم، يقول ابن النجار الحنبلي: «يجب على الإمام حفظ أهل الذمة، ومنع من يؤذيهم، وفكُّ أسرهم، ودفع من قصدهم بأذى»(٢).

ومن قبله قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ): « والحكم فيما إذا ظهر أهل الحرب على ذراري أهل الذمة أو على أموالهم ؛ على نحو ما ذكرنا أيضـًا »، أي ما تقدم في ذراري المسلمين وأموالهم، وعقب عليه شارحه الفقيه السرخسي (ت ٤٩٠هـ) بقوله: «لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة فقد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا من أهل دار الإسلام .. »(٣).

ولما أغار أمير التتار قطلوشاه على دمشق في أوائل القرن الثامن الهجري، وأسر من المسلمين والذميين من النصارى واليهود عدداً، ذهب إليه الإمام ابن تيمية ومعه جمع من العلماء، وطلبوا فك الأسرى، فسمح له بالمسلمين، ولم يطلق الأسرى الذميين، فقال له شيخ الإسلام: «بل جميع من معك من اليهود

(١) الفروق، القرافي (٣/ ٢٠).
(٢) مطالب أولي النهى (٢/ ٦٠٢).
(٣) شرح السِّيَر الكبير، السرخسي (١/ ١٤٥).

والنصارى، الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفتكهم، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة»، فأطلقهم الأمير التتري جميعاً[1].

وهذه الأحكام الشرعية لا تختص بأهل الذمة، بل تسري على كل من كان ببلاد المسلمين من المعاهدين والمستأمنين، فإنهم جميعاً أهل ذمة كما سبق بيانه، يقول السرخسي: «قد بيَّنا أنّ المستأمنين فينا إذا لم يكونوا أهل منعة؛ فحالهم كحالِ أهل الذمّة في وجوب نصرتِهم على أمير المسلمين، ودفع الظلم عنهم؛ لأنّهم تحت ولايته.

ألا ترى أنّه كان يجب على الإمام والمسلمين اتّباعهم لاستنقاذهم من أيدي المشركين الذين قهروهم ما لم يدخلوا حصونَهم ومدائنهم، كما يجب عليهم ذلك إذا وقع الظهور على المسلمين، أو على أهل الذمّة؟ وكذلك لو أنّ هؤلاء المستأمنين كانوا من أهل دار الموادعة، دخلوا إلينا بتلك الموادعة»[2].

وليست الحماية السبب الوحيد الذي لأجله شرعت الجزية، بل ذكر العلماء أموراً، منها أن الجزية والصغار وسيلة ضغط محدودة تدفع الذمي إلى التفكر في الإسلام والاطلاع على محاسنه والاهتداء إليه والفوز بالجنة.

قال ابن حجر: «قال العلماء: الحكمة في وضع الجزية أن الذل الذي يلحقهم ويحملهم على الدخول في الإسلام مع ما في مخالطة المسلمين من الاطلاع على محاسن الإسلام»[3].

د. متى تسقط الجزية عن أهل الذمة؟

وحين عجز المسلمون عن حماية أهل الذمة ردوا إليهم ما أخذوه من

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧-٦١٨).

(٢) السير الكبير وشرحه (٥/ ١٨٩٢-١٨٩١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٥٩).

الجزية لفوات شرطها، وهو الحماية، فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج وغيره من أصحاب السير عن مكحول أن الأخبار تتابعت على أبي عبيدة بجموع الروم، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، «فكتب أبو عبيدة لكل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبي منهم من الجزية والخراج، كتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم ؛ إن نصرنا الله عليهم»[1].

وحين قام أهل الذمة بالمشاركة بالذود عن بلادهم أسقط عنهم المسلمون الجزية، كما صنع معاوية رضي الله عنه مع الأرمن، يقول المؤرخ الفرنسي ج لوران (ت ١٩١٩م) في كتابه "أرمينية بين بيزنطة والإسلام" : «إن الأرمن أحسنوا استقبال المسلمين ليتحرروا من ربقة بيزنطة، وتحالفوا معهم ليستعينوا بهم على مقاتلة الخزر، وترك العرب لهم أوضاعهم التي ألفوها وساروا عليها، والعهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣م، إلى القائد تيودور رختوني ولجميع أبناء جنسه ما داموا راغبين فيه، وفي جملته: (أن لا يأخذ منهم جزية ثلاث سنين، ثم يبذلون بعدها ما شاؤوا، كما عاهدوه وأوثقوه على أن يقوموا بحاجة خمسة عشر ألف مقاتل من الفرسان منهم بدلاً من الجزية، وأن لا يرسل الخليفة إلى معاقل أرمينيا أمراء ولا قادة ولا خيلاً ولا قضاة... وإذا أغار عليهم الروم أمدهم بكل ما يريدونه من نجدات. وأشهد معاويةُ الله على ذلك)»[2].

---

(١) أخرجه أبو يوسف في الخراج، ص (١٦٦) ، وانظره في: فتوح البلدان للبلاذري، ص (١٨٧).

(٢) انظر: مقال علي بن علي منصور بعنوان: "بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي"، مجلة "رسالة الإسلام"، العدد (٥٤)، وانظر: فتوح البلدان ، ص (٢١٠- ٢١١).

ولما تعهد الجراجمة (قريباً من أنطاكيا) بالقيام بالدفاع عن ثغرهم مع المسلمين، وأن يكونوا عيوناً للمسلمين وأعواناً لهم؛ أسقط عنهم أبو عبيدة رضي الله عنه الجزية، بل صالحهم على أن ينفلوا مع المسلمين إذا غنموا في حربهم إلى جانب المسلمين[(١)].

وبمثله صالح رضي الله عنه أهل السامرة فأسقط عنهم الجزية ، يقول البلاذري: «كانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم»[(٢)].

وأما أهل جرجان، فقد نقل الطبري أن سويد بن مقرن رفع الجزية عمن يقوم بحمايتها منهم، وكتب لهم بذلك كتاباً جاء فيه: «إن لكم الذمة، وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء (أي الجزية) في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (جزيته) في معونته عوضاً من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم؛ ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سل ولا غل»[(٣)].

ومثله ما كتبه عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل أذربيجان ، فقد أعطاهم «كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية، على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة، ولا زمِن ليس في يديه شيء من الدنيا، ولا متعبد متخل ليس في يديه من الدنيا شيء ... ومن حشر منهم في سنة (أي دعي للمشاركة في الدفاع) وضع عنه جزاء تلك السنة».

ثم يضيف الطبري بأن عتبة قدم بالكتاب على الخليفة عمر «وذلك أن عمر

---

(١) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان، ص (٢١٧).

(٢) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان، ص (٢١٥-٢١٦).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٨).

كـان يأخـذ عمالـه بموافـاة الموسـم في كـل سـنة، يحجـر علـيهم بـذلك الظلـم، ويحجزهم به عنه»[١].

ومثله أيضـًا كتب سراقة بـن عمـرو رضي الله عنه لأهـل أرمينيا، فقـد تضـمن عهـدهم: «أن ينفروا لكل غارة، وينفـذوا لكـل أمـر نـاب أو لـم ينـب؛ رآه الـوالي صـلاحـًا؛ على أن توضع الجزاء عمـن أجـاب إلـى ذلـك .. والحشر عـوض مـن جـزائهم، ومن استغنى عنه منهم وقعد؛ فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء .. فإن حشروا وضع ذلك عنهم»[٢].

لذا حُقَّ لآدم ميتز أن يرى الجزية أشبهت ما نسميه اليوم بالخدمة العسكرية، إذ يقول: «كانت هذه الجزية أشبه بضـريبة الـدفاع الـوطني، فكـان لا يـدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح»[٣].

ويوافقه المؤرخ السير توماس أرنولد، فيقول: «ولم يكن الغرض مـن فـرض هذه الضريبة على المسيحيين – كمـا يريـدنا بعـض البـاحثين علـى الظـن – لونـًا من ألوان العقاب لامتناعهم عـن قبـول الإسـلام، وإنمـا كـانوا يؤدونهـا مـع سـائر أهل الذمة. وهم غيـر المسـلمين مـن رعايـا الدولـة الـذين كانـت تحـول ديانتهم بيـنهم وبـين الخدمـة في الجـيش، في مقابـل الحمايـة التـي كفلتهـا لهـم سـيوف المسلمين»[٤].

ويقول ول ديورانت: «ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسـلمين القادرين على حمل السلاح .. وكان الذميون يعفـون في نظيـر هـذه الضـريبة مـن

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٤٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٤١).
(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/ ٧٤).
(٤) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٥٨).

الخدمة العسكرية .. وكان لهم على الحكومة أن تحميهم»[١].

وينقل الدكتور علي الخربوطلي عن المستشرق الهولندي فان فلوتن (ت ١٩٠٣م) قوله بأن «الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية وفي مقابل حماية المسلمين لهم»[٢].

وحين يعجز دافع الجزية عنها فإنها تسقط عنه، لا بل يدفع له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ويقوته – كما سبق بيانه – ، ويقول أبو الوليد الباجي: «إذا اجتمعت على الذمي جزية سنتين أو أكثر لم تتداخل في قول الشافعي، وتتداخل في قول أبي حنيفة، وتجب عليه جزية سنةٍ واحدةٍ، والظاهر من مذهب مالكٍ أنه إن كان فر منها أخذ منه للسنين الماضية، وإن كان ذلك لعجزٍ لم تتداخل، ولم يبق في ذمته ما يعجز عنه من السنين .. وهذا القول مبني على أن الفقير لا جزية عليه ولا تبقى في ذمته»[٣].

قال القرطبي: «أما عقوبتهم إذا امتنعوا عن أدائها مع التمكين فجائز، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء»[٤].

هـ. كيفية أخذ الجزية

ولمز الطاعنون في القرآن ما جاء في آية الجزية من حث على أخذها من

---

(١) قصة الحضارة (١٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) الإسلام وأهل الذمة، ص (١٠٧).

(٣) المنتقى شرح موطأ مالك (٢/ ١٧٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٣-٧٤).

أهلها ﴿**عن يد وهم صاغرون**﴾، واستشنعوا بعض صور أدائها التي نص عليها الفقهاء في كتبهم.

ولتبيان الحق وكشف الباطل نقرأ ما نقله المفسرون في شرح هذه الآية، بعد أن نذكِّر القارئ الكريم بضرورة الاطلاع على أول الآية، حيث جاء فيها ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ (التوبة: ٢٩)، فالجزية تؤخذ من المقاتلين ومن في حكمهم - كما تقدم -، عن قهر لهم وغلبة للمسلمين عليهم، إذ ليس من شأن المقاتل أن يدفع جزية عن عزة وغلبة.

وقد فسر بعض العلماء قوله: ﴿**عن يدٍ**﴾ «أي عن طيب نفس، وكل من أطاع لقاهرٍ وأعطاه عن طيب نفس من يد فقد أعطاه عن يد. وقيل معنى قوله: ﴿**عن يد**﴾ أي نعمة منكم عليهم، وقيل: يعطيها من يده ولا يبعث بها»[1].

وأما الأمر بالصغار الوارد في قوله: ﴿**وهم صاغرون**﴾، فهو معنى واضح في سياقه الذي ذكرنا، فالمقاتل لن يدفع الجزية في حال العز والغلبة.

ولا يمكن أن يتنافى معنى الآية مع ما رأيناه في أقوال النبي ﷺ من وجوب البر والعدل، وحرمة الظلم والعنت، وهو ما فهمه علماء الإسلام، ففسر الشافعي الصغار بأن تجري عليهم أحكام الإسلام، أي العامة منها، فالجزية علامة على خضوع الأمة المغلوبة للخصائص العامة للأمة الغالبة.

وفسره التابعي عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه بصورة دفع الجزية للمسلمين، فقال: «أن يكونوا قياماً، والآخذ لها جلوساً»؛ إذ لما كانت اليد المعطية على العادة هي العالية، طلب منهم أن يشعروا العاطي للجزية بتفضلهم عليه، لا

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٥٩).

بفضله عليهم، يقول القرطبي في تفسيره: «فجعل يد المعطي في الصدقة عليا، وجعل يد المعطي في الجزية سفلى، ويد الآخذ عليا»(١).

وقال ابن القيم: «لما كانت يد المعطي العليا، ويد الآخذ السفلة؛ احترز الأئمة أن يكون الأمر كذلك في الجزية، وأخذوها على وجه تكون يد المعطي السفلى، ويد الآخذ العليا»(٢).

وأما ما نقل عن بعض الفقهاء من صور مستقبحة في معنى الصغار فهي مما استقبحه العلماء وأنكروه، ومنه ما نقله تقي الدين الحصني الشافعي عن بعضهم بقولهم: «وتؤخذ على وجه الصغار والإهانة؛ بأن يكون الذمي قائماً، والمسلم جالساً، ويأمره أن يخرج يده من جيبه، ويحني ظهره، ويطأطئ رأسه، ويصب ما معه في كفة الميزان، ويأخذ المستوفي بلحيته، ويضرب في لهزمته، وفي مجمع اللحم بين الماضغ والأذن».

وتعقبها النووي بقوله: «هذه الهيئة باطلة، ولا نعلم لها أصلاً معتمداً، وإنما ذكرها بعضهم .. فالصواب الجزم ببطلانها، وردها على من اخترعها، ولم ينقل أنه عليه الصلاة والسلام ولا أحد من الخلفاء الراشدين فعل شيئاً منها»(٣).

ولما نقل ابن القيم صوراً شبيهة ذكرها الفقهاء عقّب بقوله: «وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم وإعطاء الجزية، فإن التزام ذلك هو الصغار»(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١١٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٥١-٣٥٢).
(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢١).
(٣) كفاية الأخيار (١/ ٦٦٩).
(٤) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢٠-١٢١).

ونقل النووي عن جمهور العلماء قولهم: «تؤخذ برفق كأخذ الديون»[1].

***

(١) كفاية الأخيار (١/ ٦٦٩).

الرق والاسترقاق في القرآن الكريم

قالوا: شرَّع القرآن الرق واستعباد البشر للبشر، وأجاز هذه الشرعة رغم ما يكتنفها من ظلم للإنسان وامتهان له وحجر على حريته.

وفي **الجواب** نؤكد أن الرق قديم في المجتمعات الإنسانية، وتقره جميع الشرائع السابقة على الإسلام، ففي أسفار العهد القديم والجديد - التي يؤمن بقدسيتها اليهود والنصارى - أوامر صريحة تبيح الاسترقاق وتأمر به، ومن ذلك ما جاء في سفر اللاويين: «**وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماء، وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون، ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكًا لكم، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدونهم إلى الدهر**» (اللاويين ٢٥/ ٤٤-٤٦).

وكان الأب الشهير توما الأكويني يعتبر الرق حالة فطرية تتعلق بالخطيئة الأصلية للأبوين آدم وحواء، خلق الله لها العبيد الأقل ذكاءً من غيرهم من الأحرار.

واشتركت الكنيسة في امتلاك العبيد، ويكفي لاطلاع القارئ على واقع هذه المسألة أن نذكر له رقمًا ذكره ول ديورانت عن أعداد العبيد الذين يملكهم الكهنة «في سان كلود في جبال جورا اثنا عشر ألفًا من الرقيق»[1]، وأيضًا: «وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض؛ وكان ألكوين في تور سيدًا لعشرين ألفًا من أرِقاء الأرض»[2].

(١) قصة الحضارة، وليام ديورانت (١١/ ٣٦).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ٤٢٨).

ويحكي الكتاب المقدس بلا أدنى مواربة عن ممارسة الأنبياء للاسترقاق، فنبي الله سليمان كان له «**سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري**» (الملوك (١) ١١/ ٣).

يقول قاموس الكتاب المقدس عن الرق: «لم تشذ عنها أمة من أمم التاريخ القديم .. أما المسيحية فلم تشأ أن تحدث انقلابًا في الأوضاع .. فقبلت ما كان سائدًا عندئذ من امتلاك العبيد»[١].

وطوال تاريخ الإنسانية - وحتى منتصف القرن الميلادي العشرين - امتلأ العالم بالعبيد، الذين كانوا يستعبدون لأتفه الأسباب، كالعجز عن سداد دين أو خسارة مال في قمار.

وفي بعض المجتمعات كان عدد العبيد أكثر من عدد الأحرار، ففي حين كان عدد سكان أثينا ٢٠ ألفًا من الأحرار؛ فإنه كان فيها ٤٠٠ ألف رقيق، وحين قررت بريطانيا في العصر الحديث إلغاء الرق عام ١٨٢٣م تم تحرير ما يربو على ٨٠٠ ألف من رقيقها[٢]، ولعل القارئ يكتفي بهاتين الصورتين ليدرك حجم الاسترقاق في التاريخ الإنساني قبل الإسلام وبعده.

إن الحديث عن الرقيق يذكر العالم دائمًا بواقع مرير مليء بالاضطهاد والظلم، لكن الإسلام غير مسؤول عن هذا الواقع، لأنه بريء منه، فلم يقتل المسلمون العبيد في حلبات المصارعة الرومانية حتى يتسلى السادة بموتهم بين أنياب الوحوش، ولا منعوهم من دخول كنائس السادة البيض، فحال العبيد عند المسلمين كما سنرى تفصيله يختلف عن الواقع الإنساني القائم قبل وبعد الإسلام.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ، ص (٥٩٢).

(٢) أسرى الحرب في التاريخ ، عبد الكريم فرحان، ص (٤١).

ونسوق قبل هذا التفصيل شهادة عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لو بـون (ت١٩٣١م): «إن الـذي أراه صادقـًا هـو أن الـرق عنـد العـرب [أي المسـلمين] خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوربـا، وأنهم يكونون جزءاً من الأسرة»[1].

ونثني بشهادة المستشرقة الألمانية زيغـرد هونكـه (ت ١٩٩٩م) إذ تقـول: «إن العبودية في المشرق العربي قبل الإسلام لا تمُتُّ بصلة للرق الـذي ألِفنـاه في الصين أو لدى الرومان، حيث كان الرِّق استعبادًا واستغلالًا ظالمـًا واستبدادًا، لقد كان الرق لدى العرب أقرب إلى تبادل المصلحة بين الطرفين لإعالة المُعْدَم وتحمـل المسؤولية تجاه الآخرين»[2]، فهيهـات بيـن مـن يعتـبر العبـد جـزءاً مـن الأسرة وبين من يستمتع برؤيته بين أنياب الأسود.

إن الباحث في نصوص القـرآن والسنة لـن يجد فيهمـا نصـًا واحداً يحث علـى الاسـترقاق أو يـأمر بـه، بـل علـى العكـس مـن ذلـك جـاءت آيـات كثيـرة في القرآن الكريم تأمر وتحث على إعتاق الرقـاب، وتجعلـه مـن فاضـل العبـادات، وتقرنـه بالإيمـان بـالله وصـالح الأعمـال ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وكـذلك قولـه تعـالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (النساء: ٣٦)، وقولـه: ﴿ فَلَا

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لو بون ، ص (٢٨٩).

(٢) الله ليس كذلك، زيغرد هونكه، ص (٣٨).

اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد: ١١-١٣).

ومن رحمة الإسلام بالعبيد وحرصه على فكاكهم أن القرآن جعل عتاق الرقيق مصرفاً من مصارف الزكاة المفروضة على المسلمين ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٦٠)، فقوله: ﴿**وَفِي الرِّقَابِ**﴾ أي في إعتاقهم.

كما حث النبي ﷺ على العتاق حين جعله سبباً في فكاك المعتِق من النار: «**من أعتق رقبة؛ أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار؛ حتى فرجه بفرجه**»(١).

ولحرص الإسلام على تجفيف منابع الرق جعل فكاك الرقاب وسيلة في التطهير والتكفير عن خطايا معينة، كقتل الخطأ ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ** ﴾ (النساء: ٩٢)، والحنث في اليمين ﴿ **لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ﴾ (المائدة: ٨٩)، وظهار الزوجة ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (المجادلة: ٣).

والإسلام حين أبقى على الرق، فإنه جفف ينابيعه بمنع وسائل الاسترقاق المتعددة، وقصرها على وسيلة واحدة ، وهي الأسر في الحرب، واعتبر ما سواها من الظلم المتوعد عليه بخصومة النبي ﷺ يوم القيامة القائل: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمتُه يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم**

(١) أخرجه مسلم ح (١٥٠٩).

غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه ولم يوفه أجره »[١].

ومسألة جواز الاسترقاق بالحرب ليست أمرًا لازمًا بالضرورة؛ إذ لم يأمر بها القرآن الكريم ولا الرسول ﷺ، لكنها حالة أذن الإسلام فيها للإمام أن يسترق أو يعفو أو يأخذ الفداء، وهذا الخيار يتيح للإمام المسلم أن يواجه معاملة الأمم الأخرى لأسرى المسلمين بمثله، فالأمم التي تسترق المسلمين في حروبها يسترق المسلمون أسراها.

لكن النبي ﷺ كان أحرص الناس على فكاك أسرى المشركين وعدم استرقاقهم، وشواهد ذلك في سيرته ﷺ كثيرة، منها قول ابن عباس ﵁: «**أعتق رسول الله ﷺ يوم الطائف من خرج من رقيق المشركين**»[٢].

لقد أبقى الإسلام على الرق؛ لأن إلغاءه المفاجئ إضرار بالسادة والعبيد على السواء، فأما العبيد فسيخسرون موارد رزقهم وكفالة مواليهم لهم، وهذا يذكرنا بما آل إليه شأن العبيد حين أصدر الرئيس الأمريكي إبراهام لنكون أمره بتحرير العبيد، ففقدوا الرعاية والغذاء والسكن، ولم يكن المجتمع مؤهلاً لمثل هذا التغير الاجتماعي الكبير.

وقد تحدث جيم داونز في كتابه «Sick from Freedom» الذي أصدره عام ٢٠١٢م في ذكرى مرور ١٥٠ سنة على تحرير لنكون للعبيد في أمريكا عام ١٨٦١م عن موت مئات الألوف من العبيد المحررين في السنة الأولى للعتاق أو الإطلاق، لكونهم لم يكونوا مؤهلين لتحصيل قوتهم وتأمين علاجهم والاعتماد على أنفسهم، فماتوا بسبب الجوع والبرد والجدري والأمراض

---

(١) أخرجه البخاري ح (٢٢٢٧).

(٢) أخرجه أحمد ح (٣٤٠٥).

الأخرى، فكان إطلاقهم زلزالاً اجتماعيًا كارثيًا دفعوا فيه أغلى الأثمان[١].

وكذلك فإن إطلاق العبيد من غير تهيئة ظروفه يضر بالسادة أيضًا، إذ يفقدهم ثروتهم وأموالهم، إذ العبيد – في المجتمعات القديمة- مال قد لا يملك السيد غيره، كما في حديث عمران بن حصين عن الرجل الذي (أعتق ستة أعبد عند موته؛ ولم يكن له مال غيرهم)؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فلام فعله[٢]؛ لما فيه من إضرار بورثته.

وقد تنبأ الإسلام بنهاية الرق حين جعل لعتق الرقيق بديلاً في العقوبات التي شرع فيها العتاق، كما في قوله: ﴿ **فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ (النساء: ٩٢)، ومثله في قوله: ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ** ﴾ (**المائدة: ٨٩**)، فقد تنبأ القرآن بنهاية الاسترقاق والرقيق بفضل شرائعه التي لا نجد لها مثيلاً عند الأمم الأخرى.

ومن هذه الشرائع أن الأمَة إذا ولدت لسيدها عتقت بعده، وأن أولادها منه أحرار كأبيهم، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الأمَة يعتقها

---

(١) يجدر بالذكر أن لينكون حرر العبيد لاعتبارات سياسية بحتة، فقد قال في واحدة من خطبه: «هدفي في هذا النضال ليس إنقاذ العبودية أو تدميرها، إذا كان بإمكاني إنقاذ الاتحاد بدون تحرير أي عبد فسأفعل» ، وأضاف: «لم أكن يومـًا ما مؤيداً للمساواة الاجتماعية والسياسية بين السود والبيض بأي شكل .. بل أعتقد أن هناك اختلافـًا جسديـًا بين العرقين يمنع المساواة للأبد» إبراهيم لينكون، بول م إنجل، ص (٢٠٨، ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٦٦٨).

ولدها؛ وإن كان سقْطًا»[١]، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن خلفاء بني العباس كانوا جميعـًا من أبناء الإماء إلا أبا العباس السفاح والمهدي والأمين[٢].

يقول غوستاف لو بون: «لا يكاد المسلمون ينظرون إلى الرق بعين الاحتقار، فأمهات سلاطين آل عثمان -وهم زعماء الإسلام المحترمون- من الإماء، ولا يرون في ذلك ما يحط من قدرهم»[٣].

وحين أبقى الإسلام الرق فإنه ضمن للرقيق ما لا تجده في حضارة أخرى أو دين آخر، ومن ذلك أن أمر السيد بمساواة رقيقه بنفسه في مطعمه ومشربه، وأن يؤمن له حاجاته الضرورية، فامتلاكه للرقيق مسؤولية وغُرم قبل أن يكون غُنمـًا، وإذا شئنا أن نـدلل على هـذه المسألة فلنقف على بعض مظاهر هـذه المأثرة الحضارية الفريدة عند المسلمين.

رأى المعرور بن سويد أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حُلة، وعلى غلامه حُلة، فسأله عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي ﷺ: «**أعيرته بأمه .. إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم**»[٤]، وفي حديث آخر قال ﷺ: «**للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق**»[٥].

إن عظمة النبي ﷺ في معاملة رقيقه زيد بن حارثة جعلت زيداً يختار البقاء

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ح (١٣٢٤٣)، والسقْط هو الجنين الذي يسقط من بطن أمه قبل ولادته.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص (٢٤).

(٣) حضارة العرب، غوستاف لو بون، ص (٣٧٦).

(٤) أخرجه البخاري ح (٢٥٤٥)، ومسلم ح (١٦٦١).

(٥) أخرجه مسلم ح (١٦٦٢).

على العبودية عند النبي ﷺ على المضي حراً مع والديه؛ فكافأه النبي ﷺ بتبنيه، فكان يسمى زيد بن محمد إلى أن ألغى القرآن الكريم التبني، فصار ينسب لأبيه حارثة(١).

ونعود للقول: إن الإسلام صان الرقيق عن كثير مما يتلبس الرق - عند الأمم الأخرى- من الظلم والمهانة، فالعبد إنسان له من الحقوق على سيده ما يسأل عنه الله يوم القيامة.

فالعبد لا يجوز قتله ولا تعذيبه «**من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه، ومن أخصاه أخصيناه**»(٢)، كما لا يجوز اتهامه والطعن في حقوقه الذاتية كسائر الأحرار «**من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جُلد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال**»(٣).

وضربُ الرقيق - ولو لطمة واحدة - كاف لضمان عتاقه من سيده عند من يخاف الله ويرجو ثوابه، فقد أعتق ابن عمر مملوكاً له، ثم أخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال: ما فيه [أي إعتاقي للعبد] من الأجر ما يسوى هذا [أي العود] إلا أني سمعت رسول الله ﷺ: «**يقول من لطم مملوكه أو ضربه؛ فكفارته أن يعتقه**»(٤).

وهذا المعنى النبيل أكده النبي ﷺ في قصة أبي مسعود البدري حين طلع عليه رسول الله ، وهو يضرب غلامه بالسوط فقال: «**اعلم أبا مسعود، للهُ أقدر عليك منك عليه**» فقال أبو مسعود: يا رسول الله، هو حر لوجه الله. فقال ﷺ:

---

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ١٧).
(٢) أخرجه النسائي ح (٤٧٣٦)، والترمذي ح (١٤١٤).
(٣) أخرجه البخاري ح (٦٨٥٨)، ومسلم ح (١٦٦٠).
(٤) أخرجه مسلم ح (١٦٥٧).

«أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار»(١).

ويحكي مثل هذا سويد بن مقرن المزني: (**لقد رأيتنا سبعة إخوة؛ ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أحدنا، فأمرنا النبي ﷺ أن نعتقها**)(٢).

ونهى ﷺ عن تعذيب العبيد وتكليفهم ما لا يطيقونه: «**من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون، واكسوه مما تلبسون، ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله**»(٣).

وأوصى النبي ﷺ بحسن معاملة الرقيق حتى حال إساءتهم، فقد قعد بين يديه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يَكذبونَني ويخونونَني ويعصونَني؛ وأشتمُهم وأضربُهم، فكيف أنا منهم؟ فقال ﷺ: «**يحسب ما خانوك وعصوك وكَذّبوك، وعقابُك إياهم، فإن كان عقابُك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل**».

فتنحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف لما يعلم من حاله مع مملوكيه، فقال رسول الله ﷺ : «**أما تقرأ كتاب الله: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧)** ».

فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيراً من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهُم(٤).

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٦٥٩).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٦٥٨).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٥١٦١)، وأحمد ح (٢٠٩٧٢).

(٤) أخرجه أحمد ح (٢٥٨٦٥)، والترمذي ح (٣١٦٥).

كما حذر النبي ﷺ وتوعد الذين يسيئون معاملة الرقيق بالحرمان من الجنة، وهي أغلى مطلوب ومرغوب، فقال: «**لا يدخل الجنة بخيل ولا خِب ولا خائن ولا سيئ الملكة، وأول من يقرع باب الجنة المملوكون إذا أحسنوا فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين مواليهم**»(١).

ولإنسانية الرقيق وحرصاً على مشاعرهم تهدد ﷺ من يفرق شمل الأسرة المملوكة بقوله: «**من فرق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**»(٢).

وما زال النبي ﷺ يوصي بالعبيد لضعفهم، ولم ينس الوصاة بهم حتى وهو على فراش الموت، في اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ، يقول أنس بن مالك: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «**الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه(٣).

ولئن كانت الأديان الأخرى تغلظ للعبد في عقوبته على الذنب ما لا تغلظه على السيد ؛ فإن الإسلام يخفف عقوبة العبد ويجعلها دون عقوبة الحر ؛ مراعاة لحاله وضعفه الذي قد يوقعه بالمعصية، ومن ذلك تخفيف عقوبة الزنا إلى النصف من عقوبة الحر ﴿ **فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ** ﴾ (النساء: ٢٥).

وفي حديث ابن عباس أن عبداً من رقيق الخمس سرق من الخمس، فرفع

(١) أخرجه أحمد ح (١٤)، ونحوه عند الترمذي ح (١٩٤٦)، وابن ماجه ح (٣٦٩١).
(٢) أخرجه أحمد ح (٢٢٩٨٨) والترمذي ح (١٥٦٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه ح (٢٦٩٧)، وأحمد ح (١١٧٥٩)، واللفظ له.

ذلك إلى النبي ﷺ فلم يقطعه، وقال: «**مال الله عز وجل سرق بعضه بعضًا**»(١).

وحين أساء حاطب بن أبي بلتعة إلى رقيقه، وقصر في إطعامهم؛ سرقوا ناقة رجل من مزينة، فرفع الأمر إلى عمر، فعفا عنهم، وقال لحاطب: (أراك تجيعهم، والله لأغرمنّك غُرمًا يشق عليك)، فأمره أن يدفع للمزني ضعف ثمن الناقة التي سرقها رقيقه، وعفا عنهم، ولم يطبق عليهم حد السرقة(٢).

وأخيراً فإن الحضارة الإسلامية قدمت نموذجًا فريداً في معاملة العبيد، فكان منهم العلماء، كسالم رضي الله عنه مولى أبي حذيفة، والأمراء كسلمان الفارسي أمير المدائن، وزيد بن حارثة قائد جيش المسلمين في مؤتة، وبلال خازن بيت المال الذي يقول عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أبو بكر سيدُنا، وأعتق سيدَنا)(٣) أي بلالاً.

ولعل القارئ يأذن لي في خاتمة هذا الفصل باستطراد طريف يحكي منزلة العبيد وعطاءهم الحضاري الكبير في أمة الإسلام، فقد دخل الزُّهري على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة.

قال: فمن خلفت بها يسود أهلها؟ فقلت: عطاء بن أبي رباح. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس. قلت: نعم.

قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاووس بن كيسان. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي قال: فبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ح (١٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣٧٥٤).

قال: من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس.

قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. فقال كما قال في الأولين معه.

قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول الدمشقي. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. فقال كما قال.

ثم قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي فقال: كما قال.

ثم قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي فقال: كما قال.

ثم قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي.

قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي. قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من العرب.

قال: ويلك يا زهري فرجت عني، فوالله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر، وإن العرب تحتها.

قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، فمن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط(١).

وهكذا يتبين لكل باحث عن الحق تميز الإسلام وسموه في التعامل مع الرقيق وحرصه على تجفيف منابعه، وتبين براءة الإسلام والقرآن مما تعهده الأمم من ظلم وطغيان وإضرار بحقوق العبيد.

---

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر (٤٠/ ٣٤٩).

***

خاتمة

وهكذا وبعد هذه الجولة يتبين للقارئ المنصف جملة أمور:

* أن القرآن كلام الله تعالى المحفوظ بحفظ الله والمنقول إلينا بتواتر الحفاظ جيلاً بعد جيل.
* أن الهجوم على القرآن يهدف إلى تشكيك المسلم بقرآنه وإبعاده عن هديه وتأثيره الذي جعل من المسلم مشعل هداية ونبراس حق ودليل إيمان وقوة لا تقهر.
* أن الأباطيل المثارة عن القرآن تشهد -بضعفها - لهذا القرآن أنه كتاب الله الذي أعجز الطاعنين مع حرصهم على الكيد وتصيد النقائص فيه.
* أن هذه الأباطيل تكشف عن جهل فاضح لقائليها بلغة العرب ومعاني النصوص القرآنية، ولعلها تكشف أيضاً عن تدليس وتلبيس ومجانبة للموضوعية العلمية.
* أن الطاعنين في القرآن لو أنصفوا لعلموا براءة القرآن من أباطيلهم ، ولو أعادوا النظر في كتبهم لوجدوها تطفح برزايا ثابتة واضحة من جنس ما ادعوه زوراً على القرآن الكريم، وكان الأولى بهم أن يعتذروا للقرآن بما اعتذروا فيه لكتبهم .
* أن الأباطيل المطعون بها عن القرآن قديمة ما فتئ المستشرقون يرددونها بجهل أو خبث، وأن الهجمة الجديدة ما هي إلا صدى لهذه الهجمة الاستشراقية.
* أن جهل المسلمين بلغة العرب اليوم ، وجهلهم بعلوم القرآن وتفسيره سبب رئيس لتحول هذه الأباطيل إلى شبهات تشتبه على عوام المسلمين، فالواجب على المسلم أن يتحصن من هذه الشبهات بمعرفة دينه والإلمام

بعلومه إذا لم يقدر على التمكن منها.

* أن قوة الإيمان سبب في دفع الشبهة ، وأن مرض القلب وضعف الإيمان سبب في استحكامها، وقد قال ابن القيم: "القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته، وبالجملة فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف؛ ما لم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه"(١).

* أن الواجب على المسلم إذا لم ينل من العلم ما يحصنه من الشبهات أن يفارق مجالسها، وأن لا يصغي إلى قائليها، فالاستماع إليهم مع قلة البضاعة وضعف اليقين سبب في استحكام الشبهة واضطراب الجنان لها، والوقوع في براثن الشيطان وموارد الهلاك.

* وأختم بنصيحة غالية يسديها توماس كارليل لأولئك الذين يصرون عبثًا على مواجهة القرآن والإسلام من خلال التشكيك والكذب والافتراء، إذ يقول: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر؛ أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا .. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُلهٌ أو مجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة! كان الأَولى ألا تُخلق، ما أسوأ مثل هذا الزعم! وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ١٨).

والمرحمة! ... ولعل العالم لم ير قط رأيًا أكفر من هذا ولا ألأم»(١).

وأما الشباب المسلم الذي يمتطي الآخرون جهلَه، فيغرقونه في سيل من الشبهات التي لم يستعد لها بطول قراءة وحسن تبصر وتعقل، فأقول له:

لا يفزعنك قعاقع وفراقع   وجعاجع عريت عن البرهان
كم ذي الجعاجع ليس شيء تحتها   إلا الصدى كالبوم في الخربان

وأحسن منه قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢).

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

***

---

(١) الأبطال، توماس كارليل، ص (٥٤-٥٥).

أهم المصادر والمراجع

أولاً : الكتب

- الأبطـال، تومـاس كارليـل (ت ١٨٨١م)، تعريـب: محمـد السـباعي، ط٢، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣٠م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي(ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠٨هـ.
- الإقنـاع في القـراءات السـبع، أبـو جعفـر أحمـد ابـن البـاذش الأنصـاري (ت ٥٤٠هـ)، تحقيـق: عبـد المجيـد قطـامش، ط١ ، مطـابع جامعـة أم القـرى، ١٤٠٣هـ.
- الإسلام وحقوق المرأة، مجموعة بـاحثين، بإشـراف د. جعفـر عبـد السـلام، ط١، رابطة الجامعات الإسلامية، ١٤٢٥هـ.
- أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشـرين والملحـدين ، محمـد شـوقي عبـد الرحمن العامري الجزيري ، ط١ ، دار الإرشاد ، ١٤٠٦ هـ .
- تاريخ الأمم والملوك ، ابن جرير الطبري (ت ٣١١هـ) ، تحقيق : محمـد أبـو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر .
- تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة ، يوحنا لـورنس موسـهيم، أشـرف على تعريبه وتنقيحه : هنري هرس جسب، لبنان، ١٨٧٥م.
- تاريخ المدينة المنورة، عمر بن شبه النميـري (ت٢٦٢هــ)، تحقيـق: فهـيم محمد شلتوت، [بدون معلومات نشر].
- تأويـل مشـكل القـرآن، محمـد بـن عبـد الله ابـن قتيبـة (ت ،٢٧٠هــ) تحقيـق: السيد صقر، ط٢، دار التراث ، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، ابن جرير الطبري (ت ٣١١هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر، ط١ ، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة.
- جمع القرآن، في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث، محمد شرعي أبو زيد، كتاب إلكتروني.
- حضارة العرب، غوستاف لو بون، تعريب: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- حقائق حول القرآن في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق ، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- حقول الدم، كارين ارمسترونغ، ترجمة: أسامة غاوجي، ط١، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٦م.
- دائرة المعارف الكتابية، صموئيل حبيب وآخرون، ط٣، دار الثقافة، ٢٠٠٥م.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.

- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧م.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ.
- رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق : أحمد القاضي، ط٢، دار ابن الجوزي، ١٤٢٧هـ.
- الرسول (حياة محمد) رونالد فيكتور بودلي (ت ١٩٧٠م)، ترجمة: محمد محمد فرج ، عبدالحميد جودة السحار، دار الكتاب العربي، مصر .
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
- شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، ط١، عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٤هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- شمس العرب تسطع على الغرب، ريغريد هونكه ، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط١٠، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩)،ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ.

- قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، طبع الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤١٢هـ.
- قاموس الكتاب المقدس ، نخبة من الأساتذة ومن اللاهوتيين . هيئة التحرير : بطرس عبد الملك ، جون ألكساندر طمسن ، إبراهيم مطر . دار الثقافة .
- القرآن الكريم في مواقع الإنترنت العربية دراسة تحليلية نقدية، عبد الرحيم الشريف (رسالة دكتوراه)، كتاب إلكتروني.
- القرآن الكريم والكتاب المقدس ، أيهما كلمة الله ؟أحمد ديدات.
- القرآن والمبشرون ، محمد عزت دروزة ، ط٣ ، المكتب الإسلامي ، بيروت، ١٣٩٩هـ .
- قصة الحضارة، ويليام ديورانت ، ترجمة: زكي نجيب محمُود، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- لسان العرب ، ابن منظور (ت ٧١١هـ) ، ط١ ، دار صادر ، بيروت.
- لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد .
- لماذا أسلم صديقي ، إبراهيم خليل أحمد ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة .
- مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ملر (ت ١٨٨٣م)، ط٤، مكتبة الإخوة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد محمد أبو شهبة، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.
- المصاحف، أبو بكر بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محب الدين عبد السبحان واعظ، ط٢، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ.

- المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع: علي بن نايف الشحود، كتاب الكتروني يجمع ردود المسلمين على الشبهات المنشورة على شبكة الإنترنت.
- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت.
- النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نكت الانتصار لنقل القرآن ، أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣)، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.

ثانياً : المواقع الإلكترونية

- شبكة ابن مريم الإسلامية (www.ebnmaryam.com).
- شبكة الحقيقة الإسلامية (www.trutheye.com).

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع الصفحة

مقدمة ....
منهج المبطلين في إثارة الأباطيل عن القرآن ....
القرآن كتاب الله المحفوظ ....
الجمع الكتابي للقرآن الكريم ....
جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر ....
هل نقل شيء من القرآن بطريق الآحاد؟..
الجمع العثماني للقرآن الكريم..
شهادة المخطوطات بموثوقية النص القرآني ....
أولا: المخطوطات القرآنية ....
ثانيا :المخطوطات التوراتية والإنجيلية ....
هل القرآن الكريم من إنشاء محمد ﷺ؟ ....
أولاً: دلالة آيات العتاب ....
ثانيـاً: أحداث تشهد بوحي القرآن..
ثالثـاً: الكتاب المعجز ....
رابعـاً: الإخبار بالغيوب..
خامسـاً : هل في القرآن ما يدل على أنه من كلام النبي ﷺ؟..............
المصادر المزعومة للقرآن الكريم ....
أمية النبي ﷺ..
أولاً : هل القرآن منقول من الكتاب المقدس؟ ....
أ. حقائق الإيمان بين القرآن والكتاب المقدس ....

ب. قصص الأنبياء والأمم السابقة بين القرآن والكتاب المقدس ....

ج. الأحكام التشريعية بين القرآن والكتاب المقدس ....

ثانياً : هل تعلم النبي ﷺ القرآن من بَحيرا؟ ....

ثالثاً : هل القرآن منحول من شعر امرئ القيس؟...........................

رابعاً : هل القرآن منحول من شعر أمية ابن أبي الصلت؟...........

الناسخ والمنسوخ في القرآن ....

هل تغير النص القرآني في عصر الصحابة الكرام أو بعدهم؟.......

أولاً: اختلاف مصاحف الصحابة ....

ثانيـاً: اختلاف الصدر الأول في قراءة بعض آيات القرآن الكريم.............

ثالثـاً: هل أسقط ابن مسعود رضي الله عنه المعوذتين من مصحفه؟.................

رابعـاً: هل أسقط ابن مسعود رضي الله عنه الفاتحة من مصحفه؟.......................

خامسـاً : هل خطأ ابن عباس كتبة المصاحف في كتابة بعض كلماته؟.........

سادسـاً: هل أخطأ نساخ القرآن في كتابة بعض كلماته؟ ....

سابعـاً : هل في القرآن زيادة أو سقط أو جمل لم تكتمل؟...................

ثامنـاً : هل غيَّر الحجاج النص القرآني في إحدى عشرة كلمة من كلماته؟

الأباطيل المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله ....

أولاً : نسبة صفات النقص إلى الله تعالى ....

ثانيــاً : هل يضل الله عباده؟ ....

ثالثــاً : هل يأمر الله بالفحشاء؟ ....

رابعــاً : هل يتحسر الله ؟..

خامسـاً : هل الكبر صفة محمودة؟ ....

سادساً : هل الله لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها؟ ....
سابعاً : هل شك القرآن في عدد قوم يونس عليه السلام؟ ....
الأباطيل المتعلقة بما في القرآن عن أنبياء الله تعالى ....
أولاً : هل وقع آدم في الشرك؟ ....
ثانياً: هل شك إبراهيم عليه السلام؟ ....
ثالثاً: هل شك يونس عليه السلام في قدرة الله؟......................
رابعاً: همُّ يوسف عليه السلام ....
الأباطيل المتعلقة بشخص النبي ﷺ ....
أولاً : قصة الغرانيق ....
ثانياً : سحر النبي ﷺ ....
ثالثاً : هل النبي ﷺ مصاب بالصرع؟ ....
القرآن والمسيحية ....
أولاً: القرآن وألوهية المسيح ....
ثانياً: هل امتدح القرآن النصارى؟ ....
ثالثاً: من أتباع المسيح؟ ....
رابعاً: سؤال أهل الكتاب ....
خامساً: التوثيق المزعوم لكتب أهل الكتاب في القرآن ....
سادساً: هل الذكر المحفوظ هو كتب أهل الكتاب؟ ....
سابعاً : هل نسب القرآن إلى المسيح صفة الخالقية؟ ....
الأخطاء المزعومة في القرآن الكريم............ ....
أولاً : العين الحمئة ....
ثانياً : مريم أخت هارون ....

ثالثـاً : هل القلوب في الصدور؟ ....

رابعـاً : النجوم التي ترجم الشياطين ....

خامسـاً : هل القرآن يشجع على فعل المعاصي؟....................................

سادسـاً : الجنة والخمر ....

سابعـاً : هل أخطأ القرآن في ذكر السامري في عهد موسى؟.........

ثامنـاً : هل أخطأ القرآن بذكر هامان المصري؟..................................

تاسعـاً : هل يؤمن اليهود برسالة المسيح عليه السلام؟................

عاشراً : أين هم اليوم يأجوج ومأجوج؟ ....

الأخطاء اللغوية المزعومة في القرآن الكريم.....................................

أولاً : الأخطاء النحوية المزعومة في القرآن ....

ثانيـاً : الأخطاء البيانية المزعومة ....

التناقضات المزعومة في القرآن الكريم ....

سوء الفهم لبعض آيات القرآن الكريم وألفاظه..........

المرأة في القرآن ....

أولاً: القوامة وظلم الزوجة.......................................

ثانيـاً: الأمر بضرب الزوجة ....

ثالثـاً: تعدد الزوجات ....

رابعـاً: حقوق المرأة والميراث ....

خامسـاً: شهادة المرأة ....

سادسـاً: طلاق المرأة ....

الجهاد في الإسلام ....

الإرهاب باسم الدين..

انتشار الإسلام بالسيف ....
شرعة الجزية في القرآن الكريم ....
الرق والاسترقاق في القرآن ....
خاتمة ....
المصادر والمراجع ....

صدر للمؤلف:

- هل العهد القديم كلمة الله؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل العهد الجديد كلمة الله؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- الله جل جلاله، واحد أم ثلاثة؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل افتدانا المسيح على الصليب؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- تعرّف على الإسلام (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- التكفير وضوابطه
- الحوار مع أتباع الأديان (مشروعيته وآدابه)
- دلائل النبوة
- التعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم
- تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين (بالعربية والفرنسية)
- الدين المعاملة (صفحات من هدي الأسوة الحسنة ﷺ)
- لهذا أسلموا
- الدعوة والدعاة (رؤية معاصرة)
- سلسلة كتيبات بعنوان: (مناظرة مع قسيس)
- سلسلة: حوار مع صديقي جرجس (٣ أجزاء)